سلسلة دراسات أفريقية 4

نشأة التيار الأفريقاني

الجذور الكاريبية والأميركية والأفريقية في القرن التاسع عشر



أورينو دالارا

ترجمة هيثم اللمع

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

نشأة التيار الأفريقاني

نشأة التيار الأفريقاني

الجذور الكاريبية، والامريكية والإفريقية في القرن التاسع عشر

أورينو دا لارا

الـدار الجماهيـرية
للنشر والتوزيع والإعلان

الطبعة الأولى: أي النار 1431 ميلادية (2001)

كمية الطبع: 3000 نسخة

رقم الإيداع الدولي: ردمك 3 - 0111 - 0 - 9959 - ISBN

رقم إيداع السلسلة: ردمك 2 - 0103 - 0 ISBN 99590

رقم الإيداع المحلي: 4934 /2000

- الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحّد للكتاب

- دار الكتب الوطنية - بنغازي - ليبيا - هاتف 9090509 - 9096379 - 9097074

بريد مصوّر - 9097073 - بريد الكتروني mah - Lib - Libya @ hat mail. com

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: هاتف: 614658 - 051 - 606086 - 021

ص. ب. 17459 - بريد مصور 619410 - 0651

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

لنستمع إلى البحر
موجة بعد موجة
ينشد التاريخ...
لنستمع إلى البحر
يا نساء رحلة الزنج ورجالها
لنستمع إلى البحر
وأغنية المنسيين...
...يكفي أن نرهف السمع
للطرف الثاني من الضفّة...

أ.دا لارا

(قصائد المقاومة)

إشعار

كان هذا الكتاب في أولى صوره محاضرات ألقيتُها في جامعة ياونده (الكاميرون) سنة 1978، في إطار حلقة ماسترز (الدراسات الإفريقية-الأمريكية) حول الجذور الكاريبية والأمريكية للأفريقانية. بعد عشرين سنة، مع نهاية القرن، عدتُ إلى نصوصي لأؤلّف منها كتاباً أهديه إلى ابني زانغوموسي وإلى كلّ أصدقائي في الكاميرون.

اضطُررتُ إلى مغادرة الكاميرون على عجلة، بسبب مشاكل إدارية. فسافرتُ مع زوجتي وابني -خمسة عشر يوماً- من دون أيّ تفسير، ومن دون أن أُعلِم أصدقائي الكاميرونيين، الدكتور إيكولو بوجه خاص، وهو طبيب نسائي، ومارسيان تووا، أستاذ الفلسفة، وزميلي في الجامعة الذي يعرف «بليدن» حقّ المعرفة. حملتُ معي ذكرى هذا *المبومبوك* العتيق وضيافته الكريمة، إذ كان يدعوني إلى منزله لينقل إليّ معلوماته شفوياً. لِمَ اختارني أنا، المؤرّخ الغوادلوب، بدلاً من أولاده المئة والخمسين؟ وحدها كنداك تستطيع أن تخبركم... لكنّها ستفضّل الصمت.

وأنا أكتب هذه السطور، أجد نفسي أستعيد طفولتي التي أمضيتها في الغوادلوب، والمتأثّرة في عمقها بكلام صديقي القديم هنري جان-لوي باجيو، مؤلّف *التوراة الإفريقية*، ومدافع شديد الحماس للأفريقانية في السنوات 1926-1931. ولا شكّ في أنّني لاشعورياً أردتُ أن أستظلّ به خلال عرضي، أوّلاً لطلاّبي، ثمّ لقرّاء الألفية الثالثة، لتاريخ هذه الحركة

الأفريقانية ودراستها عند ولادتها، في القرن التاسع عشر.

إنّ الاحتفال بالذكرى المئوية للأفريقانية (1900-2000) يجب ألاّ ينفصل عن تاريخ هذه الحركة. تاريخ يجب فهمه في تعقيده وفي كلّ أبعاده الاقتصادية والسياسية[1]. هذا التاريخ، يتعيّن الآن بحثه والتعمّق فيه، وذلك بجمعنا حول «البحر المحيط» كلّ الذين كان لهم دور مهمّ في الماضي: سود الكاريبي، والولايات المتّحدة، وهايتي، والإفريقيين، والكوبيين *المعتوقين*، والبرازيليين. باختصار، كلّ الذين قاوموا تجارة العبيد، ونظام الرق، والاستعمار، وحتّى طبول *التكيف* أو التمثّل ومزاميرهما.

(1) راجع حول هذا الموضوع كتاب أورونو د. لارا، «من النسيان إلى التاريخ. مدى الكاريبي وهويته»، منشورات ميزونّوف إي لا روز، باريس، 1998.

توطئة وتتابع

المتخصّصون في تاريخ جزر الكاريبي لا يجهلون الصعاب التي تعترض أبحاثهم: المحفوظات، والوثائق، والمفاهيم، والمشاكل، والنهج والمنشورات. خلال أربعين سنة من البحث، غالباً ما سنحت لي الفرصة لملاحظة بعض الامتدادات التي يصل إليها مدى الجزر الكاريبية. وبالتالي لأكشف دروباً تنطلق من الكاريبي إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتّحدة، كندا)، وتشعّبات نحو أمريكا الجنوبية (البرازيل، البيرو، الأرجنتين)، ونحو أوروبا والمحيط الهادئ، وخطوطاً بحرية إضافية نحو إفريقيا.

الكاريبي، والبرازيل، والولايات المتّحدة، وإفريقيا تقيم منذ خمسة قرون علاقات متواصلة تتأثّر في عمقها بالتاريخ. ومنذ أن كنتُ طالباً أدرس التاريخ، أُخذتُ بشخصية المناضلين السود أمثال ماركوس غارفي، أو جورج بادمور، أو و.إ.ب. دوبوا. وكتاب جورج بادمور، *الأفريقانية أم الشيوعية* (1956) ـ ننصح بقراءته بالإنكليزية لأنّ ترجمته الفرنسية ضعيفة[1] ـ شكّل بالنسبة إلى الكثيرين منّا مرجعاً في موضوع الأفريقانية. كذلك اكتشفتُ وجود الغوياني توماس غريفيث، «راس ماكونن» ونظرته إلى «داخل» الأفريقانية[2]. غريفيث ومواطنوه الغويانيون بيتر ميليار، ورنيه ماران، وفيليكس إيبويه، وإيلين جادفار وجورج فورغ كانوا لي دليلاً على

(1) منشورات الحضور الإفريقي، باريس، 1960.

(2) راس ماكونن، «الأفريقانية من الداخل»، منشورات جامعة أوكسفورد، لندن، 1973.

طرقات فتحها ـ بالنسبة إلي ـ الغوادلوبون جان-لوي باجيو، وجوزيف فيتاليان وجول ألكاندر. فقررتُ عندئذٍ أن أضع المعالم على بعض الطرق التي ترقى إلى أصول «الأفريقانية»، أن أكتشف اللحظة التي تشكّل فيها المفهوم الأفريقاني وأن أحيط بالمساهمين في هذا الإنجاز. بعدما درستُ ماركوس غارفي، المقيّد بنتاجات المؤرّخين الأنغلوساكسونية[1]، كرّستُ هذا الكتاب لأزيل الضباب عن بدايات الحركة الأفريقانية.

وليس في نيّتي أن أشعّب أبحاثي لتطال تعرّجات تاريخ معقّد، في الولايات المتّحدة أو في إفريقيا، ولا أطمح إلى تحليل تطوّر جمعية *الاستيطان الأمريكية*، أو التعمّق في أعمال الأنثروبولوجيا الطبيعية التي خدمت التمييز العنصري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هناك متخصّصون آخرون تناولوا هذه المواضيع وهذه الفترات، ويمكن للقارئ المهتم أن يعود إلى دراساتهم[2]. من جهتي فضّلتُ أن أركّز على خطّ إضافي نضطرّ إلى سلوكه للوصول إلى حركة الأفريقانية الكبيرة التي تجتاز القرن العشرين. الأفريقانية ما قبل غارفي كانت موجودة، وهي التي ستشكّل موضوع هذا الكتاب.

السياق الأفريقاني -المصطلح ظهر في الكاريبي عند نهاية القرن التاسع عشر- لم يضم، على ما كان يُعتقد، سوى المجموعات الثلاث: جزر الكاريبي، والولايات المتّحدة وإفريقيا. غير أنّي رأيتُ من الضروري أن أضيف البرازيل بعد أبحاث في المصادر. فهناك دراسة تُظهر أهمّية هذا البلد الفعلية، في ملفّ كلّ من يعرفه يطرح مشكلة التفسير وسلسلة من المسائل وثيقة الصلة بالموضوع. أوائل رسل الأفريقانية البرازيليين تخبّطوا

(1) أورونو د. لارا، «جزر الكاريبي في طور البناء: المدى، الاستعمار، المقاومة»، مجلّدان، منشورات مركز الأبحاث الكاريبية-الأمريكية، سيركام، 1992، المجلّد الثاني، فصل «مدى ماركوس غارفي»، ص.ص. 656-707 وأيضاً «ماركوس غارفي»، سيركام، 1996.

(2) انظر ثبت المراجع.

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في إطار تاريخي وعر ومعقّد وفي بيئة اعتقالية. سود المستعمرات أو المولودون في إفريقيا، المتحرّرون من العبودية، عانوا من النتائج المجرّدة من الإنسانية لتجارة العبيد ونظام الرق، وطلب اليد العاملة الآتية من جزر الكاريبي الإنكليزية (ترينيداد، ديميرارا) وتوسّع الاستعمار الأوروبي في إفريقيا. فكيف نميّز في هذه الظروف ووسط كلّ هؤلاء السود والإفريقيين المعتوقين، البرازيليين الذين أعيد تصديرهم بالقوّة إلى إفريقيا، وأولئك الذين أتيحَتْ لهم حرّية العودة إلى قراهم وأولئك الذين أنزلتهم السفن الإنكليزية في البرازيل أو على السواحل الإفريقية؟

كما تُطرح أسئلة أخرى: ماذا حلّ بأولئك الزنوج المحرّرين الذين استقرّوا في سيراليون، إو في ليبيريا، أو في خليج البينان أو حتّى في أنغولا والموزمبيق؟ كيف يعيشون؟ ماذا يفعلون؟ ماهي نشاطاتهم ومساهماتهم في إفريقيا الأم في تطوّرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي؟

عودة البرازيليين إلى إفريقيا، كما الـ «باك تو آفريكا» لدى سود الكاريبي والولايات المتّحدة، تدفعنا إلى تحليل كلّ أبعاد الأفريقانية ـ النسخة الأولى ـ عند ظهورها على الساحة الدولية.

هناك تتابع بعدّة أصوات ينتظم في هذا التاريخ للقرن التاسع عشر. فلنبدأ بتحديد المسألة ومكوّناتها.

الفصل الأوّل

عرض الموضوع

«حيثما وُجدَتْ الحديقة
في رياح تواريخنا
ننطلق بحثاً عنها
رأينا الكثير من النيازك
كشهب محترقة تقع من السماء
وصرخنا للخلاص تعال
هوسانا،
هلليلويا!
لكن كلّ احلامنا
كانت تهبط عمودياً
مثل نجوم تهوي.
طائرات ورقية كثيران هائجة
صنعناها في تانٍّ
تهبط سريعاً إلى الأرض
عند هبوب رياح مفاجئة (...)»

ولفريد كارتي، «شموس وظلال»، 1978.

لطالما ساد الاعتقاد بأنّ الحركة الأفريقانية كانت صادرة عن عدّة

محاولات فردية لامعة مبعثرة هنا وهناك في العالم الاستعماري عند منعطفَيْ القرنين التاسع عشر والعشرين. لكن أربعة عقود من الأبحاث جعلتني أدرك مدى تعقيد التاريخ. باستعادتي ملفّ الأفريقانية لأحيط بجذوره إحاطة أفضل، فهمتُ أنّه يبرز في عقب إلغاء تجارة العبيد، على هامش نظام الاسترقاق.

تحدّدت الفكرة الأفريقانية في الكاريبي وفي أمريكا الشمالية (الولايات المتّحدة وكندا) في نهاية القرن التاسع عشر، بعد مواجهات طويلة عنيفة أحياناً بين السلطات والملاّكين المستعبِدين من جهة والسود الأحرار والسود المستعبَدين من جهة أخرى. عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، سعى مزارعو الجزر الكاريبية والولايات المتّحدة إلى التخلّص من الزنوج الأحرار الذين كانوا يشكّلون برأيهم خطراً داهماً. وكان الإنكليز أوّل من وجد الحل. مجموعة «كلافام» التي تتضمّن عتقيين مشهورين مثل وليام ويلبرفورس، وجيمس ستيفنسون، وغرانفيل شارب، كلّفت هنري سميثمان سنة 1787 بتنظيم عملية الإبعاد إلى سيراليون لأربعمئة أسود حرّ «معوز» جُمعوا في لندن. بعدهم، سهّلت شركة *سيراليون كومباني* نقل ألف ومئة «أسود أمين» ـ من الذين خدموا في الجيش الإنكليزي خلال حرب استقلال الولايات المتّحدة ـ ممّن استقرّوا في كندا (نوفا سكوتيا)، وسود جامايكا الذين سُجنوا خلال حرب العبيد الهاربين الثانية سنة 1796. هؤلاء السود الأحرار من الكاريبي والولايات المتّحدة اصطدموا في إفريقيا بالهيمنة المميَّزة عنصرياً من قِبل سلطات الشركة. فتمرّدوا سنة 1800، لثقل حجم الضرائب المفروضة عليهم. غير أنّهم هم الذين أداروا انطلاقاً من سنة 1840، *الفوراه باي كوليدج* التي تأسّست سنة 1827.

البحرية البريطانية اعتمدت مستعمرة سيراليون قاعدة لها بعد إصدار قانون 25/ 3/ 1807 في إنكلترة الذي يمنع تجارة العبيد. وقامت البحرية الإنكليزية بعمليات تفتيش في السفن التي تمارس التجارة غير المشروعة. من سنة 1819 إلى 1828، أمسكت الطرّادات الإنكليزية 13281 أسيراً

وأنزلتهم في فريتاون، ونحو 50000 بين 1828 و1878. وأُنشئت قرى بأسماء مستوحاة من ذكريات تاريخية: هاستنغز، كانت، ولنغتون، واترلو، ويلبرفورس، باتورست، غلوستر، يورك. وانطلاقاً من سنة 1808، احتضنت سيراليون، وكانت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني حتّى استقلالها سنة 1961، صنفين من السكّان: السود مواليد المستعمرات الأوروبية الذين كانوا يُسمّون «الأفارقة المحرّرين» أو «المصادَرين»، والأفارقة الأصليين المنتمين إلى الأمّتين مينده وتيمنه.

في الولايات المتّحدة، بين المزارعين الرقيين المعادين لوجود السود الأحرار، ترك توماس جفرسون أفكاراً دوّنها في كتاب بعنوان «ملاحظات في فرجينيا»، نُشر في باريس سنة 1785، وفي لندن سنة 1787، وفي فيلادلفيا سنة 1788. هو أيضاً كان يودّ التخلّص من السود الأحرار، ولكن كيف؟ عدّة خطط وُضعت في الولايات المتّحدة من قِبل جيمس ماديسون، وفرناندو فيرفاكس، وسانت جورج تاكر، وجون باريش وجيمس مونرو، حاكم ولاية فرجينيا. كان هناك مشاريع استيطان، وتهجير إجباري، ونفي هدفها إبعاد السود الأحرار إمّا بإرسالهم إلى مناطق بعيدة في الولايات المتّحدة، في الشرق أو الجنوب، أو بنقلهم إلى جزر الكاريبي أو إفريقيا. بعد حرب 1812 ـ 1814، وُضعت خطّة إبعاد إلى إفريقيا وأدّت إلى إنشاء جمعية *الاستيطان* الأمريكية سنة 1816. من 1817 إلى 1890، أُرسل آلاف السود الأحرار من أمريكا الشمالية وجزر الكاريبي (البربادوس خصوصاً) إلى ليبيريا، بواسطة شركة الاستيطان هذه.

النقاش في شأن وسائل التخلّص من السود الأحرار في عصر نظام الاسترقاق لم ينفصل عن مشكلة إعتاق العبيد بمجملهم. وبعد إبطالات 1833، 1848، 1863 ـ 1865، اتّخذ هذا النقاش منحى جديداً. لم يعد المطلوب وضع خطط تتعلّق بمجموعة حرّة من السكّان السود، إنّما طرح السؤال الأساسي حول التعايش «العرقي» بين السود والبيض في الولايات المتّحدة، أو في البرازيل، أو في الكاريبي (كوبا، جمهورية الدومينيكان، بورتو ريكو...). إنّ اندماج السود المعتوقين كان يفترض حلّ مشكلة السلطة

السياسية في كلّ مكان. هؤلاء «المواطنون الجدد» كانوا يطالِبون بحقوق سياسية ومدنية. وقد حاولت عدّة مشاريع تصوّر وسائل أكثر تطوّراً لإبعادهم، أو للقضاء عليهم، ولنزع فتيل القنبلة الاجتماعية التي كانت تمثّلها المجموعة السوداء بالنسبة إلى البيض الحريصين على الهيمنة السياسية والتجانس «العرقي».

في القرن التاسع عشر برزت عنصرية توصف «بالعلمية» قامت على كتابات داروين وبعض منظّري الأنثروبولوجيا الطبيعية. كان هناك علماء طبيعيات، وأطبّاء، وجرّاحون أسّسوا، خصوصاً في فرنسا، لفكر عنصري يروّج لتفوّق «العرق الأبيض». عند نهاية القرن التاسع عشر، نحو 1900، من بين شخصيات الكاريبي التي شاركت في ولادة الأفريقانية، تميّز أربعة رجال. وهم يختلفون بوضوح عن بقية المفكّرين في جيلهم: إدوارد ويلموت بليدن، وأنتينور فيرمان، وهنري سيلفستر ليامس، وبينيتو سيلفان.

قيل عن بليدن إنّه مؤسّس «باك تو آفريكا» ـ حركة عزيزة على غارفي ـ أو «الزنوجة» «الوطنية السوداء». أسفاره ووجوده في إفريقيا، ومنشوراته العديدة، ومحاضراته ساهمت في إعطائه صورة الشخصية المثقّفة، اللامعة، الذكية. فهو كاتب أسود، وأستاذ، ودبلوماسي، فرض وجوده وتأثيره، في مونروفيا كما في واشنطن، أو لندن، أو باريس. ومع تحليل أدقّ للمصادر، لرسائله بشكل خاص، نكتشف أنّه إنسان أكثر تركيباً، ممتلئاً بالتناقضات. في حميمية مراسلته، يظهر كشخص أكثر تنوّعاً، مسيحي، ولكن منجذب جدّاً إلى الإسلام؛ بارع في التغنّي بإفريقيا مهد الإنسانية ولكن أكثر تحفّظاً تجاه «المواليد الأصليين» وحاقد تقريباً على «الخلاسيين». من هنا ضرورة مراجعة ملفّ بليدن، رغم الدراسات المستفيضة في المديح لكاتب سيرته الرسمي هوليس ر. لينش[1]، أو الملاحظات القاسية لناقده ف.إي. موديمبي[2]. لدينا

(1) هـ.ر. لينش، *إدوارد ويلموت بليدن*، 1832-1912، *المواطن الأفريقياني*، لندن، منشورات جامعة أوكسفورد، 1967.

(2) ف.إي. موديمبي، اختراع إفريقيا، بلومنغتون، منشورات جامعة إنديانا، 1988.

هنا منظورة نقدية تجرّد مفكّر سان ـ توماس من سمعته كمتنبئ وتحيط أكثر بقيمه كإنسان من القرن التاسع عشر ملتزم باضطرابات حركة الهجرة.

أنتينور فيرمان (1850 ـ 1911)، هو صحافي، ومحام، ودبلوماسي، ووزير، ومرشّح للرئاسة، وشخصية سياسية بارزة في هايتي. وتقوم شهرته كرجل دولة بصورة خاصة على دقّته، وعناده، ومهارته في اعتراض مناورات التخويف من قِبل الولايات المتّحدة، المستعجلة للسيطرة على سان ـ نيكولاس. في هذه القضية الدبلوماسية، لم يكن عليه فقط أن يواجه الأميرال غيراردي على رأس أسطول عند مرسى بورتو برانس، ولكن أيضاً فريدريك دوغلاس، سفير الولايات المتّحدة.

فيرمان هو مؤلّف كتاب عنوانه *المساواة بين العروق البشرية (الأنثروبولوجيا الإيجابية)*، نُشر في باريس سنة 1885. وهو يهاجم منظّري العنصرية العلمية الكاذبة، غوبينو على الأخص. أفكاره حول الخلاسة، حول مصر والحضارة الإفريقية، وحول الحكم المسبق العرقي تضعه بين المفكّرين السود الأكثر نقدية من أبناء جيله. لِمَ المؤلّفون الذين يتناولون الأفريقانية لا يذكرونه أبداً، أو نادراً جدّاً، ولا يذكرون عمله، وكتابه، رغم أنّه كان معروفاً، ومحترماً، ومقدّراً عند نهاية القرن التاسع عشر؟ إنّ تقرير بينيتو سيلفان الذي يلقي الضوء على مؤتمر 1900 يبدأ برسالة من فيرمان. لكن من قرأ هذا التقرير؟

نقل فيرمان إلى الحركة الأفريقانية حرصه على التفاصيل، ودقّته العلمية، ووضوحه، وعزمه كرجل سياسي. إنّه من الأوائل الذين وقفوا في وجه المحاولات العنصرية التي بزغت وانتشرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أوروبا الغربية والولايات المتّحدة. وقد أكّد بصوت عال قناعاته حول المساواة بين البشر وحول إنماء هايتي، وأثيوبيا، ومصر وكلّ إفريقيا. وفتح سبلاً جديدة للتفكير ولأنصار الحوار الكاريبي ـ الإفريقي. لكلّ هذه الأسباب من الضروري إضافة اسم أنتينور فيرمان إلى لائحة هؤلاء المؤلّفين المنظّرين الذين فعلوا الكثير للإحاطة بالمثال الأفريقاني.

المؤتمر الأفريقاني الذي عقد في لندن سنة 1900 هو حدث أساسي، خلاصة منطقية لمسار القرن التاسع عشر. وقد جهد له شخصان كانت مشاركتهما حاسمة: هنري سيلفستر وليامس وبنيتو سيلفان. الترينيدادي وليامس (1869 ـ 1911)، ولو أنّ المؤرّخين ظلموه، هو معروف أكثر من الهايتي سيلفان (1868 ـ 1916). هذان الإثنان، هذان الوجهان «الغامضان»، هما اللذان نظّما بمساعدة فيرمان، *الجمعية الأفريقانية* من 1897 إلى 1900. فحضّرا لانعقاد المؤتمر الأفريقاني في باريس ولكن في النهاية، عقد في لندن من 23 إلى 25 يوليو 1900. ووضع ممثّلون من الكاريبي، والولايات المتّحدة وإفريقيا أهداف وأنظمة جمعية *أفريقانية* جديدة، تحت رعاية رئيس هايتي سيمون سام، وامبراطور الحبشة مينيليك، ورئيس ليبيريا جوزف كولمان. في تلك المناسبة، حُرّر «التماس إلى الأمم» ووُجّه إلى القوى الاستعمارية والإمبريالية (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، الولايات المتّحدة)، وكان يبدأ بالعبارة المشهورة المنسوبة خطأً إلى و.إ.ب. دوبوا: «إنّ مشكلة القرن العشرين هي مسألة اللون...». سنرى لاحقاً، في الفصل العاشر، وبقراءة متمعّنة لتقرير مؤتمر 1900، أنّ هذه الجملة المُدرجة في «نداء»، لها عدّة مؤلّفين. واتُّفق على تنظيم مؤتمر أفريقاني كلّ سنتين: سنة 1902 في الولايات المتّحدة، و1904 في هايتي.

الفصل الثاني

إلغاء تجارة العبيد
معركة البريطانيين

أنا ذاهب إلى إفريقيا

أنا ذاهب قريباً إلى هناك

أنا ذاهب إلى إفريقيا

لأنتعل ذلك الحذاء الذهبي

أغنية تقليدية اعتُمدت كنشيد، نحو سنة 1900، من قبل سود جنوبيين كانوا يتبعون الأسقف هنري تيرنر.

لنبدأ أوّلاً بتوضيح قضية معقّدة هي «إبطالات» تجارة العبيد، المجدّدة، والمكرّرة على الدوام. من الطبيعي أن نشير ـ رغم معرفتنا بالرهانات الخفيّة ـ إلى إصرار الحكومة البريطانية وعنادها لفرض توقيف ينهي عمليات تهريب الزنوج، الشرعية والممنوعة. وقد استغرق معها الأمر قرناً من الدبلوماسية والقوانين، لإقناع القوى الغربية ومعاونيها الإفريقيين. وربّما يكون أغرب ما في المسألة، طوال تلك الفترة، الموقف المبهم لفرنسا جبانة، عنصرية، تمارس منذ زمن تجارة عبيد غير قانونية، مستعدّة لكلّ الأعمال الشائنة، لكلّ التسويات لمتابعة تصدير الإفريقيين إلى المستعمرات الكاريبية.

بريطانيا العظمى تنظّم أمن البحار:

في 16/ 3/ 1792، لم تكن فرنسا البلد الذي أعلن عن رغبته في إلغاء تجارة العبيد خلال مدّة أقصاها عشر سنوات، إنّما الدانمارك. غير أنّ الإلغاء الدانماركي، في 1/ 1/ 1803، مرّ دون أن يلحظه أحد، إذ غطّى عليه تجديد نظام الاسترقاق. ولم يكن إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية من قبل الجمعية التأسيسية سنة 1794 قد أُرفق بمنع لتجارة العبيد. بريطانيا العظمى هي أوّل من وضع النصوص والوسائل العسكرية لمحاربة تجارة العبيد على السواحل الإفريقية. فقد صدر في 23/ 5/ 1806 مرسوم ملكي يضع حدّاً لحملات النخاسة التي يقوم بها مواطنون بريطانيون. ومرسوم 25/ 3/ 1807 الذي دخل حيّز التنفيذ في 1/ 5/ 1807 منع تجارة العبيد على كامل السواحل أو الأراضي الإفريقية. هذا القرار من قبل أكبر القوى العالمية كان نتيجة دوافع سياسية واقتصادية حلّلها إريك وليامس في أطروحته للدكتوراه: *الرأسمالية والاستعباد* (1944)[1].

بدأت معركة البريطانيين لإبطال الاسترقاق سنة 1806، وكان لها انعكاسات دولية عميقة. ولم تنته قبل العقد الأخير من القرن، لا بل مع بداية القرن العشرين. في بداية تلك الفترة، كانت إنكلترة تسعى لفرض مواقفها على القوى الاستعبادية البحرية: الولايات المتّحدة، وفرنسا، والبرتغال، وإسبانيا، وهولندا، والسويد، والدانمارك.

لم تلق بريطانيا العظمى أي صعوبة في فرض توجّهاتها العتقية على الدانمارك والسويد سنة 1810. بالمقابل وعلى الفور ظهرت مشاكل حادّة تجاه الممارسات الاستعبادية في أربعة بلدان: الولايات المتّحدة، والبرتغال، وإسبانيا، وفرنسا.

القيادة البحرية البريطانية أرسلت منذ 1808 سفينتين ـ الفرقاطة

(1) أندريه دوتش، لندن، 1964.

سولباي والمركب الشراعي *ديرونت* ـ إلى ساحل إفريقيا الغربي. وأنشأت سنة 1811 أسطولاً صغيراً من خمس سفن لمراقبة مراكب نقل العبيد. ثمّ جاءت حرب 1812 مع الولايات المتّحدة لتمنع *البحرية الملكية* الإنكليزية من متابعة دورياتها ضد تجارة العبيد. مع نهاية الحرب، سنة 1815، قرّرت القيادة البحرية القيام بجولات مراقبة دائمة للكفاح ضد تجارة العبيد سمّتها *أسطول غربي إفريقيا ضدّ الاسترقاق*، بإدارة الكابتن فريدريك إيرباي، وأنشأت محكمة أسر السفن التابعة للقيادة البحرية في فريتاون، سيراليون. فوجّه الإنكليز نحو المستعمرة كلّ السفن الزنّاجة التي قبضوا عليها. وبعد الحكم على السفن، المصادرة والمباعة، كان يتمّ تحرير الأسرى وإعالتهم لمدّة سنة، يُتركون بعدها لمصيرهم. معظمهم كانوا يختارون البقاء في سيراليون وينصرفون إلى التجارة، بما فيها أحياناً تجارة العبيد. كما فضّل عدد منهم الانخراط كعمّال أحرار بموجب عقد، للذهاب إلى المستعمرات الإنكليزية في الكاريبي. والسود المحرّرون، التابعون لسلطة «*دائرة الأفارقة المحرّرين*»، كانت تعتبرهم اللجان المشتركة أحراراً ومواطنين إنكليزيين.

المعلومات المعطاة من قبل مركز القيادة البحرية إلى ضباط حملة الردع في 20/ 3/ 1816 كانت تتضمّن النقاط التالية:

- **مساندة المنشآت والحصون الإنكليزية على الساحل الإفريقي وحمايتها.**
- **التوقّف في سيراليون لإصلاح السفن.**
- **مراقبة الخلجان بين الرأس الأخضر وبنغيلا، وخصوصاً: ساحل الذهب، وايداه، خليج البينان، وأنغولا.**
- **كانت القيادة البحرية توصي خصوصاً بمراقبة المنشآت والمراكب البرتغالية. كانت تجمع نسختَيْ معاهدتين وُقّعتا في فيينا بين إنكلترة والبرتغال (21 و22/ 1/ 1815)[1]. كانت**

(1) و.إ.ف. وارد، البحرية الملكية وتجّار الرقيق، 1970، ص.ص. 43 - 44.

الشعبة البحرية في ساحل غربي إفريقيا تضمّ في نوفمبر 1819 ثلاثة مراكب شراعية وقلعيتين مجهّزتين تحت إمرة السير جورج كولير. وبقيت مستقلّة خلال خمسين سنة، إلاّ في 1832 ـ 1839 و1857 ـ 1860، عندما جُمعت مع قوى شعبة الرأس الأخضر البحرية.

إنّ مرسوم الشهر السادس من 1814 الذي وقّعه الملك الهولندي فيليب الأوّل وضع حدّاً لممارسات الاسترقاق. وبعد ذلك بقليل، في الشهرالثامن، وُقّع اتّفاق ثنائي إنكليزي ـ هولندي أكّد قرار الإبطال. كما قضى بمنح حقوق زيارة للسفن المشبوهة وأنشأ محاكم لجان مشتركة في فريتاون (سيراليون)، وأنتيغوا (جزر الكاريبي الشرقية)، وباراماريمبو (السورينام). فحرّرت نحو 65000 إفريقي بين1808 و1872. لقد تجاوبت هولندا بليونة مع المتطلّبات الإنكليزية. غير أنّه في إفريقيا، تذمّر ضبّاط الرحلات البريطانية طوال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر من تهريب الزنوج الذي كان يتمّ خفية حول الحصون الهولندية. وكان الهولنديون يجنّدون الأفارقة للخدمة في قوات الهند الشرقية بالرغم من المعارضة الإنكليزية. ثمّ تخلّصت السلطات الهولندية من حصونها الإفريقية سنة 1872 ببيعها إلى بريطانيا[1].

في الولايات المتّحدة، أدان الرئيس توماس جفرسون «انتهاكات حقوق الإنسان... في إفريقيا» في رسالة بتاريخ 2/ 12/ 1806[2]. وصوّت مجلس الشيوخ في 27/ 1/ 1807 على قانون ينصّ على إلغاء تجارة العبيد. هذا القانون الذي قبله مجلس الممثّلين في 11/ 2/ 1807 ووقّعه الرئيس جفرسون في 2/ 3/ 1807، كان ينصّ على أنّه ابتداء من 1/ 1/ 1808،

---

(1) أ. فان دانتسيغ، «الوكالة الهولندية للتجنيد العسكري»، في *ملاحظات وتساؤلات كوماسي غانا*، المجلّد الثامن، 1966، ص.ص. 21-24؛ د. كومبس، ساحل الذهب، بريطانيا وهولندا، 1850 - 1874، لندن، 1963.

(2) و.إ.ب. دوبوا، إلغاء تجارة الرقيق، 1898، ص. 95.

يصبح عملاً مخالفاً للقانون إدخال أي «أسود، أو خلاسي، أو شخص ملوّن كعبد» إلى الولايات المتّحدة (مرسوم منع استيراد العبيد إلى أي مكان أو مرفأ خاضع لإدارة الولايات المتّحدة...).

وسرعان ما ظهرت المشكلة في الولايات المتّحدة، المعنية مباشرة بنظام الاسترقاق: ما مصير الأسرى الذين أُنزلوا بعد تهريبهم وقبضت عليهم السلطات؟ كان من المستحيل بيعهم لأنّ هذا «يكمل الجريمة». هل كان بالإمكان إعتاق هؤلاء الأسرى الإفريقيين في الولايات المتّحدة؟ أم يجب إعادتهم إلى إفريقيا؟ وفي هذه الحالة هل من الممكن إيجاد مسقط رأسهم، وكيف السبيل إلى منع إعادة بيعهم بعد عودتهم؟ هذا النقاش الذي كان أثاره ستيفن برادلي، سيناتور فيرمونت، منذ 12/ 12/ 1805، بقي عالقاً بعد إصدار القانون. وتُرك كلّياً أمر معالجة مسألة العبيد المعتوقين لتقدير حكومة الولايات المعنية.

في مؤتمر فيينا في الشهر الحادي عشر من 1815، التزمت بريطانيا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا بتوحيد الجهود لإلغاء تجارة «بغيضة تدينها بشدّة قوانين الدين والطبيعة». بالرغم من هذا الكلام الجميل، كان صيد الإنسان يُتابَع في إفريقيا، خلافاً للقانون.

الحروب النابوليونية كانت قد تركت لبريطانيا سنة 1815 هامشاً كبيراً من حرية الحركة في البحار. فاستفادت منه بريطانيا لتفرض سياستها بمعاهدات واتّفاقات ثنائية مع البرتغال، والبرازيل، وإسبانيا.

في أعقاب سفن العبيد البرتغالية والبرازيلية:

احتلال الجيوش الفرنسية للبرتغال في الشهر الحادي عشر من 1807 دفع الأمير الوصي «جواو» للجوء إلى البرازيل، ريو دي جانيرو، هو وحاشيته. وترافق فتح المرافئ البرازيلية أمام السفن الأجنبية بواسطة «رسالة الوصي» في 28/ 1/ 1808 مع تعزيز الوجود والنفوذ الإنكليزيين (اتّفاق

الشهر العاشر من 1807 السرّي). ووقّع ملك إنكلترة وأمير البرتغال الوصي معاهدة تجارة وملاحة وكذلك معاهدة تحالف في 19/ 2/ 1810، تقضي بإلغاء تجارة العبيد في المستقبل (المادّة العاشرة). وسهّل مؤتمر فيينا توقيع اتّفاق إنكليزي ـ برتغالي في 21/ 1/ 1815 ومعاهدة لإلغاء تجارة العبيد (22 / 1/ 1815، أُقرّتْ في 8/ 6/ 1815 ونُشرت في 26/ 7/ 1815) في كلّ نواحي الساحل الإفريقي شمال خطّ الاستواء[1]. وكان *البيان النهائي* لمؤتمر فيينا الذي نُشر في الشهر السادس من 1815 يتضمّن في ملحقاته *إعلان القوى الثماني*: النمسا، إسبانيا، فرنسا، بريطانيا، البرتغال، بروسيا، روسيا، السويد، المتعلّق بالإبطال الكلّي لتجارة العبيد (8/ 2/ 1815). ثمّ نصّ اتّفاق إضافي في 28 / 7/ 1817 على إنشاء لجان مشتركة في لندن، وريو دي جانيرو، وفريتاون (سيراليون) من مفوّضين قضاة إنكليز وبرتغاليين.

استقلال البرازيل سنة 1822، الذي اعترف به البرتغاليون والإنكليز سنة 1825، تبعته معاهدة إنكليزية ـ برازيلية حول إلغاء تجارة العبيد[2]. ووقّع امبراطور البرازيل د. بيدرو والملك جورج حاكم إنكلترة معاهدة 23/ 11/ 1826[3] التي تنصّ في مادّتها الأولى على ما يلي:

«بعد مرور ثلاث سنوات على تبادل مصادقات هذه المعاهدة، لا يعود من حقّ مواطني الامبراطورية البرازيلية أن يمارسوا تجارة العبيد عند الساحل الإفريقي، بأيّ ذريعة كانت، ومتابعة هذه التجارة بعد الفترة المحدّدة من قبل أيّ مواطن تابع للجلالة الامبراطورية سيُعتبر قرصنة ويُعاقَب على هذا الأساس».

كانت المعاهدة إذاً تقضي بعد المصادقة عليها، في 13/ 3/ 1827،

(1) المحفوظات العامّة في باهيا، 117، ص. 349.

(2) مكتب السجلاّت العامّة، لندن، وزارة الخارجية الإنكليزية 113/ 3.

(3) م.س.ع.، و.خ. 268/ 1.

بإلغاء تجارة العبيد في 13/ 3/ 1830. لكن هذا لم يحصل، كما يقول القنصل الإنكليزي في باهيا، وليام بينيل، في رسالة بعث بها في 22/ 2/ 1830، إلى اللورد بالمرستون، وزير الشؤون الخارجية في لندن: «إنّ الأرباح المتزايدة التي تنتج عن الاستيراد المخالف للقانون أثارت طمع الناس...»[1].

وقُدِّم تفسير آخر منذ 22/ 5/ 1827 من قبل وزير الشؤون الخارجية البرازيلي الجديد، جواو سيفيريانو ماسييل دا كوستا، ماركيز كولوز - مؤلّف كتيّب بعنوان *بحث في ضرورة إبطال إدخال العبيد الأفارقة إلى البرازيل* (نُشر في كويمبرا سنة 1821). ويقول إنّ الحكومة البرازيلية أُرغِمَت على توقيع معاهدة 1826 *ضدّ إرادتها*[2].

بعد تنازل بيدرو الأوّل عن العرش لصالح بيدرو الثاني في 7/ 4/ 1831، كان قانون 7/ 11/ 1831 الذي يمنع تجارة العبيد[3]، يقضي بإعادة تصدير الأسرى المعتوقين إلى إفريقيا:

«المادّة الأولى: كلّ العبيد الذين يدخلون إلى الأراضي أو المرافئ البرازيلية، آتين من الخارج، سيُطلق سراحهم»، ما عدا:

1) العبيد المسجّلين في خدمة المراكب العائدة إلى بلاد كان الرقّ مسموحاً فيها، إذا كانوا خلال خدمتهم على المراكب المذكورة.

2) الهاربين من أراض أو مراكب أجنبية، وهؤلاء سيُسلّمون إلى معلّميهم الذين يطالبون بهم ويرحّلون بعيداً عن البرازيل...

المادّة الثانية: مستوردو العبيد في البرازيل سينالون عقوبات جسدية -

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 122.

(2) م.س.ع.، و.خ. 13/ 38.

(3) م.س.ع.، و.خ. 84/ 130.

المادّة 179 من القانون الجزائي ـ كالتي تُفرض على الذين يستعبدون أشخاصاً أحراراً، ويكبّدون غرامة مئتَيْ ألف ريس عن كلّ عبد مستورَد، كما عليهم أن يدفعوا نفقات الترحيل إلى أيّ مكان في إفريقيا؛ ترحيل تبدأ الدولة بتنفيذه بأسرع ما يمكن، بموجب عقد مع السلطات الإفريقية لتأمين لجوئهم. وعلى المخالفين أن يدفعوا كلاً عن نفسه، وعن الذين يعملون باسمهم».

وأُكمل هذا القانون بمرسوم 12/ 4/ 1832 [1]المتعلّق بالصلاحيات الاستثنائية الممنوحة إلى الشرطة لتفتيش كلّ سفينة زنّاجة تصل أو ترحل. وكانت مهمّة الشرطة أن تتحقّق ما إذا كان الأسرى/العبيد استورِدوا قبل 13/ 3/ 1830. التشريع البرازيلي في شأن إلغاء تجارة العبيد ما كان يجب أن يؤخذ حرفياً، بحسب وزير الشؤون الخارجية، جوزيه لينو كوتينيو، بين الشهر 7 من 1831 والشهر الأوّل من 1832، إنّما فقط كوسيلة «لإنقاذ اللياقة الوطنية». وهذا ما كان النوّاب البرازيليون يعبّرون عنه بوضوح أكثر بالعبارة: «قانون كي يراه الإنكليز». في الواقع، كانت البرازيل تلغي تجارة العبيد بيد، وتسهّل تهريبهم باليد الثانية. هناك مسألة مهمّة أخرى: كانت الحكومة البرازيلية ترفض «تقديم اللجوء للسود المستوردين إلى البرازيل» وتعرض «على الحكومة البريطانية استقبال هؤلاء الزنوج في سيراليون حيث يتم تسليمهم إلى السلطات البريطانية»[2].

في جوابه إلى القائم بالأعمال البريطاني الموجود في البرازيل، قام اللورد بالمرستون في 5/ 6/ 1833 ضدّ هذا الطلب من قبل السلطات البرازيلية[3]:

«بموجب قانون 7/ 11/ 1831 ومرسوم 12/ 4/ 1832، ستوجّهون

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 129.
(2) م.س.ع.، و.خ. 84/ 129.
(3) م.س.ع.، و.خ. 84/ 144.

إنذاراً شديد اللهجة إلى الحكومة البرازيلية ضدّ الإجراء المذكور. هذا الإجراء سيتسبّب بآلام كثيرة للزنوج. بالرغم من إدراك وزير الشؤون الخارجية لصعوبة إيجاد ملجأ لهؤلاء لدى السلطات الإفريقية، فقد أصدر أمراً إيجابياً بإعادة الزنوج إلى النقاط التي حُمِّلوا منها، أو إلى مناطق إفريقية تناسب أكثر.

إنّ مصير الشخص المسكين الذي قد ينطبق عليه هذا الأمر هو مؤكّد. من المعروف أنّ السود الذين يصلون إلى البرازيل يعانون كثيراً في رحلة يُكدَّسون خلالها في حيّز ضيّق، ويوزَّع عليهم طعام فقير، ويمرضون. ولكن خلال رحلات العودة إلى إفريقيا، وإضافة إلى تكرار هذه المآسي، سيتعرّضون لسوء المعاملة، بسبب الغضب والخيبة لدى مهرّبي العبيد المسؤولين عنهم. خلال الرحلة إلى البرازيل، كان الأمل في ربح من مبيعهم المتوقّع يعطي المهرّبين دوافع للحفاظ على حياة شحنتهم؛ أمّا خلال رحلة العودة إلى إفريقيا، فهذا الدافع الهزيل سيختفي، ومصلحة التاجر المادّية ستضعه في الموقف المعاكس.

في هذه الظروف، قلّة منهم سيصلون سالمين إلى إفريقيا، وهؤلاء لن يكون مصيرهم أفضل من رفاقهم، لأنّهم حال نزولهم إلى الشاطئ، إذا لم يقتلهم سكّان المحلّة، ربّما سيُسجنون أو يباعون من جديد عند أوّل فرصة».

حين علم الوزير البرازيلي جوزيه ماركيز ليسبووا بهذا القرار، أعلن أنّه بداعي «سلامة كلّ السكّان البيض»، «كان من الخطورة الشديدة أن نحاول تمدين السود وتحريرهم، بينما يبقى جزء كبير منهم في حالة العبودية». كان يشدّد بصورة خاصة على مسألة أمن البرازيل: «الأمّة البرازيلية لا تريد أن تمدّن أو تعتق السكّان السود، إنّما أن تحدّ من تزايدهم».

أمّا بالنسبة إلى عودة السود إلى إفريقيا، فقد اعترف ليسبووا «باستحالة النجاح في إعادة الزنوج إلى البلدان الإفريقية التي أتوا منها، أو إيجاد حاكم إفريقي يستقبلهم... كان مستعدّاً للنظر في أيّ تدبير لنقل الزنوج

إلى سيراليون أو إلى ليبيريا، أو إلى أحد بلاد الهند الغربية أو إلى مستعمرة بريطانية على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، شرط أن يتمّ النقل على نفقة تاجر العبيد»[1].

عملياً، سلّمت الحكومة البرازيلية بعدم القدرة على ترحيل الأسرى الذين أعتقتهم السلطات. فأصدرت بيانين، في 29/ 10/ 1834 و19/ 11/ 1835، لضمان حرّيتهم وتنظيم أجورهم لقاء خدماتهم للأشخاص المستفيدين منها. وفي النهاية، معظم الأفارقة الأحرار تُركوا لقدرهم وخضعوا لنظام الاسترقاق.

باختصار، أُكملت تجارة العبيد كما في الماضي بالرغم من التشريع الرسمي. لا بل أعيد تنظيمها سرّاً على أسس جديدة تهدف إلى جعلها أكثر نفعاً. لأنّه كان يجب تلبية طلب أصحاب مزارع البن ومزارع قصب السكّر. وقف هذه التجارة كان سيؤدّي إلى اختفاء العمّال. «أمريكا تلتهم الزنوج»، كتب أحد المهاجرين الفرنسيين، شارل أوغست تونيه، في كتابه *الزراعة في البرازيل*[2]. وكتب القنصل الإنكليزي تشارلز و. بينيل إلى وزيره، في لندن، في 9/ 1/ 1827: «إنّ نسبة الوفيات السنوية في الكثير من مزارع القصب عالية لدرجة أنّ مجمل طبقة العاملين، إن لم تتمّ زيادتها بأعداد من الخارج، ستختفي بعد عشرين سنة؛ وفقاً لحسابات الملاّكين، إنّ شراء عبيد ذكور هو أوفر لهم من تربية أطفال زنوج»[3]. وتُفسّر نسبة وفيات العبيد العالية بقساوة العمل المكثّف، والنظام الصارم والعقوبات المتعدّدة المفروضة، والتغذية الفقيرة، والأمراض[4]. في أكثر من مزرعة للبن، لم تكن حياة العبد تتجاوز الثلاث سنوات.

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 144 و152.

(2) ستانلي ج. ستاين، فاسوراس: «مقاطعة البن البرازيلي، 1850-1900»، هارفرد، 1957، ص. 227.

(3) م.س.ع.، و.خ. 84/ 71.

(4) س.ج. ستاين، المذكور آنفاً، ص.ص. 132-147 و161-195.

ووصلتنا معلومات من دبلوماسيين إنكليز يخدمون في ريو دي جانيرو أو باهيا. وتظهر بعض اللمحات عن أوضاع العبيد في رسائل وليام غور أوسلي، القائم بالأعمال البريطاني في البرازيل. لقد كتب إلى اللورد بالمرستون، وزير الخارجية، في1/ 3/ 1833: «إنّ وضع طبقة العبيد والزنوج كفيل بأن يثير قلق السلطات في مناطق كثيرة من البلاد. ونسمع بأنّ جرائم، ترافقها حالات عنف وخيانات، وتمرّد ومشاكل أخرى، تحدث يومياً، وقلّما يذاع عنها، لا بل يعتّم عليها بكلّ حذر، لأنّ الحكومة تخشى ردّة الفعل التي قد تثيرها، في صفوف السكّان الملوّنين، معرفة هذه الأحداث. ولأسباب مشابهة، يبقى الكثير من الأعمال الفظيعة والوحشية التي يمارسها المعلّمون والمشرفون، يبقى طيّ الكتمان، أو يشار إليه بسرعة وفي أحيان نادرة»[1].

أوسلي نفسه هو الذي تناول أيضاً، في 26/ 6/ 1834، نشاط المعتمدين الدبلوماسيين البرازيليين الموفدين إلى أوروبا والذين «يسعون بشتّى الوسائل إلى تشجيع الهولنديين والسويسريين بوجه خاص، على الهجرة إلى بلدهم والاستيطان فيه. الحكومة البرازيلية تودّ اجتذاب يد عاملة في الزراعة لتبييض السكّان وتعزيز الإحاطة بالعبيد»[2].

بعض «التجار البرازيليين» الذين ألمحوا إلى نيّتهم في استجلاب «مستوطنين سود أحرار» من إفريقيا، تلقّوا تحذيراً صارماً من الحكومة الإنكليزية. اللورد أبردين، أمين الشؤون الخارجية، أعلن في شهر 12 من 1829 أنّ السفن التي تنقل مستوطنين أحراراً «ستعامل بالطريقة ذاتها كالسفن الملتزمة صراحةً بتهريب الزنوج»[3].

بالرغم من قانون 1831، تابعت تجارة العبيد بسط أذرعها بين إفريقيا

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 144.

(2) م.س.ع.، و.خ. 84/ 152.

(3) م.س.ع.، و.خ. 84/ 93.

والبرازيل. في شهر 11 من 1833 و9 من 1836، شهد القاضيان جورج جاكسون وفريدريك غريغ، المفوّضان لدى المحكمة المشتركة في ريو دي جانيرو، على ازدهار هذه التجارة(1). كان الأسرى الإفريقيون يصلون تهريباً بالآلاف إلى السواحل البرازيلية بين ريو دي جانيرو وفيتوريا، وفي ريو ذاتها، أو على شواطئ كوباكابانا، وغلوريا وبوتافوغو أو في باهيا، وبرنامبوك، وباراناغوا، ومقاطعتي سانتا كاتارينا وريو غراندي دو سول. حال إنزالهم، كان زنوج *البوسال والنوفو* يُزربون، ويوضعون في مستودعات حيث يتم، ولكن من دون جدوى كبيرة، تعليمهم مبادئ من اللغة البرتغالية لعرضهم في سوق النخاسة إلى جانب زنوج لاتين وكريول متكيّفين مع البلد.

هاملتون تشارلز جيمس هاملتون، الوزير المفوّض مطلق الصلاحية في ريو دي جانيرو من شهر 6 من 1836 إلى شهر 8 من 1846، قدّر وجود 115 ألف أسير إفريقي عُثر عليهم في شهر 11 من 1836 في مستودعات كامبوس، وماكاي، وساو سيباستياو، وريو دي جانيرو. كان يوجد عدد كبير من الزنوج في سوق العبيد لدرجة هبطت معها الأسعار لأوّل مرّة منذ خمس سنوات(2).

المفوّض غريغ أحصى سنة 1837 مئات السفن ونحو 46 ألف أسير من أنغولا، والكونغو، والموزمبيق، وصلوا خفيةً إلى مقاطعتي ريو دي جانيرو وساو باولو(3). سنة 1838، ارتفع عدد الأسرى الوافدين من هذه البلدان الإفريقية الثلاثة والمنزلين في شمال وجنوب ريو دي جانيرو ـ أو في العاصمة نفسها ـ ارتفع إلى أربعين ألفاً. وفي 1839، أنزلت مئة سفينة 94 ألف أسير بين كامبوس وسانتوس.

---

(1) في رسالتهما إلى بالمرستون، 12/ 11/ 1833، م.س.ع.، و.خ. 84/ 138، ورسائلهما لسنة 1836، و.خ. 84/ 199.

(2) رسالة من هاملتون إلى الوزير، 11/ 11/ 1836، م.س.ع.، و.خ. 84/ 204.

(3) م.س.ع.، و.خ. 84/ 252.

والواقع أنّ الحكومة البرازيلية، بعد شبه حملة ردع في 1834 ـ 1835 ـ ثلاث سفن: كاسيكي، وفلومنسي، وليبري قبضت على ستّة مراكب زنّاجة على سواحل مقاطعة ريو دي جانيرو ـ لم تتخذ أي إجراء لمنع نشاط المهرّبين.

من شهر 12 من 1835 إلى شهر 4 من 1839، كانت الشعبة البحرية في إفريقيا الغربية تملك عدداً غير كاف من الطرّادات، البطيئة جدّاً. فلم تستطع أن تقف في وجه «نشاط الزنّاجات الكبير وجرأتها»[1] والتي كان الكثير منها يبحر تحت الراية البرتغالية. وقدّر المراقبون الإنكليز إنّ هذه الزنّاجات قطعت أكثر من ثلاثمئة رحلة إلى الكونغو، وأنغولا، والموزمبيق، إضافةً إلى رحلات الكوستا دامينا، وأنزلت على الأقل 125 ألف أسير في البرازيل.

في شهر 6 من 1838، باشرت الحكومة الإنكليزية ممارسة ضغط على البرتغال لدفعه إلى توقيع معاهدة تردع الزنّاجات. وعندما لم يصل اللورد بالمرستون إلى اتّفاق مع البرتغاليين، قرّر في شهر 12 من 1838، أن يستعجل الأحداث. فسمح لطرّادات *البحرية الملكية* الإنكليزية بأن تستولي على كلّ المراكب الزنّاجة المبحرة تحت الراية البرتغالية. وبعد تصميمه على الذهاب حتّى النهاية، وضع خطّة للسيطرة على بعض المستعمرات البرتغالية في حال اشتعلت الحرب. هذه الخطّة كانت تستهدف خصوصاً وكالات الهند البرتغالية التي كانت تطمع فيها شركة *الهند الشرقية*.

إنّ اعتماد مرسوم بالمرستون (10/ 7/ 1839) فتح «عهداً جديداً في تاريخ تجارة العبيد»[2]. هذا المرسوم سمح لطرّادات الشعبة البحرية الإنكليزية بأن تقوم بدوريات في المياه الإفريقية، في مرافئ وخلجان الأراضي البرتغالية.

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 199.

(2) كلام للقبطان جوزف دنمان، أحد الضبّاط الأوسع خبرة في شعبة الردع البحرية عند سواحل إفريقيا الغربية.

وبالتالي اتّخذت القيادة البحرية الإنكليزية تدابير تعزّز بها عديدها. البريطانيون، سنة 1840، وسّعوا محطّة الساحل الغربي البحرية حتّى جنوب كاب فريو. وكانت تشمل الكونغو وأنغولا، بينما بقي الموزمبيق البرتغالي تحت مراقبة شعبة الرأس الأخضر البحرية. كانت مراكب الشعبة البحرية في غرب إفريقيا ـ اثنا عشر في 1840، ثلاثة عشر في 1841 ـ تتضمّن سفينة بخارية ومراكب سريعة مثل ساحر الماء (الكابتن جوزف دنمان). هذا الطرّاد قبض على خمس عشرة زنّاجة قرب غاليناس بين شهري 6 و12 من 1840.

عندما لاقت هذا النجاح، قرّرت البحرية الملكية، تؤازرها القيادة البحرية وأمانة المستعمرات (اللورد جون راسل)، أن تقوم بعمليات مسلّحة في البر. وكان الكابتن دنمان أوّل من نزل في غاليناس بين رجال البحرية الملكية الذين قضوا على ثماني *زرائب* للعبيد، فحرّروا أكثر من ثمانمئة منهم وأحرقوا مستودعات البضائع العائدة إلى تجّار الرقيق. وسرعان ما حذا حذوه الكابتن هيل عند نهر شيبار والكابتن نورس عند نهر بونغو، حيث دمّرا أيضاً مستودعات بضائع تُستعمل في تجارة العبيد.

بعد اللورد بالمرستون استلم اللورد أبردين وزارة الخارجية الإنكليزية في الشهر 11 من 1841، ونجح في إقناع البرتغال بالتفاوض. فعمل اللورد هوارد دي والدن، الوزير البريطاني في لشبونة، والدوق دي بالميلا، سفير البرتغال، على وضع مواد معاهدة إنكليزية ـ برتغالية جديدة وُقّعت في 3/ 7/ 1842. وكانت تنصّ على تشكيل أربع لجان مشتركة جديدة، في لواندا (أنغولا)، وبووا فيستا (الرأس الأخضر)، وسبانيش تاون (جامايكا) ورأس الرجاء الصالح. وأضيفت مذكّرة متمّمة في الخامس والعشرين من الشهر ذاته تشير إلى المرسوم الصادر عن الحكومة البرتغالية والذي يقضي بعقوبات صارمة لممارسي تجارة العبيد التي شُبّهت بالقرصنة(1).

الكثير من السفن الزنّاجة البرازيلية، التي لم يعد في وسعها الإبحار

(1) م.س.ع.، و.خ.84/ 403.

تحت العلم البرتغالي، رفعت راية الولايات المتّحدة أو أعلام جنسيات مختلفة: هامبورغ، السويد، الدانمارك، المدن الهانسية، توسكانة، نابولي، الصقلّيتين... فساهم اعتماد هذه الأعلام الأجنبية في كبح نشاط الطرّادات الإنكليزية. وكما ذكر القنصل الإنكليزي: «غالبية طرّادات هذا المركز لم تزوّدها القيادة البحرية بالأوراق أو التعليمات المناسبة لهذه الأمم»(1).

والخطر الأكبر كان في الإمكانيات المتاحة لبعض السفن الزنّاجة التي تبحر تحت علم الولايات المتّحدة. في الواقع، كان هناك سفن برازيلية كثيرة تُصنع في بالتيمور، ونيويورك، وبوسطن، وسالم، وبروفيدانس وفي مرافئ أخرى من إنكلترة الجديدة. وكانت تبحر غالباً مع طاقم ورجال من الولايات المتّحدة(2).

المادّة 8 من معاهدة وبستر ـ أشبورتون الموقّعة في واشنطن في 9/ 8/ 1842 قضت بأن ترسل الولايات المتّحدة قوّة بحرية إلى الساحل الغربي من إفريقيا. وبالفعل، وصل أسطول صغير مؤلّف من أربعة مراكب (الفرقاطة مقدونية، والقلعية بوربويز، وسلوبين) في الشهر 8 من 1843. وأقام رئيسه، العميد ماتيو بيري، قاعدته البحرية في بورتو برايا (الرأس الأخضر) بعيداً عن مواقع تجارة الرقيق وعن الكونغو. وظهر فوراً أنّ مشاركة الشعبة البحرية الأمريكية الشمالية في ردع الزنّاجات محدودة جدّاً. كانت التعليمات الموجّهة إلى بيري والذين خلفوه تأمرهم بحماية تجارة الولايات المتّحدة والترويج لها، أكثر ممّا تعنى بملاحقات ضدّ التجارة غير القانونية. في البرازيل، شاعت السخرية أمام حيادية السفن الأمريكية الشمالية التي أُطلق

---

(1) رسالة إلى بالمرستون، في 1/ 3/ 1841، م.س.ع.، و.خ. 84/ 383.

(2) 34 لورانس ف. هيل، *العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتّحدة والبرازيل*، منشورات جامعة دوك، 1932، الفصل الخامس، «إلغاء تجارة العبيد من إفريقيا إلى البرازيل»، الذي نشر أوّلاً في *المجلّة التاريخية الإسبانية الأمريكية*، العدد 11، 1932، ص.ص. 122-127 و169-197. انظر أيضاً كتاب وارن س. هوارد، *تجّار الرق الأمريكيون والقانون الفدرالي*، 1837-1862، منشورات جامعة كاليفورنيا، 1963، الملحق السابع، «بعض تجّار الرقيق الأمريكيين في التجارة البرازيلية، 1840-1850».

عليها اسم «سفن العار». في الشهر الثاني من 1844، كتب جورج هـ. بريسكوت، الوزير الأمريكي الشمالي في ريو دي جانيرو، إلى وزيره شاكياً: «إنّ النخّاسين يسخرون علناً من شعبتنا البحرية الإفريقية، وأيّ واحد من هؤلاء التجّار يفاخر علناً بأنّه يستطيع أن يدور ثلاث مرّات قاطعاً ثلاثة أميال حول الفرقاطة «مقدونية» من دون أن تنتبه له...»[1]. وبعد سنة، استنكر خلفه، هنري أ. وايز، في الشهر الثاني من 1845، استنكر بشدّة الحماية التي توفّرها للزنّاجات سفن الولايات المتّحدة.

في النهاية لم يستطع الإنكليز الاعتماد سوى على أنفسهم في حملة مكافحة تجارة الرقيق. فشرعت القيادة البحرية سنة 1846 في تعزيز الشعبة البحرية، وأرسلت سبع سفن بخارية: بينيلوبي، وغورغون، وهيدرا، وغرولير، وآردنت، وألبرت وبروميتيوس، وكذلك سلوبات وقلعيات سريعة أتت تعزّز التفوّق البحري الإنكليزي. لهذه العملية، جنّدت بريطانيا إمكانياتها البحرية بالرهان على سفن بحرية ذات مدى عمل أوسع وسرعة أكبر. بفضل هذه القوّة البحرية الضاربة العاملة عند السواحل الإفريقية خلال العقد 1840 ـ 1850، كانت *البحرية الملكية* تمارس منذئذٍ *الردع المحيطي*، حيث كانت طرّاداتها وجنود البحرية الملكية «انعكاساً لقدرتها». وكانت «مهمّة حضورها» أو «دبلوماسيتها البحرية» تتمّ في فترة انتقال تميّزت بتشكيل «الأسطول البخاري الحربي»[2]. وطوّرت المملكة المتّحدة من 1830 إلى 1850 استراتيجية بحرية سُمّيت فيما بعد، سنة 1890، «القوّة البحرية» (وتضمّنت «المراقبة البحرية» و«التفوّق البحري»)[3].

في إفريقيا، استُعمل في الحملة تكتيك بحري جديد: كان يقوم

(1) ل.ف. هيل، المذكور آنفاً، ص. 122.

(2) أندرو لامبرت، *السفن الحربية في مرحلة الانتقال. تشكيل الأسطول الحربي البخاري*، 1815-1860، أنابوليس، منشورات المعهد البحري، 1984؛ جيمس فيني باكستر، ولادة *المدرّعات*، منشورات المجلّة النقدية الجديدة، باريس، 1935.

(3) ألفرد ثاير ماهان، *تأثير القوّة البحرية خلال التاريخ*، 1890.

طرّادان بدورياتهما شمال سيراليون، وستّ سفن أخرى تجول بين سيراليون وغالِيناس، وستّ أخرى في خليج البينان، وأربع في الكونغو واثنتان في بنغيلا[1]. وكانت عدّة مراكب من شعبة الرأس الأخضر البحرية تراقب الساحل الشرقي لإفريقيا. وكان العميد البحري السير إدوارد كينغ قد أوصى القيادة البحرية بتركيز الجهود على مراقبة الساحل الغربي لإفريقيا[2].

عندما واجه اللورد أبردين توسّع التجارة السرّية، أجرى في 8/ 8/ 1845 تصويتاً في البرلمان على قانون (مرسوم *أبردين*) أعطى لبريطانيا صلاحية قانونية لمنع تجارة العبيد البرازيلية التي اعتُبِرت قرصنة[3].

ومرّة جديدة، أعلن البرازيليون عن رغبتهم في استقدام «مستوطنين أحرار» من إفريقيا للاحتيال على القانون. وعلى الفور، اتّخذ الإنكليز إجراءات في البحر لمحاربة «هذه الوسائل المتستّرة والماكرة لمتابعة تجارة العبيد»[4].

اللورد جون راسل، رئيس الوزراء، أجرى في البرلمان تصويتاً على مرسوم *ضرائب السكّر* في 18/ 8/ 1846، رغم اعتراض العتقيين الإنكليز. إريك وليامس يسخر من نفاق «السادة المحترمين في مجلس العموم، الذين نصّبوا أنفسهم مدافعين عن ضريبة تباينية على السكّر الأجنبي بأمل توجيه ضربة إلى الاستعباد في البلدان الأجنبية»[5].

عند عودة بالمرستون إلى وزارة الخارجية مع الأحرار سنة 1846، حصل على زيادة جديدة في القوى البحرية العاملة على السواحل الإفريقية. وكان عداد الشعبة البحرية يومها اثنين وثلاثين مركباً منها ستّ سفن بخارية

---

(1) رسالة من الكابتن جونس إلى القيادة البحرية، في 28/ 8/ 1845، م.س.ع.، و.خ.84/ 612.

(2) من كينغ إلى القيادة البحرية، في 7/ 8/ 1845، م.س.ع.، و.خ. 84/ 385.

(3) م.س.ع.، و.خ. 97/ 430.

(4) هاملتون، في 6/ 12/ 1845، م.س.ع.، و.خ. 84/ 582 و13/ 227.

(5) إ. وليامس، *الرأسمالية والنخاسة*، ص. 161. العبارة هي من ريتشارد كوبدن في مداخلته في مجلس العموم في 16/ 1/ 1848.

سنة 1847. وقد أمسكت بنحو 400 مركب يُستخدم في تجارة العبيد مع البرازيل من 1846 إلى 1850.

بالرغم من هذه العمليات، ازداد تهريب العبيد ليلبّي طلب يد عاملة كثرت الحاجة إليها في المزارع. كلّ سنة، كان ينزل في البرازيل من خمسين إلى ستّين ألف عبد بين 1846 و1849. وكان المهرّبون يراهنون على سرعة السفن المصنوعة في الولايات المتّحدة، والتي كانت تسبق الطرّادات الإنكليزية. كما بدؤوا يستعملون، منذ نهاية 1846، مراكب بخارية، كانت تأتي آلاتها «من أفضل مصانع إنكلترة»[1] وقدرتها على النقل أكبر بشكل واضح. وكانت توجد في البرازيل مجموعة زنّاجات ضخمة تمارس ضغطاً على الحكومة لمتابعة التهريب. وكما ذكر الدبلوماسي هنري أ. وايز سنة 1846: «في البرازيل يوجد ثلاث طرق فقط للاغتناء: تجارة الرقيق، أو الاستعباد أو فتح متجر لبيع القهوة»[2]. وهناك دبلوماسي آخر، اللورد هاودن، كان أكثر وضوحاً أيضاً، في الشهر 3 من 1848؛ عند تركه لمنصبه في ريو دي جانيرو: «مقبولاً بهم، مدلّلين، مشجّعين، مثنياً عليهم... تجّار الرقيق يشكّلون الحكومات التي يريدون»[3]. في وقت لاحق، سنة 1850، وعندما سأله أعضاء مجلس اللوردات، في إطار اللجنة المختارة من أجل تجارة العبيد، أجابهم: «اجمعوا عشرة أشخاص من عائلة روتشيلد فتفهمون حالاً وزن نفوذهم وتنوّعه»[4].

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 767.

(2) من وايز إلى وزير الخارجية جيمس بوكانان، في 9/ 12/ 1846، مقتطفة من كتاب جوزيه أونوريو رودريغيز، *البرازيل وإفريقيا: أفق آخر*، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، ريو دي جانيرو، 1964.

(3) من هاودن إلى بالمرستون، في 1/ 3/ 1848، *أوراق برلمانية*، 1850 (لوردات)، الجزء الرابع والعشرون (35)، لجنة مجلس اللوردات المختارة من أجل تجارة العبيد، ص. 232.

(4) أوراق برلمانية، 1850 (لوردات)، الجزء الرابع والعشرون (35)، لجنة مجلس اللوردات المختارة من أجل تجارة العبيد، ص. 232.

أفراد القيادة البحرية واللورد بالمرستون اتّخذوا إجراءات لزيادة ضغط السلاح البحري على السواحل البرازيلية. فانضمّت سفن من الشعبة البحرية في أمريكا الجنوبية إلى طرّادات أخرى تلقّت أوامر بأن تقوم بدوريات داخل البحر كما في المياه الإقليمية البرازيلية[1].

منذ ذلك الحين، أخذت البحرية الملكية تشنّ هجومات مفاجئة في كلّ المناطق التي تشكو من تجارة العبيد غير القانونية. الوزير البرازيلي أوسيبيو دي كيروز حمل النقاش إلى مجلس النوّاب في 12/ 7/ 1850: إمّا الحرب ضد بريطانيا، أو إلغاء تجارة العبيد غير المشروعة...

وقُدّم مشروع قانون اعتمد في مجلس النواب في 17/ 7 ثمّ في مجلس الشيوخ في 13/ 8، قُدّم إلى الامبراطور وأصبح القانون الشهير لإلغاء تجارة العبيد غير القانونية في 4/ 9/ 1850. وصار بإمكان السلطات والسفن الحربية البرازيلية أن تقبض على الزنّاجات؛ اعتبر استيراد العبيد إلى البرازيل عمل قرصنة، وكان المسؤولون عن الجرم (ملاّكون، قباطنة، رؤساء طاقم، إلخ.) ينالون عقوبات حدّدها قانون 1831 وقانون الجنايات (المادّتان 3 و9). أمّا العبيد الذين تمّ العثور عليهم فكان يُفترض أن يعادوا إلى بلادهم على حساب الدولة. وبانتظار سفرهم، كانوا يُستخدمون في أعمال تحت إشراف الحكومة وليس كما في الماضي، حين كانوا يؤجّرون للأفراد (المادّة 6). ونظّم مرسوم 14/ 10 و14/ 11/ 1850 إجراءات الحكم والاستئناف في المحاكم البحرية. وأصبح للحكومة البرازيلية سلاح بحري، وبدأ صنع خمسة وعشرين مركباً بينها عدّة سفن بخارية.

القرار الذي اتّخذه الامبراطور لإلغاء تجارة العبيد، ورغم معارضة شديدة من قبل الجماعة الاسترقاقية، يُفسّر أيضاً باعتبارات اقتصادية ومالية. فقد تزايد بين 1826 و1850 اعتماد الحكومة البرازيلية على رؤوس

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 801؛ انظر أيضاً ورقة وزارة الخارجية الإنكليزية في 22/ 4/ 1850، و.خ. 84/ 823.

الأموال كما على الشركات التجارية الإنكليزية. وأصبح أفراد عائلة روتشيلد المصرفيين الرسميين لدى الحكومة البرازيلية سنة 1855، وسنة 1862 تأسّس المصرف البرازيلي في لندن[1]. وترافق إبطال الاستعباد سنة 1888 مع سقوط الملكية وإعلان الجمهورية الأولى في 1889.

قانون كيروز لم يمحُ التجارة غير الشرعية بين ليلة وضحاها: من الشهر 6 إلى الشهر 12 من سنة 1850، أُنزل 12500 أسير فقط في ريو دي جانيرو، وساو باولو، وإسبيريتو سانتو، وسانتا كاتارينا، وباهيا، وبرنامبوك. وتقلّصت تجارة العبيد: سنة 1851، وصل 3200 أسير إلى ريو دي جانيرو، لكن هذا العدد زاد فيما بعد. استعادت الطرّادات الإنكليزية دورياتها بين الشهرين 6 و7 من 1851. وقبضت الشعبة البحرية على ثماني عشرة زنّاجة برازيلية سنة 1851، وعلى أربع في 1852، وعلى ثلاث في 1853[2]. كان هناك 26622 مستعبداً مستورداً في الفترة 1852 ـ 1859 تبعاً لسيباستياو فيريرا سواريز[3] بينما يقول و.د. كريستي، الوزير البريطاني في ريو دي جانيرو، أنّه كان يوجد منهم 34688 استوردوا بحراً من المناطق الشمالية إلى العاصمة وحدها من الشهر 1 من 1852 إلى الشهر 7 من 1862، ويُعتقد أنّ عدداً أكبر نقل برّاً. ودفعت محاولات تنظيم جديد للاتجار «بأفارقة أحرار» اللورد كلارندون إلى أن يعلن في الشهر 6 من 1857 أنّ: «الطرّادات البريطانية ستلاحق الزنّاجات»[4].

(1) ريتشارد غراهام، *الرعاية والسياسة في برازيل القرن التاسع عشر*، ستانفورد، كاليفورنيا، 1990؛ ر. غراهام، *بريطانيا وبداية الحداثة*، ص. ص. 162-169.

(2) فريتاون، م.س.ع.، و.خ. 84/ 831، 869، 897؛ سانت هيلانة، و.خ. 84/ 859، 887، 921.

(3) *معلومات إحصائية*، ريو دي جانيرو، 1860، ص.ص. 135-136.

(4) من كلارندون إلى كاوبر، 8/ 6/ 1857، *أوراق دولية بريطانية وأجنبية*، XLVIII، 1135-1136.

ولم يبطل الإنكليز مرسوم *أبردين* قبل الشهر 4 من 1869 وانتظروا حتى العام 1921 كي يلغوا المادّة الأولى من المعاهدة الإنكليزية ـ البرازيلية التي وقّعت سنة 1826 لمكافحة تجارة العبيد.

التبعية الكوبية

كان المزارعون الكوبيون يضغطون على الحكومة الإسبانية والإدارة الاستعمارية في الجزيرة لتأمين استيراد الأفارقة بأعداد متزايدة. واحتلال إسبانيا من قبل الجيش الفرنسي لم يقرع بالنسبة إلى هؤلاء المزارعين جرس الثورة والانفصال، كما في الأراضي الأخرى. فنظّموا بالتعاون مع تجّار أجانب تجارة رقيق كوبية وهكذا ازدادت تبعيّتهم للتجارة الدولية. وأنشأوا شركات تجارية كثيرة. سنة 1819، كانت هافانا مركزاً لاثنتين وعشرين مؤسّسة كبيرة تمارس تجارة العبيد. هذه الشركات المتعاونة مع تجّار أجانب، استقدمت إلى هافانا 95817 إفريقياً بين 1816 و1820، إضافة إلى الأسرى الذين أفرغتهم سفن التهريب في المرافئ الأخرى من الجزيرة. بين 1821 و1829، دخل 68733 مستعبداً إلى كوبا[1]. وفي جزر الكاريبي نشأت شبكة لتجارة العبيد، وصلت كوبا ببورتوريكو، والولايات المتّحدة والبرازيل.

المعاهدة الإسبانية ـ البريطانية في 23/ 9/ 1817 التي تضع حدّاً لتجارة الرقيق، كان قد سبقها شراء خمس فرقاطات وثلاث سفن حربية صنعها الروس، مع تعويض دفعه الإنكليز. هذه المعاهدة التي أرادت أن تلغي تجارة الرقيق في الممتلكات الإسبانية في 30/ 5/ 1820، بقيت حبراً على ورق[2]. المادّة 3 فرضت تشكيل لجان مشتركة في هافانا وفي فريتاون (سيراليون). وأراد الإنكليز أن ينشئوا قاعدة بحرية لطرّاداتهم في جزيرة

---

(1) دافيد إلتيس، «تصدير العبيد من إفريقيا، 1821-1843»، في *مجلّة التاريخ الاقتصادي*، المجلّد 37، العدد 2، 1977، ص.ص. 409-433.

(2) ر. غيرّا إي سانشيز، *تاريخ الأمّة الكوبية*، هافانا، المجلّد 3، 1952، ص. 80.

فرناندو بو التي تحتلّ موقعاً جيوستراتيجياً مهمّاً في خليج البينان، حتّى أنّه كان هناك مشروع لنقل اللجان المشتركة من فريتاون إلى فرناندو بو، لكن الفكرة لم تنجح[1].

المزارعون الكوبيون، بعد توقّف استيراد الأفارقة ابتداء من 30/ 5/ 1820، اعتقدوا أنّهم ضحايا مؤامرة إنكليزية ـ برتغالية. فاشتكوا إلى السلطات الإسبانية في مدريد وأصرّوا على أن يُعاملوا كالبرازيليين. وطلبوا من الحكومة الإسبانية أن تتبنّى قضيتهم أمام البريطانيين، منادين بوصل كوبا بأراضٍ إفريقية مثل فرناندو بو وأنوبون، للسماح بانتقال الزنوج إليها، أسوةً بالبرازيل. هذا البلد، في الواقع، كان قد نجح في إيهام الآخرين بأنّ النقل عبر المحيط الذي كانت تقوم به الزنّاجات هو مجرّد نقل أفراد داخل المستعمرات البرتغالية.

البحرية الإسبانية، التي كان يُفترض أن تعمل بالتعاون مع البحرية الملكية الإنكليزية، لم تقبض سوى على سفينتين بين 1820 و1842، إحداهما زنّاجة برتغالية لا تعود إلى هافانا. في البحر الكاريبي، لم يُظهر الأسطول الإنكليزي (الفرقة البريطانية للهند الغربية) حماساً كبيراً لملاحقة الزنّاجات الإسبانية من 1818 إلى 1821. كان هناك إحدى عشرة سفينة إسبانية قُبض عليها في سيراليون[2]، بينما لم يقبض في الوقت ذاته بالقرب من كوبا إلاّ على زنّاجة واحدة. لِمَ هذا التقاعس من قبل البحرية الإنكليزية في جزر الكاريبي مع أنّه كان من السهل على سفن القرصنة الكولومبية الاستيلاء على الزنّاجات المتّجهة إلى كوبا؟

في هايتي، اتّخذ كريستوفر، وبيتيون وجان ـ بيار بوايه تدابير قاسية لتعطيل تهريب العبيد. في 2/ 2/ 1811، قبضت سفينة حربية هايتية على الشراعية الإسبانية سانتا آنا (قبطانها خوسيه ماريا بيولي) التي كانت تحمل

(1) انظر لاحقاً، الفصل الخامس.

(2) *التقرير السادس عشر للمعهد الإفريقي*، 1822، ص. 12.

شحنة من الأسرى من الساحل الإفريقي إلى كوبا. وبعد محاكمتها في غونايف، حرّرت السلطات الهايتية الأسرى الإفريقيين الـ 205 وسلّمت السفينة في مرفأ كوبي[1].

كانت زنّاجات المنطقة الشرقية في كوبا تهاجم السفن التجارية وتشنّ غارات انتقامية على السواحل الهايتية. فتقبض على رجال ونساء وأطفال وتبيعهم كعبيد. هكذا، سنة 1812، أمسك سلوب أسباني بسفينة الصيد الهايتية دجاجة *الذهب*. وبيع المسؤول عنها، أزور ميشال، ومعه ولدان كعبيد في ترينداد[2]. وفي الشهر 12 من 1819، قبضت الحرّاقة الهايتية *ويلبرفورس* على الزنّاجة الشراعية الإسبانية يويو أو *المتّحدين*، وميناء قيدها قادش، وقادتها إلى بورتو برانس حيث تمّ تحرير مئات الأسرى الذين كانوا سيُستعبَدون في كوبا. في 26/ 3 و4/ 9/ 1820، طلبت السلطات الإسبانية في مدريد وهافانا من الرئيس بواييه إعادة الأسرى المحرّرين. فأجابها الرئيس في 24/ 1/ 1821 بلهجة المصالح، لكنّه رفض تسليم الإفريقيين[3].

لم يكن البريطانيون راضين من نتيجة معاهدة 1817 التي لم توقف تجارة العبيد من قبل الإسبان، فدفعوهم إلى توقيع معاهدة جديدة في 28/ 6/ 1835. وأعلن نصّها تجارة العبيد «باطلة كلّياً ونهائياً في جميع أنحاء العالم». لكن المزارعين الكوبيين، وبعد إلغاء الاسترقاق في المستعمرات الإنكليزية سنة 1833، كانوا قد استثمروا كثيراً في تجارة العبيد. لذلك بعد إعلان المعاهدة الجديدة في كوبا في الشهر 3 من 1836[4]، جرت حملات تهريب زنوج كثيرة تحت رايات أخرى.

منذ الفترة 1830 ـ 1831، كانت هناك سفن أجنبية ـ فرنسا،

---

(1) محفوظات كوبا الوطنية، *رسائل القباطنة*، و ج.ل. فرانكو، *تجارة العبيد السرّية*، منشورات العلوم الاجتماعية، هافانا، 1980، ص. 154.

(2) المرجع ذاته.

(3) المرجع ذاته و ج.ل. فرانكو، المذكور آنفاً، ص.ص. 155-156.

(4) م.س.ع.، و.خ. 84/ 196.

البرازيل، البرتغال، الولايات المتّحدة خصوصاً ـ تقصد الموانئ الكوبية. كانت تأتي إلى هافانا، وماتنساس، وسانتياغو الكوبية، ولكن أيضاً إلى الموانئ الصغيرة: هيبارا، وباراكووا، وغوانتانمو، ومانسانييو، وماربيل، وسان خوان دي لوس ريميديوس، وكاباناس، وباهيا هوندي. من الخمس وعشرين ألف أسير إفريقي الذين كانوا يصلون سنوياً نحو 1837 ـ 1838، كان هناك حوالى 18 ألفاً نزلوا في هافانا وسبعة آلاف في الموانئ الأخرى من الجزيرة[1]. وترافق الاعتراف بنشاطات الاسترقاق بين 1831 و1839 بشائعة دائمة: إرادة البريطانيين إلغاء تجارة العبيد في كوبا لتأمين حماية أفضل لتجارة السكّر في مستعمرات *الهند الغربية*.

أصحاب المزارع الكوبيون، أولئك المزارعون الذين يملكون عبيداً، اتّخذوا إجراءات للحدّ من دخول النساء إلى الجزيرة وكذلك دخول الزنوج اللادينوس الذين كانوا يُعتبرون أكثر خطراً من البوسال.

بعد التشاور مع وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات، أوفدت الحكومة الإنكليزية إلى هافانا «مراقباً» للأفارقة المحرّرين، ريتشارد روبرت مادن، وهو طبيب إيرلندي عتقي كان قد أقام في جامايكا[2]. واهتمّ مادن في هافانا، من 1836 إلى 1839، بمسألة نقل العبيد المحرّرين، المعتوقين، بواسطة الطرّادات الإنكليزية في مستعمرات *الهند الغربية*.

كان الحاكم ميغيل تاكون إي روسيكي، بين 1834 و1838، حامياً كبيراً للزنّاجات. كان حليفاً مخلصاً للمزارعين الكوبيين، وسعى لبسط السيطرة الإسبانية عبر تطوير نظام المزارع التي تعتمد على العبيد.

الحكومة الإسبانية صوّتت في 2/ 3/ 1845 على «قانون جزائي» ضد

---

(1) *أوراق هانسارد البرلمانية، المجلّد الثامن والعشرون، أوراق دولة بريطانية وأجنبية*، لندن، ص. 516.

(2) نشر كتاباً، *الإقامة في الهند الغربية اثني عشر شهراً*، لندن، 1835، يتحدّث فيه عن إقامته في جامايكا وينتقد نظام التأهيل.

ممارسة تجارة العبيد. وخلال النقاش في مجلس التشريع، أكّد رامون دي لاساغرا، وكان من أنصار إلغاء هذه التجارة، أنّ المكان الوحيد الذي يجد فيه الأفارقة حرّيتهم الحقيقية هو إفريقيا. بالرغم من فشل القانون الجزائي، انتظرت الحكومة الإسبانية أكثر من عشرين سنة قبل أن تقدّم إلى مجلس الشيوخ، في 20/ 2/ 1866، قانوناً نهائياً آخر، يدين تجارة العبيد. وهذا المرسوم الملكي في شهر 9 من 1866، اعتُمد في مجلس التشريع في شهر 6 من 1867 ونُشر في شهر 9 من السنة ذاتها. واستقبلت جزيرة كوبا عمّالاً آسيويين (600 صيني) وصلوا من مانيلا سنة 1847، عمّالاً زراعيين استُقدموا من يوكاتان، وعبيداً زنوجاً أُبعدوا من بورتوريكو والبرازيل سنة 1850.

متى انتهت تجارة الرقيق الكوبية؟ تمّ إنزال أسرى إفريقيين في كوبا سنة 1867، وربّما سنة 1868، لأنّه في الشهر 12 من 1867، أمسك قبطان طرّاد إنكليزي، *السبيدويل*، بزنّاجة على نهر الكونغو، وحرّر 96 أسيراً. وسمع عندها كلاماً عن 700 إفريقي سجين في *الزرائب*، بانتظار شحنهم إلى كوبا[1].

بعد حلّ محكمتي فريتاون وباراماريبو، أبقت الحكومة البريطانية على محكمة هافانا، حتّى سنة 1892[2]. كانت لا تزال تثار في هافانا مسألة حملات استرقاق حصلت سنة 1873[3]، ولكن من دون أن تستطيع القيادة البحرية ووزارة المستعمرات جمع أدلّة ثابتة.

في البحر الكاريبي: قراصنة بين جزر الشمال

إنّ تحليل التقارير التي تربط بين القرصنة وتجارة العبيد دفعتني في الماضي، عند تأليف كتابي جزر *الكاريبي في طور البناء: المدى*،

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 84/ 1288، 1268، و 1274.

(2) م.س.ع.، و.خ. 84/ 1340.

(3) 65 م.س.ع.، و.خ. 82/ 1408.

الاستعمار، *المقاومة*، إلى التساؤل عن الدور الملتبس للولايات المتّحدة وبعض القوى المحايدة[1].

مع الشبكتين الكوبية والبرازيلية اللتين نُسجتا في أعقاب الزنّاجات، كيف يجوز تفويت فرصة مباغتة قراصنة وسلاّبين ولصوص بحر في الكاريبي حوالى 1818 ـ 1821؟

في أوج البحرية الشراعية نحو 1815 ـ قبيل وصول السرّاعات ورباعيات أو خماسيات الأشرعة ـ ومع تطوّر ماكينة البخار التي عبرت من النظرية إلى الاختبار العملي، بدأ أفول القرصنة. وأظهرت الدول الحديثة، المنظّمة، المركزية، اهتماماً بمراقبة كلّ أدوات سياستها الخارجية، خصوصاً تلك التي بوسعها أن تؤدّي إلى الحرب. واختفاء القرصنة، رغم برمجته، تأخّر بسبب ظهور بؤر عصيان وفتن في الممتلكات الإسبانية والبرتغالية في أمريكا. بين 1815 و1830، كان البحر الكاريبي يعجّ بالقراصنة الذين، طوال تلك الفترة «الثوروية»، كانوا ينشرون أفكار التحرّر والاستقلال، وهم ينهبون ويسلبون، أو يبيعون شحنات من الزنوج، أو يحرّرون أعداداً من الأسرى الذين أُنزلوا في هايتي.

حروب القرصنة في الكاريبي غالباً ما تفلت من القوانين الصادرة في أوروبا. كيف التمييز كما في زمان ومكان آخرين بين القرصنة والنهب ولصوصية البحر، بين القرصان والخارج عن القانون ولص البحر؟ بالنسبة إلى الإسبان والبرتغاليين الذين يحاربون المتمرّدين، كان القراصنة أو الثوّار على حدّ سواء قطّاع طرق ولصوص بحر. أمّا الوطنيون الجمهوريون الذين يتبعون بوليفار وأرتيغاس، فكانوا يرون في القراصنة مغامرين، لا بل أبطالاً كباراً يخضعون لدول لديها تشريع يسمح لها بمنح «تراخيص بتجهيز سفن حربية».

حركة السفن الزنّاجة في البحر الذي يتوسّط الجزر الكاريبية بين

---

(1) الجزء الأوّل، ص.ص. 503-507.

إفريقيا والمستعمرات الأوروبية في الأمريكيتين لطالما أثارت طمع القراصنة من جميع الجنسيات. خلال فترة الثورات وحروب الاستقلال، ترافق ظهور المكسيك، وفنزويلا، وكولومبيا، والأرجنتين مع توسّع لنشاط القرصنة: الدول الجديدة، ورغم أنّها كانت أحياناً مزوّدة بنواة بحرية، لم تستبعد احتمال اللجوء إلى رؤوس أموال، وأفراد، وسفن، وأسلحة من أمريكا الشمالية. خلف هذه المبادرات الخاصّة، الوطنية، تلوح توجّهات الولايات المتّحدة السياسية، وطموحها لضمّ المزيد من الدول، وطمعها بالأراضي ونشاطها الاقتصادي.

في الدولة الاتّحادية، دافع الناس في غالبيتهم عن المتمرّدين. وعودة السلام سنة 1814 أحدثت أزمة في بحرية الولايات المتّحدة: كانت المراكب تبقى راسية، مثل «سرّاعات بالتيمور»، المجهّزة كقلعيات أو سفن صيد؛ وتحوّل البحّارة، وأصحاب السفن، والتجّار الذين يملكون رؤوس أموال غير موظّفة، تحوّلوا إلى القرصنة تحت غطاء متمرّدين إسبان.

شكّل التجّار وأصحاب السفن في بالتيمور مجموعة في الولايات المتّحدة تحت اسم «المشروع الأمريكي» وهو نشاط قرصنة حقيقي[1]. وكان بين أهمّ أفراده: التاجر جوزف كاريك، «العميد البحري» الشهير توماس تايلور[2]، الشريف السابق ماثيو موري، «جابي» الجمارك جيمس ماك كولوه، القاضي ثيودوريك بلاند وزوج ابنته، مسؤول البريد جون ستيوارت سكينر، الذي اعتبره كوينسي أدامز «منحلاً، متعصّباً وطنياً... أساس وسبب كلّ أعمال القرصنة في بالتيمور التي أساءت إلى أمّتنا ولا تزال تشوّه سمعتنا»[3].

---

(1) راجع ش.س. غريفين، «قرصنة من بالتيمور...»، مجلّة ميريلاند *التاريخية*، العدد خمسة وعشرون، 1940، ص.ص. 5-6.

(2) ملاّك السفن هذا أدخل أولى تراخيص تجهيز السفن التي كان يسلّمها متمرّدو بوينوس أيرس.

(3) كوينسي أدامز، *مذكّرات*، 1/ 2/ 1820، الجزء الرابع، ص.ص. 515-516.

كان لص البحر الشهير جان لافيت (1780 ـ 1825) يدير وكراً للقراصنة والمهرّبين في جون باراتاريا إلى غرب مصبّ الميسيسيبي[1]. وهناك مغامر آخر، غريغور ماك غريغور، كان مكلّفاً بمهمّة تمنحه رتبة لواء ولقب «قائد جميع القوى البحرية والعسكرية المعدّة لتحرير الفلوريدتين، والمجازة من السلطات المكوّنة من جمهوريات المكسيك، وبوينوس أيرس، وغرانادا الجديدة، وفنزويلا»[2]. هذا المغامر كان قد استولى، في الشهر 7 من 1817 على جزيرة أميليا، على الساحل الشرقي لفلوريدا، عند حدود جورجيا. والغريب أنّه في 22/ 12/ 1817، كانت جزيرة أميليا، وهي أصلاً من الممتلكات الإسبانية، محتلّة من قبل قوات نظامية من الولايات المتّحدة، «استسلم لها، من دون إراقة دماء، أوري ورجاله»[3].

خلال السنوات 1815 ـ 1825، أصبح الكاريبي الساحة المفضّلة «للقرصنة المستقلّة» ، التي أبرزت قراصنة متمرّدين يناضلون من أجل استقلال بلادهم. هؤلاء المغامرون كانوا يهاجمون السفن الزنّاجة البرتغالية والإسبانية المتوجّهة إلى البرازيل أو إلى كوبا وبورتوريكو. وكان عليهم أن يأخذوا حذرهم من طرّادات البحرية الملكية البريطانية التي تقوم بدوريات حول محطّاتهم البحرية في غويانا، وجامايكا (كنغستون) وترينداد. السفن المصادرة كانت في البداية تؤخذ إلى سان خوان غرييغو، في جزيرة مارغاريتا، قرب ساحل فنزويلا، التي كان يحكمها بوليفار آنذاك، أو إلى غالفستون (تكساس)، تحت حماية الأميرالين جان أوري ولويس بريون.

كان لصوص البحر المغامرون مضطرّين إلى الهرب من المنطقة الجنوبية واللجوء إلى الشمال. وهكذا كنّا نراهم يهاجمون أعداءهم ويسحبون غنائمهم إلى جزر الشمال: الباهاماس، سان مارتان أو سان

---

(1) لايل ساكسون، *لافيت القرصان*، باريس، 1935.

(2) راجع *رحلة إلى ماين الإسبانية. احتلال ماك غريغور لجزيرة أميليا*، لندن، 1819.

(3) أورونو د. لارا، *جزر الكاريبي في طور البناء*، الجزء الأوّل، ص. 501.

أوستاش، سابا، الجزر العذراء الدانماركية (سان توماس، سان جان، سانت كروا) وسان بارتولميو، مستعمرة سويدية. إن كانت هولندا، كما سبق أن رأينا، تبدو حليفة مخلصة في البحر لبريطانيا، فهذا لا ينطبق على القوتين المحايدتين: الدانمارك والسويد.

الحكومات المتمرّدة في كارتاجينا، وفي «مؤتمر مكسيكو»، وخصوصاً في بوينوس أيرس منحت تراخيص تجهيز سفن حربية لمغامرين أمريكيين شماليين كانوا يطاردون السفن الإسبانية، فيأخذون غنائمهم إلى مرافئ الولايات المتّحدة حيث يتمّ بيعها.

استفاد البرتغال من 1816 إلى 1820 من وجود مراقب مميّز في واشنطن، ملمّ بكلّ شيء هو القس جوزيه كورّيا دا سيرّا (1750 - 1823)، سفير مملكة البرتغال والبرازيل المتّحدة. هذا العلاّمة، عالم الطبيعيات الكبير، مؤسّس أكاديمية العلوم في لشبونة، المحدّث اللبق للرؤساء توماس جفرسون، وجيمس ماديسون، وجيمس مونرو، وجون كوينسي أدامز، وزير الخارجية آنذاك، لقد جمع معلومات واسعة عن المغامرين الأمريكيين الشماليين الذين كانوا يهاجمون السفن البرتغالية، وكوّن بالفعل ملفّاً موثّقاً جدّاً سمح له بتوجيه اتّهامات مبرّرة أجبرت السلطات الفدرالية أحياناً على الاستماع إليه. هو الذي كشف لتشارلز باغوت، في الشهر الأوّل من 1819، عن لائحة بأسماء ثماني وعشرين سفينة قرصنة من الولايات المتّحدة، تُجهّز في الموانئ التالية: اثنتي عشرة تجهّز في بالتيمور، ستّ في نيو أورليانز، خمس في نيويورك، اثنتين في كلّ من فيلادلفيا وشارلستون، وواحدة في باراتاريا. تشارلز باغوت، ممثّل بريطانيا في واشنطن، نقل هذه اللائحة في 4/ 1/ 1819 إلى اللورد روبرت ستيوارت، فيكونت كاسلريه، وزير الشؤون الخارجية من 1812 إلى 1822[1].

---

(1) م.س.ع.، و.خ. 5 ، الجزء 141، الباب 102.

القراصنة الأمريكيون الشماليون نهبوا كذلك مراكب أمريكية شمالية مثل «الفستال» و«آسيا»، اللذين قبض عليهما في برمودا وفي الرأس الأخضر سنة 1819[1]. هيد دي نوفيل، ممثّل فرنسا، وبناء على تعليمات من المركيز ديسول، وزير الشؤون الخارجية الجديد، شكا من التخريب الذي كانت تسبّبه سفن القرصنة المجهّزة «في الولايات المتّحدة وخصوصاً في مرفأ بالتيمور، والمبحرون تحت راية أمريكية جنوبية»[2].

الإنكليز وكذلك الفرنسيون إذاً، تذمّروا من القراصنة. هاتان القوّتان، بالاشتراك مع النمسا، وبروسيا، وروسيا، اعترضتا ضدّ «القرصنة المنظّمة» في مؤتمر إكس لا شابيل في الشهر 11 من 1818 منتقدتين بشكل خاص أرتيغاس زعيم «المنطقة الشرقية» الذي كان يمنح تراخيص تجهيز سفن حربية بصفته «قائداً للجيش وأميرالاً في بحرية الجمهورية الشرقية».

الولايات المتّحدة، وبصوت وزير خارجيتها جون كوينسي أدامز، أعلنت في 29/ 3/ 1819 أنّ «حكومة الولايات المتّحدة ممتعضة من قراصنة بالتيمور كامتعاض القوى الأوروبية نفسها» وأمره الرئيس مونرو بالكتابة إلى إلياس غلين، وكيل ميريلاند. لكن مونرو وأدامز كانا يعرفان جيّداً هذا الموظّف، غير الكفؤ، الليّن، المهمل، غير الفاعل، والذي كان ابنه يقيم علاقات صداقة مع أوساط القرصنة. من جهة ثانية، رفضت الإدارة الفدرالية اعتبار رجال أرتيغاس قراصنة كما ألمح لها ممثّل البرتغال في واشنطن[3].

وجد القراصنة صعوبة في تمويه مصدر البضائع المسروقة من شحنات السفن، الموصوفة بأنّها غنائم ممتازة، عند إنزالها في بعض مرافئ

(1) *الاستخبارات الوطنية*، 19/ 1 و16/ 2/ 1819.

(2) كوينسي أدامز، مذكّرات، 29/ 3، الجزء الرابع، ص. 314.

(3) المرجع ذاته، 8 و9/ 4/ 1819، الجزء الرابع، ص.ص. 325-326، الوثيقتان رقم 233 و238.

الولايات المتّحدة. لذلك فضّلوا أخذ غنائمهم هذه إلى جزر الشمال.

كانت القرصنة في الكاريبي انعكاساً لحاجات اقتصادية: تزويد المستعمرات بمواد أساسية. القراصنة كانوا يقومون برحلاتهم على دروب ووجهات تقصدها باستمرار السفن التجارية والسفن الزنّاجة.

نشاط القراصنة المستقلّين عقّد مهمّة بريطانيا المصمّمة بعناد على مكافحة تجارة العبيد. ومضاعفة قواتها البحرية دفعت القوى الأخرى إلى بذل جهود أكبر لمراقبة البحار والسهر على أمنها. وجاءت الملاحة البخارية لتكون في صالح البلدان التي لديها إمكانية ملاحقة زنّاجات «التهريب» و«القرصنة». غير أنّه سنة 1856، كانت الولايات المتّحدة، والمكسيك، وإسبانيا لا تزال ترفض توقيع *بيان باريس* المعتمد من القوى الأوروبية التي تستنكر القرصنة.

بينما كان *المتمرّدون* يلجؤون إلى القرصنة، انكفأت إسبانيا إلى كوبا وبورتوريكو، حيث احتفظت حتّى العام 1898 بمحطّة بحرية لها في هافانا. بعد نهاية هدنة 1821، عادت أعمال القرصنة ـ التي كان يقوم بها غالباً قراصنة إسبان عند السواحل الكوبية ـ وعمّت الفوضى البحر الكاريبي، حيث انتشر القراصنة ولصوص البحر عند سواحل هايتي وسانتو دومينغو، وأقاموا في الباهاماس، ولجأوا إلى جزر الشمال الصغيرة: سان مارتان، وسان بارتولوميو، وسان أوستاش، وجزر العذارى الدانماركية (سان جان، سان توماس، سان كروا)، بعيداً عن السفن الإنكليزية التي كانت تطوف أكثر في الجنوب.

بموجب «المعاهدة عبر القارات» في الشهر الثاني من 1819، تنازلت إسبانيا للولايات المتّحدة عن الفلوريدتين وعن أراضي ميسوري الشاسعة وكذلك عن حقوقها على أوريغون، التي كانت تطالب بها إنكلترة. في الشهر 4 من 1820، ضغطت الحكومة الإسبانية لتحصل من الحكومة الفدرالية على إيقاف كلّ المساعدات *للمتمرّدين* كثمن لإقرار الاتّفاق من

قبل ملك إسبانيا[1].

في جزر الكاريبي الشمالية، استفاد القراصنة من مسايرة، لا بل من تواطؤ، المسؤولين الدانماركيين والسويديين، وأغرقوا الجزر «ببضائع» صادروها من السفن البرتغالية ـ البرازيلية: زنوج، سكّر، روم، بن، نبيذ، توابل، قطن، جلود برازيلية أو مصنوعات برتغالية كلّها بيعت علناً من دون أيّ شكوى قبل تحميلها مجدّداً ومن دون أيّ مشكلة على سفن أمريكية شمالية متوجّهة إلى الولايات المتّحدة (أخبار من سان بارتولوميو، 12/ 7/ 1818)[2]. المعاهدة المعقودة بين الدولة الاتّحادية والسويد سنة 1816 قضت بالسماح للسفن الأمريكية الشمالية بالمتاجرة بين سان بارتولوميو وبعض موانئ الولايات المتّحدة.

تكاثر القراصنة في تلك الفترة حول جزيرة سان بارتولوميو الصغيرة وخصوصاً في الأراضي التابعة لها *المتشعّبة* أو *الجزر الخمس*، *وتانتامار (الجزيرة المسطّحة)*.

حاكم جزيرة سان بارتولوميو السويدي يوهان صموئيل روزنفارد (1816 ـ 1818) توفّي إثر حادث مفاجئ في الشهر 12 من 1818 وخلفه يوهان نوردرلينغ (1818 ـ 1826)[3].

خلال حرب استقلال الولايات المتّحدة، كانت تلجأ المراكب الزنّاجة وحمولاتها، وكذلك القراصنة وغنائمهم، إلى خليج الجزيرة المتشعّبة أو إلى سان توماس. وأعلن الحاكمان السويدي والدانماركي عجزهما عن مكافحة تجارة التهريب. إذ كانت تقوم جماعات من القراصنة

(1) لويس دي أونيس، الدبلوماسي الإسباني الذي فاوض على المعاهدة مع كوينسي أدامز، استدعي إلى مدريد، فوصل خلفه، الجنرال فرنسيسكو بيبس، إلى واشنطن في الشهر 4 من 1820، وحظي بمساعدة كورّييا دا سيرّا.

(2) انظر أورونو د. لارا، *جزر الكاريبي في طور البناء*، الجزء الأوّل، ص. 502.

(3) انظر ريغساركيفيت، ستوكهولم، بانت من الرابع إلى التاسع.

ولصوص البحر في أوقات الثورة بممارسة تهريب الزنوج، والأسلحة، والبارود، وبضائع تتمّ مبادلتها بقطع من الذهب. واشتُبه بأنّ روزنفارد ونوردرلينغ يتركان لها حرّية الحركة لقاء مبلغ يُدفع لهما. كان قراصنة الجمهوريات الكاريبية والولايات المتّحدة، الذين يحملون «تراخيص بتجهيز السفن»، يوزّعون الدنانير والقروش في سان بارتولوميو وفي سان توماس. كان في حوزتهم هنا، بين سان مارتان وجزر العذارى، مراسي ممتازة حيث كانوا ينقلون غنائمهم على سفن يوزّعوها في الجزر المجاورة. كانت البضائع تجول بحرّية في مستعمرات السويد والدانمارك بموافقة الحاكمين الضمنية. ومن جهة ثانية كان القراصنة يتمّمون فيها طواقمهم وأسلحتهم[1].

في 4/ 10/ 1820، وصل مركب كبير من نانت، يتبعه «سائقه» القرصان، إلى جزيرة المتشعّبة. فبيع قسم من حمولة الزنوج، وانطلق الباقي إلى سان توماس. وبدا الحاكم نوردرلينغ راضياً حين لاحظ بعد ذلك بقليل «أنّ التجارة تسير على ما يرام: المخازن والمحلاّت المغلقة منذ زمن عادت وفتحت، وكثر زبائنها، وتدفّقت القروش والدنانير، حتّى في الحانات. فسُدّدت الديون، وكانت رسوم الجمارك تؤمّن حتّى ثلاثة آلاف قرش في الشهر...»[2].

أشارت السلطات السويدية في جزيرة سان بارتولوميو إلى تدخّلات السفن الإنكليزية، والفرنسية، والأمريكية الشمالية في خليج المتشعّبة. وكانت عملياتها المعيقة تثير احتجاجات دبلوماسية من قبل السويديين. وهكذا عرفنا أنّ أسطولاً فرنسياً بإمرة الأميرال دوبيرّيه استولى في الشهر 6

---

(1) انظر كارلوس فيداليس، «سان بارتولوميو: مستعمرة في خدمة الاستقلال (1810-1830)» في فايني كارلسون، آكي ماغنوسون، كارلوس فيداليس، *السويد-أمريكا اللاتينية، علاقات وتعاون*، لايس، المعهد الأمريكي اللاتيني، ستوكهولم، 1993، ص.ص. 25-33.

(2) بير تينغبراند، *سان بارتولوميو في الحقبة السويدية*، 1995، ص. 53.

من 1820 على «طرّاد فنزويلي» وعلى غنيمته التي كانت مركباً تجارياً. بعد مضي عدّة أشهر، في الشهر 10، قبض مركب حربي إنكليزي - قبطانه ويلوبي - على «سفينة قرصنة متمرّدة» في مرسى الجزيرة المتشعّبة. وتمّت عمليّات عديدة أخرى من هذا النوع في المياه الإقليمية السويدية. ولكن سنة 1821 جرت حادثة أكثر خطورة: فقد استولى بعض القراصنة على قلعية زنّاجة ترفع علم الولايات المتّحدة. ثمّ قادوها إلى الجزيرة المتشعّبة وأنزلوا حمولة ثلاثمئة وثمانين زنجياً أسيراً لبيعهم كلّهم بثلاثين ألف دولار أمريكي. القلعية ذاتها التي أصبحت مركب قرصنة اسمه جوبيتير استولى عليها السويديون في 24/ 9/ 1821. لكن نوردرلينغ - ومعه زوج ابنته هاسوم - ، المتّهم بالتواطؤ مع هؤلاء القراصنة رغم إنكاره، سارع في بيع السفينة لصالح الإدارة الاستعمارية السويدية. ويبدو أنّ تاجري العبيد بيغوود وديبوي، من الولايات المتّحدة، المعروفين جدّاً من قبل القراصنة، هما اللذان أعلما الإدارة الاتّحادية عن هذه القضية. لكن السويديين أداروا آذاناً صمّاء إلى الاحتجاجات الأمريكية الشمالية.

هذه التنكيدات ربّما تفسّر قرار قنصل الولايات المتّحدة في سان بارتولوميو، روبرت مونرو هاريسون، أن يكتب، باسم ثيودور غاسفيلت، إلى كورّيبا دا سيرّا في واشنطن، في 21/ 6 ثمّ في 26/ 6 و2/ 7/ 1822 ليكشف له عن بعض عمليّات الحكّام غير المشروعة. والقنصل هاريسون كان قد مثّل الولايات المتّحدة في سان توماس قبل أن يعمل في سان بارتولوميو بثلاث سنوات.

كانت الإدارة الفدرالية تتذمّر منذ عدّة سنوات من تدمير هذه المراكب مثل *الجنرال أرمسترونغ*، وهي سفينة قرصنة هاجمها طرّاد إنكليزي وأغرقها في 26/ 9/ 1814 أمام مرفأ فايال (البرازيل). كما نعلم أنّ روبرت م. غودوين، أحد أصحاب سفينة القرصنة التي استولت على القلعية البرتغالية - البرازيلية حامية *ساو جاو* في 12/ 3/ 1817 ليس بعيداً عن سانتا مارتا واقتادتها إلى سان بارتس، دفع 25 ألف دولار للحاكم روزنفارد. أمّا

نوردرلينغ «كبير القراصنة» فقد قبض مرّة جديدة المبلغ المحترم 80 ألف دولار.

في الشهر 11 من 1818، رأى السفير كورّييا دا سيرّا من الضروري تعيين وليام كوك، المقيم في الولايات المتّحدة بصفته وكيلاً دائماً لقنصلية البرتغال العامّة في الولايات المتّحدة، لدى روزنفارد ولدى بنتسون، حاكم جزيرة سان توماس الدانماركية. من جهة ثانية، طلب عدّة مرّات ولكن من دون جدوى، إرسال سفن من بحرية بلاده الملكية إلى بحار الهند الغربية للقضاء على أوكار القراصنة التي تكاثرت وأخذت تزعج ملاحة المراكب الزنّاجة البرتغالية - البرازيلية. لقد أوصى بإرسال عدّة فرقاطات «لمراقبة تحرّكات القراصنة، وإرغامهم على احترام علم جلالته، ومعاقبة الأوغاد»[1].

حين ظهر لوليام كوك أنّ نوردرلينغ على علاقة متينة بالقراصنة مثل سلفه، فضّل أن يتخلّى عن وظيفته على أن يخسر حياته. ووسّع القراصنة المستقلّون دائرة عملهم إلى جزيرتي سان مارتان وسان أوستاش، وحتّى إلى الغوادلوب.

في الشهر 6 من 1819، عُيّن وكيل متنقّل جديد، هو ريتشارد ألسوب، لدى الحكومات الإنكليزية، والفرنسية، والهولندية، والسويدية، والدانماركية حتى الشهر 2 من 1820. فسلّم عندئذٍ تقريراً مهمّاً وكبيراً إلى السفارة في واشنطن يذكر فيه: «الفظائع المرتكبة ضدّ التجارة البرتغالية من قبل قراصنة معروفين علناً في الهند الغربية»[2].

كان هناك سفن أمريكية شمالية أُعطيت لها أسماء جديدة وصارت تبحر تحت الراية البرتغالية، وتمارس تهريب الأسرى الإفريقيين بين الرأس الأخضر أو خليج البينان وهافانا. في الشهر 2 من 1820، أمرت الإدارة

(1) كتابات أدامز، الجزء السابع، ص. 63، وثيقة رقم 318.

(2) كوينسي أدامز، *مذكّرات*، 19/ 6/ 1820، الجزء الخامس، ص. 154.

الفدرالية الفرقاطة سيان بمواكبة السفينة *إليزابيث* التي تنقل مئة زنجي حرّ أرسلتهم *الجمعية الأمريكية للاستيطان* ليقيموا في جزيرة شربرو في سيراليون. وكُلّفت *سيان* أيضاً بأن تُنزل في المكان ذاته كلّ الأسرى الذين تجدهم على متن السفن الزنّاجة التي تقبض عليها في طريقها. وعادت الفرقاطة إلى نيويورك بعد أربع عمليات استيلاء.

من المهمّ أن نذكر أنّ وودبريدج أودلين، المعروف بأنّه تاجر عبيد من «أخوية تجّار العبيد»، حصل على منصب قنصل الولايات المتّحدة في باهيا سنة 1820، في حين أنّ هنري هيل، المضارب في التجارة المعروف ـ وقنصل الولايات المتّحدة منذ 1808 في باهيا ـ نُقل إلى ريو دي جانيرو في 18/ 7/ 1820. في 15/ 5/ 1820، اتّخذت إدارة مونرو تدابير بتصويتها على قانونين ضدّ القراصنة ولصوص البحر المنتشرين في البحر الكاريبي. في كلمة الرئيس مونرو إلى الكونغرس في 7/ 12/ 1819، أشار إلى تفتيش السفن الزنّاجة الأمريكية الشمالية من قبل سفن حربية تابعة للولايات المتّحدة. وسمحت إدارة مونرو للطرّادات بوضع يدها على السفن الزنّاجة التي يظهر أنّها أمريكية شمالية، ولو أنّها ترفع راية أجنبية، وبإنزال حمولتها من الأسرى في إفريقيا.

هذه الإجراءات لم تمنع القراصنة من متابعة نشاطاتهم وأحياناً من دون أن يلقوا عليها أيّ عقاب. هكذا استطاعت القلعية *إنتربرايز* أن تكمل تجهّزها في نورفولك، وبعدما غادرت هذا الميناء تحت اسم *ويلسون*، صارت *بوليفار* ـ قبطانها ألميدا ـ ، ورفعت راية كولومبية وقبضت على سفينة إسبانية متّجهة من بورتوريكو إلى بالتيمور[1].

في 16/ 7/ 1820، سلّم كورّيا دا سيرّا إلى كوينسي أدامز «لائحة أولى بتسع عشرة سفينة برتغالية استولى عليها قراصنة أمريكيون، ترتفع قيمتها الإجمالية إلى 49280000 ريس أو 616158 دولاراً». كما قدّم

---

(1) *كتابات مونرو*، الجزء السادس، ص.ص. 141-144، وثيقة رقم 312.

للسلطات الفدرالية في ملاحظة بتاريخ 26/ 8/ 1820 لائحة بضبّاط من بحرية الولايات المتّحدة، جالوا في البحر عدّة أشهر وقبضوا على عدّة سفن برتغالية ـ برازيلية[1]. وشكا السفير البرتغالي خصوصاً من أنّ «المستعمرتين السويدية والدانماركية... استمرّتا في إعطاء تراخيص بالتجوّل وبالبيع الحر والمفتوح لكلّ أولئك اللصوص»[2].

إنّ احتجاجات السفير كورّييا دا سيرّا وخلفه سولانو كوستانسيو (ابتداءً من الشهر 2/ 1822) تناولت «مواطنين رديئين في الولايات المتّحدة... يسمحون لأنفسهم بمهاجمة تجارتنا تحت رايات لا تعود إلى أيّ أمّة معروفة، ولا يصحّ اعتبارها أكثر من دلائل على قرصنة لا يمكن القبول بها»[3]. بحسب القنصل ر.م. هاريسون[4]، جمع الحاكم نوردرلينغ ثروة تبلغ 180 ألف دولار أمريكي. إذ يقول إنّه بيع للقراصنة بارود وذخائر حربية تعود إلى الحكومة السويدية، وذلك بموافقة وزير الحرب.

القرصان الإنكليزي تشارلز جيمس فيتزموريس كتب «تحت القسم» وقائع القرصنات التي كان مركزها في سان بارتس، ووجّهها إلى ر.م. هاريسون في 22/ 5/ 1822. فنقلها هذا الأخير في الشهر 12 من 1822 إلى جواكين بارّوسو بيريرا، قنصل البرتغال العام في نيويورك.

أخيراً ، وبعدما فقد كورّييا دا سيرّا كلّ حماسه وما كان يعلّقه من آمال، أبحر في 10/ 11/ 1820 على الباخرة الإنكليزية *ألبيون* متوجّهاً إلى إنكلترة. إذ بعد تلقّيه تهديدات من بعض القراصنة في الكاريبي، فضّل أن يسافر واضعاً نفسه في حماية البريطانيين. وصل إلى ليفربول في 5/ 12 ثمّ انطلق من فالموث في الشهر 7 من 1821 على متن الباخرة دوق *مالبورو*

(1) كوينسي *أدامز*، مذكّرات، الجزء الخامس، ص. 175.
(2) المرجع ذاته.
(3) المرجع ذاته، 1/ 4/ 1822، الجزء الخامس، ص. 485.
(4) رسالة في 21/ 6/ 1822.

التي أوصلته إلى لشبونة في 6/ 8/ 1821. بعد مغادرته، بقي القراصنة المستقلّون أسياد الملاحة في شمال الكاريبي حتّى انطفاء أجواء الثورة في السنوات 1825 ـ 1830.

فرنسا الزنّاجة: صامتة ومتشبّثة

قرّر نابوليون، خلال حرب المئة يوم، إلغاء تجارة العبيد في 29/ 3/ 1815. وبالرغم من التزام فرنسا بمؤتمر فيينا في الشهر 11 من 1815، استمرّت في إفريقيا مطاردة الإنسان غير المشروعة. وهكذا، أبحر روبير سوركوف بسفينته *الإفريقي* بكلّ اطمئنان، في حملة زنّاجة نحو أنغولا، في 15/ 8/ 1815[1].

فرنسا، مثل الولايات المتّحدة، كانت تشقّ طريقها وحيدة. بينما كان التجّار وأصحاب السفن يستثمرون في التجارة غير المشروعة، حاولت الحكومة الفرنسية بعدّة وسائل حماية مواطنيها ، مع الإعلان عن نيّتها في إلغاء تجارة العبيد. الولايات المتّحدة وفرنسا لم تقبلا حقّ الزيارة الذي أراد أن يفرضه عليهما البريطانيون ولم تعترفا بالجولات البحرية المختلطة التي ابتكروها. فنظّمت كلّ منهما حملة الردع الخاصّة بها على السواحل الإفريقية: الفرنسيون سنة 1818، الولايات المتّحدة سنة 1842 (أسطول الولايات المتّحدة الإفريقي). كان الفرنسيون يأخذون ما يقبضون عليه إلى محكمة غوريا، والأمريكيون الشماليون يأتون خاضعين لقضاء موانئ الدولة الاتّحادية.

في 12/ 6/ 1824، حُكم بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقة على ثلاثة مارتينيكيين أحرار «ملوّنين» هم سيريل بيسيت، ولويس فابيان، وجان ـ باتيست فولني. كان في نيّة مستوطِني هذه المستعمرة الفرنسية طرد جميع

(1) سيرج داغيه، قائمة الحملات الفرنسية...، ص. 4، سوركوف على متن سفينته أدولف، أدار بنفسه ثلاث حملات زنّاجة.

الزنوج الأحرار، وإبعادهم إلى غويانا أو إلى السنغال. وكان الحكم النهائي، سنة 1825، بنفي وبإبعاد عشرات من الأشخاص الآخرين المتّهمين بالتواطؤ مع الزنوج. كم أُرسل منهم إلى السنغال؟ نعرف فقط ما جرى لأربعة وعشرين من هؤلاء المتّهمين المارتينيكيين، الذين أُبعدوا إلى السنغال[1]. وتبع إبعاد هؤلاء الرجال الأحرار إلى السنغال إبعاد «عبيد الجزر الذين وُجدت ضرورة لإقصائهم عن هذه المستعمرات»[2]. كانت الحكومة الفرنسية قد نظّمت منذ القرن الثامن عشر إبعاد بعض الزنوج الذين يراد التخلّص منهم في مستعمرات الغوادلوب، وغويانا، والمارتينيك، ودائماً إلى السنغال. وآثار عمليات النقل هذه، من الكاريبي نحو إفريقيا، قلّما بقي منها في المحفوظات اليوم.

كان تعميم 12/ 4/ 1823 الوزاري يشجّع على إعمار غويانا. السفن الزنّاجة، المجهّزة في السنغال، وفي الغوادلوب، وفي غويانا، وفي المارتينيك كانت تحاكَم إمّا في كايان، أو السنغال، أو سانت لويس، أو غوريا. كان يتمّ تجنيد الأسرى المحرّرين في الشركات العسكرية المحلّية، في إفريقيا، أو ينقلون إلى كايان. وهنا ظهرت مشكلة: كيف يتمّ التوفيق بين وضع هؤلاء الإفريقيين الأحرار ووضع سجناء نظام الاستعباد؟ كانت تعليمات الوزير بورتال للإداريين، سنة 1820، تحدّد أنّ: «السود المأخوذين من المستعمرات يجب ألاّ يدرِّبوا أبداً طبقة مختلفة من العبيد الآخرين»[3].

في الشهر التاسع من 1829 قضى مشروع قانون بإعتاقهم الفوري وتسجيلهم في سجلّ نفوس خاص مرفق بالتزام لأربع عشرة سنة، هو إمكانية العودة إلى إفريقيا، حسب الطلب. سنة 1824، ضغط مزارعو

---

(1) المحفوظات الوطنية، باريس، ميكروفيلم 200 ميكرون 1189، الشرطة العليا.

(2) المرجع ذاته، رسالة من وزير البحرية والمستوطنات إلى المقدّم المسؤول في السنغال، 12/ 12/ 1825.

(3) مركز محفوظات ما وراء البحار، إكس ان بروفانس، عموميات 152/ 1273.

الغوادلوب على الحاكم، العميد البحري جاكوب، كي يرفض إدخال ثلاثمئة إفريقي إلى مزرعة الملك المعروفة باسم سان شارل.

في المارتينيك، وصول أكثر من ألف من هؤلاء الأفارقة «نصف العبيد ونصف الأحرار» طرح أمام المسؤولين المشاكل ذاتها[1]. في غويانا، أحصى الحاكم جوبلان 583 أسود محرّراً وملتزماً[2].

ما العمل بالسود الذين وُجدوا؟ تساءل الكونت دارغوه، وزير البحرية: هل نعيدهم إلى إفريقيا حيث سيلقون «المخاطر والجوع»؟ هل نصادرهم لصالح الدولة ونُبقي بهذه الطريقة على الاستعباد؟ كان يجب حينئذٍ إعلانهم أحراراً وضمّهم طوال عشر سنوات إلى المؤسسات الاستعمارية. هكذا سيشكّلون وفراً لا يُستهان به... لكن لا قيمة لهذا التفكير إلاّ إذا تواصل توفّر الأفارقة المحرّرين، وهذا ما لم يتمّ. حملات الردع الفرنسية فاجأت الباحثين بضآلة عدد غنائمها. إنّ عدد السود الذين أعيد أسرهم كان صغيراً بشكل يثير الدهشة والابتسام. ماذا كان مصيرهم؟ استولت الطرّادات الفرنسية، حتّى 1834، على سبع وثلاثين زنّاجة تحمل مجموع 2409 أسود. وإذا عرفنا أنّ 583 من هؤلاء الأسرى المحرّرين ذهبوا إلى غويانا، فإنّنا نجهل ماذا جرى لـ 1735 شخصاً من الباقين. بالمقارنة، وفي الفترة ذاتها، على اثنين وثلاثين مركباً فرنسياً يبحر بأوراق وراية هولندية ويمرّ أمام اللجان المشتركة، نحصي ثماني وعشرين زنّاجة و4475 أسيراً مبعَداً. وقد حُرّروا في سيراليون.

الاتّفاقات الفرنسية ـ الإنكليزية في 1831 و1833 حدّدت مرافئ استقبال السفن المقبوض عليها: غوريا، المارتينيك، بوربون، كايان، للسفن الفرنسية الموجودة لدى الطرّادات البريطانية؛ باتورست (غامبيا)، بورت رويال (جامايكا)، رأس الرجاء الصالح، ديميرارا للسفن الإنكليزية

---

(1) المرجع ذاته، عموميات 195/ 1483.

(2) المرجع ذاته، ف5 (18)، 1827-1833.

الموجودة لدى الطرّادات الفرنسية. المادّة 11 في اتّفاق 22/ 3/ 1833 تنصّ على الإعلان الفوري بأنّ الأسرى أحرار وأنّه «لصالح هؤلاء العبيد أنفسهم» يمكن توظيفهم كخدم أو كعمّال أحرار.

في السنغال، تابع الوزير سياسة التجنيد التي بدأت منذ 1824 ـ 1825. وتشكّلت شركة «روّاد من أجل كايان» بناء على طلب الوزارة في 31/ 5/ 1839[1] أُلقي القبض على أفارقة في بيجاغوس، فتمّ شراؤهم وأخذهم إلى غوريا حيث ضُمّ أربعون منهم. القلعية الإنكليزية هـ.م.س. *ساراسن* أمسكت بالسفينة الفرنسية سنغامبيا قربِ مرفأ باتورست الإنكليزي وقادتها إلى سيراليون حيث تمّت محاكمة السفينة، وسجن طاقمها[2].

هذه العملية تبعتها تهجّمات إنكليزية على الازدواجية الفرنسية ونية فرنسا في متابعة تجارة العبيد. تجاه حملة القدح هذه، تلقّت حكومة السنغال أمراً من باريس، في 2/ 7/ 1840، بتعليق كلّ أشكال الشراء «خارج البلاد التي يعبرها السنغال».

في باريس، إنشاء معهد إفريقيا سنة 1842 الذي كان يضمّ مئتين وثلاثة عشر عضواً، طرح على بساط البحث مسألة استعمار إفريقيا و«تجديد الشعوب الإفريقية عبر وسائل إلغاء الاستعباد وتجارة العبيد». في السنة ذاتها، ندّد فيكتور سكولشر، في مجلّة التقدّم (العدد الثالث، 1842)، بتصرّف الحكومة الإنكليزية التي كانت تريد «ممارسة تجارة العبيد... تحت عنوان الهجرة الإفريقية الحرّة» فكتب في هذا الخصوص نصّاً ملفتاً نذكر منه جزءاً يبرز وضع «معتوقي جامايكا» الذين كان الإنكليز يدفعونهم للعودة إلى إفريقيا:

«يسعدنا جدّاً لو نستطيع تغيير رأينا، إذا كبّد المعنيّون أنفسهم عناء إقناعنا؛ لكن حتّى الآن، وردّاً على الذين يريدون أن يتستّروا بذريعة تمدين

(1) المرجع ذاته، السنغال، إي.ب 3، الورقة 273، 26/ 6/ 1840.

(2) المرجع ذاته، السنغال، 2ب 18، الورقة 16.

إفريقيا على طمعهم بأن يسرقوا منّا المزيد من أولادها للاستفادة منهم، نقول: الوسيلة الأضمن والأكثر أخلاقية لانتزاع الزنوج من البربرية القديمة التي يعمهون فيها، هي في حمل الأنوار إليهم. ومعتوقو جامايكا قدّموا لنا مثلاً عن أفضل ما يمكن محاولته، بالتصويت على اكتتابات التبشير بالإنجيل في بلاد أجدادهم. وقد أرسلوا إليها أصلاً أحد وزرائهم المعمدانيين، م. كلاركسون، لهذه المهمّة.

عدا ذلك من الغباء التكلّم عن عودة بعض المهاجرين لتنوير إفريقيا. لنفرض أنّنا قبلنا بعودتهم، وسهّلناها لهم، لنفرض أنّهم يريدون هذه العودة، من حقّنا أن نسأل هنا، ماذا سيحمل إلى البلاد ولتحسين الوضع العام فيها رجال أمضوا ثلاث، أو ست، أو تسع سنوات في حراثة حقول قصب السكّر في جامايكا أو على ضفاف الإسيكيبو؟ هذا كما لو أنّنا نستعير أدوات الحضارة من فلاّحي قرانا. الزنوج الذين سيُخرجون إفريقيا من الظلمات، هم الذين سيذهبون إلى بلاد آبائهم على مراكب من صنعهم وبقيادتهم. إنّها الطريقة الوحيدة.

إنّ إقامة علاقات منتظمة بين القارّة الإفريقية والأرخبيل الكاريبي، ستكون النتيجة الإجبارية نوعاً ما، في مستقبل قريب، لتحرير كافّة العبيد السود، ولكن إذا فكّرنا قليلاً (بدورنا نلتمس برودة الأعصاب والإيمان) سندرك أنّ أوان هذه العلاقات السعيدة لم يحن بعد. من دون أن نذكر استحالة القيام بالهجرة بشكل يحفظ الكرامة، وأظنّ أنّ هذا ما أثبتناه، فهي لن تكون حتّى في صالح الأشخاص المسافرين، بل لن تفيد سوى المزارعين، الذين سيجدون في تنافس العمّال وسيلة لتخفيض رواتبهم.

عندما تتثبّت حرّية الزنوج بعد أربعين أو خمسين سنة وتضرب جذورها عميقاً، عندما يختفي آخر عبد في المستعمرات، وعندما يكرَّم السود بتعليم أهمّ من الذي حصلوا عليه حتّى الآن، عندما يصبح عدد معيّن من المعتوقين على قدم المساواة، في المال وفي المراكز، مع البيض، عندما تصير المساواة في الواقع كما هي في المبادئ، عندما تُمحى تماماً

ذكريات الماضي السيّئة؛ ربّما عندئذٍ يمكننا، بأخذ أفارقة إلى الأنتيل، أن نقدّم الفائدة لعرقهم. ولكن في الوقت الحالي، وطالما لاتُخصّص للزنوج إلاّ الأعمال المتدنّية، فإنّ الهجرة، التي لا تثمر سوى الجهل، ستساهم في الحفاظ على خضوع الإنسان الأسود».

بالرغم من الاتّفاق المعقود في لندن في 27/ 5/ 1845 بين فرنسا وبريطانيا لإلغاء تجارة السود، تابعت الزنّاجات الفرنسية تهريبهم خفيةً باتّجاه البرازيل وكوبا. أمّا حملة الردع الفرنسية، فسرعان ما اختفت من السواحل الإفريقية بين 1848 و1852[1].

رئيس ليبيريا روبرتس، وخلال مروره في باريس في الشهر9 من 1848، طلب مساعدة فرنسا العسكرية لمكافحة تجارة العبيد في منطقة نيو سيسترا، بين رأس ماونت ورأس بالماس. لكن وكالات تجارة العبيد كان يحميها ألف رجل، فلا يمكن مهاجمتها إلاّ من البحر. روبرتس تصوّر أنّ مركباً أو اثنين، وخمسمئة جندي يكفون لتنفيذ إنزال استراتيجي[2]. في النهاية، الحرّاقة البخارية *أبو منقار*، والحرّاقة يو.*إس. يوركتاون*، وسفينة الصيد الليبيرية المثابرة غطّت إنزال 300 جندي ليبيري في الشهر 6 من 1849. الجيش الذي كان يقوده روبرتس شخصياً ـ على متن حرّاقة ـ قضى على أوكار الزنّاجات وحرّر 48 أسود. كما قبض على مهرّب إسباني معروف، هو أنطونيو رودريغز، وعلى كمّية كبيرة من البضائع[3].

بعد نجاح هذه «الحرب لخير الإنسانية»، طلب الرئيس روبرتس مجدّداً سنة 1850 مساعدة البحرية الفرنسية للمباشرة بعملية تنظيف في الناحية الجنوبية. قائد الشعبة البحرية لإفريقيا الغربية بويت ـ فيلوميز، وضع

---

(1) «... حملة بائسة، هكذا بدت الحملة الفرنسية بين 1842 و1852، هذا ما أكّده س. داغيه، في *منع تجارة السود في القرن التاسع عشر*، ص. 560.

(2) المرجع ذاته، ص. 578.

(3) مركز محفوظات ما وراء البحار، إكس ان بروفانس، الشعبة البحرية لسواحل إفريقيا الغربية، سان لويس، 28/ 6/ 1849.

اثنتين من سفنه: *الإلدورادو والرشيقة* في تصرّف الحكومة الليبيرية[1].

مرسوم إعتاق العبيد، في 27/ 4/ 1848، لا يشير إلى تجارة العبيد في مادّته الثامنة. بالمقابل فإنّ مادّته الرابعة تنصّ على عودة الزنوج المبعدين «بترتيب إداري» إلى غويانا وإلى إفريقيا.

هكذا بعد الإعتاق، وضعت الحكومة الفرنسية سياسة «إبعاد» تهدف إلى التخلّص من المواطنين الجدد في الغوادلوب، وغويانا، والمارتينيك. وكانت خطط وزارة البحرية والمستعمرات تسعى، في 1848 ـ 1850، إلى «إبعاد قسم من الشعب الأسود الذي إن بقي، سيصبح خطراً ينبعث من دون توقّف»[2]. أين سنرسلهم، هؤلاء الأحرار الجدد الذين يعرقلون عمل الإدارة الاستعمارية الفرنسية؟ الحكومة الفرنسية سعت لوضع العبيد القدامى في أراض أجنبية تطلب يداً عاملة، في *الهند الغربية* أو في إفريقيا[3]. فخطّطت لتجنيد «الرجال الملوّنين» كضبّاط صفّ في جيش إفريقيا الشمالية. كانت تأمل في أنّ «الكريول العاطلين عن العمل ولكن المتحمّسين والذين يحبّون الفخامة، والاستعراض، والأبّهة، والزخرفة» سيجدون ما يرضيهم «تحت الألوان اللامعة للبزّة العسكرية والسلاح»[4].

سمح مرسوما 13/ 2 و29/ 3/ 1852 بتوظيف عمّال إفريقيين في المستعمرات الفرنسية. كان العقد يضمن لهم الحرّية، وراتباً، والعودة إلى إفريقيا. لكن ماذا على أرض الواقع؟ الشركات الفرنسية التي تمارس تجارة

(1) المحفوظات الوطنية، باريس، البحرية ب ب4/ 661، تقرير إلى الوزير، غوريا، 12/ 2 و12/ 4/ 1850.

(2) «تأمّلات في الوضع الحالي لمستعمراتنا ومستقبلها»، في *مجلّة المستعمرات*، وزارة البحرية والمستعمرات، 1850.

(3) راجع نيللي شميت، *دوامة الحرّية. جزر الكاريبي - القرن التاسع عشر*، منشورات جامعة بروفانس، 1995، ص.ص. 263-264.

(4) مركز محفوظات ما وراء البحار، إكس ان بروفانس، عموميات ج618 د2698، 15/ 4/ 1849. انظر أيضاً ن. شميت، دوّامة...، المذكور آنفاً، ص.ص. 229- 231.

العبيد هي التي اهتمّت بتوظيف المتقدّمين، من 1852 إلى 1862. كانت مدّة العقود ست سنوات، أو عشراً، أو حتّى أربع عشرة أو خمس عشرة سنة. وأثارت هذه العقود في إفريقيا عمليات غزو كان يقوم بها الزعماء الإفريقيون المعنيون بتجارة العبيد. كيف نشرح للأفارقة، للمتقدّمين أو لرؤسائهم، الفرق بين أحرار وغير أحرار؟ ملك داهومي «جيزو»، الذي أنشأ جيشاً قوياً لجمع السجناء، بقي المحاور المفضّل لدى التجّار الأوروبيين.

أمّا بالنسبة إلى ظروف سفر هؤلاء «المهاجرين»، فإنّ كلّ الشهود أجمعوا على أنّهم كانوا يكبّلون بالسلاسل خلال رحلتهم، ويكدَّسون كما في زمن تجارة الرقيق، إضافة إلى سوء التغذية. وكانت عمليات الهروب، والتمرّد، والوفيات تسجّل خلال تلك الأسفار عبر الأطلسي الشبيهة إلى حدّ بعيد برحلات الزنّاجات. أصحاب السفن الفرنسيون أخذوا 17262 عاملاً حُمّلوا من إفريقيا. وحصلت 1417 حادثة وفاة في البحر ووصل 15845 مهاجراً إلى مستعمرتي الغوادلوب والمارتينيك، و2616 إلى غويانا. وهناك عدّة رحلات لم يتناولها المؤرّخون حتّى الآن. أولئك الإفريقيون الذين وصلوا أحراراً إلى المستعمرات الفرنسية الثلاث الغوادلوب، وغويانا، والمارتينيك، بعد إعتاق 1848، كانوا صلة وصل، هزيلة طبعاً، بين المستعمَرين الزنوج وجذورهم الإفريقية. نافذة صغيرة نصف مفتوحة على عالم اعتقالي قاس...

السنة	السفينة	الحمولة	صاحبها أوقبطانها	المحمّلون من الساحل الإفريقي	حالات الهرب	الوفيات في البحر	المستعمرة المقصودة
1854	الأخوة الخمسة	239	شوفاليه	251	6	8	غويانا
1855	ديانا	282	-	312		3	-
1856	ديانا	-	-	324		0	-
1857	أوريون	320	-	279		32	-
	فينيكس	368	-	313	12	17	المارتينيك
	سيام	504	الشركة البحرية العامة	72		1	الغوادلوب
	كلارا	261	ريجيس	328		35	المارتينيك
	ستيلا	640		802		154	الغوادلوب غويانا
1858	جوزيف	460	فيدال	340		74	المارتينيك
	ريجينا	؟	سيمون	270	270		ريونيون
	كولي						
	ستيلا	640	ريجيس	755		53	الغوادلوب
	الطحالب الميتة	637	-	800		63	المارتينيك
	فان ديك	238	-	301		25	-
1859	آنا	520	-	654		76	الغوادلوب
	ستيلا	640	-	483		37	الغوادلوب
		-	-	642		80	المارتينيك
	داهومي	434	-	520		77	-
		-	-	382		57	الغوادلوب
	الطحالب الميتة	637	-	800		42	-
	سبلانديد	730		725		51	المارتينيك
	فينيكس	368	شوفاليه	421		49	غويانا
	ميريديان	363		240		30	-
1860							
	ستيلا	640	ريجيس	643		35	الغوادلوب
	الطحالب الميتة	637		646		81	المارتينيك

السنة	السفينة	الحمولة	صاحبها أوقبطانها	المحمّلون من الساحل الإفريقي	حالات الهرب	الوفيات في البحر	المستعمرة المقصودة
	داهومي	434		416		35	الغوادلوب
	سبلانديد	730		748		88	المارتينيك
		-		743		69	-
	هارييت ـ رالي	474		487		67	الغوادلوب
	ماري	267		272		29	-
1861		-		271		6	المارتينيك
				269		24	الغوادلوب
		-		270		10	المارتينيك
	الطحالب الميتة	637		599		48	-
		-		594		25	-
	هارييت ـ رالي	474		466		17	الغوادلوب
	بلا اسم	389		391		36	المارتينيك
1862		-		405		8	-
		-		414		16	-
	النهضة	339		381		2	-
		-		418		12	-
	ماري	267		282		8	-
	الطحالب الميتة	637		598		13	-
	ستيلا	640		757		38	-

(عن فرانسوا رينو، *تحرير العبيد والرقّ الجديد*، المنشورات الإفريقية الجديدة، 1976، ص.ص. 176 ـ 177).

تدرّج أحداث إعلان إلغاء العبودية:

ـ 1792: الدانمارك، تمنع تجارة العبيد بعد مهلة عشر سنوات.

ـ 1/ 1/ 1803: إلغاء تجارة العبيد في الدانمارك.

ـ 23/ 5/ 1806: بريطانيا، مرسوم ملكي يحظّر تجارة العبيد على البريطانيين.

ـ 2/ 3/ 1807: الولايات المتّحدة، مرسوم منع استيراد العبيد ابتداء من 1/ 1/ 1808.

ـ 25/ 5/ 1807: بريطانيا، مرسوم *الإلغاء*، منع معزّز يسري مفعوله ابتداء من 1/ 5/ 1807. التجارة ملغاة على السواحل أو الأراضي الإفريقية.

ـ 1/ 1/ 1808: إلغاء تجارة العبيد في الولايات المتّحدة.

ـ 28/ 1/ 1808: مرسوم أمير البرتغال جواو اللاجئ إلى الولايات المتّحدة: فتح المرافئ البرازيلية أمام التجارة الدولية.

ـ 19/ 2/ 1810: المعاهدة الإنكليزية ـ البرتغالية للتجارة والملاحة. المعاهدة الإنكليزية ـ البرتغالية للتحالف. تشير المادّة العاشرة إلى إلغاء تدريجي لتجارة العبيد.

ـ 14/ 5/ 1811: بريطانيا، البرلمان يعاقب تجّار العبيد «بجرم العصيان».

ـ 1812 ـ 1814: الحرب بين الولايات المتّحدة وبريطانيا.

ـ 1814: معاهدة غاند، بريطانيا / الولايات المتّحدة. المادّة 10: التعاون في إلغاء تجارة العبيد.

ـ الشهر 6 من 1814: هولندا، إلغاء تجارة العبيد.

ـ الشهر 7 من 1814: اتّفاق ثنائي إنكليزي ـ هولندي يؤكّد إلغاء تجارة العبيد.

ـ 21 و22/ 1/ 1815: اتّفاقية ومعاهدة إنكليزية ـ برتغالية بخصوص الإلغاء الجزئي لتجارة العبيد (شمال خط الاستواء) أُقرّتا في 8/ 6 وعُمّمتا في 26/ 7/ 1815.

ـ 8/ 2/ 1815: إعلان قوى مؤتمر فيينا. بريطانيا، فرنسا، النمسا، روسيا، بروسيا، السويد والبرتغال تلتزم بإلغاء تجارة العبيد.

ـ 29/ 3/ 1815: مرسوم نابوليون الأوّل الذي يبطل تجارة العبيد خلال حرب المئة يوم.

ـ 1815: تنظيم حملة قمع دائمة لتجارة العبيد.

ـ 8/ 1/ 1817: فرنسا، أمر ملكي يمنع تجارة العبيد.

ـ 28/ 7 و11/ 9/ 1817: اتّفاقية إنكليزية ـ برتغالية.

ـ 23/ 9/ 1817: مذكّرة من ملك إسبانيا فردينان السابع واتّفاقية إنكليزية ـ إسبانية تقضي بإلغاء تجارة العبيد في الممتلكات الإسبانية في 30/ 5/ 1820.

ـ 15/ 4/ 1818: أوّل قانون فرنسي لإلغاء تجارة العبيد.

ـ 20/ 4/ 1818: الولايات المتّحدة، مرسوم متمّم لمرسوم إلغاء 1807.

ـ 4/ 5/ 1818: اتّفاقية إضافية إنكليزية ـ هولندية حول منع تجارة العبيد غير المشروعة، تنصّ على حقّ الزيارة وإقامة محكمتين مشتركتين في سيراليون والسورينام.

ـ 9/ 6/ 1818: فرنسا تقوم بحملة لمنع تجارة العبيد على الساحل الإفريقي.

ـ 20/ 11/ 1818: تدابير جزائية تتّخذها هولندا لردع تجارة العبيد.

ـ 3/ 3/ 1819: الولايات المتّحدة تقوم بحملة لمنع تجارة العبيد.

ـ 6/ 9/ 1819: لجنة مشتركة إنكليزية ـ هولندية في سيراليون.

ـ 15/ 5/ 1820: الولايات المتّحدة، اعتبار تجارة العبيد قرصنة.

ـ 1820: انطلاق أولى حملات الزنوج من المستعمرات الفرنسية في الكاريبي نحو إفريقيا.

ـ 1820: الطرّاد الهايتي *ويلبرفورس* يقبض على سفن زنّاجة إسبانية متّجهة إلى كوبا.

ـ الشهر 1 من 1821: رفض الرئيس بواييه (هايتي) تسليم الأفارقة المحرّرين في بورتو برانس إلى السلطات الإسبانية في كوبا.

ـ 1822: استقلال البرازيل.

ـ 10/ 12/ 1822: معاهدة إنكليزية ـ إسبانية لإلغاء تجارة العبيد.

ـ 31/ 12/ 1822: معاهدة إنكليزية ـ هولندية لحظر تجارة العبيد.

ـ 25/ 1/ 1823: معاهدة إنكليزية ـ هولندية متمّمة للأولى.

ـ 15/ 3/ 1823: معاهدة إنكليزية ـ برتغالية حول الموضوع ذاته.

ـ 12/ 1/ 1824: الحكم بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة على المارتينيكيين الأحرار بيسيت، وفابيان وفولني.

ـ 13/ 3/ 1824: اتّفاقية موقّعة في لندن بين بريطانيا والولايات المتّحدة: اعتبار تجارة العبيد عمل قرصنة (لم تقرّها الولايات المتّحدة).

ـ الشهر 11 من 1824: اتّفاق إنكليزي ـ سويدي على إبطال تجارة العبيد.

ـ 1825: اعتراف كلّ من بريطانيا والبرتغال باستقلال البرازيل.

ـ 1826: معاهدة إنكليزية ـ سويدية حول إبطال تجارة العبيد.

ـ 23/ 11/ 1826: معاهدة إنكليزية ـ برتغالية صُدّقت في 13/ 3/ 1827، تنصّ على إلغاء تجارة العبيد في 13/ 3/ 1830.

ـ 25/ 4/ 1827: القانون الفرنسي الثاني لإلغاء تجارة العبيد.

ـ 22/ 2/ 1831: قانون الإلغاء الفرنسي الثالث. نصّ العقوبات.

ـ 7/ 4/ 1831: تنحّي امبراطور البرازيل بيدرو الأوّل لصالح بيدرو الثاني.

ـ 21/ 5/ 1831: عقوبات قضائية تهدّد مهرّبي تجارة العبيد (المادّة 179 من قانون 16/ 9/ 1830 الجنائي).

ـ 7/ 11/ 1831: قانون يمنع دخول الأسرى الإفريقيين إلى البرازيل ويقضي بإعادة الأسرى المحرّرين إلى إفريقيا.

ـ 30/ 11/ 1831: اتّفاق ثنائي فرنسي ـ إنكليزي أُقرّ في 9/ 12/ 1831. الاعتراف بحقّ الزيارة.

ـ 12/ 4/ 1832: البرازيل، مرسوم يحدّد طرق إعادة الزنوج إلى إفريقيا.

ـ 22/ 3/ 1833: الاتّفاقية الفرنسية ـ الإنكليزية الثانية.

ـ 1833: مرسوم إعتاق العبيد في المستعمرات البريطانية.

ـ 28/ 6/ 1835: معاهدة إنكليزية ـ إسبانية تمنع تجارة العبيد.

ـ الشهر 3 من 1836: تعميم المعاهدة السابقة.

ـ 1/ 8/ 1838: إلغاء الاستعباد في الهند.

ـ 24/ 8/ 1839: مرسوم البرلمان، في عهد بالمرستون الذي أذن للطرّادات الإنكليزية بالقبض على الزنّاجات البرتغالية.

ـ 20/ 12/ 1841: معاهدة لمنع تجارة العبيد وقّعتها بريطانيا، وفرنسا، والنمسا، وبروسيا، وروسيا ولم تقرّها فرنسا.

ـ 3/ 7/ 1842: معاهدة إنكليزية ـ برتغالية تحظّر تجارة العبيد.

ـ 25/ 7/ 1842: مذكّرة إضافية إلى المعاهدة السابقة: الحكومة البرتغالية تنشر مرسوماً يقضي بعقوبات صارمة ضدّ ممارسي تجارة العبيد المشبّهة بالقرصنة.

ـ 9/ 8/ 1842: معاهدة وبستر ـ أشبورتون (واشنطن) بين الولايات المتّحدة وبريطانيا التي تنصّ (المادّة 8) على تنظيم حملة لمنع تجارة العبيد تجمع بين البحريتين.

ـ 1842: إنشاء معهد إفريقيا، في باريس.

ـ 2/ 3/ 1845: قانون جزائي إسباني يدين تجارة العبيد.

ـ 29/ 5/ 1845: اتّفاقية إنكليزية ـ فرنسية (11 مادّة) أُقرّت في 7/ 6/ 1845، لإنشاء حملة مشتركة تمنع تجارة العبيد، مؤلّفة من 26 سفينة حربية «شراعية وبخارية» بين الرأس الأخضر وخطّ العرض 16 درجة و30.

ـ 8/ 8/ 1845: مرسوم *اللورد أبردين* الذي ينظّم إجراءات المحاكمة والاستئناف لدى المحاكم البحرية. حقّ القبض على المراكب الزنّاجة البرازيلية من قبل سفن البحرية الإنكليزية.

ـ 18/ 8/ 1846: رئيس الوزراء اللورد جون راسل يطلب التصويت على مرسوم ضرائب السكّر.

ـ 1847: إلغاء الاستعباد في سان بارتولوميو، مستعمرة سويدية.

ـ 27/ 4/ 1848: مرسوم إعتاق العبيد في المستعمرات الفرنسية.

ـ الشهر 7 من 1848: إلغاء الاستعباد في جزر العذارى الدانماركية.

ـ الشهر 9 من 1848: زيارة رئيس ليبيريا روبرتس إلى باريس، وطلبه مساعدة الطرّادات الفرنسية.

ـ الشهر 6 من 1849: أولى عمليات التنظيف التي قام بها روبرتس عند سواحل ليبيريا.

ـ الشهران 1 و6 من 1850: طرّادات البحرية الملكية البريطانية تقصف السفن الزنّاجة في خليج الريو وفي باهيا.

ـ من الشهر الثاني إلى الرابع من 1850: عملية *التنظيف* الثانية التي قام بها روبرتس.

ـ 4/ 9/ 1850: في البرازيل، قانون أوسيبيو دي كيروز يعتبر استيراد العبيد جرم قرصنة. وقد أُرفق بمرسومي 14/ 10 و14/ 11/ 1850.

ـ 1/ 1/ 1852: أكيتوي، ملك اللاغوس، يوقّع معاهدة مع بريطانيا لإلغاء تجارة العبيد.

ـ 13/ 2 و29/ 3/ 1852: مراسيم تسمح بتجنيد عمّال إفريقيين للمستعمرات الفرنسية.

ـ 1852 ـ 1862: استيراد نحو 20 ألف إفريقي إلى المستعمرات الفرنسية الغوادلوب، وغويانا، والمارتينيك.

ـ 5/ 6/ 1854: قانون يوسّع صلاحيات المحاكم البحرية التي أنشأها قانون الشهر 9 من 1850.

ـ 1861: ضمّ اللاغوس (نيجيريا) من قبل البريطانيين.

ـ 7/ 6/ 1862: معاهدة بين الولايات المتّحدة وبريطانيا لإبطال تجارة العبيد، وُقّعت في واشنطن في 7/ 4/ 1862 وأُقرّت في لندن في 20/ 5/ 1862.

ـ من31/ 12/ 1862 إلى 5/ 1/ 1863: حصار ريو دي جانيرو بحرياً من قبل الإنكليز.

ـ 1863: إلغاء الاستعباد في المستعمرات الهولندية.

ـ 24/ 9/ 1864: قانون يتعلّق بحرّية المعتوقين من البرازيل.

ـ 1865: الولايات المتّحدة، إلغاء نظام الاستعباد.

ـ الشهر 9 من 1866: إسبانيا، مرسوم ملكي يمنع تجارة العبيد.

ـ الشهر 4 من 1869: إبطال مرسوم أبردين.

ـ 1870: ضمّ الشعبة البحرية لإفريقيا الغربية إلى الشعبة البحرية للرأس الأخضر.

ـ الشهر 7 من 1870: إسبانيا، قانون موريت لتحرير المعتوقين الكوبيين ونظام الوصاية.

ـ 16/ 9/ 1870: اتّفاقية مضافة إلى معاهدة 1862، الولايات المتّحدة/ بريطانيا، تتعلّق بتجارة العبيد، وُقّعت في 3/ 6/ 1870 وأُقرّت في 10/ 8/ 1870.

ـ 1871: حلّ محكمة فريتاون (سيراليون) المشتركة.

ـ 28/ 9/ 1871: قانون «الولادة الحرّة» في البرازيل.

ـ 1873: بورتوريكو، إلغاء نظام الاستعباد.

ـ 1880: كوبا، نظام الوصاية، إلغاء الاستعباد تدريجياً.

ـ 7/ 10/ 1886: كوبا، إلغاء نظام الاستعباد.

ـ 1888: البرازيل، إلغاء نظام الاستعباد.

ـ 14/ 12/ 1890: أمر من روي باربوسا، وزير المالية، بإتلاف المحفوظات الوطنية المتعلّقة بالاستعباد في البرازيل.

ـ 29/ 5/ 1891: البرازيل، مذكّرة من وزارة المالية بتوقيع المستشار تريستاو دي ألنكار أراريبي تأمر بإتلاف محفوظات المقاطعات المتعلّقة بالاستعباد.

ـ 1892: حلّ محكمة هافانا المشتركة.

ـ 1921: إلغاء المادّة الأولى من معاهدة 1826 الإنكليزية ـ البرازيلية المكافِحة لتجارة العبيد.

الفصل الثالث

أساس حركة العودة إلى إفريقيا «توطين» أو إبعاد

«تجارة العبيد هي المبدأ الذي يحكم شعبي. إنّها مصدر مجده وثروته...»

ملك الداهومي جيزو، إلى القبطان وينيت، بحرية الولايات المتّحدة، 1840.

دخلت المواجهة بين البيض والسود في الكاريبي، والبرازيل، والولايات المتّحدة منعطفاً حاسماً خلال القرن التاسع عشر. كان هناك مشرّعون من البيض، في أمريكا الشمالية، ينوون التخلّص من الزنوج الأحرار عبر إرسالهم إلى إفريقيا. في منطقة الكاريبي، وخصوصاً في كوبا والبرازيل، ترافقت فكرة رجوع المعتوقين بحركات عصيان العبيد، واستمرارية تجارة الرقّ غير القانونية وعمليات قمعها في البحر بواسطة الطرّادات الإنكليزية.

تأسيس الجمعية الأمريكية للاستيطان سنة 1816

يوجد رجلان خلف *تأسيس الجمعية الأمريكية للاستيطان*: الأب روبرت فينلي والقس صموئيل جون ميلز. كان فينلي قد وضع تصوّراً لنقل الزنوج الأحرار إلى إفريقيا. ورأى أنّ هناك ثلاث فوائد من تنفيذ مشروع

كهذا: التخلّص منهم، وإرسال شعب «متمدّن جزئياً» ومنصّر يمكنه تقديم المساعدة لإفريقيا، واستفادة زنوج الولايات المتّحدة من هذا الوضع. من أجل المشروع بحث فينلي عن مستثمرين وتلقّى دعم *الجمعية الإفريقية للتربية*. هذه المؤسّسة المتخصّصة في إعداد إرساليين سود قبلت تأهيل مبشّرين لإرسالهم إلى إفريقيا.

ميلز، وهو مبشّر لدى *الجمعية الإفريقية للتربية*، كان قد أسّس سنة 1808 أوّل جمعية للمبشّرين: *الهيئة الأمريكية لمندوبي الإرساليات في الخارج*. هو أيضاً، مثل فينلي، كان يعتقد بضرورة إبعاد الزنوج الأحرار من الولايات المتّحدة. بالنسبة إلى كليهما، كما بالنسبة إلى الكثير من معاصريهما، كانت المعضلة تُطرح من الزاوية التالية: «علينا إنقاذ السود، وإلاّ سيدمّروننا»[1]. فينلي أعلن عن مشروعه في اجتماع خاص في برنستون في الشهر 11 من 1816. وشرح كيف أنّ رحيل السود ضروري لتحسين ظروف حياتهم. بهذه الطريقة ستتجنّب الولايات المتّحدة هذا «المزيج بين كلّ الألوان» ونفوذ هذا الشعب الأسود «الذي لا يلائم اندفاعنا الديني وأخلاقياتنا». أمّا إفريقيا، فستستفيد برأيه من عودة أبنائها «الذين تعلّموا أصول العيش وتهذّبوا بفعل الدين». هؤلاء «الأبناء» سيزرعون بذور الحضارة لدى «المتوحّشين الهائمين في ذلك الجزء الكبير من الكرة الأرضية»[2].

لتعميم مشروع تأسيس الجمعية، نشر فينلي في واشنطن رسالة بعنوان *تأمّلات في الاستيطان*. وأملاً منه في الحصول على دعم مادّي من الحكومة، استقرّ في واشنطن وأرسل منشوره إلى أعضاء الكونغرس إلياس كالدويل وفرنسيس سكوت كي، مؤلّف نشيد *الراية المتلألئة بالنجوم*،

(1) ستودنروس، حركة *الاستيطان الإفريقية*، نيويورك، منشورات جامعة كولومبيا، 1961، ص.ص. 18-19.

(2) إيزاك ف. براون، مذكّرات الأب روبرت فينلي...، نيويورك، 1819.

اللذان ساعداه في عرض أفكاره في الصحافة. ونجحا في جمع عشرين شخصية سياسية ودينية في 21/ 12/ 1816 في فندق ديفيس في واشنطن، لإرساء قواعد الجمعية. وقد فكّروا في «وسائل وإمكانات تحسين وضع الأشخاص الملوّنين الأحرار الموجودين في الولايات المتّحدة، عبر منحهم تقاعداً استيطانياً، إمّا على القارّة، أو على الأرض الإفريقية»[1]. وحصل نقاش برئاسة هنري كلاي الذي أصرّ على أنّ المطلوب ليس القضاء على الاستعباد، بل التخلّص من الزنوج الأحرار، وهم «فئة غير نافعة، لا بل ضارّة وخطرة أيضاً»[2].

عقد اجتماع تأسيسي في 28/ 12/ 1816. وأخذت الجمعية المؤسّسة اسم: *الجمعية الأمريكية لتوطين شعب الولايات المتّحدة الملوّن الحر*. أمّا تحديد أهداف الجمعية، الوارد في البند الثاني، فلم يكن واضحاً. كانت الجمعية تقول بنقل السود لتعمير مكان يحدّده الكونغرس: «تنفيذ مشروع لإرسال وتوطين الأشخاص الملوّنين الأحرار المقيمين في بلادنا (بعد موافقتهم) في إفريقيا أو أيّ مكان آخر يجده الكونغرس مناسباً. وستتحرّك الجمعية في هذا الاتّجاه، بالتعاون مع الحكومة العامّة ومع حكومات الولايات التي ستسنّ قوانين بهذا الشأن»[3].

في 1/ 1/ 1817، تمّ انتخاب أعضاء الجمعية الذين وضعوا أنظمتها. بين المشاركين المنتخَبين ـ إضافة إلى وجود فرديناند فاكس ووليام ثورنتون ـ نذكر:

---

(1) جورج م . فريدريكسون، *صورة الأسود في نظر الأبيض. النقاش حول الشخصية الأفرو-أمريكية وقدرها*، 1817-1914، نيويورك، 1971، ص. 7.

(2) في مخطوطة *سجلّ اللقاء*، مكتبة الكونغرس، ذكره هنري نوبل شيروود، «تشكيل الجمعية الأمريكية للاستيطان»، مجلّة *تاريخ الزنوج*، العدد الثاني، الشهر 7 من 1917، ص.ص. 209-228.

(3) البند الثاني من قانون الجمعية الأمريكية للاستيطان الأساسي. في أ. ألكسندر، *تاريخ التوطين في الساحل الإفريقي الغربي*، فيلادلفيا، 1849، ص. 89.

- بوشرود واشنطن (نسيب جورج واشنطن)، رئيس.

نوّاب الرئيس الإثنا عشر:

- وليام هـ. كروفورد، من جورجيا، وزير المالية.
- هنري كلاي، من كنتاكي، رئيس البرلمان.
- العقيد هنري راتجرز، من نيويورك.
- جون إيغر هوارد.
- صموئيل سميث.
- جون هربرت، من ميريلاند.
- جون تايلور، من فرجينيا.
- الجنرال أندرو جاكسون، من تينيسي.
- روبرت رالستون، من بنسلفانيا.
- ريتشارد راش، من بنسلفانيا.
- الجنرال جون ميسون، من إقليم كولومبيا.
- الأب روبرت فينلي.

أعضاء مجلس الإدارة:

- فرنسيس سكوت كي.
- والتر جونز.
- الأب ستيفن ب. بالتش.
- إدموند ج. لي.
- الأب أوباديا ب. براون.
- جيمس هـ. بلايك.

- هنري كارول.

- جون بيتر.

- جاكوب هوفمان.

- وليام ثورنتون.

أمين السر: إلياس كالدويل؛ أمين المحفوظات: و. ج. د. ورثنغتون. أمين الصندوق: ديفيد إنغلش.

استفادت *الجمعية* من طابعها المزدوج، وحاولت استمالة الشماليين والجنوبيين على السواء. لأهل الشمال، كانت تقول إنّها مع إلغاء الرق؛ ولأهل الجنوب كانت تظهر كحامية لنظام الاستعباد. وهكذا خدعت أشخاصاً كثيرين، خصوصاً مناهضين معروفين للاستعباد رغبوا في الكفاح انطلاقاً منها لتحرير السود والمشاركة في تنصير إفريقيا وتمدينها. في الاجتماع الأوّل، ألم يعلن جون راندولف أنّ على الجمعية «حفظ مصلحة كلّ ملاّكي الولايات المتّحدة والدفاع عن حقوقهم على العبيد»[1]؟

تعليقات الصحافة بمجملها على أهداف الجمعية كانت إيجابية، غير أنّ بعض الصحف القليلة نشرت مقالات معارضة. تقول جريدة *رسالة جورج تاون*، إنّ *الجمعية* تريد أن تخلّص البلاد من «دم أدنى» وتبعد مخاطر التمرّد وتمنع الزيجات المختلطة، ولم تستبعد هذه الجريدة احتمال إجبار الزنوج الأحرار، إن بدا هذا ضرورياً، على مغادرة البلاد لتجنّب حصول هذه «الكارثة» الأخيرة. أمّا جريدة بريد نيويورك، في عدد 1/ 1/ 1817، فكانت أكثر تهكّماً: «لِمَ لم يُعرض شيء على العبيد السود؟ لِمَ لا يُرسلون هم أيضاً إلى إفريقيا؟ ستكون لهذه البادرة صبغة إنسانية ومتجرّدة. ولكن هناك خطر من ترك السود المستعبدين يخالطون السود الأحرار. لهذا السبب هي تُظهر كلّ هذا العطف وهذه الإنسانية المفاجئة والسطحية».

---

(1) انظر ستودرنوس، المرجع المذكور آنفاً، ص. 29.

في الجريدة ذاتها، نُشر مقال بعنوان سمبو، في عدد 5/ 1/ 1817، ذهب أبعد من ذلك في السخرية اللاذعة: بما أنّ الاستيطان فكرة جيّدة، «لِمَ لا يعود هنري كلاي إلى إنكلترة من حيث أتى أجداده؟». واقترح كاتب المقال أن «يبقى الزنوج في الولايات المتّحدة ليذهب البيض إلى إفريقيا». نعرف أنّه في الولايات المتّحدة، كانت التسمية سمبو تنطبق على نموذج الزنجي الخاضع، المطيع، المخلص لسيّده. هذا النموذج هو الذي ساد طويلاً في نتاج المؤرّخين البيض والجنوبيين. وأظهرت الأبحاث التي تناولت مقاومة الزنوج في الولايات المتّحدة وفي الكاريبي[1] الطابع السطحي لهذا النموذج من الزنوج الذي ولد في خيال بعض المؤرّخين العنصريين. بالطبع، هذا المقال الذي ورد في بريد نيويورك يعكس بصدق وبلغة مبسّطة عمداً، أفكار كاتبه الأبيض.

يسمح تحليل نُشر في جريدة *المخزن* ـ الأداة الرسمية للجمعية الأمريكية للاستيطان ـ بالإحاطة بأفكار «الاستيطانيين» بشكل أفضل. نكتشف أوّلاً خوف السكّان البيض تجاه تزايد الشعب الأسود. كان يوجد حينئذٍ نحو مئتي ألف زنجي حرّ في الولايات المتّحدة. في شمال البلاد، اتُّهم السود الأحرار بنشر الفوضى، وقيل إنّهم المحرّضون على المشاكل والمسؤولون عن الإجرام المتنقّل. في الجنوب، كانوا يمثّلون خطراً يرد على الدوام في أحاديث الوجهاء. كان «الشعب الملوّن الحر» فئة تشجّع العبيد على المقاومة، ولهذا يجب اقتلاعها بطريقة أو بأخرى. توطين ، أو استبعاد، لا يهمّ ما هو المصطلح، المهمّ بالنسبة إلى الشمال كما إلى الجنوب التخلّص من مشكلة مزعجة.

معارضة الزنوج

حاولت *الجمعية* إقناع الزنوج الأحرار بأنّ من مصلحتهم مغادرة

---

(1) انظر أورونو د. لارا، *جزر الكاريبي في طور البناء...*، المذكور آنفاً، و«كفاح ومقاومة»، في ديوجين، الأونسكو، عدد خاص «دروب الاستعباد وآثاره»، 1998.

الولايات المتّحدة حيث لا يوجد أيّ أمل لهم في الحصول على حقوقهم المدنية والسياسية. وكانت مجموعة زنوج أحرار من ريتشموند في فرجينيا أوّل من ردّ على هذه الدعوة. فنشروا إعلاناً لا يلغي فكرة «الاستيطان» لكنّهم رفضوا الذهاب إلى إفريقيا. كانوا يفضّلون الإقامة في ميسوري أو في ولاية أخرى من الولايات المتّحدة[1]. أمّا ردّة فعل زنوج فيلادلفيا الأحرار فكانت حاسمة أكثر. في هذه المدينة التي كان يوجد فيها أكبر عدد من الأحرار، لم تتأخّر الأفكار المعارضة في التعبير عن نفسها. فاجتمع ثلاثة آلاف زنجي حر في كنيسة *بيتيل* بقيادة جيمس فورتن، والأب ريتشارد آلن، وأبسالوم جونز، وروبرت دوغلاس، وراسل باروت، لمناقشة المسألة. كلّهم انتقدوا بشدّة «محاولة المروّجين لإجراء الترحيل تلطيخ سمعة الأشخاص الملوّنين الأحرار بالإعلان أنّهم جماعة خطرة وغير مفيدة»[2]. ورفضوا قطعاً فكرة مغادرة وطنهم، الولايات المتّحدة، أو حتّى الانشقاق عن المجموعة المستعبدة، وصرّحوا بأنّه «من الأشرف لهم مشاركتها عذاباتها في هذا البلد من القبول ببعض الصلاحيات التي لن تكون أكثر من مؤقّتة»[3].

ريتشارد آلن (1760 ـ 1831) هو مؤسّس الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية وأوّل مطارنتها. وُلد عبداً في فيلادلفيا، وبيع لمستعمِرين في دوفر (ديلاوير). تحوّل إلى الميتودية، وبعد إعتاقه، تابع دراسات خاصّة وعُرف كمبشّر. سافر في أنحاء ديلاوير، ونيو جرسي، وبنسلفانيا، وميريلاند. شارك سنة 1784 في أوّل مؤتمر عام للكنيسة الميتودية في بالتيمور. سنة 1787، وهرباً من العنصرية وإهانات السكّان البيض، نظّم الزنوج *الجمعية الإفريقية*

(1) مسجّل بوسطن في 18/ 2/ 1817.

(2) تقرير عن *لقاء السود الأحرار في كنيسة بيتيل*، فيلادلفيا، الشهر واحد من 1817، في كتاب وليام لويد غاريسون، *تأمّلات في الاستيطان الإفريقي*، فصل «مشاعر الشعب الملوّن»، نيويورك: منشورات أرنو والنيويورك تايمز، 1968.

(3) المرجع ذاته.

الحرّة وأسّسوا بيتيل المستقلّة. سنة 1799 سيم آلن نائب كاهن وأصبح سنة 1816 مطران الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية التي كانت تضمّ يومئذٍ ستّ عشرة رهبانية.

كتبت هيئة من أحد عشر شخصية من المجموعة السوداء إلى عضو الكونغرس جوزف هوبكنز من فيلادلفيا، وعرضت له حجج السود الأحرار في هذه الولاية ضدّ مشاريع *الجمعية الأمريكية للاستيطان*. هذه الهيئة كانت تضمّ الأبوين أبسالوم جونز، ريتشارد آلن، جون غلوستر، جيمس فورتن، روبرت دوغلاس، فرنسيس بركنز، روبرت غوردن، جيمس جونسون، كواموني كلاركسون، جون سيرمرسيت، راندال شيبارد.

جون غلوستر (1776؟ ـ 1822)، أسود أصله من كنتاكي، أسّس سنة 1807 في فيلادلفيا أوّل *كنيسة إفريقية*.

جيمس فورتن، أسود أصله من فيلادلفيا، كان من قدامى المحاربين من أجل استقلال الولايات المتّحدة. أرسل سنة 1813 إلى مجلس الشيوخ في بنسلفانيا نداء بعنوان *رسائل من رجل ملوّن حول قانون متأخّر*. في هذا النداء كان يندّد بالاستعباد، وينادي بالمساواة مع السكّان البيض و«بحقوق الزنوج الثابتة». عند وفاته، ترك ثروة ضخمة قُدّرت بنحو مئة ألف دولار.

أرسل مدراء جمعية *الاستيطان* فينلي إلى *فيلادلفيا* لإزالة المخاوف وتهدئة غضب الزنوج الأحرار. جيمس فورتن كتب في 25/ 1/ 1817 إلى بول كاف يسأله رأيه في «الاستيطان». وكانت رسالته تدلّ على وجود خلافات في الرأي بين الجماعة وقادتها: «يجب أن نذكر لك الآن أنّ القارّة كلّها تبدو مضطربة بسبب مشاكل توطين الأشخاص الملوّنين (...).

الأشخاص الملوّنون عاشوا خوفاً شديداً في البداية. خافوا من أن يُرغم كلّ الزنوج الأحرار على السفر، خصوصاً في الولايات الجنوبية. لا يوجد أيّ مؤيّد لفكرة الذهاب إلى إفريقيا. هؤلاء الناس يعتقدون أنّ مالكي العبيد يريدون التخلّص منهم لحماية مصالحهم (...) غير أنّنا قرّرنا

الاحتفاظ بالصمت، بما أنّ البيض والسود يعارضون هذا النظام. وبرأيي الخاص أنّ السود لن يصبحوا شعباً بمعنى الكلمة طالما لن ينفصلوا عن البيض. لكن بما أنّه من الواضح أنّ الأكثرية ضدّي، قرّرتُ أن أسكت، إلاّ عن رأيي الخاص، الذي سأدلي به بكلّ حرّية إذا ما سُئلت عنه...»(1).

بول كاف (1759 ـ 1817)، من أبوين أسودين ومواطنين أصليين من الولايات المتّحدة، أبحر في سنّ السادسة عشرة على متن حوتية في رحلة للصيد. كان والده، كاف سلوكام، يملك أرضاً مساحتها مئة أكر في كاتيهانك (ماساتشوستس). عند عودته إلى وستبورت (كونيتيكات)، أصبح بول كاف صاحب سفن، كما عمل في الزراعة. سنة 1808، انضمّ إلى جمعية *أصدقاء وستبورت* وحمل لواء العودة إلى إفريقيا. وبنفسه وظّف أربعة آلاف دولار سنة 1811 وانطلق من وستبورت إلى سيراليون على متن السفينة *المسافر*. سنة 1815 قام برحلة ثانية برفقة تسع عائلات من السود وعزم النيّة على القيام بسفرة كلّ سنة، لكن وضعه الصحّي السيّئ لم يسمح له. توفّي سنة 1817، تاركاً أرضاً زراعية بقيمة عشرين ألف دولار. كان بول كاف وشقيقه قد وقّعا سنة 1780 على عريضة أرسلها الزنوج الأحرار إلى محكمة ماساتشوستس العامّة، وفيها عبّروا عن رفضهم دفع الضرائب، طالما أنّ السلطات لا تعترف بهم كمواطنين.

بعد إعادة النظر في مشروع *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، قام فورتن والقادة الآخرون، يتبعهم ثلاثة آلاف شخص حضروا اجتماع 10/ 8/ 1817 في محكمة غرين، بإطلاق نداء مؤثّر إلى «سكّان فيلادلفيا...» طامحين إلى أن يلقوا تأييدهم لقضيتهم:

«بعد تخلّصنا من معاناة الاستعباد، بفضل مساعدتكم، وبعد تحقيقنا لبعض المكاسب بعملنا وجدّنا (...) لا نرغب أبداً في ترك منازلنا الحالية، من دون أيّ دافع. لهذا شعرنا بالأسى وبالأسف الشديد عندما اطّلعنا على

(1) من ج. فورتن إلى ب. كاف في 25/ 1/ 1817، في مجلّة *تاريخ الزنوج*، العدد الثامن، الشهر 4 من 1923، مقال «بول كاف» بتوقيع هـ. ن. شيروود.

مشروع توطين مجموعة ملوّنة وحرّة من الولايات المتّحدة على الساحل الإفريقي، بموافقة ومباركة شخصيات هي من الأكثر حكمة وإدراكاً، ومن أفضل شخصيات هذه الأمّة العظيمة (...). إذا كان هذا المشروع يهدف إلى إفادتنا فنحن نتوجّه بكلّ تواضع وامتنان بالشكر إلى الذين وضعوه، لكنّنا ننكر ونرفض كلّ صلة لنا به. وبكلّ احترام لكن بكلّ حزم، نعلن عن تصميمنا ألاّ نشارك فيه من قريب أو بعيد»[1].

كان لدى الزنوج الأحرار سببان للوقوف في وجه جمعية الاستيطان. إذ كان مشروعها ينكر عليهم حقوقهم المدنية والسياسية في الولايات المتّحدة، كما كان يعزّز استمرارية الاستعباد بدل التشجيع على إعتاقات جديدة.

وبالفعل قام سكّان فيلادلفيا، وكانوا بمعظمهم من الصاحبيين، بتأييد السود.

رفض المساعدة الفدرالية

وجّهت *الجمعية الأمريكية للاستيطان* التماساً موقّعاً من رئيسها بوشرود واشنطن، إلى الكونغرس تطلب فيه الرعاية والدعم المالي لتنفيذ مشروع الترحيل الذي وصفته «بالإنساني» و«الوطني». هذا الطلب وصل إلى اللجنة البرلمانية التي تعمل على موضوع تجارة العبيد والتي أوصت بالتعاون مع بريطانيا وسيراليون[2]. لم تتقبّل اللجنة الفدرالية فكرة تأسيس

(1) نداء موجّه «إلى سكّان مدينة ومقاطعة فيلادلفيا الفاضلين» في 10/ 7/ 1817، في كتاب و.ل. غاريسون، *تأمّلات في الاستيطان*، فصل «مشاعر الشعب الملوّن»، ص.ص. 10-11.

(2) بالنسبة إلى وضع سيراليون، انظر: وزارة الشؤون الخارجية، باريس، الرسائل القنصلية والسياسية، سيراليون، المجلّد 1، 4، شؤون سياسية متفرّقة، إفريقيا الورقة 5، الرسائل السياسية والتجارية، إفريقيا الغربية، الورقتان 18 و65؛ انظر أيضاً في محفوظات ما وراء البحار، إكس ان بروفانس، السلسلة الجغرافية، إفريقيا، الجزء الرابع، المستعمرات الإنكليزية، الملفّات 19، 53، 55، إفريقيا، الجزء السادس، إنكلترة، الملفّات 12، 21، 30، 38، 52؛ وأيضاً سيراليون، وزارة الخارجية البريطانية 315.

مستوطنتين متنافستين: «فهذا يؤدّي إلى حروب وصدامات»[1]. أمام رفض السلطات البرلمانية، عمد أعضاء *الجمعية الأمريكية للاستيطان* إلى استمالة الرأي العام في الولايات المتّحدة لتأييد قضيّتهم، فوزّعوا منشورات وكرّاسة من 24 صفحة تتضمّن أنظمة الجمعية، ونقاشات الاجتماع الأوّل، والطلب الموجّه إلى الكونغرس وعدّة ملحقات.

حاول أعضاء *الجمعية الأمريكية للاستيطان* الاستعلام عن إفريقيا من الإنكليز، فنصح توماس كلاركسون مسؤوليها بإقامة مستوطنة في جزيرة شيربرو، وهي جزيرة خصبة، ذات مناخ صحّي تسكنها بضع «قبائل» مسالمة. فتقرّر القيام برحلة استطلاعية، تموّلها فروع الجمعية في فيلادلفيا، ونيويورك، وبالتيمور، وتبرّعات من أنحاء البلاد. صموئيل جون ميلز وإيبنزر بورجس، وهو أستاذ رياضيات في كلّية برلنغتون في فرمونت، أبحرا على متن السفينة *إلكترا*. فذهبا أوّلاً إلى إنكلترة في الشهرين الأوّلين من سنة 1818، حيث جمعا معلومات عديدة من أنصار إبطال الاسترقاق، ثمّ إلى سيراليون[2]. زارا فريتاون ثمّ انطلقا إلى جزيرة شيربرو في 30/ 3/ 1818، يرافقهما جون كيزيل، شريك بول كاف، وكان من سكّان المنطقة ويعرفها حقّ المعرفة[3].

كما نُصحوا في فريتاون، التقوا توماس كولكر في جزر البانانا وابن أخيه جورج كولكر في جزر بلانتان، إذ كان بوسع هذين الأخيرين تعريفهم إلى زعماء القبائل المحلّية. فحاولوا التفاوض مع ملك شيربرو، ومع ملوك صغار آخرين في الجوار لكن من دون جدوى. الزعماء الإفريقيون قبلوا كلّ الهدايا، وطلبوا مشروب الروم، لكنّهم لم يعطوا أيّ موافقة على إقامة مستوطنة على أرضهم. بورجس وميلز عادا إلى فريتاون، واثقين من نجاح

(1) تقرير اللجنة البرلمانية في 11/ 2/ 1817 ردّاً على طلب *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، في كتاب ألكسندر أرشيبالد، *تاريخ التوطين في ساحل إفريقيا الغربي*، ص.ص. 96-97.

(2) سبرنغ، *مذكّرات ميلز*، ذكره أ. ألكسندر، المرجع المذكور آنفاً، ص. 101.

(3) المرجع ذاته، ص. 106-107.

مهمّتهما. ميلز مات في عرض البحر في 16/ 6/ 1818، على طريق العودة، على متن القلعية *نجاح*.

بعد تلقّيه تقرير ميلز وبورجس، رفض الكونغرس من جديد أن يقدّم رعايته الرسمية للجمعية الأمريكية للاستيطان(1). وزير الشؤون الخارجية جون كوينسي أدامز، المعارض بشدّة للجمعية، لم يكن يحبّ مسؤوليها، وكان يقول إنّهم «رقّيون محنّكون» كلّ همّهم التخلّص من الزنوج الأحرار لرفع سعر العبيد، بينما اتّهم آخرين بأنّهم «مراهنون يسعون للربح وللأوسمة الرسمية»(2). كانت حكومة الرئيس مونرو تضمّ جون أدامز، والمدّعي العام وليام ويرت، ووزير الحرب جون كالهون، ووزير البحرية سميث تومسون. هذه الإدارة الفدرالية رأت أنّ شراء أرض وتأسيس مستوطنة في إفريقيا هما مضادّان للدستور.

كذلك فشل تدخّل قادة الجمعية لدى الرئيس مونرو تحت ضغط معارضة الوزير ويرت الشديدة. لكن مسؤولي الجمعية، كروفورد، وكي، وكالدويل نجحوا في خداع ويرت وأقنعوه بالسماح لهم بإرسال وكلاء وعمّال فنّيين ـ من الزنوج الأحرار ـ ليهيّئوا حضوراً حكومياً. حالما انتُزع هذا الإذن الرسمي، غادر الأب صموئيل بايكون، قسّ الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، وهو ضابط سابق، وجون ب. بانكسون، اللذان اختارتهما الجمعية، غادرا إلى نيويورك لتنظيم حملة. فأبحرا في الشهر 1 من 1820 برفقة ثلاثين عائلة من السود الأحرار، ما مجموعه 86 شخصاً، على متن السفينة *إليزابيث* يرافقها السلوب الحربي *سيان*.

---

(1) سبرنغ، *مذكّرات ميلز*، ص.ص. 218-222؛ *توجّه مجلس مدراء الجمعية الأمريكية للاستيطان إلى الجمعيات المساعدة وشعب الولايات المتّحدة*، واشنطن، 1820، ص. 4.

(2) *مذكّرات جون كوينسي أدامز، تتضمّن مقتطفات من يوميّته من 1795 إلى 1848*، نشرها تشارلز ف. أدامز، فيلادلفيا، 1875، الجزء الرابع، ص.ص. 292-293.

ليبيريا: مستوطنة للجمعية الأمريكية للاستيطان

وصلوا إلى جزيرة شيربرو في الشهر 3 من 1820 حيث كان ينتظرهم جون كيزيل، رئيس جمعية *الصداقة*، التي تأسّست بتشجيع من بول كاف. كيزيل كان قد اشترى قطعة أرض وبنى قرية من عشرين كوخاً في كامبيلا وسط جزيرة شيربرو. شهدت بدايات المستوطنة جوّاً من النقاشات المملّة والطويلة والعقيمة مع الزعماء المحلّيين، وصعوبات في تأمين الغذاء، وموسم أمطار غزيرة. في 15/ 3/ 1820، كان هناك أربعون حالة مرض. بانكسون مات في 16/ 4، وبايكون في 1/ 5[1]. الأب دانيال كوكر، وهو أسقف أسود ميتودي من بالتيمور، صديق بول كاف، بقي وحده لإدارة المستوطنة الصغيرة، ثمّ سحبها معه إلى فوراه باي، قرب فريتاون.

في 23/ 1/ 1821 انطلقت حملة ثانية نحو إفريقيا. الرئيس مونرو كان قد عيّن كوكيلين للحكومة الأب إفراييم بايكون، شقيق صموئيل، وجوناثان ب. وين. فأبحرا على القلعية نوتيلوس برفقة ممثّلي الجمعية: الأب جوزف ر. اندروس وكريستيان ويلتبرغر، ومعهم واحد وعشرون مهاجراً، فوصلوا إلى فريتاون في الشهر 3 من 1821. الوكلاء الأربعة جمعوا الناجين وسعوا لإقامة مستوطنة جديدة في رأس ميزورادو الذي تقطنه قبيلتا مامبا ودي[2]. وجرت مفاوضات بشأن معاهدة مع ملك باسا الكبيرة جاك بن، لاكتساب أرض مساحتها 60 كلم^2.

في الشهر 11 من 1821 وصل وكيل جديد، هو إيلاي إيرس الذي علم بوفاة أندروس ووين، مصابين بالملاريا. أمّا بايكون فقد جُنّ وهرب إلى الكاريبي. المغامرة تحوّلت إلى مأساة. واستطاعت إدارة *الجمعية الأمريكية للاستيطان* إقناع الحكومة الفدرالية بإرسال ضابط هو الملازم روبرت فيلد ستوكتون إلى إفريقيا، في مهمّة للحصول على أرض

---

(1) مجلّة *مجلس المدراء*، 16/ 10/ 1820؛ أوراق الجمعية الأمريكية للاستيطان؛ أشمون، *مذكّرات بايكون*، ص.ص. 244، 249، 263، 278.

(2) انظر ريتشارد وست، *تاريخ سيراليون وليبيريا*، *العودة إلى إفريقيا*، 1970، ص.113.

للمستوطنة. ستوكتون وإيرس أبحرا في 12/ 1821 إلى رأس ميزورادو والتقيا الملك بيتر. بعد مقابلة في بلدته، أُبرمت «اتفاقية تنازل وشراء أراض» مع زعماء ميزورادو في 15/ 12/ 1821[1].

مستوطنة ليبيريا، وعاصمتها مونروفيا، أُخضعت لوصاية *الجمعية الأمريكية للاستيطان*. وبالرغم من معارضة مواطني دي الأصليين (وكان ملكهم جورج)[2]، أنزل المستوطنون في الشهر 4 في رأس ميزورادو، عند مصب نهر سان بول، في الخليج الذي ستُبنى فيه مونروفيا. في 28/ 4/ 1822، رفع العلم الأمريكي للمرّة الأولى. وبالرغم من موسم الأمطار، والأمراض، تشكّلت نواة مستوطنين صغيرة بإشراف إيليجا جونسون، وقرّرت البقاء والمكافحة للاستمرار.

وصول «جهودي أشمون» في الشهر 8 من 1822 على رأس مجموعة من العبيد المحرّرين كان دعماً للمستوطنة. فسعى للدفاع عنها ضدّ الأفارقة المحليين، ولصدّ هجماتهم في الشهر 12. بعد مغادرته في الشهر الثامن من 1824 إلى جزر الرأس الأخضر، أوفدت *الجمعية الأمريكية للاستيطان* الأب رالف غورلي، أمين سرّها. فالتقى جهودي أشمون في جزر الرأس الأخضر وأقنعه بالعودة إلى ليبيريا. وتوسّعت المستوطنة بعد ضمّ أراض جديدة. (جزيرة بوشرود).

جهودي أشمون قاد حرباً شرسة ضدّ تجّار العبيد (تدمير مدينة ترايد تاون في الشهر 4 من 1826). وبعد إصابته بالحمّى، أبحر إلى الكاريبي ثمّ مات في 25/ 4/ 1828 في نيوهافن، في كونيتيكات.

تحت إدارة أمين سرّها الجديد، رالف راندولف غورلي، توسّعت الجمعية، وسعت لإنشاء فروع لها في كلّ الولايات المتّحدة. ونشرت مجلّة لها في الشهر 3 من 1825، هي *مجلّة المخزن والاستيطان الإفريقي*،

---

(1) أ. أرشيبالد، المرجع المذكور آنفاً، ص.ص. 172-173.

(2) بنجامين برولي، *التاريخ الاجتماعي للزنوج الأمريكيين*، لندن، كولير ماك ميلان، 1921، ص. 179.

وكانت أداة دعاية حقيقية لحركة الاستيطان في إفريقيا. هذه المجلّة كانت تنشر رسائل تهنئة، ومقتطفات من كتب عن رحلات إلى إفريقيا، ومقالات عن التاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، وعادات «القبائل» الإفريقية. كذلك فإنّ إنشاء *ليبيريا هيرالد* سنة 1826 في مونروفيا ساهم في نشر الاستيطان والترويج له .*المخزن* نظّمت *حملة* صحافية نشيطة ضدّ النخاسة وندّدت بقساوة تجّار العبيد. كما أعادت نشر قصّة كانت قد ظهرت في *الرويال غازيت* في سيراليون: كان أحد تجّار العبيد ينقل ستّين أسيراً في قعر سفينته، فقذف بهم كلّهم إلى البحر هرباً من مراقبة السلطات البحرية[1].

من 1822 إلى 1840، فرض غورلي نفسه كإداري نافذ ومدافع عن مصالح الحركة. وقد حاول بشتّى الوسائل تعويم أموال الجمعية. هذه الأخيرة أوفدت الأب وليام ماك كيني وكيلاً لها في ولايات فرجينيا، وميريلاند، وكارولينا الشمالية، وديلاوير. كانت مهمّته إثارة اهتمام الجنوبيين بحركة الاستيطان في إفريقيا، وتأسيس فروع دورها الأساسي هو جمع الأموال. في ديلاوير تجاوب الزعماء الصاحبيون المناهضون للرقّ مع هذه الدعوة ونظّموا جمعية *الاستيطان الاتّحادية*. في ميريلاند، أُنشئت عدّة فروع في كنت تالبوت، كوين آن، دورتشستر، بروتسموث، هامبتون، نورفولك... وكان هناك عدّة محافل ماسونية في بالتيمور، وبنسلفانيا، وماين، وماساتشوستس، والميسيسيبي أغدقت التبرّعات. كذلك استجابت فرجينيا لدعوات أعضاء الجمعية. وشاركت شخصيات سياسية عديدة في نشاطات جمعية *فرجينيا*. ونذكر جون روان، ووليام كابيل رايفر، وجيمس مونرو - رئيس فرع مقاطعة لوندونز - ، وتوماس و. جيلوس، وجون مارشال، رئيس الجمعية الأم سنة 1833. غورلي نجح في دفع الكنيسة في الولايات الشرقية وفي إنكلترة الجديدة إلى التعاون مع مسؤولي الجمعية.

---

(1) لمثل هذه الحالات، انظر : وزارة الشؤون الخارجية، باريس، مذكّرات ووثائق، ليبيريا، الورقتان 26، 27 وشؤون سياسية متفرّقة، إفريقيا، الورقة 1.

وفي يوم الاستقلال، أشار القسيسون في عظاتهم إلى «بادرة الإحسان النبيلة» في التوطين وجمعوا آلاف الدولارات التي خُصّصت للجمعية الأم. نحو 1835، كان يوجد سبعة عشر فرعاً لحركة الاستيطان الإفريقية في مختلف الولايات، ومئتان غيرها في المقاطعات، وعدّة منظّمات نسائية، وأكاديمية، وتبشيرية انضمّت إلى *الجمعية الأمريكية للاستيطان*.

تمرّد نات تيرنر سنة 1831 في ساوث هامبتون، في فرجينيا، نشر ذعراً زاد في المساعدات المالية. إذ خصّصت هيئة ميريلاند التشريعية «للاستيطان» مبلغ مئتي ألف دولار، وتبرّعت فرجينيا للجمعية بمبلغ تسعين ألف دولار. ثمّ قرّرت سنة 1850 منح الجمعية ثلاثين ألف دولار سنوياً لمدّة خمس سنوات من أجل نقل زنوج الولاية. ولكن من 1820 إلى 1830، رفض الكونغرس رعاية مشروع الجمعية وبالتالي تمويل نشاطاتها. وهذا ما أجبرها على الاعتماد على «الصدقات». لِمَ هذا الرفض؟ كان هناك ثلاثة عوامل بارزة:

1 ـ طبيعة مشروع التوطين نفسه كانت غير دستورية.

2 ـ لم يكن المشروع يجذب اهتمام ولايات الوسط، ولا ولايات الجنوب الشرقي.

3 ـ كانت حملة العتقيين تأتي من إنكلترة الجديدة ومن الولايات الغربية.

خلال العقد 1830 ـ 1840، واجهت الحركة صعوبات مادّية ونداءات استغاثة من ليبيريا. من جهة ثانية، قامت حركة انفصالية من قبل جمعيات ولاية نيويورك، وميريلاند، وفيلادلفيا، والميسيسيبي، ولويزيانا أضعفت الجمعية الأم بشكل ملحوظ. هذه الفروع الانفصالية أعادت تنظيم جمعياتها الخاصّة، كما نظّمت حملاتها الخاصّة إلى إفريقيا. الخلاف حول التصرّف بالأموال أدّى أوّلاً إلى مواجهة بين جمعية ميريلاند والجمعية الأم، وبعد 1833، كانت القطيعة بين الجمعيتين. فأسّست جمعية ميريلاند مستوطنتها الخاصّة في رأس بالماس، جنوب ليبيريا، وأرسلت إليها تسع حملات أخرى بين 1833 و1838. في الشهر 11 من 1834، سارت جمعيتا

فيلادلفيا ونيويورك على خطاها وانفصلتا. وأنشأتا كذلك مستوطنتهما الخاصّة في إفريقيا، في باسا كوف. جمعيتا لويزيانا والميسيسيبي أنشأتا مستوطنتهـا في سينو. سنة 1838، كانت فرجينيا على وشك الانفصال هي أيضاً. المستوطنات الجديدة، المنتشرة على الساحل، حاولت أن تتّحد تحت رعاية المستوطنة الأم لتشكّل سنة 1837 كومنولث ليبيريا، باستثناء مستوطنة ميريلاند. توماس بوكانان كان أوّل وآخر حاكم أبيض لهذا الكومنولث.

ابتداء من 1833، أصبح وضع مستوطنة ليبيريا مأسوياً. شكا المستوطنون إلى الجمعية من وكيلها، د. ميشلان المتّهم بالفساد، ومن نقص المؤونة، ومن المساكن وشروط الوقاية الصحّية السيّئة التي ساعدت على انتشار الاوبئة. سنة 1837 وجّهوا إلى الجمعية الأم خطّة لإعادة التنظيم بعنوان *الخطوط العريضة لدستور جديد للجمعية الأمريكية للاستيطان*. وقد تمّ التصويت على الإصلاحات التي تبنّتها الجمعية في الشهر 1 من 1839. صارت أكثرية مجلس الإدارة من الشماليين، وتنظّمت الجمعية كاتّحاد بين فروعها. أمّا الجنوبيون فقد تخلّوا عن الحركة منتقدين «ميولها العتقية».

الحركة المناهضة للرقّ وجدت مدافعاً متحمّساً في شخص وليام لويد غاريسون، الذي ولد سنة 1806 في بالتيمور، في ميريلاند. كان غاريسون صحافياً، ورئس تحرير *الناشونال فيلانثروبيست* سنة 1828، وانضمّ إلى حملة إعتاق العبيد بعدما التقى في بوسطن بنجامين لوندي، وصديقه وليام واتكنز في بالتيمور، وبعدما قرأ كتيّب ديفيد ووكر، *نداء في أربعة مقالات، ومقدّمة، إلى مواطني العالم الملوّنين، وخصوصاً مواطني الولايات المتّحدة* سنة 1829[1]. كتب في مجلّة لوندي، مقدرة الإعتاق الشامل، بعدما أصبح شريكاً في إدارتها في الشهر 8 من 1829.

في العديد من مقالاته، هاجم غاريسون مالكي العبيد وطالب بإعتاقهم

(1) انظر هنري غارنيت، *نداء ووكر، مع لمحة عن حياته*، نيويورك، 1848.

الفوري[1]. حكم عليه بالسجن تسعة وأربعين يوماً، وبعد إطلاق سراحه، تابع التعبير والكتابة رغم نصائح أصدقائه له بالاعتدال[2]. في 1/ 1/ 1831، نُشر في بوسطن العدد الأوّل من *المحرّر*، حيث عرض أهدافه بصراحة. كان قد اختار هذه المدينة ليُسمع صوته لأنّه كان يرى أنّ الشمال مذنب مثل الجنوب تماماً: «ليرتجف طغاة الجنوب! ليرتجف المتواطئون معهم! ليرتجف مدافعو الشمال!». في هذا المقال أعلن قطيعته الكلّية بنظرية الإعتاق التدريجي، وفي سنة 1832، شرح ما يقصده «بالإعتاق الفوري». في افتتاحية نُشرت في 23/ 4/ 1831، انتقد *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، التي اعتبرها عقبة خطرة أمام تحرير السود الفوري، وندّد بأعضائها، «كارهي الزنوج»، الذين اتّهمهم «بالإساءة إلى سمعة العرق الأسود، وخيانة تراث الحرّية في الولايات المتّحدة، وتكريس الاستعباد بكذبهم وجبنهم»[3]. كان يتساءل: «لِمَ يا أصدقائي يُرسل كلّ سنة مئات العبيد المنهكين ليموتوا مثل الجياد الهرمة؟ أسيادهم يرسلونهم إلى موت محتّم في إفريقيا، مدّعين أنّهم يحسنون إليهم»[4].

في 16/ 12/ 1831 أنشأ غاريسون جمعية *إنكلترة الجديدة لمناهضة الرق*، ونشرتها الشهرية، *العتقي*، التي ظهرت إلى جانب المحرّر. طابق غاريسون بين *الجمعية الأمريكية للاستيطان والرق*، ورأى أنّ «القضاء عليها ضروري كما هو على الاستعباد ذاته... إمّا الحفاظ على الاثنين وإمّا تدميرهما». وكتب مرافعة في كتيّب بعنوان *تأمّلات في الاستيطان الإفريقي، أو عرض محايد لنظريات، ومبادئ، وأهداف الجمعية الأمريكية للاستيطان، مع مقرّرات، وتوجّهات، واعتراضات الشعب الملوّن الحر*،

(1) مقدرة *الإعتاق الشامل*، 19/ 2 و5/ 3/ 1830.

(2) صموئيل ج. ماي، مذكّرات ص.ج. ماي، منشورات ج.ج. مامفورد، بوسطن.

(3) المحرّر، 23/ 4/ 1831.

(4) وليام لويد غاريسون، *تأمّلات في الاستيطان الإفريقي؛ أو عرض محايد لنظريات، ومبادئ، وأهداف الجمعية الأمريكية للاستيطان: مع مقرّرات، وتوجّهات، واعتراضات الشعب الملوّن الحر*، نيويورك، منشورات أرنو والنيويورك تايمز، 1968، ص. 13.

وقد صدر في الشهر 5 من 1832. هذا الكتيّب استند إلى مقالات من *المخزن الإفريقي*، وتقارير فروع الجمعية الأمريكية للاستيطان، وخطابات المسؤولين والرسائل بين المستوطنين والجمعية[1]. غاريسون انتقد بشدّة السياسة التي اتبعتها الجمعية في ليبيريا. وأدان الحروب المميتة ضدّ السكّان الأصليين، وعبّر عن مخاوفه حيال مستقبل المستوطنة[2]، كما عبّر عن قلق الزنوج الأحرار المعادين للترحيل، والراغبين في البقاء في الولايات المتّحدة. وكانت الحرب بين *العتقيين والاستيطانيين* في بدايتها.

ظهرت إجابة من غورلي على انتقادات غاريسون في «رسالة حول *الجمعية الأمريكية للاستيطان*»، ومقالات أخرى في الصحف (في المجلّة الميتودية والنشرة الفصلية في نيويورك) كلّها ساهمت في نشر الفوضى والبلبلة في صفوف الاستيطانيين، وفي الدعاية لجمعية *إنكلترة الجديدة المناهضة للرق*. أحد محبّي الخير في نيويورك، آرثر تابان، ترك *الجمعية الأمريكية للاستيطان* بعدما اكتشف أنّه أُرسل إلى ليبيريا أكثر من ألف وأربعمئة برميل كحول سنة 1833، وأنّ عدد السكارى في مونروفيا يفوق بكثير عددهم في نيويورك[3].

وصلت أصداء حملة غاريسون حتّى إنكلترة، حيث أطلق الكاتب المناهض للرق تشارلز ستيوارت على الاستيطانيين لقب «وزراء الجحيم». غاريسون نفسه ذهب إلى إنكلترة في الشهر 5 من 1833، ليجمع تبرّعات لبناء مدرسة للزنوج في الولايات المتّحدة. وكان نجاحه ساحقاً في لندن، حيث وقّع أحد عشر مناهضاً معروفاً للرق على احتجاج يدين بكلّ وضوح *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، ويكرّس غاريسون علناً كزعيم للعتقيين في أمريكا الشمالية. وليام ويلبرفورس، ورغم وجوده على فراش الموت، انضمّ

(1) و.ل. غاريسون، المرجع المذكور آنفاً، ص. 8.

(2) و.ل. غاريسون، المرجع المذكور آنفاً، ص. 27، ص. 34.

(3) إيرلي لي فوكس، *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، 1817-1840، بالتيمور، منشورات جون هوبكنز، 1919، ص. 140.

إلى الموقّعين. في الشهر 12 من 1833، أنشئت *الجمعية الأمريكية المناهضة للرق* في فيلادلفيا. وأشعلت حملة إعلانية ضدّ الاستعباد الفتيل في الجنوب كما في الشمال. وظهرت تهديدات بالقتل ضدّ العتقيين في السنتين 1835 ـ 1836[1]. كما رفضت الكنائس تقديم دعمها للعتقيين.

سنة 1838، كان كومنولث ليبيريا يضمّ كلّ المستوطنات: مونروفيا، باسا الكبيرة، سينو، رأس ماونت، إلاّ رأس بالماس الذي لم ينضمّ إليها قبل 1857، بعد عشر سنوات من الاستقلال. سنة 1840، واجه الكومنولث أزمات سياسية جدّية تطال علاقته بقوى استعمارية. وللدفاع عن نفسه وجّه نداء إلى حكومة الولايات المتّحدة، لكنّها رفضت مساعدته. فلم يبق أمامه إلاّ حلّ واحد: إعلان استقلاله سنة 1846. في 26/ 7/ 1847، نُشر إعلان استقلال ليبيريا، ودستورها الذي حرّر على صورة دستور الولايات المتّحدة. وانتُخب جوزف جنكنز روبرتس، حاكم الكومنولث، رئيساً للجمهورية[2]. مستوطنة ميريلاند قامت كدولة مستقلّة، ثمّ قرّرت سنة 1857، بعد حرب غير متكافئة، الانضمام إلى ليبيريا. سنة 1862، اعترفت الولايات المتّحدة بليبيريا، بعد بريطانيا وفرنسا[3].

جوزف جنكنز روبرتس (1809 ـ 1876) وُلد من أبوين حرّين في

(1) ليديا ماريا تشايلد إلى مدام إيليس غراي لورنغ، 15/ 8/ 1835 في *رسائل ليديا ماريا تشايلد*، بوسطن، هاوتون، ميفلين، 1836؛ إدوارد بيتشر، *رواية أحداث الشغب في ألتون*، 1838؛ *المحرّر*، 24/ 11/ 1837.

(2) بعد وفاة بوكانان في الشهر 9 من 1841، خلفه في الحكم تاجر من مونروفيا، هاجر من فرجينيا. وأصبح أوّل رئيس للجمهورية سنة 1848.

(3) حول بدايات ليبيريا، انظر ليبيريا، وزارة الخارجية البريطانية 47، 458، 459 و820؛ هوبريتش، *تاريخ ليبيريا السياسي والقانوني*، نيويورك، 1947، الجزء الأوّل، ص.ص. 737-820؛ جون. هـ.ب. لاتروب، *ميريلاند في ليبيريا*، بالتيمور، 1885، ص.ص. 75-84؛ ج.هـ. ماور، «جمهورية ليبيريا»، *مجلّة تاريخ الزنوج*، العدد الثاني والثلاثون، الشهر 7 من 1947؛ توماس هودغكنز إلى ماكلين، لندن، 16، 29/ 9 و3/ 10/ 1845؛ إليوت كريسون في مجلس المدراء، لندن، 19/ 7، 18/ 8/ 1841، في أوراق *الجمعية الأمريكية للاستيطان*.

بيترسبرغ (فرجينيا). هاجر إلى ليبيريا سنة 1829 مع أمّه الأرملة وأخويه الصغيرين. عمل في التجارة في مونروفيا. أعيد انتخابه رئيساً لليبيريا في 1849، و1851، و1853، ثمّ في 1871. واحتفظ بمنصبه حتّى وفاته سنة 1876.

خلال السنوات 1840 ـ 1845، خسرت *الجمعية الأمريكية للاستيطان* الحرب أمام القوى المناهضة للرق. وأمام الديون، وسوء الإدارة، انهارت الجمعية بالرغم من نشاط رؤساء مثل وليام ماكلين، وجون بيني، وإليوت كريسون، وأموس ج. فيلبس، وجوزف ترايسي. مجموعات المستوطنين التي غادرت إلى إفريقيا كانت صغيرة. ليبيريا، مع 3000 مقيم تقريباً، لم تكن تشكّل ثقلاً في أرصدة الجمعية. كذلك استعرت «الحروب القبلية» عندما أرادت المستوطنة توسيع أراضيها.

سنة 1847 بدأت مرحلة جديدة: *الجمعية الأمريكية للاستيطان* التي لم يعد لديها مستوطنات أصبحت مجرّد وكالة للهجرة[1]. من 1848 إلى 1854، جمع مسؤولو الجمعية الأموال، فاستأجروا إحدى وأربعين سفينة وأرسلوا نحو أربعمئة زنجي إلى ليبيريا. وكان هناك جمعيات خصوصاً في ماساتشوستس، ونيويورك، ونيو جرسي، وبنسلفانيا، وكنتاكي، كلّفت وكلاء سفر نجحوا في زيادة إيرادات الجمعية، التي ارتفعت من 29 ألف دولار سنة 1847 إلى 97 ألفاً سنة 1851، ثمّ من 55 ألف دولار إلى 160 ألفاً سنة 1859. فاشترت اثنتي عشرة سفينة، منها *ماري كارولين* ستيفنز، واستخدمتها قبل الحرب الانفصالية. سنة 1860، بنت الجمعية مركزاً كبيراً لها عند جادّة بنسلفانيا، فيه «قاعة مؤتمرات»، و«غرف لجان»، وعدّة غرف لأمناء السر والإداريين[2].

---

(1) الجمعية الأمريكية للاستيطان، *التقرير السنوي الواحد والثلاثون*، ص. 10.

(2) الجمعية الأمريكية للاستيطان، *التقرير السنوي التاسع والثلاثون*، الملحق، ص. 26؛ *التقرير السنوي الأربعون*، ص.ص. 23-24.

انطفأت الجمعية الأمريكية للاستيطان مع نهاية الحرب الانفصالية، بعد احتفالها بعيدها الخمسين سنة 1867. كانت قد جمعت 000، 500، 2 دولار ونقلت 12 ألف زنجي إلى إفريقيا. قبل موتها، صرّح أمين سرّها، وليام كوبنغر (1828 ـ 1892)، بأنّها ساهمت في نشر «الحضارة الإفريقية». سنة 1909 بقي خمسة من أعضائها حاولوا الحفاظ عليها. لكن لم يبق سوى منظّمة هزيلة استمرّت حتّى 1949. أمّا ليبيريا، فكان لأرضها سنة 1900 ساحل يمتدّ على 350 ميلاً مع منطقة داخلية بعمق 200 ميل، وكان سكّانها يعدّون عشرين ألف «إنسان ملوّن» هم أخلاف الزنوج الأمريكيين، ونحو مليون إفريقي. الزراعة كانت بدائية كما في عهد أشمون[1]. وقد حاولت بريطانيا وفرنسا عبر مستعمراتهما القريبة من ليبيريا الاستيلاء على أجزاء من أرضها.

«المستوطنون» المرسَلون إلى ليبيريا عن طريق الجمعية الأمريكية للاستيطان

السنة	الإيرادات	المستوطنون	السنة	الإيرادات	المستوطنون
1817 ـ 19	$14,031	50	1820 ـ 22	5,627.66	156
1823	4,758.22	65	1824	4,379.89	103
1825	10,125.85	66	1826	14,779.24	182
1827	13,294.94	222	1828	13,458.17	163
1829	20,295.61	205	1830	26,683.41	259
1831	32,101.58	421	1832	43,065.08	796
1833	37,242.46	270	1834	22,984.30	127
1835	36,661.49	146	1836	33,096.88	234
1837	25,558.14	138	1838	10,947.41	109
1839	51,498.36	47	1840	56,985.62	115
1841	42,443.68	85	1842	32,898.88	170
1843	36,093.94	85	1844	33,640.39	170
1845	56,458.60	187	1846	39.900.03	89
1847	29,472.84	51	1848	49,845.91	441

(1) نشرة *ليبيريا*، العدد الأوّل، الشهر 11 من 1892، ص.ص. 1-6؛ العدد 14، الشهر 2 من 1899، ص.ص. 15-16؛ والعدد 16، الشهر 2 من 1900، ص.ص. 27-31.

السنة	الإيرادات	المستوطنون	السنة	الإيرادات	المستوطنون
1849	50,332.84	422	1850	64,973.71	505
1851	97,443.77	676	1852	86,775.74	630
1853	82,458.25	783	1854	65,433.93	553
1855	55,276.89	207	1856	81,384.41	538
1857	97,384.84	370	1858	61,820.19	167
1859	160,303.23	248	1860	104,546.92	316
1861	75,470.74	55	1862	46,208.46	65
1863	50,900.36	26	1864	79,454.70	23
1865	23,633.37	527	1866	59,375.14	621
1867	53,190.48	633	1868	49,959.52	453
1869	62,269.78	453	1870	28,372.32	196
1871	29,348.80	247	1872	33,337.22	150
1873	33,335.71	73	1874	14,749.28	27
1875	12,125.79	23	1876	13,961.34	21
1877	11,812.72	53	1878	15,419.41	101
1879	18,302.37	91	1880	10,862.04	143
1881	8,523.66	52	1882	10,342.91	27
1883	14,091.87	53	1884	10,673.24	81
1885	6,176.05	52	1886	44,922.46	110
1887	20,916.43	124	1888	6,176.05	39
1889	17,144.15	60	1890	7,717.61	63
1891	12,184.20	154	1892	9,886.88	50
1893	10,360.04	5	1894	8,622.27	6
1895	12,449.79	4	1896	8,489.38	-
1897	10,308.55	1	1898	7,838.03	3
1999	9,089.95	4			
المجموع				$2,762,467.87	15,386

عن حسابات *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، تقرير الجمعية السنوي الثاني والخمسون، مع مقرّرات الاجتماع السنوي ومجلس الإدارة، في 19 و20/ 1/ 1869، واشنطن، 1869، نشرة *ليبيريا*، العدد 16، الشهر 2 من 1900، ص. 28.

هذه الحسابات لا تأخذ بعين الاعتبار نشاط جمعيات الاستيطان المستقلّة.

جمهورية ليبيريا ـ عاصمتها مونروفيا (700 ألف نسمة) ـ تمتدّ بين سيراليون ، وغينيا، وساحل العاج، على مساحة 111369 كلم^2. يعدّ سكّانها نحو ثلاثة ملايين نسمة (1999) منهم أكثرية من المقيمين الأصليين: كبيلي، باسا، غريبو، جيو، كرو، مانو.

سيراليون ـ عاصمتها فريتاون (500 ألف نسمة) ـ تغطّي مساحة 71740 كلم^2 وتضمّ خمسة ملايين نسمة (1999): منديه، تمنيه، لمبا، كونو، بولوم، بول، كورانكو، يالونكا، كيسي.

الفصل الرابع

نشأة القومية

ما هي إفريقيا في عيني؟
شمس من نحاس وبحر قرمزي،
نجمة الأدغال أو طريق في الأدغال،
رجال من البرونز أقوياء، أو نساء
بلون أسود ملوكي انبثقتُ من أصلابهن
عندما غنّت طيور عدن؟
ثلاثة قرون نُفيت
من المناظر التي عشقها الآباء:
حرج عطر، وشجرة قرفة،
ما هي إفريقيا في عيني؟

من قصيدة ميراث لكاونتي كولن، مأخوذة من ديوانه هنا أقف، منشورات هاربر أندرو، 1925.

الهجرة والقومية

عند منتصف القرن التاسع عشر، خلال العقد 1850 ـ 1860، تشكّلت مجموعة من فاعليات الزنوج في الولايات المتّحدة، أدانت نشاط السود والبيض الذين كانوا في خدمة ملاّكي العبيد، وصاغت عدداً من

المطالب السياسية والاجتماعية. كان أعضاء هذه المجموعة يريدون التخلّص من استبداد البيض، فوضعوا خططاً قادتهم إلى التفكير في العيش خارج حدود الدولة الفدرالية. هؤلاء الناشطون بحثوا عن منطقة في الخارج يمكنهم فيها إقامة *أمّة سوداء* ويكون لديهم حكومة، وفرص يثبتون من خلالها للعالم قدرتهم على العيش، والإبداع، والتنظيم والمساهمة في الحضارة البشرية. وبرز لديهم ميل إلى هجرة يوجّهونها بأنفسهم، وإلى مشاريع تتعلّق بالزنوج ينسّقونها وحدهم من دون وصاية البيض[1].

هذا التصرّف من قبل الزنوج وُصف أحياناً بأنّه نزعة قومية زنجية في المؤلّفات التاريخية في الولايات المتّحدة. ما سبب رؤية *قومية سوداء* في هذه المحاولة للهروب من السيطرة البيضاء واللجوء إلى الخارج؟ من منظور تاريخي أوسع ينبغي التمييز بين *القومية الزنجية*، *والقومية السوداء والقومية الإفريقية*. *القومية الزنجية* ارتبطت في القرن التاسع عشر بحركة الهجرة التي يديرها الزنوج، كما بردّ انتقامي للزنوج الأحرار على مختلف أشكال الترحيل التي كان يخطّط لها عملياً المسيطرون البيض .*القومية السوداء* تنطبق على مشروع «الافتداء الشامل» لمجمل العالم الأسود. كانت مشكلة الهويّة الزنجية عندئذٍ مشكلة مركزية في *القومية السوداء*. أمّا مفهوم *القومية الإفريقية* فقد صار قيد التداول في بداية القرن العشرين، منذ تأسيس *المؤتمر القومي الإفريقي* في إفريقيا الجنوبية، سنة 1912؛ إنّه مفهوم إفريقي محض.

وُضعت مشاريع للذهاب إلى كندا أو إلى منطقة الكاريبي (جزر الهند الغربية، المكسيك، بلاد الكاريبي القارّية)، وحتّى إلى إفريقيا. على

(1) انظر هوارد هـ. بل، «حركة هجرة الزنوج، 1849-1854. من مراحل القومية الزنجية»، فيلون، العدد عشرون، صيف 1959، ص.ص. 132-142، وللكاتب نفسه «المصالح الأمريكية-الزنجية في إفريقيا، 1858-1861»، *مجلّة أساتذة العلوم الاجتماعية*، العدد السادس، الشهر 11 من 1960، ص.ص. 11-18.

مجموعة سوداء من 3638808 شخص (15,7% من مجموع السكّان الكلّي)، كان هناك 434495 حرّاً، أو 11,9% سنة 1850. كثير من تلك المشاريع، في منتصف القرن، كانت تركّز على هايتي. في الشهر الثامن من 1854، التقى موفدون من إحدى عشرة ولاية في كليفلاند في مؤتمر *الهجرة الوطني للشعب الملوّن*. كان أكثر الممثّلين من أوهايو ومن بنسلفانيا، وطالبوا بإقامة مستوطنة للسود في الخارج تتخلّص من الاستبداد العنصري. في هذا المؤتمر تميّز القس جيمس ثيودور هولي (1829 ـ 1911) الذي كان على رأس مجموعة أشخاص يرغبون في الذهاب إلى هايتي. ولد هولي في واشنطن من أبوين حرّين، قصد مدرسة نيويورك وعمل إسكافياً في إنكلترة الجديدة. ثمّ أصبح رئيس تحرير شريكاً في *صوت اللاجئ* التي كانت تُنشر في وندسور، في كندا من 1851 إلى 1853. سنة 1845، أصبح مديراً لمدرسة خاصّة في بوفالو (نيويورك)، ونشر كتاباً يتناول تاريخ هايتي: دفاع عن قدرة الزنوج على الحكم الذاتي والسيرورة الحضارية، كما تُظهر أحداث تاريخية في الثورة الهايتية؛ والمنجزات الناتجة لذلك الشعب منذ استقلاله الوطني[1].

سيم هولي نائب كاهن في الكنيسة الأسقفية سنة 1855. وفي السنة ذاتها، زار هايتي ليطّلع بنفسه على تسهيلات الهجرة المقدّمة لسكان الولايات المتّحدة السود. وحاول التفاوض مع الحكومة الهايتية لوضع قوانين لحركة الهجرة. الحكومة أرسلت سنة 1858 دعوة إلى سكّان أمريكا الشمالية السود لكي يهاجروا. هذا التشجيع الرسمي أحيى آمالاً كثيرة لدى الفئة السوداء. ولكن، في الشهر 5 من 1859، جيمس ريدباث، وهو صحافي عتقي، رئيس *المكتب الهايتي للهجرة*، وجّه تحذيراً قال فيه إنّه لن يكون هناك هجرة قبل أن يحدّد الرئيس فابر جيفرار (1859 ـ 1867) سياسته بدقّة، بعدما خلف الامبراطور فوستان الأوّل (سولوك). ريدباث

(1) نيو هافن، نشره وليام هـ. ستانلي لدى شركة النشر الأفريقية-الأمريكية، سنة 1857.

ذهب ثلاث مرّات إلى هايتي في 1859 ـ 1860[1]. الحكومة الجديدة قدّمت ضمانات إلى المهاجرين في الشهر 10 من 1860 فوعدتهم باحترام حرّية المعتقد، وبتأمين أراض، وامتيازات سياسية وحرّية العبور إلى الجزيرة لمن يرغب. في مقدّمة كتاب ريدباث، *الدليل إلى هايتي*، توجّه الرئيس جيفرار إلى المهاجرين المحتملين فقال: «اسمعوني جميعاً، أيّها الزنوج والخلاسيون الذين يعانون من التمييز العنصري، في القارّة الأمريكية الواسعة. الجمهورية تناديكم... عمل التجديد الذي تسعى إليه يهمّ كلّ الناس الملوّنين وذرّيتهم... هايتي ستكون تكذيباً واضحاً، بليغاً وقاطعاً، للذين يشوّهون سمعة عرقنا وينكرون رغبتنا وقدرتنا على الوصول إلى مستوى عال من الحضارة»[2].

كان العديد من الشخصيات الهايتية المرموقة يشاركه هذه الأفكار. ج.هـ. فرينيل، طبيب وسياسي لجأ إلى الغوادلوب سنة 1858، كان من أنصار هجرة إلى الخارج ولكن تستثني الأفارقة. كان يخشى على نخبة هايتي وجمهورية الدومينيكان من أن «تذوب بين الجماهير غير المثقّفة، العنيفة والمتوحّشة التي تشكّل الأكثرية في الشعبين»[3]. لم يكن يريد مهاجرين إفريقيين لا يساهمون في تجديد هايتي، ويحملون معهم كما يقول: «الرذائل، والكسل، والبطالة، والجهل، والخرافات، والتطيّر وممارسات الشعوب الإفريقية البربرية»[4]. أوصى فرينيل بتسهيل هجرة زنوج الولايات المتّحدة الذين كانوا في الماضي سنداً كبيراً لهايتي: «أبناء العرقين الأسود والأصفر في أمريكا الشمالية الذين بقوا في هايتي ساهموا كثيراً في تحسين الصناعة وانتشارها. سواء منهم التجّار، أو المزارعون، أو العمّال،

(1) جيمس ريدباث، الدليل إلى هايتي، بوسطن، ثاير وإلريدج، 1860 وشهرية دوغلاس، الشهر 5 من 1859، ص. 78.
(2) جيمس ريدباث، المرجع المذكور آنفاً، ص. 5.
(3) ج.هـ. فرينيل، «نظام الحماية والهجرة إلى هايتي»، مخطوطة من محفوظات الشؤون الخارجية، مذكّرات ووثائق هايتي 2/ 452.
(4) المرجع ذاته 2/ 462.

كلّهم تميّزوا بالعمل، والنشاط، والذكاء»[1].

فريدريك دوغلاس كان قد بدا دائماً عدوّاً لدوداً للهجرة. كان رئيس تحرير مجلّة ظهرت بأسماء مختلفة من 1847 إلى 1863، وقاد حملة ضدّ رحيل بعض من إخوته السود، فاستنفر حوله العديد من المناصرين الذين كانوا يؤيّدون أفكاره. الانتخابات الرئاسية سنة 1860 والمواقف التي تبنّاها لنكولن أصابته بالخيبة وأدّت به إلى تغيير في الرأي بقي من دون تفسير. فمجلّته، شهرية دوغلاس، نشرت سنة 1861 صفحات كاملة من الإعلانات والدعايات موجّهة إلى المهاجرين المحتملين. هذه الصفحات كانت مموّلة مباشرة من الحكومة الهايتية[2]. كما قرّر أن يذهب بنفسه إلى هايتي في الشهر 4 من 1861، بناء على دعوة رسمية وجّهتها له السلطات، لدراسة إمكانيات إقامة السود في هذا البلد. لكن رحلته أُلغيت بعد إعلان الحرب الانفصالية.

هذه الخطوة إلى الوراء من دوغلاس ساهمت في زيادة عدد الناشطين. بعد إعطاء الحكومة الهايتية موافقتها على تسهيل تيّار الهجرة، تسارعت تحضيرات السفر. اختار ريدباث عدداً من الوكلاء المطوّعين الذين انتشروا في البلاد: هولي، وكان من أوائل الذين تمّ اختيارهم، سافر كمحاضر في بنسلفانيا ونيو جرسي؛ جون براون جونيور، ابن جون براون من هاربرز فيري، ذهب إلى كندا؛ ج. دنيس هاريس وبعد عودته من الكاريبي، أُرسل إلى أوهايو. من جهة ثانية، استقرّ وكلاء مطوّعون كثر في نيويورك وواشنطن وكان هناك وكيل مبعوث إلى ولايات الساحل الأطلسي. وهكذا أحاطت هذه الشبكة من الوكلاء المطوّعين بمنطقة من أمريكا الشمالية كانت المشاكل العرقية فيها تحثّ على الهجرة.

عقدت اجتماعات للإعلام في كالامازو، ميشيغان، وفي بالتيمور، ميريلاند. وكثير من أصدقاء دوغلاس تطوّعوا كمحاضرين في أنحاء إنكلتره

(1) المرجع ذاته 2/ 463.

(2) هوارد هـ. بل، «نظرة على حركة المؤتمر الزنجي، 1830-1861»، أطروحة دكتوراه لم يتمّ نشرها، قسم التاريخ في جامعة الشمال الغربي، ص.ص. 217-222.

الجديدة، والمقاطعات البحرية في كندا. منهم مثلاً وليام ج. واتكنز، أحد المقرّبين منه، الذي كان لفترة طويلة من معارضي هولي وأنصار الهجرة الآخرين. نذكر أيضاً في السياق نفسه وليام ويلز براون والأب ج.ب. سميث، اللذين غيّرا كلّياً موقفهما لينضمّا إلى مجموعة الأشخاص الذين يسعون لإقناع الزنوج بأنّ هايتي ستكون الأرض التي ستحسن استقبالهم. سميث كان عضواً سابقاً في جمعية *الحضارة الإفريقية*. وقد أوكل إليه، في الشهر 7 من 1861، تغطية شمال إنكلتره الجديدة. في هذه المنطقة حيث كانت التوتّرات العرقية قليلة، كان عدد المتطوّعين للهجرة صغيراً جدّاً. بالمقابل، كانت النداءات كثيرة في مناطق الولايات المتّحدة المجاورة للولايات الرقّية وفي كندا، بين تورنتو ودترويت حيث استقرّت أكثرية مؤسّسات الزنوج. في نيويورك، كانت تجتمع في 127، شارع سوفولك، *الجمعية الهايتية الزراعية للهجرة*[1].

استمرّت المعلومات والتقارير المتفائلة في الوصول سنة 1861. وأعلن ج.و. وليامس من أوهايو أنّ هناك مجموعة على وشك الانطلاق في آخر السنة. واقترح إي.ب. ووكر أن تتمّ الرحلة إلى هايتي على متن سفن إنكليزية لتفادي المخاطر التي كانت تتعرّض لها آنذاك سفن القرصنة التي ترفع العلم الفدرالي. وهاريس، الذي كان قد استُقبل بحفاوة في كليفلاند سنة 1860، بعث هو الآخر برسائل متحمّسة. أمّا التقارير الأفضل فوصلت من ج.ب. سميث، من بنسلفانيا، في الشهر 7 من 1861. وذكر فيها الاستقبال الحار الذي لقيه في لويستاون، وبيتسبرغ، ويورك. كان التقى في لويستاون بجماعة مدرّبة على الأعمال العسكرية ترغب في الذهاب إلى هايتي للمشاركة في الدفاع عن البلد المهدّد بمشاريع الاجتياح الإسبانية[2].

(1) هـ.هـ. بل، المرجع المذكور آنفاً، ص. 250 و*شجرة الصنوبر والنخلة*، 8/ 6/ 1861 و21/ 9/ 1861؛ زعيم *صباح كليفلاند*، 22/ 11/ 1860.

(2) شجرة الصنوبر والنخلة، 3/ 8/ 1861.

في كاليفورنيا، حيث كانت تعيش مجموعة سوداء مؤلّفة من 5 آلاف شخص تقريباً، لاقت فكرة *أمّة للزنوج* مركزها هايتي نجاحاً كبيراً. وقام توماس تايلور من سان فرنسيسكو باستفتاء دلّ على رغبة السفر لدى الكثيرين. ولذلك أوصى ريدباث الحكومة الهايتية بإرسال هولي ليفتح وكالة هناك. وبعد شهرين، كتب الدكتور و.هـ.ك. ستيفنسون من ساكرامنتو، فأيّد تقرير تايلور، وحثّ السلطات الهايتية على وضع سفن نقل في تصرّف الذين يريدون السفر. في الشهر 11 من السنة ذاتها، طالب ستيفنسون أيضاً بفتح وكالة وأصرّ بعدما لاحظ تردّد سكّان ماريسفيل، وساكرامنتو، وبولفرفيل، وأماكن أخرى، على الالتحاق بالمسافرين إلى هايتي[1].

خلال الأشهر الستّة الأولى من سنة 1861، انطلقت ستّة مواكب من المهاجرين إلى الولايات المتّحدة. ونشأت عدّة «مستوطنات» في هايتي، كانت تحمل أسماء مدن في الولايات المتّحدة: روتشستر، نيوهافن... هولي نفسه ترك فيلادلفيا مع مجموعة من ألفي شخص واختار الاستقرار نهائياً في هايتي. فنظّم في هذا البلد الكنيسة الأنغليكانية وأصبح أوّل أسقف *للكنيسة الرسولية الهايتية*. كان قد كتب سنة 1859 مقالاً عن المسيحية في هايتي في *المجلّة الإنكليزية ـ الإفريقية*[2].

في الشهر الرابع من 1861، بدأت الحرب الانفصالية وفي الشهر الخامس، استولى الإسبان على تاهيتي. في البداية، لم توقف الحرب حركة الهجرة، فقد اكتفى ريدباث بتعليقها لمدّة شهرين. وأظهر تقرير لجون و. ستوكس من تورنتو أنّ الهجوم الإسباني كان على العكس يزيد من رغبة

---

(1) *وقائع المؤتمر الأوّل لمواطني ولاية كاليفورنيا الملوّنين، المعقود في ساكرامنتو في* 20، و21، و22/ 11 في *الكنيسة الميتودية للملوّنين*، ساكرامنتو، مجلّة الولاية الديمقراطية، 1855؛ *شجرة الصنوبر والنخلة*، 8/ 6/ 1861، 17/ 8 و16/ 11/ 1861.

(2) *زعيم صباح كليفلاند*، 24/ 6/ 1861؛ *شجرة الصنوبر والنخلة*، 25/ 5/ 1861؛ *المراسل البريطاني والأجنبي المناهض للاستعباد*، 1/ 7/ 1861؛ *زعيم صباح كليفلاند*، 24/ 7/ 1861؛ *شجرة الصنوبر والنخلة*، 20/ 7/ 1861.

الناس في السفر، إذ كان يعزّز إرادة زنوج أمريكا الشمالية (الولايات المتّحدة وكندا) للمضي إلى تاهيتي لحمايتها من أعدائها. كانوا يعتقدون أنّه إلى جانب هايتي، بعد إنقاذها ممّا يهدّدها، سيحين دور أراض أخرى تخلّصت من الاستعباد: بورتوريكو وكوبا. لم يكن أمام إسبانيا إلاّ الخسارة في هذه المغامرة[1].

بعد بدايات واعدة، بلغت حركة الهجرة حدّها سنة 1862. وصلَتْ تقارير مثيرة للقلق من الجزيرة تفيد بأنّ المهاجرين ليسوا مسرورين من أوضاع حياتهم. هايتي لم تكن الأرض الموعودة التي انتظروا أن يجدوها. لم يكن البلد في حاجة إلى مزيّنين، ونساء وحيدات، وكبار في السن، و«باعة بالمفرّق». وحدها العائلات التي تفهم في عمل الحقول والمعتادة على وجود أصحاب المزارع حظيت بحياة كريمة. من جهة ثانية، بدت الحكومة الهايتية غير قادرة على الالتزام بوعودها[2].

إلى يأس الوافدين الجدد وبؤسهم يضاف المرض والموت. جون و. ستوكس الذي كان يأمل في الذهاب في جولة لمساعدتهم، توفّي في الشهر الأوّل من 1862. وبعد بضعة أشهر حصلت وفيات كثيرة في سان مارك، ممّا استدعى فتح تحقيق رسمي. هذه النسبة المرتفعة من الوفيات نُسبت إلى شروط الوقاية الصحية السيّئة، وإلى مشاكل في التغذية وإلى المشروبات الكحولية، وإلى وباء الجدري الذي جلبه بعض المهاجرين. وأحبطت نتائج التحقيق عزيمة الذين كانوا ينوون الهجرة، من دون البحث عن معرفة أسباب هذا الفشل[3].

كم شخص هاجر إلى هايتي؟ وكم شخص عاد منها؟ كم بقي هناك؟ لا أحد يعرف. يشير تقرير من الشهر 12 من 1861 إلى وجود ألفي مهاجر

---

(1) *شجرة الصنوبر والنخلة*، 1/ 5/ 1862.

(2) المرجع ذاته، 29/ 5/ 1862.

(3) المرجع ذاته، 28/ 12/ 1861 و3/ 7/ 1862.

ناطق باللغة الإنكليزية أقاموا في دائرة شعاعها عشرة أميال حول سان مارك[1]. كان هذا العدد يضمّ مواطني الولايات المتّحدة وكندا، وكذلك مواطني المستعمرات الإنكليزية في الكاريبي. وجرى تقدير آخر، في الشهر 7 من 1862، تكلّم عن 1200 إلى 1400 «أفرو ـ أمريكي» يعيشون في سان مارك وضواحيها. جون و. كرومويل، الذي رافق تيار الهجرة هذا عن قرب، أكّد فيما بعد سنة 1914، أنّه من ألفي مهاجر بقي الثلث في الجزيرة[2].

هناك عدّة عوامل أدّت إلى فشل الهجرة إلى هايتي: الأمل في التغلّب على الاتّحاد، ومشاريع الهجرة الأخرى، وانتقادات التجمّعات المعاكسة. وبرأي بنجامين ب. هانت، فشلت الهجرة لأنّها لم تكن منظّمة ولا تملك رؤوس أموال في هايتي. في غياب هذين الشرطين، لم يكن في وسع الفقراء والأمّيين، عند وصولهم إلى بلد جديد، أن يعملوا ويحقّقوا النجاح[3]. مع نهاية السنة 1862، استقبلت كنيسة *زايون* في نيويورك بعض المهاجرين العائدين. وقد نُظّمت في تلك الفترة *رابطة ضدّ الهجرة* لمساعدة الراجعين وإسداء النصيحة إلى الآخرين بالبقاء في الولايات المتّحدة[4]. ج. دنيس هاريس الذي عمل أيضاً كوكيل مطوّع للحركة الانفصالية السوداء، نشر سنة 1858 كتاباً بعنوان *صيف عند تخوم البحر الكاريبي*، وهو عبارة عن رسائل كتبها خلال رحلة قام بها إلى الكاريبي ونشرها في *الأسبوعية الإنكليزية ـ الإفريقية* الصادرة في نيويورك. لقد زار تباعاً جمهورية الدومينيكان، وهايتي، وجزر توركس وكايكوس، والهندوراس البريطانية. هاريس، في رسائله، يعطي ملخّصاً عن أحاديث، وحكايات، وتأمّلات دارت خلال الرحلة. وفيها يعرض بعض انطباعاته مثل تعالي اليانكي

(1) جون و. كرومويل، *الزنجي في التاريخ الأمريكي: رجال ونساء بارزون في تطوّر الأمريكيين من أصل إفريقي*، واشنطن، الأكاديمية الأمريكية الزنجية، ص. 44.

(2) مجموعة بنجامين ب. هانت، مكتبة بوسطن العامّة.

(3) المحرّر، 12/ 6/ 1863.

(4) ج. دنيس هاريس، *صيف عند تخوم البحر الكاريبي*، نيويورك، أ.ب. بورديك، 1860، ص. 41.

(الأمريكي) الأسود على المقيمين الأصليين، وحبّه لطبيعة الجزر، ومشاهدته السريعة للطرقات، والزراعة، والصناعة، ولمحة خاطفة عن جمال الشابّات مثل السنيورة باستوريسا التي رأى فيها «أجمل امرأة في الدنيا»[1]. كما يتناول شخصية وليام ويبر، وهو تاجر أسود من فيلادلفيا، موّل رحلة سفينة بخارية إلى كندا مساعدةً للمهاجرين. وحيّى هاريس نشاط وليام ووكر، وهو قرصان أمريكي شمالي أوقف لاحقاً وأعدم بالبندقية في نيكاراغوا. كما ذكر هنتون روان هلبر، وهو جنوبي منفي كان يريد، بالرغم من معارضته للرق، أن يعيد كلّ السود إلى إفريقيا. وتكلّم أيضاً عن شخص اسمه كوروين «يمكنه أن يحمد السماء لأنّه لم يتمّ توقيفه كعبد هارب»[2]. وكتابات هاريس مختصرة في ما يتعلّق بتاريخ هايتي وفترة الثورة حتّى وصول الرئيس جيفرار.

إفريقيا: طلائع الغزوات الاستعمارية

في بداية القرن التاسع عشر، كانت إفريقيا التي تعدّ نحو مئة مليون نسمة آنذاك، منهكة بفعل تجارة العبيد، التي لم تبدأ في القرن الخامس عشر كما يقال عادة، بل قبل ذلك بكثير أي منذ القرن السابع مع التجّار العرب[3]. إنّ دراسة تجارة العبيد يجب ألاّ تفصل تجارة الغربيين بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، عن تجارة العرب التي بدأت في القرن السابع وامتدّت إلى ما بعد القرن التاسع عشر، حتّى القرن العشرين[4].

---

(1) المرجع ذاته، ص. 136.

(2) المرجع ذاته، ص. 35.

(3) انظر حول هذا الموضوع: ب. إيتيما، «انتشار تجارة العبيد (من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر): دراسة للمسألة»، في *نشرة قسم التاريخ الاقتصادي*، جامعة جنيف، العدد 20، 1989-1990، ص.ص. 43-46.

(4) المؤرّخ مارك فيرّو، وفي معرض تحليله لكتب التاريخ التي تتناول هذه المسألة، لاحظ أنّه حالما يصل الموضوع إلى العالم الإسلامي، «تبدأ يد المؤرّخ (الإفريقي) بالارتجاف»، في *كيف نعلّم التاريخ لأولادنا*، باريس، 1981، ص. 41.

تجارة العبيد والحروب التي رافقتها تفسّر عدم استقرار وهشاشة البنى السياسية والاقتصادية في البلدان الإفريقية. وهي تسمح بفهم تغيرات حدود الدول وانتقالات المراكز الإدارية فيها. خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، تجارة العبيد التي ازدهرت بكثرة في أواخر القرن الثامن عشر، استمرّت رغم قرارات المنع المتتالية. في السنوات 1800 و1840/ 1850، كان الإفريقيون لا يزالون أسياد بلادهم ويسيطرون على الشبكات الداخلية (أسواق، قوافل، ضرائب على القرى). بينما كان الأوروبيون يسيطرون على البحر، ومراكبهم الزنّاجة تنقل ملايين الأسرى كلّ سنة. أمّا تجارة العبيد لدى العرب المسلمين، فكانت تدخل في إطار الجهاد في إفريقيا الغربية، أملاً في زيادة جماعة المؤمنين في منطقة السودان.

ساعدت تجارة العبيد في ظهور دول في فوتا دجالون، وفوتا تورو، وسوكوتو، وماسينا. وكان سلاح جيوش الجهاد عبارة عن بنادق وسيوف. كان هناك حدّادون يصنعون الرصاص ويزوّدون به وحدات القوات المسلّحة.

على ساحل إفريقيا الغربي، تزايد تأثير الأوروبيين بتغطية محاربة التجارة غير المشروعة. فانتشرت الوكالات وأماكن سجن العبيد بين سينيغامبيا، وغينيا العليا، وفوتا دجالون، وبلاد الكرو، وماندي الجنوبية وماندي النيجر الأعلى في بانداما. واصطدم الفرنسيون المقيمون في كارابان (كازامانس) سنة 1836 ثمّ في سيديو سنة 1838 بمقاومة شعب المالينك. التجارة غير المشروعة تنظّمت في والو حتّى الاحتلال العسكري بين الشهرين الأوّل والسادس من 1855 (فيديرب). غامبيا، التي تمكن الملاحة فيها مسافة مئات الكيلومترات، ساعدت على استمرار هذه التجارة خارج سيراليون. مملكة الكايور المتحالفة مع باوول حتّى 1855، خضعت لضغوط الفرنسيين الذين احتلّوا داكار سنة 1857. زراعة الفستق التي بدأت في 1850 انتشرت في سينيغامبيا. استقرار دولة البول المسلمة في فوتا دجالون بين 1799 و1870 سمح لها بالسيطرة على منطقة غينيا ـ

سينيغامبيا. كان لدى فوتا دجالون المواشي، والحبوب، والقطن، والعسل، وأسواق العبيد التي تجذب القوافل. كان البلد يتميّز بارستقراطية قوامها جيش من الفرسان الذين يرتدون ثياباً بيضاء ويقومون بالغزوات. في فريتاون وفي بلدات المزارعين في شبه الجزيرة المجاورة، طوّر العبيد المحرّرون زراعة «كريول».

في بلاد حلقة النيجر والفولتا كان النفوذ المطلق يعود إلى سلالات «الأشانتي». كانت تتحكّم بسياسة واقتصاد ممالك أكان الساحلية (واسا، نزيما، تويفو، أكوامو، آكييم، أكوابيم، غا، أدانغبي) ومحافظات الفانتي. وتفكّك امبراطوريات شاسعة مثل امبراطورية أويو القديمة ولوندا، وامبراطورية موغو ناوبا الموسي، رافقته فترة من الحروب وعدم الأمان. فأدّت إلى سوء تنظيم في التجارة على طول الساحل الأطلسي في خليج البينان وظهور دول جديدة أصغر حجماً تخضع لأنظمة أكثر استبدادية.

هجرة سكّان مستعمرة سيراليون إلى باتورست، وباداغري، واللاغوس بسطت على الساحل نفوذ التجار والإرساليين الإنكليز. وقد خاطروا في أبيوكوتا باختراق داخل القارّة نحو 1850.

النجاح المدهش للطرق الاستعمارية الإنكليزية في فريتاون سهّل وجود إرساليين من الثقافة الألمانية، وفدوا من بريمي وبازل. فعملوا في استثمار المزارع، ودراسة اللغات الإفريقية، والتعليم، والبناء، والتجارة أكثر منه في التبشير. على ساحل الذهب، حيث كان التجار الدانمركيون والهولنديون لا يزالون ينافسون الإنكليز، واجه هؤلاء الأخيرون محاولات السيطرة من قبل الأشانتي. فدفعوا الفانتي، الذين كانوا يخشون الأشانتي، إلى طلب الحماية البريطانية.

بين المونو والنيجر تتداخل المناطق الثقافية الأربع: آجا، يوروبا، بورغو وإيدو. ظهور مملكة *الدانكسومي* (الداهومي) نحو 1820 وحملاتها المستمرّة ضدّ بلاد اليوروبا ساهمت في ازدهار التجارة الممنوعة. تجميع السجناء كان أحد الأهداف المهمّة لقادة الداهومي ـ من الملك كبنغبي

(1774 ـ 1789) إلى جيزو (1818 ـ 1858) ـ الذين نظّموا البلد ليلبّي احتياجات السفن الزنّاجة. وبحسب المؤرّخ النيجيري إ.أ. أكينجوغبان، أسّس الملك تيغبيسو اقتصاد الداهومي على تجارة العبيد ابتداءً من 1767: «تيغبيسو وضع المملكة تحت رحمة العوامل الخارجية التي لم يستطع أهل الداهومي التحكّم أو حتّى التأثير فيها»[1].

كان هناك تجّار أوروبيون مارسوا تجارة العبيد ثمّ «التجارة المشروعة» ووسّعوا نشاطهم إلى أراض شاسعة. إنتاج زيت النخيل، والفستق، والعاج، وكبش القرنفل كان يقوم على التجارة الداخلية وعلى الائتمان. في أنغولا والموزمبيق، كان البرتغاليون يملكون بعض المواقع العسكرية، وعقارات مستثمرة زراعياً، ووكالات على الساحل، بين أمبري وموساميديس. في الموزمبيق، كان تفوّق البرتغاليين الحقيقي مقتصراً، سنة 1800، على جزيرة موزمبيق حيث فرضت فئة معيّنة من التجّار نفسها، وهم التجّار «الخلاسيون» الذين كانوا يسهرون على أمن الطرقات التجارية بمساعدة زعماء القبائل والتجّار الإفريقيين.

خلال القرن التاسع عشر، ساعدت الاضطربات الحاصلة على وصول بعض مجموعات من المحاربين إلى السلطة. ولم يتردّد الزعماء التقليديون في الاعتماد على محاربين، وأيضاً على تجّار أوروبيين أو «كريول». هؤلاء المحاربون والتجّار الكريول الذين أرادوا نيل جزء من الامتيازات التي تؤمّنها السلطة، كان عليهم الخضوع لقواعد المنافسة السياسية. أخلاف العبيد المحرّرين غالباً ما كانوا يمارسون التجارة، وهكذا طوّعوا بدورهم عدداً لا بأس به من العبيد وجمعوا ثروات سمح لهم توزيعها بالوصول إلى السلطة. هكذا نفهم بصورة أفضل الأهمّية التي اتّخذها أولئك البرازيليون أو الداهوميون ونفهم خصوصاً لِمَ لم تحصل ثورة اقتصادية واجتماعية خلال النصف الأوّل من القرن.

---

(1) *الداهومي وجيرانها*، 1708-1818، منشورات جامعة كامبردج، 1967، ص. 141.

الانتشار السريع للتجارة الأوروبية ساهم في إثراء بعض الزعماء الإفريقيين وسمح لهم بالحصول على منتوجات أساسية مثل الأسلحة النارية. غير أنّ هناك ما يستدعي الاستغراب: كيف نفسّر أنّ الكثير من الملوك الأفارقة، في أبيوكوتا، وبلاد الفانتي، ومدغشقر، خاطروا بالرغم من حذرهم، باستقبال تجّار، ومغامرين، وإرساليين، آتين من أوروبا؟

انطلاقاً من السنوات 1850 ـ 1860، بدأت فترة انتقال، مع أنّ تجارة العبيد والتجارة «الشرعية» ظهرتا متكاملتين بالنسبة إلى الكثير من الأفارقة. إنتاج زيت النخيل، وموطنه الأصلي في دلتا النيجر، المرتبط أساساً بتجارة العبيد، انتشر في ساحل الذهب، وفي الداهومي، وفي نيجيريا. العبور من تجارة العبيد إلى التجارة «الشرعية» عزّز نفوذ التجّار المستقلّين على حساب تجّار الملك وحفز النشاط التجاري لدى الأشانتي شمال السافانا. هذا الانتقال أحدث اضطرابات على مستوى الإنتاج: «إنّ جمع، ونقل، وتخزين البضائع مثل زيت النخيل والفستق، ثمّ تقسيم المنتوجات المستوردة لتوزيعها بين صغار المنتجين كانت تتطلّب يداً عاملة أكثر ممّا تحتاج إلى تجارة العبيد...»[1].

ووفرة المنتوجات المصدّرة التي حلّت مكان تجارة العبيد أوجدت في إفريقيا حاجة إلى عدد أكبر من العبيد للحصول على العاج (صيد الفيلة)، ولقطف القطن، وجني العسل، والصمغ العربي، وكبش القرنفل وفيما بعد المطّاط، وكذلك لنقل كلّ هذه المنتوجات. نلاحظ تزايداً مهمّاً لتجارة العبيد الداخلية الإفريقية وللأعمال الرقّية في القرن التاسع عشر، ترافقها نزعة إلى تمركز الأنظمة السياسية وتعزيز السلطة الملكية.

بدءاً من السنوات 1870 ـ 1900، تحدّدت هجمات الأوروبيين، وتسارعت بفضل الأسلحة الرشّاشة. والغزوات الاستعمارية للأراضي الإفريقية قامت بالفعل بالأسلحة الحربية الحديثة (مدافع، بنادق،

---

(1) ف. مونرو، *إفريقيا والاقتصاد العالمي*، دنت، لندن، 1976، ص. 47.

رشّاشات). ظهر الرشّاش تقريباً في وقت واحد في فرنسا والولايات المتّحدة. خلال الحرب الانفصالية، ظهرت البندقية الآلية غاتلينغ، على اسم مخترعها، ريتشارد غاتلينغ، من شيكاغو. وفي فرنسا، في قصر مودون، وبتشجيع من نابوليون الثالث، ابتكر المقدّم ريفي «مدفع رصاص» أو رشّاشاً، اعتمده الجيش الفرنسي سنة 1867.

مارتن ر. ديليني، من روّاد «القومية السوداء»

«إفريقيا هي للعرق الإفريقي، وحكمها للسود»

م.ر. ديليني

يستحقّ عدّة أشخاص أن يكونوا معروفين أكثر من قبل العامّة وأن تُدرس كتاباتهم بعناية أكبر. لقد نشروا نصوصاً: دراسات، وكتيّبات، وعظات، ومقالات، وكتباً لمكافحة التمييز العنصري والنضال من أجل إفريقيا متحضّرة. البعض منهم يدورون في فلك المثال الأفريقاني: هوسيا إيستون (مؤلّف *دراسة في الشخصية الفكرية*، 1837)، جيمس بيننغتون (1841)، روبرت بلويس (*النور والحقيقة*، 1844)، دافيد ووكر (*نداء إلى المواطنين الملوّنين في العالم*، 1829)، هنري هايلاند غارنيت (1848)، ألكسندر كرامل (*مستقبل إفريقيا*، 1862، مجموعة عظات)، جيمس «أفريكان» هورتون (*بلاد إفريقيا الغربية وشعوبها*، 1868)، جورج واشنطن وليامس (*تاريخ العرق الأسود في أمريكا*، 1882)، القس هارفي جونسون، من *كنيسة الاتحاد المعمدانية* في بالتيمور، دكتور في علم اللاهوت (*الأمم من وجهة نظر جديدة*، 1903).

يحتلّ مارتن روبنسون ديليني حيّزاً مهمّاً في هذه المجموعة: فأين نضعه من دون الوقوع في الخطأ؟ ديليني، المولود في 6/ 3/ 1812 في تشارلزتاون (فرجينيا) هو الابن الخامس لباتي بيس، التي تزوّجت ـ نحو سنة 1799 ـ من صموئيل ديليني، والاثنان زنجيان حرّان. شانغو وغرايسي، والدا باتي، كانا من الماندانغيين. والد صموئيل، زعيم قرية

قُبض عليه في إفريقيا وبيع عبداً، نجح في الهرب، وفي اللجوء إلى كندا مع زوجته وولديه. وصموئيل نفسه، الذي كان عبداً في بادئ الأمر، ونجّاراً، نجح في جمع مبلغ سمح له بشراء حرّيته. وقد عمل أوّلاً على تعلّم القراءة والكتابة بنفسه. أخذ الأب عائلته في الشهر التاسع من 1822 إلى بنسلفانيا، أي الولاية التي أصبحوا فيها أحراراً. ثمّ ترك العائلة واستقرّ في بيتسبرغ في 29/ 7/ 1831. تعرّف إلى لويس وودسون، وهو قس ومبشّر فتح مدرسة (*كلّية بيتسبرغ الإفريقية*) في مبنى *الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية*. قرأ النداء الذي كتبه ديفيد ووكر، وهو زنجي حرّ من بوسطن (؟ ـ 1830)، *نداء إلى المواطنين الملوّنين في العالم*. هذا الكتيّب المناهض للاستعباد كان يحثّ العبيد، سنة 1827، على الثورة ضدّ الطغاة. وكان الحلّ البديل: «نَقتل أو نُقتل».

كان الشاب مارتن يعمل في النهار، ويلتحق بالمدرسة في الليل. ثمّ بدأ بدراسة الطب مع د. أندرو ماك داويل. مارتن ر. ديليني ولويس وودسون، موفدا بيتسبرغ، حضرا سنة 1836 *المؤتمر السنوي للأشخاص الملوّنين* في نيويورك. وشاركا في النقاش حول تنظيم السود للمكافحة من أجل التحرير. أيّ أنواع من التنظيم: «مؤتمرات ملوّنة»، أو «كنائس إفريقية»، أو مجموعات اجتماعية لمحاربة البيض والسود معاً في حركة معادية للاستعباد؟ أيّ مصطلحات يجب استعمالها: «السود»، أو «الملوّنين»، أو «الزنوج»، أو «أبناء إفريقيا»، أو «الأمريكيين المضطهدين»؟

أكثرية السود الأحرار اعتبروا جمعية *الاستيطان* عدوّة لهم:

«الاستيطان في إفريقيا هو وسيلة لجذب الأكثر ثقافة بين الأشخاص الملوّنين إلى خارج الولايات المتّحدة، بغية شدّ وثاق سلسلة الاستعباد. (...) نحن نعتبر كلّ إنسان ملوّن يقبل الانتقال إلى إفريقيا خائناً لقضيّتنا»، لقاء بيتسبرغ.

مارتن ديليني، في 1839 ـ 1840، زار تكساس، التي انضمّت إلى

الاتّحاد منذ 1836، ولويزيانا، ونيو أورليانز، وأرض *أمّة الشوكتو*، وأركنساس[1].

كان ديليني يفتخر بكونه أسود البشرة. قال عنه فريدريك دوغلاس: «أنا أحمد الربّ لأنّه خلقني إنساناً، أمّا ديليني فيشكره لأنّه خلقه إنساناً أسود». ديليني كان مستكشفاً، ومحرّراً، وكاتباً، ومدير إحدى أولى الجرائد التي يملكها السود. كان واحداً من السود الثلاثة الأوائل الذين قُبلوا في *كلّية هارفرد للطب*، وأوّل أسود وصل إلى رتبة لواء في جيش الولايات المتّحدة في الحرب الانفصالية. كان ديليني مؤلّفاً، ودكتوراً في الطب، وعالم سلالات، وخطيباً، وقاضياً، ومسؤولاً في مكتب *الإعتاقات*، وبهذا كان من أوائل ممثّلي *القومية السوداء*.

تزوّج كاثرين ريتشاردس، ابنة أسرة سوداء، من تجّار بيتسبرغ الميسورين، في 15/ 3/ 1843. وفي 30/ 8/ 1843 أطلق جريدة *اللغز* التي كان شعارها: «وتعلّم موسى من كلّ حكمة المصريين». وكان هناك لجنة للنشر يرأسها جون بيك وجون تمبلتون اهتمّت بشؤون الجريدة التجارية منذ الشهر الخامس من 1844، حيث أنّ ديليني تفرّغ كلّياً للتحرير، وبالرغم من انشغالاته، زار ديليني أوهايو مرّتين سنة 1844، وذهب إلى سينسيناتي للاستعلام عن ظروف حياة جماعة السود الأحرار. وألقى ثلاث محاضرات في كولومبوس وفي فيلادلفيا. الزوجان ديليني رزقا بأحد عشر ولداً، عاش منهم سبعة. أطلقوا على الأوّل، المولود في 28/ 2/ 1846، اسم توسان لوفرتور ديليني، والثاني، المولود سنة 1850، تشارلز لينوكس ريموند، ثمّ ألكسندر دوماس، وسان ـ سيبريان، وفوستان سولوك، ورمسيس بلاسيدو، وإثيوبيا هال، الابنة الوحيدة.

(1) يوجد وصف لرحلته في الرواية التي أصدرها لاحقاً، سنة 1859، *بليك: أو أكواخ أمريكا*. وفيها يروي قصّة شخص أسود ذهب من ناتشيز إلى نيو أورليانز، ،إلى تكساس، وإلى أركنساس، في محاولة لتنظيم ثورة عامّة للعبيد.

مارتان ر. ديليني وفريدريك دوغلاس التقيا في بيتسبرغ، بمناسبة اجتماع معاد للاستعباد، في الشهر الثامن من 1847. وتشاركا من 1847 إلى 1849 في إصدار جريدة نجمة *الشمال* في روتشستر (نيويورك). أمّا *اللغز* فقد اشترتها *الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية* سنة 1848، وأصبح اسمها *الكريستيان هيرالد*، أوّل جريدة دينية للسود في الولايات المتّحدة. ديليني قرّر أن ينهي دروسه في الطب بمساعدة د. فرنسيس لوموان. نجح في امتحان الدخول إلى كلّية الطب في جامعة هارفرد. وقبول أسودين آخرين، هما إيزاك سناودن ودانيال لينغ، تمّ بشرط أن يزاولا مهنتهما في ليبيريا تحت رعاية جمعية ماساتشوستس للاستيطان. فأبحرا إلى ليبيريا سنة 1854 بعدما أنهوا علومهم الطبّية في دارتموث.

بقي ديليني في بيتسبرغ حتّى سنة 1856، وعمل كطبيب، وأستاذ ومعلّم *مبجّل* في محفل سان سيبريان الماسوني. ونحو عام 1856، حين كان يقيم في بيتسبرغ، علم أنّ عصابة من البيض كانت تذهب بانتظام إلى جزر الهند الغربية لتخطف صغاراً سوداً وتحوّلهم إلى رقيق. حرّر فتى صغيراً كان قد قُبض عليه في جامايكا ونظّم عودته بالتعاون مع القنصل الإنكليزي. في تلك المناسبة كتب ديليني رسالة بعث بها إلى جريدة *الصباح* في جامايكا معبّراً فيها عن غضبه:

«من الأفضل أن يعيش المرء حرّاً مع موزة أو إنيام، على كوب ماء وحيد في اليوم، من أن يكون عبداً، خصوصاً في هذا البلد وهو أسوأ وأحقر ما رأته السماء. لا يوجد شخص ملوّن في الولايات المتّحدة حرّ فعلاً. ابقوا في جزيرتكم المشمسة الحلوة، بدل أن تأتوا إلى هذا البلد المضطهِد الظالم».

في الشهر الخامس من 1852، نشر ديليني كتاباً في فيلادلفيا، *«وضع، وتربية، وهجرة، ومصير الشعب الأسود في الولايات المتّحدة من وجهة نظر سياسية»*. بعدما لاحظ أنّه «منذ أكثر من مئتي سنة، قطعنا أشجار الغابات، وزرعنا الأراضي، وبنينا المدن... (نحن) نشكّل العمود

الفقري، عصب البلد»، استنتج: «منذ زمن بعيد ونحن ندع البيض يفكّرون عنّا»، وأكّد أنّه: «يجب أن نقرّر عن أنفسنا». ما العمل إذاً؟ إلى أين الذهاب؟ كان يؤيّد فكرة الهجرة ولكن يستثني ليبيريا، التي اعتبرها «تابعة بائسة للجمعية الأمريكية للاستيطان». اقترح جزر الكاريبي كملاذ، حيث أمل فيما بعد «بتأسيس اتّحاد كبير الشأن للدول الأمريكية الجنوبية».

عملاً بنصيحته، أبحر ديفيد بيك، وهو أوّل أسود نال شهادة من كلّية طبّية (*كلّية راش الطبية*، في شيكاغو)، أبحر إلى نيويورك ثمّ انطلق للعمل في سان خوان ديل نورتي، وهو مرفأ على ساحل موسكيتيا في نيكاراغوا. فقام بدور مهمّ في تنظيم المدينة سياسياً وإدارياً. كان سود الكاريبي وسود نيويورك يعملون معاً في المجلس البلدي لمرفأ سان خوان ديل نورتي.

قبل تسليم مخطوطة كتابه إلى المطبعة، أضاف ديليني إليه ملحقاً بعنوان «مشروع حملة إلى ساحل إفريقيا الشرقي». وليام لويد غاريسون، في تقييمه للكتاب، لم يحبّذ نصيحة ديليني للشعب الأسود «بالهجرة إلى الكاريبي». وطُرحت المسألة على هذه الصورة: هل ينبغي السفر للعيش في ظلّ الحرّية، أم البقاء في الولايات المتّحدة والخضوع لاضطهاد القوانين الرقّية؟ فريدريك دوغلاس بالمقابل، وبالرغم من رسالة من ديليني تسأله عن رأيه، فضّل الاحتفاظ بالصمت[1].

ديليني شارك في الشهر الثامن من 1854 في مؤتمر حول الهجرة في كليفلاند. وبعد انتخابه رئيساً، كتب تقريراً (*تقرير حول المصير السياسي للشعب الملوّن*) انتقد فيه أحلام الاندماج التي راودت الكثير من أجيال الزنوج الأحرار. ديليني وأصدقاؤه في لجنة المفوّضين، تبادلوا المراسلات

(1) في مؤتمر *الأشخاص الملوّنين* الذي عقد في كليفلاند (أوهايو) في الشهر الحادي عشر من 1848، حثّ ف. دوغلاس سود الولايات المتّحدة على البقاء مكانهم والكفاح لإلغاء الرق بكلّ الوسائل المتاحة، بدل القبول بمغادرة البلاد.

مع شخصيات من الكاريبي (جامايكا، كوبا). وأرسلت اللجنة سنة 1855 جيمس ثيودور هولي إلى هايتي، إلى بلاط الامبراطور فوستان سولوك.

اجتماع المؤتمر حول الهجرة في كليفلاند عقد من دون رئيسه سنة 1856، لأنّ ديليني كان قد غادر بيتسبرغ في الشهر الثاني من 1856 ليقيم مع عائلته في كندا، في تشاتهام (أونتاريو). هناك زاول الطب، وكتب مقالات في *الرجل الحر*.

خلال النقاشات التي دارت بإشراف المؤتمر حول الهجرة، لم يذكر أيّ من المشاركين إفريقيا خوفاً من أن يُعتبر متواطئاً مع *الجمعية الأمريكية للاستيطان*. غير أنّ إصدار كتاب *إفريقيا الوسطى* سنة 1857 لمؤلّفه توماس جفرسون بوين، وهو قسّ أبيض من جورجيا، لفت نظر ديليني. فيه يتناول الكاتب عمل المبشّرين في ممالك اليوروبا عند ساحل إفريقيا الغربي. وقد أرسل ديليني نسخاً من الكتاب إلى أعضاء اللجنة الوطنية لمفوّضي المؤتمر. وفي الشهر الرابع من 1858، نظّم رحلة إلى إفريقيا. في الفترة ذاتها، ظهرت جمعية جديدة، هي جمعية *الحضارة الإفريقية*، وحضّرت لحملة إلى بلاد اليوروبا وبحثت عن متطوّعين. وراء رئيسها، هنري هايلاند غارنيت، وهو قسّ من نيويورك وصديق قديم لديليني، احتشد رجال أعمال، وصاحبيون، وعتقيون، وأعضاء من *الجمعية الأمريكية للاستيطان*.

نجح ديليني في جمع مبلغ من المال لتغطية نفقاته في 1858 ـ 1859 بفضل محاضرات في نيويورك، وكتابة رواية نُشرت قبيل عيد الميلاد سنة 1858. كتابه *«بلايك: أو أكواخ أمريكا»*، كان يريد أن يردّ على كتاب هارييت بيتشر ستو، *«كوخ العمّ توم»*، الذي نُشر سنة 1852 ولاقى رواجاً كبيراً. إنّ بطل رواية ديليني، وهو أسود شاب، التُقط طفلاً في كوبا، ثمّ عاش عبداً في مزرعة في الميسيسيبي، كان متعلّماً وكريم النفس، في حين كان العم توم مسنّاً، متزمّتاً وجاهلاً. وهناك أسودان آخران تعاطيا فنّ الرواية .*كلوتيل: أو ابنة الرئيس*، لوليام ويلز براون، نُشرت في إنكلتره سنة 1853، *وآل غاري وأصدقاؤهم* لفرانك ويب، ظهرت بعد أربع سنوات،

في إنكلتره أيضاً[1].

ديليني غادر كندا على متن السفينة مندي في 24/ 5/ 1859 متّجهاً إلى ليبيريا. كانت السفينة ملك ثلاثة أشخاص سود من نيويورك تشاركوا لفتح خطّ يصل الولايات المتّحدة بليبيريا. وصلت مندي إلى مونروفيا في 12/ 7/ 1859 ونزل ديليني في بلد كان قد انتقده منذ عقدين من الزمن، وعند الليبيريين، الذين اعتبرهم «خدماً وعبيداً» *للجمعية الأمريكية للاستيطان* في مقدّمة كتيّب ألّفه قبل ذلك بأربع سنوات.

بعد دعوة مجموعة من الشخصيات له لعقد ندوة، لاقى استقبالاً حارّاً في مونروفيا حيث التقى أصدقاء قدامى مثل د. دانيال لينغ أو الأب ألكسندر كراميل، الذي كان مسؤولاً عن مدرسة ثانوية هناك. بليدن ذكر مرور ديليني في *ليبيريا هيرالد*، وقارنه «بموسى الذي قاد خروج شعبه...». وفي 5/ 8/ 1859 أبحر على متن مندي قاصداً رأس بالماس ومن هناك إلى لاغوس حيث كان ينتظره روبرت كامبل، وهو عالم طبيعيات شاب من جزر الهند الغربية. لكن حمّى شديدة أجبرته على البقاء في رأس بالماس عند ألكسندر كراميل. وفي اللاغوس حيث بقي خمسة أسابيع، استقبله في الشهر العاشر الملك دوسيمو الذي قدّم له قطعة أرض هدية.

غادر ديليني اللاغوس في 30/ 10/ 1859 ليذهب إلى أبيوكوتا بالجذعية عبر نهر أوغون. وهناك أمضى شهرين مع الأب صموئيل أدجاي كراوذر. كما تعرّف إلى *الأميرة* تينوبا[2]، وهي تاجرة ثرية كانت تسافر بمواكبة ستّين شخصاً لها. بعد طردها من اللاغوس، إثر الاشتباه بمشاركتها في مقتل القنصل البريطاني، أرادت أن تسلّم ديليني مصالحها. هذا الأخير كان يجهل آنذاك أنّ تلك *الأميرة* اصطدمت مع السلطات الإنكليزية التي

(1) كان يجب انتظار الحرب الانفصالية لرؤية نسخة منقّحة من *كلوتيل* في الولايات المتّحدة، أمّا رواية *آل غاري وأصدقاؤهم* فانتظرت حتّى سنة 1969 لتظهر في هذا البلد.
(2) انظر الفصل الخامس.

أرادت توقيف نشاطها التجاري في تجارة العبيد غير الشرعية. وعند تورّطها في عملية تهريب أسلحة، دار حولها الشك في الاختباء خلف تجارة زيت النخيل والعاج لتتابع تهريب العبيد في صورة أسهل وفي نقاط بعيدة عن الساحل.

ديليني انتقد نشاط الإرساليين وعادتهم في تغيير أسماء الأفارقة المتنصّرين. وتفاوض هو وكامبل مع الملك والزعماء على استجلاب مجموعة من السود من الولايات المتّحدة إلى أبيوكوتا[1].

غادر ديليني وكامبل أبيوكوتا في الشهر الأوّل من 1860، وزارا طيلة ثلاثة أشهر مدن اليوروبا في وادي النيجر. وفي 10/ 4/ 1860 أبحرا من اللاغوس على سفينة وصلت في 12/ 5 إلى ليفربول و16/ 5 إلى لندن. هناك استلم ديليني دعوة من *الجمعية الجغرافية الملكية*، فألقى محاضرة بعنوان «ملاحظات جغرافية في إفريقيا الغربية». وبعد خمسة أيام ، ألقى محاضرة في *النادي القومي*، عن «أوضاع العرق الأسود ومطامحه». في 16/ 7، شارك في دورة *المؤتمر الإحصائي العالمي* وفي النقاشات حول الأمراض والصحّة في إفريقيا.

ديليني ذهب إلى اسكتلنده في الشهر التاسع، بعدما زار برايتون، ومانشستر، وليدز، ونيوكاسل/ تاين. وكان الهدف الأساسي من جولته في بريطانيا جمع النقود لتمويل مشروع الاستقرار في أبيوكوتا. عاد إلى الولايات المتّحدة في 29/ 12/ 1860، وحالما انتهى تقريره في الشهر الثاني من 1861، نُشر في نيويورك. كان هذا التقرير مقدَّماً إلى لجنة مفوّضي المؤتمر حول الهجرة، وقد انتهى بهذه العبارة: «سأرجع حتماً إلى إفريقيا أنا وعائلتي».

(1) معاهدة وُقّعت في 27/ 12/ 1859، بين الزعماء وشعوب بالاغون أبيوكوتا: أوكوكينو، وألاكي، وسوموبي، وإيباشوروم، وسوكينو، وأوغوبونّا، وأتامبالا من جهة، ومارتن ر. ديليني وروبرت كامبل من جهة أخرى.

كثير من السود، الخائفين من الوضع السياسي والخلاف بين الشمال والجنوب، فكّروا في الهجرة. الأكثرية بينهم فكّرت في السفر إلى هايتي وليس إلى إفريقيا. الرئيس الهايتي فابر جيفرار الذي انتُخب سنة 1859، عيّن رجلاً أبيض، هو جيمس ريدباث، على رأس المكتب الهايتي للهجرة. ريدباث الذي حصل على 20 ألف دولار اجتمعت حوله شخصيات سوداء مثل وليام ويلز براون، وهـ. فورد دوغلاس، وجيمس ت. هولي لجذب المتطوّعين إلى الجزيرة الجمهورية.

ديليني انتقد تعيين جيفرار لشخص أبيض وأكّد تفضيله للهجرة إلى إفريقيا. في 1861 و1862، هاجر ألفا أسود من الولايات المتّحدة إلى هايتي. وفريدريك دوغلاس نفسه قبل تذكرة مجانية لزيارة هايتي لستّة أسابيع والاطّلاع على هذا البلد. لكن دوغلاس لم يسافر، لأنّ الحرب الانفصالية كانت قد بدأت ففضّل البقاء لمتابعة مجريات الأحداث عن قرب.

ديليني عرف باحتلال اللاغوس في الشهر الثامن من 1861 من قبل القوى البحرية الإنكليزية. آنذاك نُفي الملك دوسيمو وعُيّن وليام ماك كوسكري حاكماً. وهكذا لم يعد من مجال لمغادرة البلاد في حالة الحرب. اعترفت الولايات المتّحدة باستقلال هايتي وليبيريا في الشهر الخامس من 1862. وخصّص الكونغرس 600 ألف دولار لمشروع هجرة الزنوج الأحرار. وبعد دراسة خطّة للانتقال، أوصت لجنة هجرة واستيطان، باعتماد قدره 20 مليون دولار لتنفيذها. الرئيس لنكولن حضّر لإرسال أشخاص سود إلى شيريكي، في باناما، واستقبل في واشنطن في البيت الأبيض خمس شخصيات من السود في الشهر الثامن، منها لويس دوغلاس، ابن فريدريك دوغلاس. هذا الأخير عارض المشروع بشدّة ومثله فعلت جماعة فيلادلفيا ونيويورك. أخيراً، لم يتمّ مشروع لنكولن نظراً للصعوبات التي وُجدت في باناما لاستقبال سود الولايات المتّحدة. ومع إعلان لنكولن تحرير العبيد في 22/ 9/ 1862 بدأ عهد جديد.

جال ديليني، وكما فعل فريدريك دوغلاس، وهنري هـ. غارنيت،

ووليام ويلز براون في الشرق، جال في الغرب: إيلينوي، وإنديانا، وميشيغان، لتطويع السود في الجيش. ابنه توسّان، وكان في السابعة عشرة من عمره، التحق في 27/ 3/ 1863 بإذن من والده، في فوج ماساتشوستس الرابع والخمسين (المجموعة د). وأظهر انتقاد خجول لفريدريك دوغلاس وجهاً لم يكن معروفاً من شخصية ديليني. إذ نقل دوغلاس في *التريبيون* هذه الكلمات التي لفظها ديليني في روتشستر سنة 1862: «أتكلّم فقط عن العرق الأسود الصافي، الذي لم يفسده الدم القوقازي». وعلّق دوغلاس بأنّ سماع هذه الكلمات يعطي انطباعاً بأنّ «ديليني يشاطر بالنسبة إلى السود ما يراه البيض بحسب نظرية تفوّق العرق الأبيض»[1]. بليدن كذلك كان من أنصار نظرية الزنوج «الصرف»[2].

في الشهر التاسع من 1864، غادر ديليني، وزوجته كاثرين، وأولادهما السبعة كندا للإقامة في ويلبرفورس، بالقرب من غرين كاونتي في أوهايو، على بعد خمسة كيلومترات من مدينة زينيا. كانت الكنيسة الأسقفية الميتودية الأمريكية حصلت على أرض اسمها *ويلبرفورس* لبناء كلّية تخرّج أساتذة وقسّيسين. وحول «الجامعة» التقت جماعة من السود للهرب من التمييز العنصري. وقد اشترى ديليني قطعة أرض وبنى منزلاً لتستقرّ فيه عائلته.

عندما استقبله الرئيس لنكولن في البيت الأبيض في 18/ 2/ 1865، قدّم له ديليني مشروعاً يقضي بإنشاء جيش قوامه 40 ألف جندي أسود بإمرة ضبّاط سود، يمكنه اختراق قلب الجنوب ويشكّل «قوّة لا تقاوم». أثارت الفكرة اهتمام لنكولن فكلّف إي.و. ستانتون، وزير الحربية، بإعطاء ديليني مهمّة لواء في جيش الولايات المتّحدة، في 28/ 2/ 1865. فخدم ديليني كطبيب جرّاح في الجيش في تشارلستون.

---

(1) شهرية دوغلاس، الشهر الأوّل من 1859-الشهر الثامن من 1862.

(2) انظر الفصل السابع.

بعد الحرب، أمضى ثلاث سنوات في مكتب *فريدمان* وعمل كقاضي صلح في تشارلستون. وأظهر حزمه تجاه الفساد خلال فترة *إعادة الإعمار* في كارولينا الجنوبية، وكفاءته كقائد نزيه *لرابطة الحكومة الشريفة* بعد فشله في السياسة إلى جانب الجمهوريين. سنة 1874، كتب مؤلّفه المرجعي، مبادئ علم السلالة: *أصول الأعراق والألوان مع ملخّص حول الحضارة الإثيوبية والحضارة المصرية القديمتين* الذي صدر لدى هاربر سنة 1879.

في الشهر 11 من 1877، كتب القس ريتشارد كاين إلى وليام كوبنغر، أمين سر *الجمعية الأمريكية للاستيطان*، يقول له إنّ آلاف السود الجنوبيين يرغبون في السفر للعيش في ليبيريا. وكان يأمل في انطلاق سفينة من تشارلستون في الشهر الأول من 1878. وأنشأت مجموعة من الأشخاص شركة مساهمة للسفر بالباخرة إلى ليبيريا باعت أسهماً وجمعت ستّة آلاف دولار في ستّة أشهر، فاشترت في بوسطن سفينة *آزور*، في الشهر الثالث من 1878. هذه السفينة غادرت تشارلستون في 21/ 4/ 1878 لتصل إلى ليبيريا بعد خمسة وعشرين يوماً.

سنة 1880، حاول ديليني من دون جدوى أن يحصل من وزارة الخارجية على تعيينة قنصلاً في أحد بلدان أمريكا الجنوبية أو الكاريبي. بعد أربع سنوات، في 1884، ارتأت جمعية في بوسطن أن ترسله كوكيل إلى جزر الكاريبي الشرقية. وكان يستعدّ للسفر عندما ألمّ به المرض، فتوفّي قرب عائلته، في 24/ 1/ 1885، في منزله في ويلبرفورس (أوهايو).

الفصل الخامس

المعتوقون الكوبيون والبرازيليون في ظلال الحريّة

«إنكلترا ورغم كلّ حبّها لعمل الخير، ترسل تحت راية سان - جورج إلى مستودعات التجارة الشرعية الواسعة والمريحة على الساحل الغربي، بنادق من برمنغام، وقطنيات من مانشستر، ورصاصاً من ليفربول وموادّ أخرى يُدفع ثمنها قانونياً في سيراليون، وأكرا وساحل الذهب، بناء على معاملات تجارية برازيلية أو إسبانية في لندن. هل يوجد تاجر إنكليزي واحد يجهل وجهة هذه البضائع؟ فرنسا ومع كلّ شعاراتها الجميلة عن الحرية، والمساواة، والأخوّة في العالم ترسل من جهتها أيضاً قطنيات من روان، ومشروباتها الكحولية، وكميّات من سلع أخرى خدّاعة إلى الوجهة ذاتها. أخيراً لم ترفض الفلسفة الألمانية حصّتها من قالب الحلوى المبلّل بالدم وبعرق الشعب الأسود، كما قد يقول أيّ متعاطف مع الزنوج؛ فهي تبعث إلى الساحل الإفريقي مراياها ومصنوعاتها الزجاجية. وبدورهم مواطنو الولايات المتّحدة، سواء في الولايات التي أُلغي فيها

الاستعباد، أو في الولايات الأخرى، هؤلاء المواطنون الشرفاء في الولايات المتّحدة، الذين لا يتردّدون، كما يقولون، في شنق تاجر عبيد باعتباره قرصاناً، إذا ما قبضوا عليه بالجرم المشهود، ها هم يزوّدونه بشكل غير مباشر بالتبغ، والبارود، وبكلّ البضائع التي يصنعونها أو يزرعونها، فهناك الروم الأمريكي، وكتب توراة كثيرة من إنكلترا الجديدة، للتستّر على لعبتهم والظهور بمظهر القداسة أمام الطرّادات الإنكليزية. الحصول على كلّ هذه الأشياء، ولا أشمل هنا كتب التوراة، هو ما يغذّي الحروب الإفريقية الداخلية؛ فمقابل البارود، والتبغ، والكحول، والقطنيات، الخ. كان يتمّ تبادل أبناء البشرة السوداء. «ما العمل؟ قد يقول هؤلاء المبشّرون. تجارة السود هي كارثة الكوارث، لكن الذهب لا يسأل من أين يأتي. والمعاملات قانونية والفواتير تُسدّد في وقتها المحدّد» (الشهر 10 من 1827)».

القبطان تيوفيلوس كونّو، *مذكّرات* (تاجر عبيد)، مقتطف من كتاب القبطان ت. كونّو، *مخطوطة 1853 الأصلية*، لندن، ر. هايل ليمتد.

«التقى قاضي نيجيري تخرّج من كامبردج مع رئيس جمعية للحقوق المدنية أمريكي الجنسية خلال لقاء دبلوماسي في اللاغوس منذ فترة غير بعيدة، ووصلت محادثتهم إلى المشكلة العرقية في الولايات المتّحدة. الأمريكي الأسود تحدّث عن المعاملة الوحشية التي لقيها على يد رجال الشرطة في الابامـا ثمّ بدأ بفكّ أزرار قميصه ليريه ندبات الجراح التي خلّفوها على ظهره. لكن النيجيري أوقفه وقال: «هذا لا يهمّني». وشرح موقفه

لاحقاً: «هذا الأمريكي الشاب افترض أنّه يوجد بينه وبيني رابط مشترك خاص. لكن في الواقع الشيء الوحيد المشترك بيننا هو البشرة السوداء، ومن الواضح أنّ هذا الأمر مهمّ بالنسبة إليه أكثر ممّا هو بالنسبة إليّ».

نيويورك تايمز، 1971/9/5

منذ الاحتلال الفرنسي لشبه جزيرة إيبيريا سنة 1808، وانقطاع المواصلات البحرية بين البرتغال والبرازيل، وإسبانيا وكوبا بدأ بين هذه البلدان نوع جديد من العلاقات الدولية. لم يعد بإمكان البرازيل وكوبا الاعتماد على البرتغال أو إسبانيا لحمايتها من التهديدات الاقتصادية، والسياسية، ومطامع القوّتين البحريتين الكبيرتين، بريطانيا والولايات المتّحدة.

في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، قام نموّ الإنتاج (سكّر وبن) في مساحات زراعية شاسعة، على استثمارات مالية كبيرة. كانت البرازيل وكوبا تعتمد كلّياً على النظام الرقّي واستيراد الأسرى الإفريقيين. إنّ أساس النظام الاستعماري هو النظام الرقّي. بريطانيا، وهي قوة إمبريالية من الدرجة الأولى، فرضت في الجزر الكاريبية حضور بحريتها، وتجّارها، وبنوكها. وأصبحت البرازيل وكوبا محميّتين بريطانيتين افتراضيتين. واستقلالهما الاقتصادي، والمالي، والبحري في حالة كوبا، لم يترك لهما سوى هامش ضيّق من حرية الحركة السياسية. في هذا الإطار المالي على وجه الخصوص ـ آل روتشيلد هم المصرفيون الرسميون للحكومة البرازيلية ومصرف البرازيل أنشىء سنة 1962 في لندن ثمّ في الريو ـ ظهرت أجواء أزمة تعود إلى ضغوطات الإنكليز لإلغاء تجارة العبيد. هذه التوتّرات ازدادت حدّة في كوبا حيث كان المزارعون الكريول سبباً للمواجهة بين إسبانيا والولايات المتّحدة. كان على إسبانيا أن تساعدهم لمقاومة المطالب الإنكليزية، لأنّ تجارة العبيد كانت بالنسبة إليهم ضرورة حيوية؛ أمّا الولايات المتّحدة التي راهنت على ضمّ كوبا إليها فبدت في نظر إدارة المزارع في هذا البلد حلاً بديلاً. لكن إسبانيا المستفيدة من الثروات

الكوبية لم تكن تفكّر بالتخلّي عن هذه الجزيرة. فطلبت مساعدة بريطانيا والبحرية الملكية، وسعت لحماية مصالح المزارعين الرّقيين في كوبا. فكان على إنكلترا التي ترفض استيلاء الولايات المتّحدة على كوبا أن تعتمد سياسة دقيقة جدّاً للتوفيق بين نزعتها العتقية واهتمامها بحماية الجزيرة. بين هذين الهدفين، بدت أهميّة الثاني أكبر في أعين البريطانيين...

زنوج كوبيون في إفريقيا:

بالرغم من معارضة المزارعين الكريول والإدارة الاستعمارية في كوبا لتحرير الأفارقة المعتوقين وللسماح لهم بمغادرة الجزيرة، نجح البعض منهم في العودة إلى إفريقيا. وقد تمّ رجوعهم إلى مسقط رأسهم بالتعاون مع البريطانيين الموجودين في هاڤانا، أو في إطار ترحيل نظّمته الحكومة الإسبانية.

لقد دعت الحاجة إلى بحث دقيق في المحفوظات البريطانية، لاكتشاف المصادر المتعلّقة بالمعتوقين الذين تمكّنوا من الإفلات من الشباك والوصول، كما كانوا يفضّلون، إلى شواطىء كالاباري أو اللاغوس. أمّا في الوثائق الإسبانية فنجد معلومات عن ترحيل المعتوقين الكوبيين إلى جزيرتي فرناندو بو ـ هذه الجزيرة كانت تُدعى ديكابو، على اسم ديكا ـ أكوانيا بونامبيلا، وهو عالم أنثروبولوجيا دوالا ـ وأنوبون. هذه العودات الإجبارية تمّت من قبل سود مساجين (أشغال شاقة) ومعتوقين مجنّدين للخدمة كيد عاملة لتنمية فرناندو بو الاستعمارية التي كان يقوم بها الإنكليز والإسبان.

في كوبا كان يشار باسم لوكومي، أو كالابالي أو أناغو (آ ـ ناغو) إلى أفارقة بلاد اليوروبا الذين عبروا الأطلسي على مراكب زنّاجة ترافقهم الإلٰهة ييمايا لحمايتهم. ييمايا في كوبا، وييمانجا في البرازيل، هي والدة زانغو وربّة الماء، والأنهار، والبحر[1]. لا يوجد إذاً ما يثير الاستغراب في

(1) فرناندو أورتيس، مسرد *المصطلحات الإفريقية الزنجية*، هاڤانا، 1991، «آه ييمايا»، ص ص 37 ـ 81؛ ج.ل. فرانكو، *الشتات الإفريقي في العالم الجديد*، هاڤانا، 1975، ص ص. 157 ـ 181، 217 ـ 229.

رحلات بعض هؤلاء «الأفارقة المحرّرين»، المرحّلين إلى فرناندو بو هاربين من الجزيرة ليلجأوا إلى اللاغوس ويلتقوا بموطنهم الأصلي.

جزيرة فرناندو بو وجزيرة أنو بوم تمّ التنازل عنهما لإسبانيا، مقابل أراض وامتيازات أُعطيت للبرتغال في أمريكا الجنوبية، بموجب معاهدتي سانتو إيلديفونسو (1777) وباردو (1778). قامت حملة إسبانية سنة 1778، بقيادة كونت أرخيليخوس، وضمّت فرناندو بو في 24/ 10/ 1778. ويقول القبطان ج. أدامس، الذي قام بعدّة رحلات إلى منطقة رأس بالماس في الكونغو، إنّ جزيرة فرناندو بو، في بداية القرن التاسع عشر، كان يسكنها زنوج هاربون وعبيد «مصمّمون على بيع حرّيتهم بثمن مرتفع».

الحاكم الإسباني الأوّل، قبطان الفرقاطة كارلوس تشاكون، وصل إلى فرناندو بو في 23/ 5/ 1858 وطرد منها المبشّرين البروتستانت المعمدانيين. كما أجرى إحصاء في سانتا إيزابيل فكانت النتيجة 858 نسمة. لكنه لم يبق أكثر من خمسة عشر شهراً، خلفه بعدها العريف خوسيه دي لاغاندارا في الشهر 12 من 1858، فوصل في 28/ 8/ 1859 ومعه 188 مستوطناً و 166 جندياً. وجاء بعده، من 1862 إلى 1865، العريف بانتليون لوبيز دي لاتورّي إي أيلون، الذي شجّع إنتاج البن والكاكاو. والجدير بالذكر أنّ شخصاً يدعى وليام برات، أصله من الكاريبي وسيراليون، هو وراء بداية إنتاج الكاكاو وتطوّره في جزيرة فرناندو بو.

بدءاً من سنة 1821، استعملت الطرّادات الإنكليزية جزيرة فرناندو بو كمحطّة، لأنّ مناخها صحّي أكثر ممّا في سيراليون. وأرادت بريطانيا أن تقيم عليها قاعدة بحرية من أجل حملة القمع. ونزل القبطان فيتز ـ وليام أوين (1774 ـ 1857) في الجزيرة على رأس فرقة عسكرية تشمل حرفيين وعمّالاً من سيراليون، من كرو ليبيريا بين الشهرين 10 و 12 من 1827 وأسس مدينة كلارنس بورت (سانتا إيزابيل). وسعت الحكومة الإنكليزية إلى استعمار فرناندو بو فعيّنت أوين مراقباً للنظّار العسكريين بين 1827

و1833، والكولونيل إدوارد نيكولز، من فرق البحرية الملكية، حاكم كلارنس.

بعد رحيل أوين وليكولز سنة 1833، أصبح جون بيكروفت (1790 ـ 1854)، وهو «خلاسي إفريقي»، مواطن بريطاني وحاكم فرناندو بو، أصبح سنة 1840 قنصلاً ووكيلاً عامّاً لبريطانيا في خليجي البينان وبيافرا. وكانت دائرة صلاحياته تمتد، في القارة، من الداهومي إلى الكاميرون. وقد شجّع على إقامة توكيلات تجارية تعود إلى شركات إنكليزية سواء في فرناندو بو أو على ساحل الكاميرون وبيافرا (كالابار، بوني ريڤر).

طلبت الحكومة الإنكليزية من قناصلها في سانتا إيزابيل تسهيل الاستثمار التجاري للأراضي الإفريقية الخاضعة لحكمهم. ت.ج. هاتشنسون خلف بيكروفت سنة 1855. وتبعه ريتشارد ف. بورتون (1821 ـ 1890)، قنصل من 1861 إلى 1864، وس. ليفنغستون (1864 ـ 1873)، و.ح. هارتلي (1873 ـ 1878)، ود. هوبكنز (1878 ـ 1880)، وإي.هـ. هيويت (1880 ـ 1882). وحتّى إلغاء القنصلية في سانتا إيزابيل سنة 1882، بقيت جزيرة فرناندو بو قاعدة للإنكليز تخدم تدخّلاتهم في القارة. نحو سنة 1830، افتتح الحاكم الإنكليزي نيكولز «دبلوماسية المدفعية». وتبعه جون بيكروفت الذي قصف لاغوس في الشهر 12 من 1851. وقد استعمل الإنكليز القوة البحرية للتفاوض بشأن معاهدات مع الزعماء الإفريقيين المجاورين. كانت الحكومة الإنكليزية تقدّم «الهدايا» للزعماء الأفارقة المحلّيين للتمكّن من إلغاء تجارة العبيد. على القارة الإفريقية، في القرن التاسع عشر، تميّز الإنكليز عن باقي الأوروبيين باعتمادهم سياسة *الحماة*، في مرحلة تسبق مباشرة مرحلة الغزوات الاستعمارية في السنوات 1860 ـ 1870. بدأ البريطانيون يفرضون وجود طرّاداتهم وفرقهم البحرية الملكية قبالة السواحل الإفريقية التي كانت تشهد نفوذ البلدان التي لها صلة قوية بتجارة العبيد. وقد منحت إسبانيا للمملكة المتحدة، بموجب مراسيم ملكية في الفترة 1862 ـ 1864، إذناً بإفراغ

فحم لسفنها البخارية، في شاطىء كاربونيراس، قرب سانتا إيزابيل.

من الملفت للنظر أنّه حتى سنة 1856، بقيت الجزيرة ترد كأرض إنكليزية في *الدليل الملكي البريطاني*.

سنة 1828 عرضت الحكومة البريطانية على إسبانيا شراء الجزيرة، وسنة 1831، أن تستبدلها بجزيرة ڤييكس، قرب بورتوريكو، ولكن من دون جدوى. ثمّ تفاوض اللورد بالمرستون مع الحكومة الإسبانية بشأن التنازل عن فرناندو بو في الشهر الرابع من 1839. فقُبل مشروع قانون ونُشر في الجريدة الرسمية في مدريد بتاريخ 9/ 7/ 1841، لكن تحت ضغط الاعتراض الشعبي، رفعت الحكومة الإسبانية إلى مجلس التشريع في 23/ 8، مرسوماً بالرجوع عن قرارها. ووصلت حملة عسكرية إسبانية بقيادة المقدّم خوان خوسيه دي ليرينا إي باري، الذي عُيّن مفوّضاً ملكياً مطلق الصلاحية، وأكّدت السيادة الإسبانية في 23/ 2/ 1843. عقد ليرينا اتفاقية مع الإنكليز في 6/ 3. وبقي جون بيكروفت في منصبه، ومساعده جيمس لينسلاغار (1815 ـ 1869)، وهو تاجر من أصل هولندي، تبعه كحاكم لفرناندو بو في 1854 ـ 1855.

في الجزيرة التي أصبحت عملياً مستعمرة إنكليزية من 1827 إلى 1843، قامت أعمال بناء حصن بالاستعانة بيد عاملة مصدرها مركبان زنّاجان برتغاليان قبض عليهما. وصل أوائل الكوبيين المعتوقين إلى الجزيرة سنة 1834. ووُضعت خطّة إسبانية للاستعمار سنة 1845 (مرسوم ملكي بتاريخ 13/ 9) بالاعتماد على زنوج محرّرين، طردوا من كوبا.

كان هناك معتوقون كوبيون غير مرغوب فيهم في الجزيرة الكبيرة موّلوا رحلتهم بأنفسهم ووصلوا إلى فرناندو بو بعدما استلموا إذناً ملكياً سنة 1845. أمّا المستوطنون الإسبان الذين وصلوا سنة 1859، فقد عادوا أدراجهم في السنة التالية. وسنة 1859 أيضاً، قام كوبيان بتنظيم نقل المهاجرين المعتوقين إلى فرناندو بو. كانت توجد مجموعة من مئتي إفريقي

كوبي محرّرين أُعدّوا للأعمال العامّة في الجزيرة وقد وصلهم إذن ملكي (5/ 4/ 1861) بدخول فرناندو بو. وبموجب مرسوم صدر في 28/ 5، جنّدت الإدارة الإسبانية في مشاتها ثمانين من هؤلاء المعتوقين ليساندوا العسكريين الإسبان في الجزيرة الإفريقية. ولاجتذابهم كانت السلطات تعدهم بتوزيع قطع أرض بعد ست إلى ثماني سنوات من الخدمة.

وبدأ استعمار فرناند بو فعلياً سنة 1862 مع وصول مئتي كوبي نزلوا من السفينة *فيرول*. هؤلاء «المستوطنون» الفريدون، طوّروا بعد تحريرهم في فرناندو بو، اقتصاداً قائماً على زراعة التبغ وقصب السكّر. حاكم فرناندو بو، لوبيز أيلون، طلب من كوبا مئتي معتوق بين حرفيين وعمّال زراعيين، بعدما اتّخذ التدابير لتسهيل إقامتهم. كما كان هناك إجراءات حكومية تصدر في مدريد وتسعى لجذب معتوقين إلى فرناندو بو وذلك في الفترة 1861 ـ 1863، لكن المزارعين الكريول في كوبا لم يسمحوا لأحد منهم بالمغادرة. ففضّلت الحكومة الإسبانية توظيف صينيين وفيليبينيين.

سنة 1861 أنشىء سجن إصلاح في سانتا إيزابيل في مباني توكيل تجاري إنكليزي قديم. فوصل سجناء مبعدون من هافانا في مجموعات متتالية: مئة محكوم بالأشغال الشاقة سنة 1866، ومئتان وخمسون سنة 1869[1]. لكن فشل سياسة تجنيد الآسيويين، وإقفال سجن الأشغال الشاقة سنة 1869، دفعا الحكومة الإسبانية إلى العودة إلى بعض التدابير لاستقدام يد عاملة من كوبا تقوم على المعتوقين. بعد إلغاء الأشغال الشاقّة في سانتا إيزابيل، أمرت السلطات الإسبانية بعودة المساجين إلى كوبا. وقد نجح بعض أولئك المعتوقين، في الشهر 6 من 1869، في مغادرة جزيرة فرناندو بو واللجوء إلى اللاغوس، في بلاد اليوروبا، أي إلى موطنهم الأصلي.

المرسوم الملكي الصادر في 28/ 10/ 1865 أكّد على التحرير غير

(1) الأرشيف التاريخي الوطني، مدريد. بلاد ما وراء البحار، رقم 4666.

المشروط للمعتوقين المقيمين في كوبا منذ خمس سنوات والذين أنهوا مدّتهم. من جهة ثانية، كان المرسوم يقضي بأن يُنقل إلى إفريقيا، إلى فرناندو بو أو إلى القارة ـ ولكن إلى ممتلكات إسبانية ـ الأفارقة المحرّرون من كلّ المراكب الزنّاجة التي تقبض عليها في المستقبل طرّادات الردع[1]. وكانت الرحلات من كوبا إلى فرناندو بو تتمّ بصورة غير منتظمة، بموجب المرسوم الملكي الصادر في 21/ 3/ 1872 الذي كان يسمح بها.

كان معتوقو كوبا القوة الحية في النمو الاقتصادي لجزيرة فرناندو بو. فقد أوجدوا زراعة: قصب السكّر، والبن، والكاكاو، والتبغ، كما بدأوا يصنعون السيجار (مصنع بانابا الذي تأسّس سنة 1866). لكن السلطات الاستعمارية أوقفت نمو زراعات التبغ لتجنّب منافسة الإنتاج الكوبي. غير أنّ تبغ فرناندو بو حصل على جائزة سنة 1887 في معرض أمستردام. ورفضت الحكومة طلب الكوبي ماكاري في الإقامة سنة 1896 في فرناندو بو لينصرف إلى إدارة مزرعة للتبغ. سنة 1858 كانت قد بدأت تجربة مزارع نموذجية مثل: ڤيغاتانا، وڤيڤور، وپوميرا. وقد شارك كوبيون في الحملة إلى ريو موني من 1884 إلى 1886 (فريق: إيراديي ـ أوسوريو ـ مونتس دي أوكا). كما كانت موازنة غينيا الإسبانية تغذّيها في القسم الأكبر منها خزينة كوا وبورتوريكو.

سنة 1840، وصل إرساليون جامايكيون من الإرسالية البريطانية المعمدانية يتبعون الإنكليز. ونزل عدّة قسيسين من جزر الهند الغربية في فرناندو بو في 1841 ـ 1844 وشاركوا في تنصير شعوب الساحل الكاميروني. رهبانية الكلاريتيين، التي أسّسها الأب كلاريت سنة 1849، وهو كاتالاني أصبح مطران سانتياغو كوبا، أرسلت مئة إرسالي في 1883 ـ 1884 في الجزيرة. أمّا أنطونيو بورخس، وهو أسود من كوبا، فقد أدار من سنة 1875 إلى 1884 مدرسة إعدادية علمانية في سانتا إيزابيل أغلقها

(1) المرجع ذاته.

الكلاريتيون، أو أخوة قلب يسوع، عند وصولهم.

سمح قانون إلغاء الرق التدريجي سنة 1880 لِ 267 معتوقاً من كوبا بالعودة إلى إفريقيا، إلى جزيرة فرناندو بو. وكانت العودة مأساوية: مئة وثلاثة وعشرون منهم قضوا خلال الرحلة أو عند وصولهم. والكثيرون استطاعوا الهرب إلى ساحل القارة، عند الريو موني، أو الكاميرون، أو كالابار.

هناك شهادتان من أولئك الأفارقة ـ الكوبيين تروي عن رحلاتهم، عن وصولهم، وخيبتهم، وإقامتهم والصعوبات التي واجهت في جزيرة فرناندو بو أوائل المستوطنين المجبرين.

ميغيل خينتييس برافو وصف ترحيل السود المنفيين إلى فرناندو بو في كتاب نُشر في نيويورك سنة 1869، «الثورة الكوبية: المنفيون إلى فرناندو بو». روايات أحد المرحّلين.

الدكتور فرنسيسكو خافيير بالميسادا يروي عن وجود هؤلاء المنفيين في سجن الأشغال الشاقة الذي فُتح لهم. وقد نُشر كتابه في هاڤانا: «المنفيون إلى فرناندو بو وانطباعات سفر إلى غينيا»[1]. الرحالة الإسباني أماديو أوسوريو سابالا وصف فرناندو بو بأنها «كوبا إفريقية» بعدما اكتشف في الشهر التاسع من 1884 حجم الجالية الإفريقية ـ الكوبية في الجزيرة. بعد إلغاء نظام الرق نهائياً في كوبا واختفاء تجارة العبيد، لم ينجح آلاف المعتوقين في مغادرة الجزيرة الكاريبية. نحو 1899، دافع بينيتو سيلڤان عن حالة 18 ألف منهم، موطنهم الأصلي الكونغو، كانوا محتجزين في كوبا ويتمنّون العودة إلى إفريقيا[2]. هؤلاء الزنوج الكوبيون هم مواطنو عمّال من الكونغو وصلوا في الفترة 1852 ـ 1862 في الغوادلوب، وغويانا والمارتينيك. بعد رحلات مرعبة في ظروف تجارة العبيد، كانوا

(1) هاڤانا، 1899، الطبعة الثانية، 260 صفحة.

(2) مجلّة «الاندفاع الاقتصادي العالمي»، آنفير.

يخضعون لقواعد النظام الاستعماري التي لا تسمح لهم بالادّخار لدفع نفقة رحلة العودة. كم منهم تمكّنوا أخيراً من الرجوع إلى ديارهم؟

نظرة المكافحين الأفريقانيين الأفارقة ـ البرازيليين:

قلّما تناول الباحثون البعد البرازيلي للأفريقانية قبل القرن التاسع عشر. ما سبّب هذا الاستبعاد أو هذا التجاهل؟ عندما نقرأ مؤلّفات ومجلاّت «الأفريقانيين» البرازيليين[1]، ندرك أنّهم يسعون جاهدين بحثاً عن أصل هذه الحركة من خلال كفاح الزنوج: تمرّد العبيد، حروب العصابات في المدن، حرب «المالي» سنة 1835، جمعيات باهيا السرّية. هل تمكن المقاربة بين هذه المقاومة للزنوج البرازيليين وحركة أفريقانية؟ هذا ما يعتقده بعض أعضاء الجالية الأفريقية ـ البرازيلية مثل أبدياس دو ناسيمنتو، المولود سنة 1914، وكان نائباً اتحادياً سنة 1983، وزوجته، إليزا لاركن ناسيمنتو. هذا المكافح ضد العنصرية قدّم لمجلس النواب مشروع قانون: «العنصرية، جريمة ضدّ الإنسانية»[2]. بالنسبة إلى أنصار الأفريقانية هؤلاء، يمرّ النضال أوّلاً بتكريم مقاومة العبيد والقضاء على العنصرية في المجتمع البرازيلي. مساهمتهم لإفريقا بدأت في البرازيل. وكي نفهم سلوك الأفارقة ـ البرازيليين ومشاعرهم الأفريقانية، تجب العودة إلى القرن التاسع عشر، إلى زمن أفول تجارة العبيد ونظام الرق.

في البرازيل، وتجاه البرتغاليين، تعايشت ثلاث مجموعات من الناس في جوّ اعتقالي حتى الفترة 1889 ـ 1890: السكّان الأصليون «الهنود

(1) أباديّاس دو ناسيمنتو، *صراع ضد العنصرية*، أربعة أجزاء، برازيليا، مجلس النواب، 1983 ـ 1984؛ للمؤلف نفسه، *الجريدة الزنجية ـ الحرة*، ريو دي جانيرو، 1984؛ للمؤلف نفسه، الشتات الإفريقي، في *مجلة العالم الزنجي*، خمسة أعداد، فصلية، ريو دي جانيرو، 1983 ـ 1985؛ إليز لاركن ناسيمنتو، *الافريقانية في أميركا الجنوبية*، ريو دي جانيرو، بالاشتراك مع منشورات خوزيس، 1981؛ للمؤلّفة نفسها، *زنجيان حرّان*، 1986.

(2) مشروع قانون رقم 1661 سنة 1983.

الأمريكيون»، والزنوج العبيد الآتون من إفريقيا، وأصحاب الدم المختلط أي *المملوكو*، والخلاسيون و*الكابوكلو*[1].

المؤرّخ الإنكليزي س.ر. بوكسر (أستاذ في كلية كينغز في جامعة لندن) نسف التأكيدات البرتغالية التي تقول إنّ التمييز حسب اللون غير موجود في بلدهم وفي ممتلكاتهم وراء البحار. وهو يهاجم في كتابه، *علاقات العرق في الإمبراطورية البرتغالية الاستعمارية، 1415 ـ 1825*[2]، تصاريح عدّة شخصيات، بدءاً بالدكتاتور سالازار في مجلّة لايف سنة 1962. يقول هؤلاء الشهود إنّ البرتغاليين كان لديهم دائماً «ميل طبيعي» لإقامة علاقات صداقة مع الشعوب غير البيضاء.

بوكسر بحث في كمية الوثائق التي يعرفها لكي يثبت عكس هذه الادّعاءات ويبرز العنصرية المتجذّرة لدى البرتغاليين. يمكننا من جهة ثانية الغوص في التاريخ واعتماد إثبات مشابه لدحض ادّعاءات فرنسية من صنف الادّعاءات البرتغالية. لا شك في أنّه يوجد خلف هذه التصريحات المخادعة آثار النفاق الذي يميّز المجتمعات الأوروبية اللاتينية. وعقد الأنغلوساكسونين هي أقل في هذا المجال.

لنعد إلى س.ر. بوكسر. لقد عرض بكلّ وضوح وضع الزنوج العبيد في البرازيل الذي وصفه بهذه الكلمات الثلاث: مقرف، وحيواني ومختصر[3]. إذ كان متوسّط حياتهم في المزارع أو المناجم لا يتجاوز الأربع أو خمس سنوات. في البرازيل المستعمرة، التي اعتبرها بوكسر «جحيم السود»، وضع جردة بأدوات التعذيب طرقه[4]. اللغة الاستعمارية

(1) *المملوكو*: مولود من أمّ أصلية وأب أبيض؛ الخلاسي: خليط بين الأسود والأبيض؛ *الكابوكلو*: كلمة تشير إمّا إلى شخصين من أبوين الأوّل أبيض والثاني أصلي، أو إلى مقيم أصلي مدجّن، أو إلى شخص غير أبيض من طبقة متدنّية.

(2) منشورات كلارندون، أوكسفورد، 1963، ص ص 86 ـ 130.

(3) المرجع ذاته.

(4) انظر أيضاً كتاب أورونو د. لارا، جزر *الكاريبي في طور البناء*...، المذكور آنفاً.

العنصرية كانت تستعمل غالباً صفة زنجي، بريتو، كافري، كمرادفات لكلمة عبد[1].

الطبيب نينا رودريغز كان أوّل من درس السود عند نهاية القرن التاسع عشر. وأدّت أبحاثه، بين 1890 و 1905، إلى نشر عدّة كتب ومقالات تتعلّق بحركات عصيان العبيد، والدين، واللغة، والأعياد والتقاليد، والفولكلور، الخ[2]. غير أنّ الأفريقانيين البرازيليين انتقدوا الإيديولوجيا العنصرية التي مثّلها نينا رودريغز في نظرهم. لقد استنكروا «التمييز العنصري» الشبيه بعنصرية الإنكليز ـ الأمريكيين الذي أعموا قلوب خبراء في المسألة السوداء.

بعد استبعاد العاصين المتّهمين بالعنصرية، سعى المناضلون الأفارقة ـ البرازيليون للبحث عن «أصل الأفريقانية» من خلال كفاحات الزنوج. وقدّروا شخصيات من المقاومة مثل فارستينو دوناسيمنتو، «تنّين البحار»، لويزا ماهين، التي برزت كقائدة في باهيا سنة 1835، وابنها لويس غاما، وجواو كانديدو، زعيم تمرّد بحارة ضد الممارسات العنصرية من قبل البحرية البرازيلية في بداية القرن العشرين.

نينا رودريغز كان قد درس حروب «المالي» المقدّسة، وحركات تمرّد العبيد في باهيا في القرن التاسع عشر: ثورات الهاوسا (1807، 1809، 1813، 1816)، تمرّد الناغو (1826، 1827، 1828، 1830)، و «الثورة الكبيرة» سنة 1835. كما حلّل الأسباب الدينية لهذه الثورات ووضع لائحة بمختلف «الأمم» الإفريقية الموجودة في البرازيل: ناغو، غيغي، مينا، هاوسا، تابا أو ميفي، بورنو، غرونسي أو غالينا، فولا أو فيلانين،ماندانغ أو ماند، كونغو أو كابيندا، أنغولا، بنغيلا، كاسانج، موزمبيق، ماكوا، إلخ.

---

(1) س.ر. بوكسر، المذكور آنفاً، ص 120.

(2) نينا رودريغز، *الأفارقة في البرازيل*، الطبعة الثانية، ريو دي جانيرو، 1933.

وظهرت كتاباته وتفسيراته واضحة لاختصاصيين أجانب مثل بيار فاتومبي ڤيرجيه وروجيه باستيد، ولو أنّ تأويله العرقي، كما يعترف هذا الأخير، أظهر بعض الثغرات[1]. ويقول باستيد: «لا تزال أعمال نينا رودريغز ربّما الأفضل ممّا نُشر. . . وصفه أمين للحقيقة ولا يزال قيّماً. . . إنّها كتب غير كاملة طبعاً ولكنها كتب واثقة ممّا تقوله»[2].

قد نستغرب تصرّف عالمي الأنثروبولوجيا الفرنسيين المذكورين ڤيرجيه وباستيد. ففي أعمالهم عن السود يظهر التأثير الواضح لكتابات المؤلفين البرازيليين مثل نينا رودريغز، وڤيانا فيليو، وجيلبرتو فرايري. وهؤلاء المؤلّفون تعرّضوا لانتقاد شديد من قبل المناضلين الأفريقانيين الأفارقة ـ البرازيليين. ومن جهتي، أشاركهم رأيهم وانتقادات س.ر. بوكسر وألفريدو مارغاريدو التي أدانت نظرة فرايري الضيقة والعنصرية. تكفي قراءة بضع صفحات من كتاب فرايري، *أسياد وعبيد*، الذي ترجمه روجيه باستيد من البرتغالية إلى الفرنسية سنة 1952[3] لملاحظة العنصرية الكامنة خلال سطوره. فكيف يمكن التعليق على كلامه عندما يقول مثلاً من دون برهان: «كانت تغذية الأسياد البيض والعبيد أفضل، وبصورة ما لدى العبيد أكثر ممّا لدى الأسياد»[4]. ويتابع في مكان لاحق: «يبدو لي أنّ العبد الزنجي في البرازيل. . هو أفضل عنصر مغذّى في مجتمعنا»[5].

إلى ماذا يستند في هذه التأكيدات؟ جيلبرتو فرايري يعرض فكرة، بدلاً من تفحّص المصادر: «كان من مصلحة السيد أن يحافظ على نشاط الزنجي ـ كان رأسماله، وآلة عمله، أي امتداد ذاته: من هنا التغذية الوفيرة

---

(1) روجيه باستيد، *كاندومبليه باهيا (طقوس الناغو)*، موتون، 1958، ص 8.

(2) المرجع ذاته.

(3) جيلبرتو فرايري، *كازاغراندي وسنزالا*، ريو دي جانيرو، 1933، وللمؤلف نفسه، *أسياد وعبيد*، مقدّمة من لوسيان فيڤر، غاليمار، صليب الجنوب، 1952.

(4) *أسياد وعبيد*، ص 61.

(5) المرجع ذاته، ص 70.

والمعوّضة...»[1]. لكنّنا نعرف هذه الطريقة في الإثبات. وكم مرّة سمعتها من مؤرّخين فرنسيين يتكلّمون عن تجارة العبيد أو نظام الرق.

بحسب رأي هؤلاء المؤلّفين، كان الأسرى الإفريقيون في السفن الزنّاجة يحظون بالاهتمام، والطعام الوفير، والدلال، لكونهم بضاعة ثمينة. وفي المزارع، لِمَ سيكون المستوطن المزارع قاسياً تجاه عبده، الذي يمثّل قوّة عمل ضرورية لإثراء سيّده... جيلبرتو فرايري، كما نعرف، يذهب أبعد أيضاً في إشارته إلى «الجنسانية الإباحية لدى الزنوج»[2] والجمال الصاخب لدى الزنجيات اللواتي كنّ يفتنّ بعض البيض حيث كان يقال إن «أحذيتهم ونساءهم من اللون الأسود»[3].

باختصار، توحي قراءة جيلبرتو فرايري بأنّ الزنوج العبيد في البرازيل كانوا سعداء مدلّلين من قبل المزارعين الرقّيين: كانوا يأكلون أفضل من أسيادهم وحياتهم الجنسية أنشط من حياة البيض. فرنان بروديل، بعد لوسيان فيڤر، تأثّر أيضاً بفرايري واعتقد لفترة طويلة أنّ الزنوج وجدوا جنّتهم في البرازيل. في حين أنّ المصادر الواقعية تصف كما في كلّ مكان من الكاريبي، جحيم الترحيل والنظام الرقّي الاعتقالي.

لنعد إلى هذا التسلسل المنطقي الزائف الذي ليس له مكان فيه مجال الممارسة الرقّية. في الحقيقة لا يوجد منطق في السلوك العنصري لدى قبطان الزنّاجة أو المزارع. وتشهد المصادر على عنف، وقساوة، ووحشية هؤلاء الأسياد البيض الذين لا يعرفون مشاعر الطيبة، *والقانون الأسود* وقوانين سُنّت على أبعد من 8000 كلم. فقد كانت لهم القدرة المطلقة على القتل وكانوا يستمتعون باستخدامها.

أكان من الصعب فهم هذا الأمر من قبل علماء أنثروبولوجيا فرنسيين

---

(1) المرجع ذاته؛ انظر أيضاً ص ص 239 و 432، رقم 101.
(2) المرجع ذاته، ص 440.
(3) المرجع ذاته، ص 462.

هدفهم دراسة تلك الشعوب السوداء؟

مانويل كيرينو، وهو باحث من الجالية الإفريقية ـ البرازيلية، حمل من 1916 إلى 1922، لواء المساهمة الإفريقية في حضارة البرازيل. وهو يملك رأياً «منافياً كلّياً لرأي نينا رودريغز الذي يبدو أنّه لم يعرفه»[1].

لقد نُشر بعد موت كيرينو كتاب يضمّ عدّة دراسات له بعنوان *العادات الإفريقية في البرازيل*[2]. وقد افتتح كيرينو مسار الممثّلين الأفارقة ـ البرازيليين الذين ناضلوا من أجل استعادة تاريخهم والمطالبة بالمساواة في الحقوق.

بعد وفاة نينا رودريغز سنة 1906، كان أرتور راموس وإديسون كارنيرو من الذين تابعوا العمل على الأفارقة الباقين في البرازيل. وتخصّصت «مدرسة باهيا» في العقد 1930 ـ 1940 في علم عراقة السود وأنثروبولوجيتهم. في ريسيفي (برنامبوك)، عقد سنة 1934 أوّل مؤتمر إفريقي ـ برازيلي[3]. وعقد المؤتمر الثاني في باهيا سنة 1937.

في 13/ 5/ 1938، افتتح المناضلون الأفريقانيون المؤتمر الإفريقي الكامبيني الذي عقد في معهد العلوم والفنون في كامبيناس، في مقاطعة ساو باولو. ولاحقاً في ريو دي جانيرو، سنة 1940، انضمّ أبدياس دو ناسيمنتو إلى *أخوية الأوركيديا المقدّسة* وأنشأ سنة 1944 *المسرح الاختباري الأسود*. ونشطت المجموعة في *الهيئة الديمقراطية الأفريقية ـ البرازيلية* سنة 1945 ونظّمت المؤتمر الوطني الأسود في ساو باولو سنة 1945، وفي الريو في 1946 و 1949. كما نظّموا في الشهر الخامس من 1950 أوّل *مؤتمر وطني للسود البرازيليين* في ريو دي جانيرو برعاية المسرح الاختباري الأسود. وكان للمناضلين منذ 1949 و 1950 مجلّة،

(1) المرجع ذاته.
(2) ريو دي جانيرو، 1938، 351 صفحة.
(3) انظر *الدراسات الإفريقية ـ البرازيلية*، ريو دي جانيرو، 1935.

هي *كيلومبو*، كانت تركّز على مقاومة أبطال بالمارس (مذكّرة زومبي، 1980)، والاستشهاد خلال تمرّد «المالي» وثورات عديدة في تاريخ البرازيل[1].

الأفريقانيون البرازيليون أنصار حركة «كيلومبو» انتقدوا الطروحات البرتغالية ـ المدارية لدى جيلبرتو فرايري، والخطابات المتبجّحة، والمعتقدات الخاطئة لبيار ڤيرجه والمقولبات العنصرية لدى جورجي أمادو[2]. لقد استنكروا إيديولوجيا تفوّق الأبيض التي عزوها إلى هذه الشخصيات الثلاث[3]. سيطرة عرقية. سيطرة عنصرية. في تلك الأثناء كانت المقاومة تتنظّم. وكانت توجد جالية إفريقية ـ برازيلية من حوالى 105 ملايين شخص سنة 1992، حسب تقديرات المناضلين، تريد أن تقوم بدور حاسم في تطوّر البرازيل.

الأفارقة الأحرار والبرازيليون:

تبقى حركة عودة *البرازيليين* إلى إفريقيا غير معروفة كثيراً إلاّ من قبل بعض الخبراء. لكن تقليد تناقل الأحاديث في البرازيل وإفريقيا المحيطية، الذي ما زال يحافظ عليه، قد يساعدنا في فهم هذه التبادلات التي تعود إلى بدايات تجارة العبيد. على السفن الزنّاجة البرتغالية، ومنذ القرن السادس عشر، كان يتواجد غالباً بين البحّارة أفارقة يقومون بالرحلات في الاتّجاهين: إفريقيا ـ البرازيل والبرازيل ـ إفريقيا. الأفارقة، بحارة، ومترجمين، وتجّاراً، وجواسيس، وحتّى سفراء، شكّلوا الشخصيات الأساسية، المجهولة غالباً، في الجالية البرتغالية ـ البرازيلية.

---

(1) *مشاكل أمريكا اللاتينية*، الوثائق الفرنسية، رقم 32، 1999، مقال «البرازيل: اكتشافات الكيلومبو. البناء المتنافر لمسألة وطنية».

(2) راجع كتاب أباديا س دوناسيمنتو وإليزا لاركن ناسيمنتو، *الأفارقة في البرازيل. وجهة نظر أفريقانية*، 1992، ص ص 110 ـ 111.

(3) المرجع ذاته، ص ص 146 ـ 147.

يبقى تاريخ لم يُكتب بعد، هو تاريخ الأفارقة الذين يعود أصلهم إلى الرأس الأخضر، والسنغال، وسيراليون، وغامبيا، والداهومي، واللاغوس، وأنغولا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. إنّها إفريقيا أطلسية تسودها المبادلات وتولد فيها وتُنقل الأحاديث الشفهية المتعلّقة بسفر الأسرى إلى الأمريكتين، كما في الغابون مثلاً، حيث ما زالت تحفظ حكاية شعب الميين[1].

البرازيليون المعنيون هنا هم زنوج أسرى على متن المراكب الزنّاجة بيعوا عبيداً في البرازيل، في ريو دي جانيرو أو في باهيا، أو أمسكت بهم الطرّادات البريطانية بعد 1806. ويبدو حسب المصادر أنّ أكثريتهم تمّ شراؤهم أساساً في اللاغوس أو في ويداه وأنّهم من اليوروبا مثل أشقّائهم اللوكومي والكارابالي في كوبا[2].

في البرازيل بين 1830 و 1835، حصلت سلسلة تمرّدات قويّة هزّت نظام الرق. فخاف المزارعون، خصوصاً وأنّهم عرفوا بما حصل في هايتي وخشوا أن يواجهوا هم أيضاً غضب العبيد الذين يخضعونهم بالقوّة. لذلك ضغطوا على السلطات للتخلّص من القادة ومن العصاة المتمرّدين. كذلك فهم لم يعترضوا رحيل الزنوج «المعتوقين» الذين استقبلتهم طرادات البحرية الملكية الإنكليزية. هؤلاء «الأفارقة المحرّرون»، حسب معاهدتي 1817 و 1831، اتّجهوا إمّا إلى مستعمرات الهند الغربية، أو إلى سيراليون.

الروّاد:

الأسرى المنقولون على متن المراكب الزنّاجة إلى البرازيل لم يكونوا الأفارقة الوحيدين الذين اجتازوا المحيط الأطلسي. بالطبع لم تحتفظ

---

(1) أدين بهذه المعلومات عن الغابون إلى الصديق العميد بيار لويس أغوندجو ـ أوكاوي؛ انظر أيضاً كتاب جوزيف أمبورو ـ أڤارو، شعب غابوني. *فجر الاستعمار. أوغوي الواطئة في القرن التاسع عشر*، 1981.

(2) ألفرد ميترو، بيار ڤيرجيه، *مراسلات*، منشورات ج.م. بلاس، ص 261.

الأرشيفات بالكثير عن آثار الركّاب الآخرين، البحّارة، والجواسيس، والحرّاس، والمواكِبين الذين أبحروا أيضاً في رحلات ذهاب وإياب على السفن الزنّاجة. كان الهولنديون يضعون على مراكبهم «أفارقة يتكلّمون عدّة لغات ليراقبوا الأسرى ويكشفوا محاولات التمرّد»(1). كذلك فإنّ المصادر لا تشير أبداً إلى أسماء الروّاد وعددهم، أولئك الزنوج العبيد في البرازيل الذين نجحوا في الهرب قبل السنوات 1830 ـ 1835 والوصول إلى إفريقيا. كم عدد الذين سافروا، وكم منهم رجعوا، مسنّين، ليموتوا في البرازيل، مثل مانويل دي أوليڤيرا سنة 1770. هذا العبد القديم، المحرّر، كان قد نجح في العودة إلى ساحل مينا حيث أمضى سبعاً وثلاثين سنة في ممارسة التجارة. وعاد إلى باهيا في السبعين من عمره.

بالمقابل لدينا بعض المعلومات المفصّلة أكثر، في المحفوظات، بخصوص عدّة رحلات لسفراء أرسلهم ملوك أفارقة إلى أوروبا وإلى البرازيل. هكذا، في القرن السابع عشر، كلّف ملك أردراس سفيره، الدون ماتيو لوبيز، وهو إفريقي، بالذهاب سنة 1670 إلى بلاط لويس الرابع عشر ليقدّم له «من قبل سيده كلّ أراضيه، ومرافئه، وعموماً كلّ ما يعود إليه». كان الملك الإفريقي يريد تعزيز علاقاته التجارية مع فرنسا. في القرن الثامن عشر، بعث ملوك الداهومي، وأردراس (بورتو نوڤو) وأونيم (اللاغوس) سفراء إلى لشبونة وإلى باهيا بين 1750 و 1811. تيغبيسو، ملك الداهومي، أرسل ثلاثة موفدين إلى باهيا لدى نائب الملك البرازيلي الجديد، لويس بيريغرينو دي كارڤاليو مينيسيس دو أتايدي، كونت أتوغيا. السفير الإفريقي، شوروما نادير، ومرافقاه غريجوكوم سانتولو ونينان راديكس غريتونكسوم و «مترجم من قومه» وصلوا إلى باهيا في 29/ 9/ 1750. وكان في رفقتهم «عدد من الخدم وأربع بنات في العاشرة من

(1) انظر أورونو د. لارا، «مقاومات وكفاحات»، في ديوجين، 179، غاليمار، اليونسكو، 1997، ص 176.

عمرهن، عاريات...»[1]. استقبلهم في 22/ 10 نائب الرئيس فسلّموه رسالة والبنات الأربع. ثمّ عادوا إلى مينا في 12/ 4/ 1751 على سفينة تنقل 8101 لفافة من التبغ. هذا المركب، *يسوع آليم المبارك، سيّدة الأمل* (قبطان: ماتياس باربوزا)، عاد في 27/ 6/ 1752 مع 834 أسيراً[2].

وذهب أفارقة أحرار إلى البرازيل لأعمالهم التجارية أو للتدرّب. كما أُرسل العديد من أبناء الملوك الأفارقة إلى باهيا للدراسة. غانغان، ملك باداغريس، سلّمه مواطنوه سنة 1781، ومعه عشرون أسيراً، على سفينة برتغالية ليتلقّى تعليماً في البرازيل. وقد عاد، هو أو أحد أبنائه، سنة 1787 «وطلب مساعدة ملكي أردر وأونيم ليستعيد عرش أجداده»[3]. ملك اللاغوس، كوزوكو، أرسل ثلاثة أولاد عبيد، سمبليسيو، ولورنزو، وكاميليو، ليتلقّوا التعليم في باهيا. وقد عادوا في الشهر 8 من 1850 وأصبحوا موظّفين لديه[4].

كلّ هذه البعثات الإفريقية إلى الخارج لم يكن لها سوى هدف واحد: تعزيز وتوسيع العلاقات التجارية التي أرادها الملوك مع القوى الأوروبية. ولكن قوام هذه العلاقات التجارية، كان تجارة العبيد، ونقل الرجال والنساء والأولاد بصورة متواصلة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر.

أغونغلو، ملك الداهومي، أرسل من أبو ميه في 20/ 3/ 1795 سفيرين ومترجماً، هو لويس كايتانو. فوصلوا إلى باهيا في 26/ 5. فقام

---

(1) رواية من السفارة أرسلها ملك أنغومي القوي، كياي شيري برونكوم، سيّد الأراضي الشاسعة داخل غينيا، إلى... كونت أتونغيا... ونائب ملك البرازيل... كتبها ج.ف.م.، لشبونة، 1751، تسع صفحات.

(2) محفوظات باهيا العامة، 50، 53، 55.

(3) مركز محفوظات ما وراء البحار، إكس آن بروفانس، 66/ 26.

(4) مكتب المحفوظات العامّة، لندن، وزارة الخارجية 84/ 1031، ب. كامبل، القنصل البريطاني، 10/ 8/ 1857.

حاكم باهيا، فرناندو جواو من البرتغال، بإرسالهم على متن الحرّاقة *سيدة المجد وسانتا آنا*، باتّجاه البرتغال. بعد استقبالهم في بلاط لشبونة، عادوا إلى باهيا في 31/ 12/ 1796. فعرضوا على السلطات البرتغالية اتفاقية تجارية تمنح مرفأ أجودا (ويداه) الامتياز الحصري بالتزويد بالأسرى، وسجناء حرب الأبوميين (الماهي والناغو) مقابل التبغ ومشروب الروم.

أحد السفراء مات في لشبونة بعد عمادته، في 1/ 2. أداندوزان، ملك الداهومي، بعث سفيرين ومترجماً برازيلياً، هو إينوسنسيو ماركيز دي سانتا آنا، إلى باهيا. فوصلوا في 20/ 2/ 1805 ومعهم رسالة كتبها أداندوزان في 20/ 11/ 1804 إلى الأمير د. جواو من البرتغال، الذي صار فيما بعد جواو السادس. ثمّ انطلقوا من باهيا إلى أجودا في 14/ 10. المترجم إينوسنسيو ماركيز حصل على رتبة كابتن جند باهيا وأصبح مستشاراً نافذاً لحكّام باهيا. كما صار قبطاناً يتعاطى تجارة العبيد. الطرّادات البريطانية استولت في 7/ 5/ 1815 على الزورق *كونسياو سانتا آنا* وفي 10/ 6/ 1816 على *سيبياو الإفريقي* الذي يقوده إينوسنسيو. وكان يملك قطّاعاً (مركباً شراعياً)، *جوليانو*، قُبض عليه في 31/ 10/ 1821 والقَلعية *سانتا آنا* زهرة *إفريقيا* التي كان يقودها بنفسه. كما كان يملك مركباً اسمه زهرة *أمريكا*.

حاكم باهيا، كونت بونتي (جواو ميلو إي تورّيس سالولانيا داغاما) استقبل في 11/ 10/ 1807 مبعوثي أمير أونيم، أجان، الذين وصلوا في 1/ 10 على متن الشراعية *تاليا*. كان السفير الإفريقي وسكرتيره يريدان السفر إلى لشبونة ليسلّما الملك رسالة باليد. لكن السفر العاجل للبلاط البرتغالي إلى البرازيل في 27/ 11 أوقف المفاوضات. ملك أردراس (بورتو نوفو) أرسل هيئة دبلوماسية في 7/ 9/ 1810 إلى الأمير الوصي في ريو دي جانيرو. الموفدون الذين وصلوا في الشهر 12 من 1810 بقوا في باهيا وأجروا مع الحاكم مباحثات نقلها إلى بلاط ريو دي جانيرو. الأمير الوصي كتب رسالة إلى ملك أردراس في 6/ 2/ 1811 لتحسين المفاوضات بشأن اتفاق تجاري. في 30/ 1/ 1811 وصل أيضاً إلى باهيا أربعة سفراء

لملك الداهومي يريدون لقاء الأمير الوصي. وقدّموا فتاة شابة هديّة لحاكم باهيا، ماركوس دي نورونيا، كونت دوس أركوس. هاتان البعثتان لم تعودا إلى إفريقيا إلاّ في 1812.

يقال إنّ الكولونيل مانويل ألفاريز ليما ادّعى أنّه «سفير ملك أونيم» وسافر إلى باهيا سنة 1827 ثم إلى إفريقيا في الشهر التاسع من 1829 وفي الشهر الأوّل من 1830، وإنّه كان موجوداً في باهيا سنة 1823، وقت الاستقلال. سنة 1833، كان هناك شخصية أخرى غامضة، عُرفت في باهيا بأنّها سفير ملك الداهومي[1].

قمع وترحيل:

بدأت حركة عودة «البرازيليين» إلى إفريقيا نحو 1830 ـ 1835 تحت وطأة حركات تمرّد العبيد. اتفاقية إلغاء تجارة العبيد الإنكليزية ـ البرازيلية التي بدأ العمل بها في الشهر الثالث من 1830 منعت استيراد الأسرى الإفريقيين وقانون الشهر 11 من 1831 البرازيلي أعلنهم أحراراً. ولم يتوانَ الدبلوماسيون الإنلكيز الموجودون في البرازيل عن التدخّل لدى السلطات البرازيلية لطلب تحرير الأفارقة. كان هناك فئتان من الأفارقة: الذين وقعوا في الأسر، فحرّرتهم السلطات البرازيلية وبانتظار عودتهم، كانوا يعملون كمتدرّبين لدى أشخاص خاصّين؛ والذين وصلوا إلى ريو دي جانيرو على متن سفن زنّاجة قبض عليها، فحرّرتهم لجان مشتركة. وقد بقوا تحت حماية الحكومة البرازيلية. فعملوا في الأشغال العامّة أو كخدم وفي الأعمال الحرّة. وفي الواقع، أكثرية هؤلاء *الأفارقة الأحرار* وجدوا أنفسهم يُستخدمون من جديد كعبيد.

في باهيا، أظهر تمرّد «المالي» في الشهر الأوّل من 1835، قوّة مقاومة الزنوج العبيد والمعتوقين، وكانوا في غالبيتهم من أصل هاوسا،

(1) بيار فيرجيه، *المدّ والجزر*، ص 277.

تابا، ناغو، مينا، وغيغي. بين المتمرّدين كان يوجد 160 عبداً و 126 إفريقياً معتوقاً. ما كان دور عبيد بعض الأسياد الإنكليز؟ الخوف الذي أثاره هذا التمرّد دفع السلطات البرازيلية لاتّخاذ بعض التدابير. بين الأحكام، نذكر العقوبات التالية: للزنجي المينا المعتوق، باولو راتس، ألف ضربة سوط، لويس، من الناغو، 500 ضربة، فرنسيسكو، من الناغو، 500 ضربة، باسيفيكو ليكوتان، ألف ضربة، جوزيه كونغو، 600 ضربة، لينو، 800 ضربة، سالمو، 600 ضربة، أغوستينو، 800 ضربة. وكان عقاب الجلد يتمّ بمعدّل 50 ضربة في اليوم. نارسيسو، وهو عبد من الناغو قبض عليه وسلاحه في يده، مات في 27/ 5/ 1836 بعدما تلقّى 1200 ضربة سوط. التحقيق الذي قام به مانويل كيرينو أظهر نشاط 1500 متمرّد «لا يوجد بينهم أيّ ممثّل للطائفة المحمّدية. ممّا يعني أنّه لم يشارك أيّ مالي على الإطلاق في تمرّد 1835»[1]. كان هنا 364 مداناً حكم على ثمانية عشر منهم بالإعدام، وعلى واحد منهم بعشرين سنة من الأشغال الشاقة، وعلى ثلاثة باثنتي عشرة سنة، وعلى تسعة بثماني سنوات، وعلى أربعة بسنتين من السجن، وعلى ثلاثة عشر بالأشغال الشاقة المؤبّدة وعلى اثنين بخمس عشرة سنة من الأشغال الشاقة. كما صدرت أربعة أحكام بالنفي. مات أربعة من السجناء، وهرب اثنان، ووضع تسعة في تصرّف الشرطة وصدرت أحكام بالجلد: لاثنين 1200 ضربة، لثلاثة ألف ضربة، لاثنين 800 ضربة، لواحد سبعمئة ضربة، لثلاثة 600 ضربة، لخمسة 500 ضربة، لثلاثة 300 ضربة، لواحد 250 ضربة، لاثنين 150 ضربة، لواحد 50 ضربة. أي ما مجموعه 13500 ضربة سوط لخمسة وعشرين زنجياً اعتبروا محرّكين للتمرّد.

مانويل كيرينو، الذي كان يعرف عدداً كبيراً من «المالي» الموجودين في باهيا، اتّهم الإنكليز بالتحضير للعصيان والتنسيق للقيام به. حيث قال

(1) م. كيرينو، *العادات الإفريقية في البرازيل*، ريو دي جانيرو، 1938، ص 109.

إن البريطانيين قدّموا الأسلحة للمتمرّدين، «خناجر، وسيوفاً، ورماحاً ومسدّسات». برأي كيرينو، كان الإنكليز المحرّضين على هذه «الحرب». وأضاف: «في تلك الفترة، كانت الحكومة تجمع أدلّة مادّية على الجريمة، لكنها كانت تضعها بحذر جانباً لتجنّب خلاف مع دولة قوية. ولا شكّ في أنه كان يوجد هدف سياسي خلف تلك الحركات، لأنّ المتمرّدين لم يرتكبوا سرقات، ولا قتلوا أسيادهم في السر».

واتّخذت إجراءات طرد ضد المشتبه بهم من دون إصدار إثباتات قانونية بالتهم[1]. في 11/ 5/ 1835، طلبت سلطات باهيا من حكومة ريو دي جانيرو إقامة مستوطنة في «أيّ مرفأ على الساحل الإفريقي حيث يمكن وضع كل إفريقي يُحرّر، أو حتّى الإفريقي الحر الذي يهدّد أمننا». كما طالبت بعقد «اتفاقية مع حكومة دولة الأوروغواي الشرقية ومقاطعات ريو دي لابلاتا، يمنع بموجبها نهائياً استيراد الأفارقة إلى المناطق المذكورة كمستوطنين». كان هذا الطلب يرمي إلى «حرمان مهرّبي العبيد من دافعهم الوحيد لاجتياز جنوبي المحيط بسفن محمّلة بالأفارقة...»[2].

وكان هناك تمييز بين الأسرى الزنوج المعتوقين، المعروفين باسم «الأفارقة الأحرار» والزنوج الكريول الأحرار، المولودين في البرازيل في أبوين عبدين.

هذه الخطّة الاستيطانية ـ فكّرت السلطات البرازيلية في تنفيذها أوّلاً في أنغولا ـ لم تعجب البريطانيين[3] الذين كان لديهم آراء أخرى بالنسبة إلى مصير الأشخاص المحرّرين. لكن الحكومة البرازيلية كانت تسير على خطاهم: ألم يفتح الإنكليز أرض سيراليون لزنوج جامايكا غير المرغوب فيهم، السيمازون المشهورين...

(1) م.م.ع.، و.خ. 13/ 141، ليون وبركنسون في بالمرستون، باهيا، الشهر الأوّل من 1836.

(2) م.م.ع.، و.خ. 84/ 175.

(3) م.م.ع.، و.خ. 84/ 204.

في الشهر الثالث من 1835، وخوفاً من تمرّدات جديدة، قرّرت حكومة باهيا «إبعاد كلّ إفريقي حر يشتبه به، وبالتالي، أرسل 150 من هؤلاء الأفارقة إلى الساحل الإفريقي. (...) وسجن بين 300 و 400 شخص، وأبعد 148 في 12/ 11/ 1835 على متن السفينة البرازيلية التي كانت سعتها 120 طنّة *ماريا داميانا*. وغادر آخرون البلاد في 15/ 11/ 1835 بالسفينة البرازيلية *أينيبال والشرق*»[1].

وأعلن رئيس مقاطعة باهيا، فرنسيسكو دي سوزا مارتنس: «كانت النتيجة المباشرة لهذا الإجراء الرحيل الطوعي للكثير من الأفارقة الآخرين. وهناك المزيد ممّن يستعدّون لمغادرة أرضنا. هكذا، تمّ تسليم أكثر من 700 جواز سفر إلى أفارقة يقفلون راجعين إلى بلادهم»[2].

القمع القاسي الذي وقع على الزنوج المعتوقين، والعنف المتزايد، والأحكام الظالمة، والترحيلات المنظّمة، أجبرتهم على الهرب من البرازيل. فأبحروا في سفن برازيلية، أو برتغالية، أو إنكليزية تغادر باهيا إلى السواحل الإفريقية. بين أولئك «الأحرار» المستعجلين للسفر، بادر أنطونيو داكوستا وجواو مونتيرو إلى استئجار سفينة صيد من الإنكليز، نيمرود، لنقلهما مع 160 حرّاً آخر وعائلاتهم. بالرغم من غيظ التجار الإنكليز، الذين كانوا يشاهدون هروب فرصة تجنيد ممكن لعمّال بموجب عقود لجزر الهند الغربية، أقلعت نيمرود في 25/ 11/ 1836. فأنزلت ركّابها في إلمينا، ووينباه وآغويه في الشهر الرابع. ثمّ أتى سجناء حكم عليهم بالنفي، ليزيدوا عدد المسافرين إلى اللاغوس (نيجيريا).

وكان كالمون دو بيم إي ألميدا، نائب باهيا ووزير سابق للشؤون الخارجية، يظهر في خطاباته مؤيّداً لإعادة ترحيل الزنوج سنة 1836[3].

---

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 198، من خطاب لرئيس مقاطعة باهيا.

(2) المرجع ذاته.

(3) م.م.ع.، و.خ. 84/ 199.

وأشار إلى أنّ الأفارقة المحرّرين والمبعدين من باهيا حصلوا من زعيم في غينيا العالية على أرض «بنوا عليها قرية صغيرة» بمساعدة مهاجرين بنّائين ونجّارين.

يد عاملة لجزر الكاريبي:

كثير من المفوّضين كانوا موظّفين استعماريين لدى التاج (وزارة العدل، الشؤون الخارجية) مفصولين للعمل كقضاة وحكّام في المحاكم. وكانوا يخضعون لتعليمات الحكومة البريطانية. وحاول أعضاء من لجنة ريو دي جانيرو المشتركة أن يحوّلوا إلى المستعمرات الإنكليزية في جزر الهند الغربية يداً عاملة يأخذونها من الأسرى المحرّرين. في 11/ 3/ 1835، أرسل اللورد ولنغتون، وزير الشؤون الخارجية، تعليماته إلى الدبلوماسي الذي كان يرأس البعثة الإنكليزية في ريو دي جانيرو[1]. فأوصى بأن يُرسل إلى ترينداد «زنوجاً أعتقتهم لجنة ريو دي جانيرو المشتركة». كما اتّخذ القنصل و.ج. أوسلي سنة 1839 إجراءات من أجل نقل زنوج معتوقين على مراكب للبحرية الملكية الإنكليزية إلى ترينداد وديميرارا أو نحو مستعمرات إنكليزية أخرى في الكاريبي[2].

في 23/ 3/ 1839، طلب وزير الخارجية الإنكليزي من بعثة ريو دي جانيرو نقل «الزنوج المأسورين والمحرّرين بموجب حكم من محكمة العدل المشتركة... إلى حيث يختارون، إمّا سيراليون، أو جزر الهند الغربية». وأضاف: «وهذه الوجهة الأخيرة هي المفضّلة، نظراً لقربها ولأنّ هذا يؤمّن توظيف اليد العاملة لمزارع هذه المستعمرات، خصوصاً وأنّ تجارة العبيد لم تعد سارية»[3]. وعرضت تعليمات من اللورد بالمرستون (12/ 11/ 1841) على المفوّضين البريطانيين أن «يسألوا كلّ فرد على حدة إن كان

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 179.
(2) م.م.ع.، و.خ. 84/ 285.
(3) م.م.ع.، و.خ. 84/ 286.

يرغب في الذهاب إلى مستعمرة إنكليزية» وأن يشرحوا «للزنوج الذين أعتقتهم لجنة الريو المشتركة (. . .) أنّ الرق أُلغي تماماً في الدومينيونات البريطانية؛ ويمكنهم التأكّد من أنّهم سيكونون أحراراً. . .»[1].

عندما استولى القبطان جونز من البحرية الملكية على زنّاجة برتغالية، طلب منه القائم بالأعمال البريطاني في ريو دي جانيرو أن يرسل المركب والمئة وثمانين أسيراً إفريقياً الموجودين على متنه في 15/ 3/ 1841، إلى ديميرارا وليس إلى القدّيسة هيلانة. وبعدما تأكّد الدبلوماسي الإنكليزي في 30/ 4 من وصول السفينة وكلّ الأسرى الإفريقيين إلى المستعمرة الغويانية، قدّم لوزارة الشؤون الخارجية البريطانية في 21/ 6/ 1841 مشروعاً لإرسال كلّ الأفارقة الذين حرّرتهم لجنة ريو دي جانيرو المشتركة إلى مستعمرة إنكليزية[2].

من 1819 إلى 1845، قدّمت الطرّادات الإنكليزية أمام المحاكم 1217 مركباً زنّاجاً ـ حسب كريستوفر لويد ـ تمّت محاكمة 531 منهم في فريتوان (سيراليون)[3]. وتورد التقارير التي بعث بها المفوّضون البريطانيون القضاة في سيراليون، إلى وزارة الخارجية، أنّه كان هناك نحو مئة ألف أسير معتوق من 1819 إلى 1846. ليس غريباً إذاً أن نلاحظ اهتمام سلطات جزر الهند الغربية بهم. في 20/ 11/ 1840، أرسل المكتب الاستعماري الدكتور مادن إلى ساحل إفريقيا الغربي في مهمّة لدراسة «مستقبل وكيفية الهجرة من سيراليون إلى مستعمراتنا في جزر الهند الغربية»[4].

تعليمات الوزير اللورد جون راسل[5] لا تحدّد الوسائل المعتمدة من

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 350.
(2) م.م.ع.، و.خ. 84/ 365.
(3) م.م.ع.، و.خ. 84/ 315، وانظر ك. لويد، *البحرية وتجارة العبيد*، لندن، 1949.
(4) هيئة النخبة عن حصون إفريقيا الغربية، 1842.
(5) المرجع ذاته.

قبل الإنكليز لتوظيف - أو شراء - يد عاملة إفريقية محدودة الأجر في سيراليون من أجل مزارع جزر الهند الغربية، ولا مدّة العمل - التي يقول الفرنسيون إنها كانت أربع عشرة سنة[1]. ويتحرّر «المجنّدون» بعد هذه الفترة. عندما سئل اللورد راسل من قبل اللورد بالمرستون عن هذا الموضوع[2]، أجاب في رسالة بعث بها إليه في 31/ 8: «بالنسبة إلى العقود الحرّة، أطول فترة مسموح بها هي ثلاثة عشر شهراً؛ بعدها يُعتبر الرجال أحراراً مثل أي شخص يخدم المملكة».

في 27/ 7/ 1840، حظي توظيف العمّال الأفارقة بتأييد حاكم ترينداد الذي وعدهم: «بإعطائهم مسكناً وأرضاً يزرعونها؛ وسيتلقّون عن كلّ عمل نصف دولار، ونصف رطل من السمك وكمية صغيرة من الروم أو المال. وأحياناً يمكن القيام بعملين في نهار واحد»[3].

وصية معبّرة:

نشأت شبكات تجارية تصل بين البرازيل، وكوبا، وإفريقيا. وأصبح لتجّار باهيا أو ريو دي جانيرو شركاء وأخذا يتعاملون مع هاڤانا، وويداه واللاغوس. وكان هناك قباطنة برازيليون، خصوصاً من الزنوج الباردو، يعملون في تجارة العبيد، يقومون برحلات مكوكية بين البرازيل، جزر الكاريبي وإفريقيا. ونعطي مثلاً أندري بينتو داسيلڤيرا[4]، وفرنسيسكو

---

(1) بلاغ من وزارة الخارجية البريطانية إلى مكتب المستعمرات في 26/ 8/ 1841، م.م.ع.، و.خ. 84/ 307.

(2) «يرجى من اللورد راسل أن يعلم اللورد بالمرستون إن كان الزنوج الأحرار (إن كان منهم من يذهب من سيراليون إلى جزر الهند الغربية)، سيلتزمون بالعمل خلال مدّة معيّنة ولدى سيد معين، أو إن كانوا ذاهبين، مثل مهاجري هذا البلد (إنكلترا) إلى كندا أو إلى الولايات المتّحدة لإيجاد العمل المناسب»، بلاغ من وزارة الخارجية البريطانية إلى مكتب المستعمرات، 26/ 8/ 1841، م.م.ع.، و.خ. 84/ 101.

(3) المرجع ذاته.

(4) م.م.ع.، و.خ. 84/ 157، 505.

فيليكس دي سوزا[1]، وكايتانو ألبرتو دا فرانسا ومانويل جواكيم دالميدا (1791 ـ 1854). كان هذا الأخير يقود السفينة البرازيلية مينرڤا المحمّلة بالتبغ، والكحول والبضائع، والمجهّزة لتجارة العبيد من مولمبو عبر جزر ساو توميه وبرينسيبي، لِـ 575 أسيراً. وقد أمسك بها طرّاد إنكليزي في 30/ 1/ 1824 قبالة اللاغوس، وكذلك القطّاع تريولا، الذي كان يقوده أندري بينتو داسيلڤيرا[2]. مانويل دالميدا، وأصله من برنامبوك، كان يتنقّل غالباً بين باهيا واللافوس حيث كان يملك وكالة تجارية.

الإفريقي جواكيم دالميدا، من قرية هوكو، في بلاد الماهي، أقام في باهيا كخادم عند مانويل جواكيم دالميدا. وعندما حرّره معلّمه، عمل هو أيضاً في تجارة العبيد بين 1835 و 1845 وكتب وصية ملفتة في 17/ 12/ 1844 قبل سفره إلى أغويه، عند الحدود الحالية بين الداهومي والتوغو. هذه الوصية تزوّدنا بمعلومات مهمّة عن خفايا تجارة العبيد ولهذا تستحقّ أن نذكرها:

«جواكيم دي ألميدا، كاتب الوصية

مانويل جواكيم دي ألميدا، منفّذ الوصية

باسم الرب، آمين.

أنا جواكيم دي ألميدا، المولود على الساحل الإفريقي، المحرّر، والموجود حالياً في هذه المدينة، عازباً، ولكوني على أهبّة السفر إلى الساحل الإفريقي، غير واثق من بقائي خلال السفر على قيد الحياة، قرّرتُ أن أكتب وصيتي، إرادتي القصوى والأخيرة، وأنا في كامل وعيي وقواي العقلية.

(...) أصرّح بأن أملاكي هي التالية: مبلغ 850 721 4 ريس،

---

(1) سنعود إليه لاحقاً.

(2) م.م.ع.، و.خ. 84/ 40.

قيمة الفائدة من ثمن حمولة سفينة البولاكا *جوانيتو*، وقبطانها نيكولو بيسّو، وأمين صندوقها في هذه المدينة السيد جواكيم ألڤيس دا كروس ريوس، هذا المركب الذي انطلق إلى الساحل الإفريقي في الشهر العاشر من السنة الحالية (1844) برعاية كيرينو أنطونيو.

أصرّح بأنّي أملك أيضاً قيمة 36 عبداً في هاڤانا في يدي السيد خوسيه ماسورا، وقد أمرت بتسليم مبلغ (قيمة) 26 منهم إلى السيد جواكيم ألڤيس دا كروس ريوس في هذه المدينة، كما أمرت بتسليم مبلغ (قيمة) عشرة عبيد إلى السيد مانويل جواكيم دي ألميدا في هذه المدينة، وهو أوّل منفّذ لوصيتي.

وأصرّح بأنّي أملك أيضاً في برنامبوك في يدي السيد مانويل جواكيم راموس إي سيلڤا قيمة عشرين عبداً. وقد أمرت بتسليم مبلغهم إلى السيد جواكيم ألڤيس دا كروس ريوس في هذه المدينة.

وأصرّح بأنّي أملك في حوزتي تسعة عبيد: أربع نساء وخمسة رجال هم: مارسيلينو من قوم الجيجي، وجواو من قوم الناغو، وفيليبي من قوم الناغو، وداڤيد من قوم الناغو، وفيليسيانو من قوم الناغو، وفيليسمينا من قوم المينا، وماريا من قوم الجيجي، وجيسوينا من قوم الناغو، وبينيديكتينا من قوم الناغو.

أصرّح بأنّي مدين للسيدة توماسيا دي سوزا، إفريقية محرّرة، من قوم الجيجي وتقيم حالياً في الساحل الإفريقي، بمبلغ أربعة كونتو من الريس، أعارتني إياها السيدة المذكورة توماسيا من دون أن تطلب منّي أي وثيقة، ولهذا سيسدّد منفّذ وصيتي هذا الدين حالاً إلى السيدة المذكورة توماسيادي سوزا بارايو.

أصرّح بأنّي مدين أيضاً للسيد جواكيم ألڤيس داكروس ريوس بمبلغ ستمئة ألف ريس، كما أني مدين لفليوني مانويل وجوستينا، ابني صديقي بينيديتو فيريز غاييزا، إفريقي محرّر من قوم الجيجي من إنكريكيتا جواكينا

دي بومفين وهي كذلك إفريقية محرّرة من قوم الأوسا (الهاوسا). وأدين أيضاً للسيدة ماريا فرنسيسكو رويس سيكستاس بمبلغ مئة ألف ريس؛ كما أدين إلى السيد فرنسيسكو داكوستا فرانكو مئة ألف ريس، وهو مبلغ سيسدّده منفّذ وصيتي في الحال.

أصرّح بأنّ منفّذ وصيتي سيحرّر في الحال وعلى نفقتي الزنجية الإفريقية روزا من قوم الناغو، عبدة السيدة رابوزو فيريرا وسيدفع لها بعد تحريرها مئتي ألف ريس إراحة لضميري عن الخدمات الطيبة التي أسدتني إيّاها؛ وفي حال غيّرت مسكنها في هذه المدينة أو خارجها، سيفعل منفّذ وصيّتي كل ما يلزم لتحريرها على نفقتي، وفي حال تمّ تحريرها قبل وفاتي، سيدفع لها منفّذ وصيتي وعلى نفقتي قيمة تحريرها، بغضّ النظر عن المئتي ألف ريس التي ذكرتُ أنّه سيدفعها. كذلك فإنّ منفّذ وصيتي سيحرّر في الحال وعلى نفقتي عبدتي فيليسمينا من قوم المينا، وبالطريقة ذاتها سيحرّر عبدتي الأخرى بينيديتا من قوم الناغو؛ ستنعم هاتان العبدتان بحرّيتهما للخدمات الطيبة التي أسدتاني إياها.

أصرّح أيضاً بأنّ منفّذ وصيتي سيعطي على نفقتي، للكريول الصغيرة القاصر بينيديتا، ابنة الزنجية الجيجي فرنسيسكا والتي ربّاها السيد فرنسيسكو سيموينز، مبلغ ستمئة ألف ريس ثمناً لحرّيتها، وفي حال تمّ تحريرها قبل وفاتي، ستستلم مبلغ الستمئة ألف ريس عندما تبلغ سنّ رشدها، وهذه الكميّة ستوضع في إيداع عام؛ وكذلك إلى فليوني فيليكس، وهو صغير كريول قاصر، ابن ألكسندرينا، كريول أيضاً، مبلغ خمسين ألف ريس، عندما يبلغ سنّاً يسمح له باستلامه.

(...) أصرّح أيضاً بأنّي أملك ربع حمولة القلعية الصيادة الموجودة في هذه المدينة والمستعدة للإبحار إلى ساحل إفريقيا، والتي سأسافر على متنها بصفتي أمين صندوقها لإجراء حسابات كلّ الحمولة في إفريقيا؛ حيث أنّ السيد جواكيم ألڤيس داكروس ريوس هو أمين صندوقها في هذه المدينة؛ كما أحمل في المركب ذاته، كاستثمار في بضائع مختلفة ومن

دون مشاركة أحد، وعلى حسابي، قيمة سبعة كونتو من الريس.

بعد تسديد الدفعات وتنفيذ الإجراءات: أوّلاً، منفّذ وصيتي سيترك، بصفته وريث حصّتيْ ممتلكاتي، في المحلّ الأوّل القاصر سوتيرو، ابن عبدتي فيليسمينا من قوم المينا، التي أحرّرها؛ القاصر هو أصلاً حرّ منذ عمادته، وأعيّن وصياً عليه في المحل الأوّل منفّذ وصيتي الأوّل، وفي المحل الثاني منفّذ وصيتي الثاني، وفي المحل الثالث منفّذ وصيتي الثالث.

في المحلّ الثاني بعد وريثي القاصر أعيّن السيّدة توماسا دي سوزا المذكورة أعلاه وريثة، وأعيّن كوريث للثلث، في المحل الأوّل القاصر بينيديتا، ابنة الزنجية الجيجي فرنسيسكا والتي ربّاها السيد فرنسيسكو سيموينز المذكور أعلاه، وأعيّن وصياً عليها نفس الذين عيّنتهم لوريث حصّتي ممتلكاتي الأوّل، بما أنّه ليس لي سلف ولا خلف يحقّ له أن يرث حصّتي ممتلكاتي، وفي المحلّ الثاني بالنسبة إلى ثلثي، أعين وريثاً السيد مانويل جواكيم دي ألميدا.

بهذه الطريقة أنهيتُ وصيتي التي أرغب في تنفيذها كاملة. وأطلب من عدالة جلالتها الإمبراطورة، الخ. ، أن تتكرّم بتنفيذها وحفظ كلّ ما فيها، لتكون إرادتي القصوى والأخيرة.

طلبتُ من السيد غيلرمو مارتنس دو ناسيمنتو أن يكتبها من أجلي، وبعدما قرأتها ووجدتها مطابقة لكلّ ما أمليتُه، وقّعتُها بالتوقيع الذي أعتمده.

باهيا، 17/ 12/ 1844»

هذه الوصية، عند وفاة جواكيم دالميدا في إفريقيا فتحت في باهيا في 9/ 7/ 1857. ومع قبولها في 11/ 7/ 1857، كايتانو ألبرتو دا فرانسا، وهو باردو، قبطان زنّاج من 1818 إلى 1824، اهتمّ بالإرث الذي تركه جواكيم دالميدا وبتربية ابنه سوتيرو. ومات بدوره من دون ثروة في باهيا سنة 1871. جواكيم دالميدا، الذي استقرّ في أغويه، كان قد نجح في بناء

كنيسة صغيرة، أُنجزت سنة 1845، داخل أملاكه، قدّمها ليسوع سيّد الخلاص.

دومينغوس جوزيه مارتنس هو تاجر آخر من باهيا، ولد نحو سنة 1800، وأقام في بورتو نوفو في 1830 ـ 1832. لقد حرّر وصيته في باهيا سنة 1845 لكنه مات في 25/ 1/ 1864، تاركاً ذرّية له في البرازيل وفي إفريقيا.

في البرازيل، مصير «المعتوقين» المشؤوم:

ماذا حلّ بمئات آلاف العبيد الذين أدخلوا خفية إلى البرازيل منذ اتفاقية الشهر الثالث من 1830 التي تلغي تجارة العبيد؟ هؤلاء العبيد كانوا أحراراً رسمياً بموجب المادّة الأولى في قانون الشهر 11 من 1831 البرازيلي. وليام إيوارت غلادستون، نائب رئيس *مجلس التجارة* في 1843 ـ 1845، أكّد خلال نقاش مجلس العموم حول مستقبل الشعبة البحرية في إفريقيا الغربية: «لنا الحق المطلق في الذهاب إلى البرازيل وإجبارها على إعتاق كلّ عبد استوردته منذ 1830، وفي حال الرفض، في إعلان الحرب عليها...»(1). وطلب اللورد بالمرستون من الحكومة البرازيلية، بواسطة جيمس هدسون في 5/ 7/ 1851، أن تعيّن لجنة مشتركة للبحث عن عدد الأفارقة الأحرار الذين لا يزالون أحياء، لتحديد مكانهم ومعرفة أوضاعهم. وكان الرفض الجواب على طلبه. غير أنّه صدر مرسوم في الشهر 12 من 1853 اهتمّ بالمسألة وأعلن أنّ «الأفارقة الأحرار» الذين يخدمون منذ أربع عشرة سنة، يمكنهم الشروع بمعاملة لدى أسيادهم والمطالبة بتحريرهم وبالعودة إلى إفريقيا. كلّ المطالبات الإنكليزية بهذا الخصوص اصطدمت بعناد الحكومة البرازيلية. بسرجيو ترسيرا دي ماسيدو، الوزير البرازيلي مطلق الصلاحية في لندن، لاحظ في الشهر 12 من 1852 أنّه بالنسبة إلى

(1) هانسارد، *نقاشات برلمانية*، السلسلة الثالثة، العدد التاسع والخمسون، 1170، 19/ 3/ 1850.

البرازيل، إنّ قبول المطالب البريطانية يعني إعتاق القسم الأكبر من عبيد هم في سنّ العمل ممّا «قد يؤدّي إلى ثورة عامّة ستبتلع الإمبراطورية البرازيلية». ثمّ ختم بهذه الكلمات: «يجب أن يبقوا في حالة العبودية»(1).

الحكومة البريطانية لم تشأ الاستسلام، فأرسلت إلى ريو دي جانيرو وزيراً جديداً، هو وليام دوغال كريستي. هذا الدبلوماسي اعتمد طريقاً حازماً، فطالب بتحرير *المعتوقين*، وبحرّية العبيد الذين وصلوا بعد سنة 1830، وبرفض الشكاوى البرازيلية ومتابعة مرسوم *أبردين*. بعدما حشرت الحكومة البرازيلية بين المطالب الإنكليزية ونشاط البحرية الملكية، أطلقت سراح أكثر من ألف معتوق من الشهر التاسع من 1863 إلى الشهر الثامن من 1864(2). من جهة ثانية قضى قانون 24/ 9/ 1864 بتحرير كلّ الذين كانوا يعملون منذ أربعة عشر عاماً.

عند عودته إلى لندن سنة 1863، كتب و.د. كريستي مؤلّفه الذي أثار جدلاً كبيراً، *ملاحظات في المسألة البرازيلية*، ونشره سنة 1864. في هذا الكتاب المقدّم إلى اللورد بالمرستون، يتناول الدبلوماسي وضع «الأفارقة الأحرار» ويستنتج: «حيث يسود الاستعباد، تكون تجارة العبيد هي الرابحة»(3). وعملت الحكومة الإنكليزية بنصائحه فرفضت في الشهر السادس من 1865 إعادة العلاقات الدبلوماسية مع البرازيل كما توصي *الجمعية البريطانية المعادية للاستعباد* ولم تشأ وضع حدّ لمرسوم أبردين. ومع موت اللورد أبردين سنة 1860، وموت اللورد بالمرستون سنة 1865، وتقاعد اللورد راسل سنة 1866، لم يضعف التصميم الإنكليزي على إلزام البرازيل بإلغاء الرق.

---

(1) من ماسيدو إلى باولينو، 8/ 10/ 1852، محفوظ، محفوظات إيتاماراتي التاريخية، 217/ 317، ريو دي جانيرو.

(2) كريستي، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 34 ـ 35.

(3) كريستي، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 45 ـ 46 و 51 ـ 66.

حسب التقديرات الإحصائية الحديثة، كان هناك أكثر من 600 ألف عبد برازيلي أُخذوا إلى البرازيل في السر بعد سنة 1830. على هذا العدد، كم يوجد من الزنوج المعتوقين؟ وكم من الأفارقة الأحرار؟ وكم نجح منهم في العودة إلى إفريقيا؟ وأخيراً كم أرسل منهم الإنكليز إلى مستعمرات الهند الغربية؟ كلّ هذه تعدادات معقّدة نتركها للمؤرّخين الذين يريدون تحديد وجهات السود وتيارات حركتهم في القرن التاسع عشر؛ كلّ الذين تحرّروا من نير العبودية، وأبحروا لتغيير البلد، إلى إفريقيا، أو الكاريبي، أو البرازيل.

الرجوع إلى إفريقيا في إطار التجارة:

كثير من العبيد كانوا يفكّرون في العودة إلى بلادهم ورؤية عائلاتهم. البعض منهم استطاعوا أن يرجعوا إلى إفريقيا لكن الواقع لم يكن بالجمال الذي يتصوّرونه. هذه حالة شخص ولد في بورنو، ثمّ قبض عليه وبيع في ويداه، وعاش إحدى وعشرين سنة عبداً في باهيا، حيث عمل طاهياً في مؤسّسة بوثبي وجونسون من ليفربول لمدّة عشر سنوات. بعد تحريره سنة 1833 من قبل أسياده الإنكليز، قرّر العودة إلى إفريقيا. سنة 1845 التقى به مسافر إنكليزي ووجده تائهاً داخل القارة، في أدوفوريا (نيجيريا). أخبره *البرازيلي* قصّته المحزنة: كان يحلم برؤية مسقط رأسه فلم يجد سوى قرية مدمّرة، أُحرقت مرّتين، يسكنها دخلاء اعتبروه جاسوساً، فاضطرّ إلى مغادرتها من جديد وحاول الوصول إلى الشاطىء للإبحار على سفين متّجهة إلى البرازيل... أو إلى إنكلترا[1].

بعد عودتهم إلى إفريقيا، كان الأفارقة الذين حرّرتهم البحرية الملكية، والبرازيليون المعتوقون يعملون هم أيضاً في التجارة. في منتصف القرن، كان يمكن التمييز بكلّ وضوح بين العبيد القدامى المعتوقين والذين

(1) جون دانكن، *أسفار في إفريقيا الغربية (1845 ـ 1846)*، لندن، 1847، مجلّدان، المجلّد الثاني، ص 175.

عاشوا في البرازيل أو في الكاريبي، والأفارقة المحرّرين على السفن الزنّاجة. هذه المجموعة الأخيرة، وكانت أكثريتها من شعب اليوروبا، المعروف باسم آكو فريتاون، أو سارو، التي اعتنقت البروتستانتية. كانت تتكلّم لغة كريول قوامها الإنكليزية. أمّا الزنوج المسلمون، العائدون من البرازيل، ولكونهم لا يعرفون الإسلام جيداً، تقرّبوا في إفريقيا من البرازيليين الكاثوليك.

الإنكليزي هنري وليام ماكولاي، تاجر في سيراليون سنة 1830، وقاض في اللجنة المشتركة من 1831 إلى 1839، زوّد أعضاء اللجنة المختارة في البرلمان البريطاني بمعلومات سنة 1842. فقد أشار إلى نشاط «البيع المتجوّل» الذي يمارسه الكثيرون من سكّان سيراليون، الذين يفضّلون هذا العمل على «أشغال الأرض». ويقول إنّ بضع مئات من الأفارقة المحرّرين الذين «أصبحوا باعة في سيراليون استطاعوا أن يغتنوا، ويشتروا أراضي، ومنازل، وسفناً». ولاحظ أنّ الأفارقة المحرّرين يمارسون التجارة بهامش ربح أكبر من الباعة البيض... وبعدما طردوا من السوق الدخلاء والمستوطنين، ها قد بدأوا يطردون تدريجياً السكّان البيض. أمّا بالنسبة إلى فكرة السفر إلى جزر الهند الغربية، فقد أجاب ماكولاي بأنّ أفارقة فريتاون المحرّرين لم يظهروا حماساً للذهاب:

«لم تظهر في صفوفهم رغبة قوية في الهجرة، بعكس ما قد يتراءى لنا. بعض الأفارقة المحرّرين يتوقون إلى العودة إلى البلد الذي انتزعوا منه عبيداً وحيث يوجد أصدقاؤهم؛ لكن في ما عدا ذلك، لا توجد رغبة حقيقية في السفر؛ لو كان هناك ضرورة لكي توجد هذه الرغبة، فيتعيّن إحداثها. الحاكم والمجلس لا يريان أيّ مانع لترك الأشخاص الراغبين في مغادرة المستعمرة يسافرون؛ بل على العكس، عشية سفري، قدّمت مجموعة من الأفارقة المحرّرين طلباً للحاكم، لإعادتهم إلى باداغري، فأجاب الحاكم والمجلس بأنّهم يستطيعون إن كانت هذه رغبتهم، ولكن الحكومة لا يمكنها أن تدفع نفقات سفرهم. فسافر بعضهم ومنذ ذلك

الحين انتشرت كثيراً الهجرة إلى باداغري؛ حالياً يوجد هناك عدد كبير من الأفارقة المحرّرين الذين يجدون طريقهم إلى النيجر؛ وفي رسالة وصلتني مؤخّراً، يقول لي سيّد من سيراليون إنّ الأفارقة ما زالوا يسافرون إلى باداغري، وإنّ المكان بدأ يكبر ويزدهر»[1].

حوالى خمسمئة من هؤلاء الباعة الإفريقيين المحرّرين غادروا سيراليون ليستقرّوا في باداغريس، واللاغوس، وأبيوكوتا ين 1839 و 1842. واحد منهم، جيمس فرغوسون، وبعض أصدقائه الميتوديين، اشتروا سفينة، *ويلبر فورس*، وأبحروا إلى اللاغوس، موطنهم الأصلي.

السلطات الإنكليزية كانت تسعى لتطويع الأفارقة المحرّرين في فريتاون لإرسالهم إلى جزر الهند الغربية أو لتجنيدهم في الجيش. ولم تنجح محاولة تركيزهم كمزارعين حول فريتاون. بالمقابل، كتب القنصل الإنكليزي في اللاغوس، بنجامين كامبل، إلى الوزير في 28/ 12/ 1853 يقول:

«توجد 130 عائلة من الأفارقة الذين تحرّروا بجهودهم الخاصّة في البرازيل، والذين يشكّلون جزءاً من هذه المدينة. لقد أُرسلوا في الماضي كعبيد من هذه الناحية من الساحل، وبعدما أسعفهم الحظ في الهرب، أُرسلوا إلى مناجم البرازيل ومزارعها، حيث عرفوا، بعملهم، وبساطتهم، وحسن سلوكهم، أن يشتروا حرّيتهم الخاصة وحرّية نسائهم وأولادهم.

كلّهم موطنهم الأصلي يوروبا وخصوصاً مقاطعة إيغبا.

خلال حكم كوزوكو، جُرّد هؤلاء الناس على يده ممّا يملكون وأحياناً، إذا حاولوا مقاومة هذه الممارسات، كانوا يقتلون. يبدو أنّهم عاشوا هنا من دون حماية، وكان ثمرة عملهم وحتّى عمل أولادهم فريسة سهلة لأصغر مستبدّ يرغب في نهبهم.

---

(1) أوراق برلمانية، تقارير لجنة نخبة مجلس العموم حول إلغاء تجارة العبيد، 1842.

بعد إزاحة كوزوكو، منذ أشهر، زارني وفد من زعمائهم وعرض عليّ الحالة البائسة التي يعيشون فيها؛ كان أولادهم يُنتزعون منهم ويباعون كعبيد، كما كانوا يُسلبون كلّ ما وفّره لهم عملهم.

بعدما تحقّقتُ من كون هؤلاء الناس يعملون بكدّ ويحسنون التصرّف، لم أتردّد في وعدهم بأنّهم في المستقبل، سيحظون بالحماية التي يسمح لي مركزي النافذ بتأمينها لهم، ضمن الشروط التالية:

1 ـ أن يعتبروا أكيتويي ملك اللاغوس الحقيقي.

2 ـ أن يتخلّوا عن أيّ علاقة بتجارة العبيد.

3 ـ أن يقدّموا إلى هذه القنصلية ويسجّلوا لائحة بأسماء كلّ زعماء العائلات؛ وهذا ما فعلوه منذ ذلك الحين.

4 ـ أن يرسلوا أولادهم للتعلّم في مدارس الإرساليين (البروتستانت) وأن يتعلّموا لغتنا، التي تمثّل قوّة تناهض تجارة العبيد.

لقد قبلوا بأن يطبقوا هذه الشروط، ومنذ ذلك الحين، وفي عدّة مواقف، استطعتُ أن أمنحهم حمايتي ضد المشاكل والضغوطات التي يتعرّضون لها»[1].

بعد مضي بضعة أشهر، كتب في 18/ 6/ 1854:

«في أوّل باخرة وصلت عائلتان إفريقيتان من هافانا، تحرّرتا بجهودهما الخاصة. ويوجد هناك مئتا عائلة تملك الإمكانيات لدفع نفقات سفرها ولديها الرغبة في المجيء. ويواجه هؤلاء الناس صعوبات بسبب الممارسات التي يخضعون لها كي يحصلوا على جوازاتهم. ألا يستطيع قنصل المملكة التدخل ليسهّل هذه الهجرة إلى اللاغوس؟

إنّ إضافة هؤلاء الأفارقة المحرّرين الآتين من البرازيل وكوبا إلى

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 920.

سكّان اللاغوس هي أمر مستحب، لأنّهم بعاداتهم في العمل وطرق عيشهم نصف المتمدّنة، يعوضون عن أوباش مجموعة تجارة العبيد القديمة المقيمة هنا، لأنّهم سيبقون منفصلين بسبب عداواتهم العتيقة وبغضهم»[1].

إن سفر بنجامين كامبل سنة 1856 إلى فرناندو بو أدّى إلى اضطراب بين بعض شخصيات اللاغوس التي أرادت الاستفادة من هذا الفراغ لتصفية حساباتها:

«مدام تينوبو وبعض الجماعات هنا حالما عرفوا بسفرك أخذوا ينصبون مكائدهم لإثارة الاضطرابات. ومآخذهم هي التالية: شعب سيراليون والمهاجرون الآخرون أصبحوا أسياد المدينة بينما بقي الملك والمقيمون الأصليون جانباً؛ فاغتنموا الفرصة لمهاجمة المهاجرين والباعة وتجريدهم ممّا لديهم. الليلة الماضية، كان هناك اضطراب شديد في صفوف المهاجرين، الذين بقوا كلّهم تقريباً طوال الليل قرب أسلحتهم»[2].

هذه السيدة تينوبو، التي طردها القنصل كامبل من اللاغوس، كانت تشتري لفائف تبغ تدفع ثمنها أسرى آتين من أبيوكوتا إلى ويداه. كانت تاجرة من أبوتوكا، عرفت بسيطرتها على الملك دوسيمو. وقد حاولت من دون جدوى استمالة مارتن ديليني كي يشاركها ويساعدها على تجاوز المشاكل التي صادفتها مع السلطات الإنكليزية.

ويعرّفنا تقرير لكامبل إلى وزارة الخارجية بتاريخ 7/ 4/ 1857، إلى بعض المشاكل التي واجهها الوافدون الجدد:

«منذ بعض الوقت، نشأ شعور عميق بالغيرة لدى سكان اللاغوس الأصليين تجاه مهاجري سيراليون، الذين يثير تفوّقهم في الذكاء والمكانة الاجتماعية حقد المقيمين الأصليين، الذين لا يتردّدون في التعبير عنه ضد

---

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 950.

(2) رسالة من وليام ماك كوسكري إلى ب. كامبل، 17/ 3/ 1856، م.م.ع.، و.خ. 2/ 17.

أشخاص يقولون عنهم إنّهم بعد بيعهم في هذه الساحة التي غادروها منذ بضع سنوات فقط، قد عادوا الآن، متفوّقين عليهم، ليشغلوا جزءاً مهمّاً من أفضل ناحية في المدينة ويستفيدوا من حصّة كبيرة من تجارتها».

المقيمون الأصليون لا ينظرون إلى *الأفارقة الأحرار* وإلى *البرازيليين* النظرة ذاتها:

«بالرغم من أنّ عدد أفارقة البرازيل وكوبا الذين تحرّروا بجهودهم الخاصّة والمقيمين في اللاغوس ليس أقلّ من عدد أهل سيراليون في هذه المدينة، فهم لا يثيرون العدائية ذاتها من جانب السكان الأصليين، وهذا ناجم عن الفارق الكبير في التربية، إن كان يصحّ استعمال الكلمة، بين ناس من طبقة واحدة خضعوا لمدرستين مختلفتين! البرازيليون الذين تحرّروا بجهدهم الخاص والإسبان نشأوا في وضع رقّي في مدرسة العبودية. فاكتسبوا عادات المراعاة والطاعة تجاه أشباههم والمتفوّقين عليهم بينما أهالي سيراليون، الذين لم يعيشوا، منذ وصولهم إلى بلد حر، حالة خضوع طويلة، كما كان وضع أخوتهم الأقلّ منهم حظاً، فقد أصبحوا فوراً أشخاصاً أحراراً، وارتقوا درجات السلم الاجتماعي، وشاركوا في كلّ نشاطات الجماعة الحرّة ودعيوا للممارسة مختلف الأعمال. وبالتالي فقد دمغوا بمظهر الأحرار، الذين يقتربون منهم بهيئتهم وتصرّفاتهم وفقاً للمساواة الجمهورية. هذا أكثر ما كان يزعج السكّان الأصليين.

بين أهالي سيراليون، أنا متأكّد من أنّ الكبار يحرصون على عدم إظهار ما يثير كراهية جيرانهم من السكّان الأصليين؛ لكن يوجد بين أهالي سيراليون المقيمين هنا عدّة شبّان كريول ولدوا في سيراليون، وقاوم ذووهم كلّ جهد لتنصيرهم، وهؤلاء بالتالي لم يغطوا سوى بضع خطوات على طريق الحضارة، وقد سمعتُ أنّ سلوكهم قد يؤدّي يوماً ما إلى صراع بين السكّان الأصليين وأهالي سيراليون. فحذّرتُ أبناء الطبقات المحترمة بينهم من الخطر الذي قد يواجهونه إذا لم يكبحوا جماح هؤلاء الشبّان في تصرّفهم الذي يجرح شعور السكّان الأصليين. وكاد يحصل انفجار منذ

زمن غير بعيد بين هاتين الطبقتين. . . وقد عبّر السكان الأصليون بوضوح عن مشاعر حقد عميق تجاه أهالي سيراليون»[1].

كامبل وهـ.س. فريمان ـ أوّل حاكم للاغوس ـ تذمّرا لدى وزارة الخارجية من شخص يدعى تيرنر. هذا الإفريقي الحر الذي غادر سيراليون ليستقرّ في اللاغوس كان «كثير الآدعاء، والغرور وذا ذكاء محدود»، لكنه قادر على «التأثير على النفوذ البريطاني وإثارة المقيمين الأصليين ضد البيض». وينهي فريمان بالقول عنه إنّه واحد من الذين «يمكنهم بسهولة السيطرة على المقيمين الأصليين، إذا غادر البيض البلاد؛ وشعارهم هو: إفريقيا للأفارقة»[2].

عاد الزنوج المبعدين من البرازيل إلى إفريقيا وحملوا معهم إليها تقنيات زراعية، ومهناً، وعادات اكتسبوها في أمريكا. وكثير منهم كانوا عبيداً قدامى وتحرّروا، عادوا وزاولوا بدورهم تهريب العبيد ثمّ التجارة «المشروعة». ولكن أيضاً كثير من الأفارقة المحرّرين الذين عادوا إلى ديارهم، رجعوا ثانية إلى البرازيل بعد سنوات، هم وعائلاتهم وخدمهم العبيد.

بنجامين كامبل، القنصل البريطاني في اللاغوس بين 1853 و 1859، بدأ حياته المهنية كتاجر ناشط جدّاً في سيراليون. بعدما كان موظّفاً في فريتاون لدى مؤسّسة ماكولاي وبابنغتون حتى 1825، أصبح يعمل لحسابه الخاص. فاشترى وباع عدّة مراكب قبضت عليها المحاكم المشتركة وحاكمتها، مثل *سيريس*، و*كلارنس*، و*ألميرانتي* سنة 1829. سنة 1834 استقرّ كامبل في جزر لوس وريو بونغو حيث كان يقيم مع ابنة مدام لايتبرن المولودة في غوميز. وبعد استقصاء قامت به البحرية الفرنسية سنة 1856، تبيّن لوزارة الخارجية البريطانية أنّ «حماة» القنصل، وابنتها،

(1) تقرير من ب. كامبل إلى وارة الخارجية، م.م.ع.، و.خ. 84/ 1031.
(2) محفوظات نيجيريا الوطنية، إيبادان، 8/ 1 ـ 1، ص ص 123 و 327.

وشقيقة زوجها، كان لدى كلّ منهن وكالة تجارية تمارس تجارة العبيد[1]. سنة 1841، كانت تشير مذكّرة سلّمت إلى اللورد بالمرستون إلى مشاركة إيزابيل لايتبرن في تحميل أربعين أسيراً في ريو بونغو، على السفينة سيغوندا روزاليا، المنطلقة إلى هافانا. وكانت أوراق هذه الصفقة التي وجدت على متن السفينة مكتوبة وموقّعة من قبل ب. كامبل، «تاجر بريطاني»[2].

في 13/ 2/ 1829 أعلم المكتب الاستعماري وزارة الخارجية بشكوك تدور حول مواطنين بريطانيين متورّطين في عمليات تهريب[3]. كان هناك ضباط من الشعبة البحرية في إفريقيا الغربية يبيعون مراكب أمسكوا بها واستعملوها كمراكب مساعدة[4]. بين 21/ 5/ 1831 و 22/ 6/ 1837 اشترى مثمّن المحاكم المشتركة جون هاملتون اثنتين وعشرين سفينة، قبل أن يستقيل في 30/ 6/ 1838[5].

يبدو أنّه في سيراليون، نحو 1830، الحاكم بالوكالة، القبطان ألكسندر ماك لين فرايزر، وهو قاض مفوّض، استفاد من تواطؤ بعض القضاة، مثل صديقه وستون، أو توماس هاريسون باركر، المثمّن، وكول، شريكه. كلّهم اشتروا «بأسعار مناسبة جداً» مراكب أمسكت بها الطرادات الإنكليزية، وكانت تعود إلى البحر رافعة راية الزنّاجات البرازيلية[6].

سنة 1845، الإنكليزي جون دانكن، وبعدما أصبح قنصلاً في ويداه، لاحظ نقصاً في الحرفيين، والبنّائين، والنجّارين، بين *البرازيليين* المستقرّين في إفريقيا. وسبب هذا النقص يعود إلى انتشار التجارة. الحرفيون *البرازيليون* المعتوقون الذين عادوا إلى إفريقيا وجدوا أنّهم سيكسبون أكثر

---

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 1061.
(2) م.م.ع.، و.خ. 84/ 343.
(3) م.م.ع.، و.خ. 84/ 95.
(4) م.م.ع.، و.خ. 84/ 66، 79، 90.
(5) م.م.ع.، و.خ. 84/ 212، 231.
(6) م.م.ع.، و.خ. 84/ 101، 102.

إذا تركوا مهنهم وكرّسوا وقتهم لتجارة العبيد. فأُرسل متدرّبون إلى باهيا، كما تدلّ رسائل خاصة كُتبت في باهيا سنة 1841، ووُجدت على متن السفينة *مارابو*، وفيها أنّ الشبّان الأفارقة إيغناسيو، وفرنسيسكو ودومينغو، «أرسلوا ليتعلّموا مهنة البنّاء»[1].

نينا رودريغز وجيلبرتو فرايري قدّموا تفسيرات خيالية لأسفار العبيد المعتوقين. فقد أبدوا برأيهما روحية «انفصال وانشقاق»[2]، ولم يندمجوا مع «حياة البلد. . . ولم يتبنّوا البرازيل كوطن جديد»[3].

ترافق إلغاء تجارة العبيد، في 1850 ـ 1851، بالتمييز بين الكريول الأحرار والأفارقة المعتوقين. ودفع وصول عمال بيض إلى البرازيل السلطات إلى طرف الأفارقة الأحرار من السوق. وقد أشار علماء الأنثروبولوجيا إلى التفاوتات الاجتماعية والإنقسامات ـ الدينية خصوصاً ـ التي خلفت الأفارقة المحرّرين في ما بينهم. وقد أبرزوا الميول في صفوف الأفارقة، إمّا لتبنّي تقاليدهم وعاداتهم بتكييفها عند الحاجة، وإمّا للامتناع عن اعتماد طرق العيش البرازيلية. قبول أو رفض. رفض الاندماج وإظهار العدائية تجاه الرجل الأبيض، أو تحفّظ وانفتاح. يناقش علماء الأنثروبولوجيا مطوّلاً هذه المسألة من دون تفحّص ظروف حياة العبيد: العمل الإجباري، المعاناة في التغذية، العقوبات المختلفة، القمع الشرس الذي يمارس على المتمرّدين، الذين كانوا يحاولون التحرّر. فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار عنف نظام الرق، وقساوة الأسياد، والرعب المنظّم في المخيّمات، كيف تمكن الإحاطة بالأسباب الحقيقية التي كانت تدفع الكثير من العبيد إلى ترك هذه المستعمرة، الفردوسية بالنسبة إليهم على حدّ قول

(1) م.م.ع.، و.خ. 84/ 502.

(2) ن. رودريغز، المذكور آنفاً، ص 169.

(3) المرجع ذاته، ص 169، 171، 173؛ ج. فرايري، *السوبرادو والموكانوبو*، ساو باولو، 1936.

جيلبرتو فرايري[1]؟. ولم يكن وحده من هذا الرأي. جورج غاردنر كتب سنة 1842: «في العدد الأكبر من المزارع، يعامل العبيد معاملة طيبة ويبدون سعداء جداً». لِمَ كانوا يهربون إذاً؟ أم أنّ الهروب إلى المدينة كان له هدف آخر، هو الوصول إلى الحرّية أو «الهرب من أسياد فقراء إلى أسياد أغنى...»[2].

الجاليات «البرازيلية» في إفريقيا:

تشكّلت جاليات «برازيلية» في بعض مدن خليج البينان: أغويه، ويداه، بورتو نوفو، باداغريس، اللاغوس وفي قرى داخل بلاد اليوروبا. في الداهومي استقرّت أجيال عديدة من التجار البرازيليين الذين أثروا من تجارة العبيد. الأوّل بينهم، فرنسيسكو فيليكس دي سوزا، المولود في 4/ 10/ 1754، غادر ريو دي جانيرو ليعمل «ماسك دفاتر وحارس مخزن وكاتباً في وكالة ساو جواو باتيستا التجارية في أجودا» المؤسّسة سنة 1721. فأقام صداقة مع غابيه، شقيق الملك من أمّه، الذي أصبح فيما بعد الملك جيزو. وتميّز بكونه أغنى تجّار العبيد على الساحل الإفريقي حتى وفاته في 8/ 5/ 1849. إنّه تشاتشا الأوّل الذي نرى صورته في ويداه. إيسيدورو فيليكس دي سوزا، الأكبر بين أولاده الثلاثة، تشاتشا الثاني، هو الملك الذي خلفه. كان أيضاً تاجر عبيد ومات في 8/ 5/ 1858. تشاتشا الثالث، فرنسيسكو فيليكس دي سوزا، كان سنة 1865 لا يزال يملك 12000 عبداً لم يفيدوه شيئاً لأنّهم «لم ينجحوا أبداً، أو بصعوبة بالغة، في جعلهم يجتازون البحار»[3]. سنة 1952، كان تشاتشا السادس نوربير ف. دي سوزا يستقبل مدعوّيه «في وزرة، ومن دون قميص»[4]. غليلي، ملك

---

(1) ج. فرايري، المذكور آنفاً، ص 527.

(2) المرجع ذاته، ص 386.

(3) كورّبيا داسيلفا، *رحلة إلى المنشأة البرتغالية ساو جواو ب. أجودا في ساحل مينا سنة 1865*، لشبونة، 1866، ص 74.

(4) ألفرد ميترو، *مسالك 1*، بايوه، 1978، ص 410.

الداهومي التاسع، حكم من 1858 إلى 1889. بعدما اصطدم ملك الداهومي وتجّار العبيد لديه بالمعارضة البريطانية، شجّعوا دخول الفرنسيين مجالهم التجاري سنة 1851. فتنازل عن كوتونو لفرنسا ثمّ أراد استعادة هذه الأرض. فحصل عراك أدّى إلى احتلال الداهومي.

كان الرجوع يتمّ على مرحلتين: الحركة الأولى كانت تتعلّق بالهجرة إلى اللاغوس. في وقت لاحق، سنة 1858، بدأت حركة عودة من الساحل إلى الداخل، إلى بلاد اليوروبا، والهاوسا، والتابا.

جيزو، ملك الداهومي، قدّم أراضي لأفارقة سيراليون المحرّرين ليبنوا «مدينة صغيرة» و «ينصرفوا إلى الزراعة... لكنّهم في هذا المجال أقلّ موهبة من *البرازيليين*، ولو أن أكثريتهم يجيدون القراءة والكتابة بعض الشيء»[1].

كوزوكو، ملك اللاغوس، وقف في وجه الإنكليز الذين نصبوا أنفسهم حماة للمحرّرين الذين يعيشون في أبيوكوتا. لكن هؤلاء الأفارقة المعتوقين كانوا يمارسون علناً تجارة العبيد نحو 1850. وكانت وزارة الخارجية البريطانية (اللورد بالمرستون) واثقة من أنّ جيزو، ملك الداهومي، لن يلغي تجارة العبيد إلاّ إذا أوقفها ملك اللاغوس، كوزوكو، قبله. وقام القنصل جون بيكروفت بإظهار القوة البريطانية أمام اللاغوس في 20 و 30/ 11/ 1851. وحدّد هجومه على المدينة في 25/ 12 ليطرد كوزوكو ويضع مكانه أكيتويي، الزعيم القديم، المستعدّ لتوقيع اتفاقية تلغي تجارة العبيد. لجأ كوزوكو إلى مرفأ بالما، في بلاد الجيبو، حيث تابع التجارة مع كوبا. دوسيمو، ابن أكيتويي، خلفه بعد وفاته، في 3/ 9/ 1853.

وحلّت تجارة «مشروعة» تدريجياً مكان تهريب العبيد. لكن لفترة

---

(1) دانكن، المذكور آنفاً، الجزء الأوّل: ص ص 137 و 185.

طويلة، مارس التجار والقادة الإفريقيون التجارة «البريئة»، إذ كانت بالنسبة إليهم نشاطاً مكمّلاً. لكن التجارة «المشروعة» (زيت النخيل، القطن، الجلود، الصمغ العربي، التوابل، الشمع، العاج، وفيما بعد الكاوتشوك)، كانت تحتاج يداً عاملة على نطاق واسع لجمع المحاصيل ونقلها.

ضمن مجموعة المئتي تاجر «برازيلي» المحرّرين والذين كانوا يقيمون سنة 1863 في ويداه، وبورتو نوفو، وأغويه، كان بعضهم من وجهاء بلاط أبومي مع موكب من الموسيقيين والحرس المسلّح. كانوا كلّهم خاضعين جداً لملك الداهومي، جيزو، الذي كان يُعتبر «أكبر صياد زنوج في كلّ إفريقيا»[1]. سنة 1863، كان يوجد ثلاثون *برازيلياً* في ويداه. وكانت تجارة زيت النخيل تتمّ عبر شركات فرنسية كبيرة مثل ريجي، دوما وفابر. يقول ضابط في البحرية الفرنسية إنّه «لم يكن هناك سفينة تأتي من باهيا لا تعيد معها بضع عائلات من الأفارقة المعتوقين من البرازيل»[2].

سنة 1877 ذكر حاكم الحصن ساو جواو باتيستا في أجودا «الركّاب» المعتبرين كالبيض، هؤلاء الأفارقة الذين سافروا إلى البرازيل ثمّ عادوا إلى «الوطن الذي باعهم»[3].

عائلات من الأفارقة المحرّرين وصلت من البرازيل وأقامت في خليج البينان حوالى 1860 ـ 1880. قامت الشراعية *تحالف* بعدّة رحلات أخرى بين باهيا واللاغوس في 1896 ـ 1899. بعد إلغاء الرق، استُبعد الزنوج البرازيليون نهائياً من سوق العمل إلى أكثر مناطق الفقر هامشية. والبعض منهم فضّل السفر إلى الكاريبي أو إلى إفريقيا. الإدارة البريطانية شجّعت هجرة البرازيليين إلى اللاغوس. الأفارقة المحرّرون، وصلوا إلى سيراليون

---

(1) ريتشارد ر. بورتون، *مهمّة إلى غليلي، ملك الداهومي*، لندن، 1864. انظر أيضاً: ف.إ. فوربس، *الداهومي ومواطنوها*، لندن، 1851، المجلّد الثاني، ص ص 60، 109، 112، 113، 118، 158، 179، و م.م.ع.، و.خ. 84/ 816.

(2) ملازم المركب جوليه، محفوظات الداهومي، بورتو نوفو، السلسلة د/ 1 ـ 1.

(3) محفوظات حصن ويداه البرتغالي.

وكانوا يعتمدون مسالك إنكليزية، فأثاروا عدائية السكّان. هنري فاولر أكّد في 14/ 10/ 1872: «يحبّذ تشجيع هذه الطبقة نصف المتمدّنة من المعتوقين البرازيليين للإقامة في الأرض المحيطة باللاغوس لأنّهم مزارعون مهرة»(1).

القبطان كورنيليوس ألفرد مووني، حاكم مستوطنة اللاغوس، كتب في تقريره في 20/ 7/ 1887: «بدأوا يعودون إلى وطنهم حوالى 1840. (. . .) كان هناك 1237 عائداً من البرازيل سنة 1871 وحوالى 2732 سنة 1881؛ خلال السنوات الخمس الأخيرة (1881 ـ 1886) وصل 412 بمراكب شراعية، بينهم 50 امرأة و 17 طفلاً». وأوصى مولوني بإقامة خطّ للبواخر بين اللاغوس وباهيا.

جالية *البرازيليين* في اللاغوس حافظت على ممارساتها الدينية حول الأب أنطونيو. إحدى الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية التقت سنة 1868 هذا «المسيحي الممتاز» المولود في ساو توميه سنة 1799، والذي تمّ بيعه وشراؤه سنة 1809 من قبل رئيس دير الكرمليين في باهيا. عند عودته إلى اللاغوس بعد إعتاقه، كان الأب أنطونيو يقدّس في «كنيسة صغيرة متواضعة من الخيزران»، حتى قبل سيامته(2).

كل هذه الجاليات *البرازيلية* الموجودة في إفريقيا تتميّز بأسمائها ذات الرنّة البرتغالية، أو الفرنسية أو الإنكليزية. وهي باقية بتقاليدها، ولغاتها، وأنماط حياتها، ومطبخها، ورواياتها الشفهية، ومحفوظاتها المكتوبة، واحتفالاتها، وأعيادها الدنيوية والدينية، وثيابها وتجهيزاتها وهندستها المعمارية.

(1) محفوظات نيجيريا الوطنية، 8/ 51، ص 469.

(2) م.ج. باين، *الروّاد الكاثوليك في إفريقيا الغربية*، لندن، 1956، ص 148.

أسئلة للحوار:

في البرازيل، في باهيا، يعطي توزيع حسب «القوميات» يستند إلى عقود شراء العبيد وبيعهم، بين 1838 و 1860، يعطي النتائج التالية: ناغو، 2049، جيبي 286، مينا 117، كالابار 39، بينان 27، كاشو 1، أنغولا 267، كابندا 65، كونغو 48، بنغيلا 29، غابون 5، كاسانج 4، وموزمبيق 42. هكذا نفهم أكثر تأثير الناغو الثقافي الغالب في الطقوس الاحتمالية.

يقال إنّه يوجد في باهيا ما يقارب الألف منزل كاندومبليه الكاندومبليه[1]، اسم أُعطي في باهيا للطقوس الإفريقية، هو تقليد استمر بالرغم من الأفكار المسبقة وعنصرية البيض الغالبة. يندرج الكاندومبليه تحت حماية الآلهة زانغو[2]، أوغون، أويا، ييمانجا... التي رافقت الأسرى في رحلاتهم المأسوية، في قيعان المراكب الزنّاجة. إنّها الآلهة التي سمحت للأفريقانية في هذا العصر بأن تلمع في الضمائر وفي الذاكرات.

ييمايا ـ ييمانجا في البرازيل ـ والدة الأوريشا، هي ربّة مياه البحر والمياه العذبة. يتمّ الاحتفال بذكراها خلال الأعياد الكبيرة بالقرب من البحر، على شاطىء ريو ـ ڤيرميليو. تُجمع القرابين في سلّة كبيرة جداً، وتوضع باقة أزهار على سفينة شراعية تتبعها مجموعة من السافير و (مراكب شراعية محلية) على متنها المؤمنون وطبولهم. ثمّ يرمى القربان في البحر: إذا غرق، تقبله ييمانجا، وإذا طاف، يجب تقديم تضحيات جديدة للحصول على حمايتها.

---

(1) «كاندومبليه: 1 ـ مكان يحتفل فيه بالأعياد الدينية الإفريقية؛ 2 ـ مجموعة الطقوس الاحتفالية الدينية الإفريقية؛ 3 ـ في جنوب البرازيل، كل رقصة أو عيد لدى الزنوج»، روجيه باستيد، *كاندومبليه باهيا (طقوس الناغو)*، موتون وشركاه، 1958، ص 249.

(2) «زانغو: 1 ـ اسم إله العواصف؛ 2 ـ مصطلح يُستعمل للدلالة على كاندومبليه برنامبوك وألاغواس»، ر. باستيد، المرجع المذكور آنفاً، ص 253.

الكاندومبليه الذي يتطوّر بين دين المنتصر وأفكار المستغلّين أيمكن ألاّ يتضمّن معتقدات تأليفية (كابوكلو، أومباندا)؟ ما كان تأثير تجارة العبيد ونظام الرق على تلك الآلهة، وعلى معتقدات الأجداد وعلى أولئك الأسرى؟... يقول روجيه باستيد إنّ «الرق كسر إذاً المجتمعات الشمولية الإفريقية على طول خطّ متأرجح يفصل، بالمجمل، عالم الرموز، والتمثيلات الجماعية، والقيم، عن عالم البنى الاجتماعية وقواعدها المورفولوجية»[1]. بين إفريقيا والأفارقة، والبرازيل، وجزر الكاريبي، تمتدّ قرون تجارة العبيد ونظام الرق.

(1) روجيه باستيد، *الأديان الإفريقية في البرازيل*، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1960، ص 215.

الفصل السادس

تأكيدات العنصرية المسمّاة علميّة

«فكّرتُ كيف أنّ هذا كان عمل أجدادي الأفارقة... فغمرتني مشاعر مختلفة جداً عن تلك التي أحسستُ بها حين شاهدتُ أعمال العبقرية الأوروبية العظيمة. شعرتُ بأنّني أملك إرثاً في الهرم الكبير الذي بناه... أبناء حام، الذين انبثقتُ منهم. شعرت بازدياد سرعة جريان دمي في عروقي، وبأنّي أسمع صدى أولئك الأفارقة الكبار. شعرت بنبض دفعته فيّ «تلك الشخصيات الحيوية التي صدّرت الحضارة إلى اليونان... شعرت بأنّي أُخطف من عظمة الزمن الحديث العابية؛ ولو كان صوتي يصل إلى كلّ إفريقي في الدنيا، لكنتُ صرختُ له بكلّ قوّتي... «استعد مجدك».

إ . و . بليدن،

من إفريقيا الغربية إلى فلسطين ص. 112

أنثروبولوجيا أم عنصرية:

قدّم علماء الاجتماع توقيتاً دقيقاً للعنصرية المسمّاة «علمية». لقد ظهرت العنصرية برأيهم في زمن حديث نسبياً. قبل القرن التاسع عشر، «كانت تشوب العلاقات بين الناس، طبعاً، كلّ أنواع اللامساواة. . . ولا

ينكر أحد مسؤولية الأعراق المختلفة في هذا الموضوع... غير أنّه فقط في القرن التاسع عشر وخلال ذلك القرن تجلّت الظواهر العنصرية وتكاثرت»[1].

ولكن هناك الكثير من الأمثلة عن مواقف عنصرية تظهر خلال قراءتنا لعدّة مفكّرين من القرن الثامن عشر مثل ديڤيد هيوم، وجان - جاك روسّو وخصوصاً ڤولتير[2]. إنّ دراسة علماء الطبيعيات في القرن الثامن عشر، من ليني إلى دي بو مروراً ببوفون، توحي بأنّه وُضعت آنذاك هرمية للأنواع، بما فيها «الأعراق» البشرية. ويظهر لنا تحليل لعصر «الأنوار» أنّ أصل النظريات العنصرية المعاصرة كانت ظاهرة في القرن الثامن عشر، وليس في التاسع عشر. وتدلّنا على ذلك مقارنة للمفردات التي تصف «الزنوج»، حيث لا نجد فارقاً إحصائياً كبيراً بين نصوص الربع الأخير من القرن الثامن عشر، ونصوص النصف الأوّل من التاسع عشر[3]،

متى حصل التغيّر في القرن الثامن عشر؟ المؤرّخ الأمريكي وليام ب. كوهين يعتبر *الإعلان الملكي* سنة 1738 أوّل قانون عرقي فرنسي[4]. إذ كان يضيّق شروط إقامة العبيد (التي يحددها مرسوم 1716 الذي غيّر في

---

(1) جلبير ڤرنيه، *العنصرية والفلسفة*، باريس، 1973، ص 47.

(2) كان يقول إن «البيض يتفوّقون على الزنوج، كما يتفوّق الزنوج على القرود، ويتفوّق القرود على المحار»، بحث في *الميتافيزياء* (1734)، في *الأعمال الكاملة*، منشورات لويس مولان، 52 جزءاً، باريس، 1877 - 1885، الجزء الثاني والعشرون، 210. بالنسبة إلى روسو، انظر في ليون بولياكوف، *تاريخ معاداة السامية*، الجزء الثالث، 122. بالنسبة إلى هيوم، ريتشارد هـ. بوبكين، «الأسس الفلسفية لعنصرية القرن الثامن عشر»، *دراسات في ثقافة القرن الثامن عشر*، الجزء الثالث (1973)، ص ص 245 - 246.

(3) س. داجيه، «كلمة عبد، زنجي، أسود وآراء حول تجارة العبيد في الكتابات العتقية الفرنسية من 1770 إلى 1845»، *المجلّة الفرنسية لتاريخ ما وراء البحار*، العدد 60، 4 (1973)، ص ص 511 - 548.

(4) *لقاء الفرنسيين مع الأفارقة، جواب أبيض للسود، 1830 - 1880*، بلومنغتون، إنديانا، 1980، ص 110.

بنود *القانون الأسود*)، ويفرض أن تحمل كلّ رخصة اسم المعلّم ـ الحرفي ويحدّد مدة الإقامة المسموح بها[1].

الإداري بيار ڤيكتور مالويه، منسّق في كايان، ثمّ معتمد في بحرية تولون، ومحافظ، يتناول مسألة الزيجات المختلفة:

«لأننا من دون شك لن نرغب أبداً في دمج الأعراق وخلطها. لكن الرق ضروري للتحذير: الخزي الناتج عن الارتباط بعبد أسود، تحفظ الأمّة أصالتها الخاصة. إذا انقرضت هذه الفكرة، إذا أصبح الرجل الأسود بيننا مساوياً للبيض، فيحتمل جدّاً أن نرى خلاسيين نبلاء، ومتموّلين، وتجّاراً ستسمح ثرواتهم بأن تكون لهم زوجات وأمّهات من كلّ الطبقات. وهكذا الأفراد، والعائلات، والأمم تضطرب، وتخرب، وتنهار»[2].

في الفترة ذاتها يشرح مزارع آخر أنّ الرق يحوّل الأسود، حسب الظروف، إلى «أداة عديمة الشعور، أو إلى بهيمة متحرّكة». ويضيف: «إذا استثنينا كونه لا يخور ولا يصهل وأنّنا عند موته لا نستفيد من لحمه ولا من جلده، نجد أنّه ليس هناك فرق بينه وبين ثور أو حصان»[3]. وسنة 1765، أكّد شخص يدعى روسلوه دي سورجي أنّ «السود يشكّلون عرقاً من المخلوقات تبدو الطبيعة مرتقية عبره من السعلاة إلى الإنسان»[4].

في فترة الثورة، شارك المزارعون بقوّة في نقاشات الجمعية الوطنية بمعارضتهم لإلغاء الرق. ونذكر هنا وجهتي نظر تعبرّان عن تلك الذهنية. فيكونت ميرابو، الشقيق الأصغر «المحامي الشعب»، والمقرّب جدّاً من

---

(1) تصريح للملك في 15/ 9/ 1738، المكتبة الوطنية، 23624 (772).

(2) بحث في *استعباد الزنوج*، نوشاتيل، 1788، ص ص 66 ـ67. كتب هذا الكتاب سنة 1775.

(3) سيمون نيكولا هنري لنغيه، نظرية القوانين المدنية، 1767، الجزءان 3 ـ 5 في أعماله، لندن، 1774، 40.

(4) جاك فيليبير روسلوه دي سورجي، *أخلاط غريبة...*، باريس، 1763 ـ 1765، الجزء العاشر، ص 161.

المزارعين، يلخّص موقفهم بوضوح. إنّ «العرق الأبيض «المتفوّق» لا يستطيع العمل في الأنتيل، بسبب المناخ؛ الأعمال الزراعية تعود إذاً بالضرورة للزنوج، هذا «النوع المتخلّف» صاحب الذكاء المحدود. اللامبالاة، والكسل والنفور من العمل هي من طبيعة سكّان إفريقيا، لهذا فإنّ تحريرهم سيؤدّي إلى مشكلة جسيمة». وينهي بالقول: «إذا أمرتني الإنسانية بتحسين مصير الزنوج، يملي عليّ العقل بالتمسّك بالرق»[1].

المدهش أيضاً الخطاب الذي وجّهه إلى الجمعية جوزيف ميشال بيلران، وهو محام ونائب من نانت، حاول إقناع الحاضرين بمساوىء إعتاق العبيد:

«بعدما يتحرّر الزنوج، سيكفّون عن العمل، لأنّ الزنوج الأحرار لا يعملون أبداً. منطقة الكاريبي، التي تملك أفضل أرض في جزيرة سان ڤنسان، لا تزرع سوى بعض أنواع الذرة؛ صيد الحيوانات والطيور والأسماك هو شغلهم الوحيد هناك؛ كما أنّهم لا يصطادون إلاّ إذا أجبرهم الجوع على ذلك؛ في ما بقي من الوقت، هم ينامون. هذه هي حياة الزنوج في ظلّ حرية متكاسلة...»[2].

ويتعيّن وضع المثل الفرنسي في إطار أكبر، يضمّ البرتغال وإسبانيا، وإنكلترا حيث، منذ 1647، جون هاير، وهو محامي القضية البرلمانية ضد الملك تشارلز الأوّل، يفتخر بالأصول الجرمانية للأمّة الإنكليزية[3]. «هل القرن الثامن عشر هو مجرّد زمن تلتقي فيه عنصرية موجودة أساساً مع

---

(1) «رأي للسيد فيكونت ميرابو»، في ملحق لجلسة 8/ 3/ 1790، في جيروم مافيدال وآخرين، *محفوظات برلمانية من 1787 إلى 1860*، القسم الأول (1787 ـ 1799)، باريس، 1862، 1981، الجزء الثاني عشر، 76.

(2) «رأي في تجارة السود من م. بيلران، نائب عن مقاطعة نانت»، في ملحق جلسة 1/ 3/ 1799، المحفوظات البرلمانية، الجزء الحادي عشر.

(3) هيو أ. ماك دوغال، *الأسطورة العرقية في التاريخ الإنكليزي: الطرواديون، التوتونيون، والأنغلو ساكسونيون*، مونتريال، 1982، ص ص 59 ـ 60.

التجربة الاستعمارية و «علمية» عصر الأنوار لتأخذ طابعاً مألوفاً أكثر لدينا؟» يتساءل المؤرّخ بيار بول في بحث حول العنصرية وتجارة العبيد في نانت[1].

من جهة ثانية يمكننا الرجوع أبعد في الزمن إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وحتّى إلى الخامس عشر، قبل بدايات المغامرة الاستعمارية الأوروبية. إنّ تحليلاً معمّقاً للعلاقات التي وضعت الأوروبيين في مواجهة العرب ـ المسلمين وفي مواجهة اليهود، تلقي الضوء على عوامل مقنعة في عنصرية مميّزة.

النظريات العنصرية في القرن التاسع عشر:

في أوروبا الغربية، كان هناك «عنصرية وضعية» ادّعت بأنّها علمية، انتشرت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. وتفاعلت في فرنسا باستمرار بسبب ثلاثة عوامل تعود إلى الظروف: ـ إلغاء الرق في سانتو دومنغو سنة 1793 وبعدها في سنة 1794؛ ـ ظهور جمهورية هايتي بعد حرب استعمارية طويلة من 1791 إلى 1803؛ ـ إعادة السماح بالرق سنة 1802 في المستعمرات الفرنسية.

في بداية القرن التاسع عشر، الطبيب والعالم الطبيعي جوليان ـ جوزيف ڤيري ألّف كتاباً بعنوان *التاريخ الطبيعي للنوع الإنساني* (1800 ـ 1801). كان الأوّل في سلسلة منظّرين عنصريين استمرّوا على مدى القرن يزايدون بطروحاتهم، ويجهدون ليعيدوا استنتاجاتهم إلى ملاحظات تشريحية يصعب البتّ من خلالها أو على اختبارات علمية زائفة. وسعى هؤلاء العلماء لفرض نظرياتهم باللجوء إلى معطيات رياضية (قياسات في الجمجمة أو حسابات زوايا الوجه)، وإلى أدوات قياس فيزيائية للقدرات الذهنية.

في فصله: «العرق الخامس ـ السود أو الزنوج»، يعرض ڤيري وجهة نظره بهذه الطريقة:

---

(1) بيار بول، مؤتمر نانت الدولي حول تجارة العبيد، 1985.

«(هيئة الزنجي) تقترب قليلاً من هيئة السعلاة. الكلّ يعرف كيف تكون ملامح الزنوج، بشعرهم الصوفي، وشفاههم الغليظة، وأنفهم العريض الأفطس، وأسفل ذقنهم المتراجع، وعيونهم المستديرة، التي تميّزهم وتدلّ عليهم من النظرة الأولى، حتى لو كانوا بيضاً كالأوروبيين. جبينهم منخفض ومستدير ورأسهم مضغوط عند الصدغين؛ أسنانهم منحرفة نحو الخارج. كثير منهم لديهم أرجل مقوّسة؛ وكلّهم تقريباً ربلة ساقهم هزيلة، وركابهم دوماً نصف ملتوية، مع جسم وعنق يمتدّان إلى الأمام، بينما يندفع الردفان كثيراً إلى الوراء. كلّ هذه الخصائص تبرز جنوحاً إلى شكل القرود، وإن كان مستحيلاً ألا نلاحظ الأمر من حيث الشكل، فهو أيضاً يبرز في الأخلاق. فالإنسان الأسود مقلّد بالفطرة، مثل القرد؛ يعترف بتفوّق الأبيض العقلي، ويتحمّل استعباده بسهولة، ومثله هو لا مبال وكسول. هذه العادات تدلّ على رخاوة طبيعية أو فطرية في النفس»[1].

وساعده التشريح على امتلاك معرفة أعمق لداخل الجسم:

«دم هذا النوع من الناس هو داكن أكثر من دم الرجل الأبيض، وعضلاته ولحمه حمراء اللون تميل إلى البني. المخ الرمادي من الخارج أو في قشرته لدى الإنسان الأبيض، يميل إلى الأسود لدى الزنوج؛ ونخاعهم المستطيل يبدو بلون أصفر رمادي؛ والأجسام المضلّعة بنّية. ويؤكّد باحثون منذ عهد هيرودوتس أنّ للزنوج سائلاً منوياً أسود، لكن أرسطو حسم بأنّه أبيض اللون. إذاً الزنجي ليس فقط زنجياً من الخارج، بل في كلّ أجزائه، وحتّى في أعمقها»[2].

ودراسة الدماغ جعلته يؤكّد:

«سومرنغ، وإيبل، عالما التشريح الألمانيان، أظهرا أنّ دماغ الزنجي هو ضيق أكثر من دماغ الأبيض، وأنّ الأعصاب التي تخرج منهما هي

---

(1) في ج.ج. ڤيري، *التاريخ الطبيعي للنوع البشري*، باريس، كروشار، 1824 (الطبعة الأولى: 1800)، الجزء الثاني، ص 3 ـ 4.

(2) المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص 38.

أغلظ في الأوّل منها في الثاني. ولاحظ باحثون آخرون أن دماغ الزنجي يصغر بقدر ما يكبر رأسه، ممّا يعطي فارقاً بقيمة التسع بين سعة رأسي الرجل الأبيض والرجل الأسود، كما دلّنا الاختبار. باليزوه دي بوفي، الذي سافر إلى إفريقيا، وأنا، قارنّا كميات السوائل التي تحويها جماجم البيض وجماجم السود، فلاحظنا أنّه لدى هذه الأخيرة تنقص السعة حتى نسبة تسع أوقيات عمّا في الجماجم الأوروبية.

إنّ جمجمة الزنوج سميكة، مع درزات حقف متقاربة، وتقاوم الصدمات أكثر من جمجمة الأوروبيين؛ لكن نصفي كرة دماغهم أصغر حجماً مع تلافيف أقلّ عدداً وعمقاً ممّا لدى الإنسان الأبيض، وأربع حدبات أكبر، وعجرة حلقية صغيرة، ومخيخ كبير الحجم نسبياً، وفتحة عريضة في الثقب القذالي، ونخاع شوكي كبير ومستطيل، مع حضور قوي للأحاسيس والإثارة العصبية، وكلّ هذه إشارات على حيوانية أكبر ممّا لدى الإنسان الأبيض»[1].

وكخلاصة، يقول هذا العالم الطبيعي، مختبئاً خلف قناع التجرّد:

«هذه الملاحظات حول النسب بين جمجمة الزنجي، ووجهه، بين حجم دماغه وأعصابه، تقدّم لنا معلومات مهمّة. في الواقع، كلّما تطوّر عضو في جسم الإنسان، يزداد قوة ونشاطاً؛ كذلك، عندما يفقد من حجمه، تنقص هذه القوة. ندرك إذاً أنّه إن كان الدماغ صغيراً، والأعصاب التي تخرج منها كبيرة، يميل الزنجي إلى الاستسلام لرغباته الطبيعية أكثر منه إلى استعمال عقله، على عكس ما يحصل مع الأبيض. لدى الزنجي حاسّتا شمّ وذوق أكثر تطوّراً ممّا لدى الأبيض. (...) الزنجي يميل إذاً إلى إشباع رغباته الجسدية، ونحن رغباتنا الفكرية. (...) عند الزنجي، يتراجع الجبين، والفم يتقدّم، كما لو أنّه موجود للأكل وليس للتفكير»[2].

وظهر أيضاً منظّرون آخرون في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية في

(1) المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص 39 ـ 40.

(2) المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص 41.

القرن التاسع عشر. بول بروكا (1824 ـ 1880)، جرّاح، أسّس جمعية *الأنثروبولوجيا في باريس* سنة 1859، *وكلية الأنثروبولوجيا* سنة 1872. وبعد بضع سنوات كتب أولى التعليمات الدقيقة حول الملاحظات الوصفية والتقنيات المترية في البحث في المجموعات البشرية. بين هذه «القياسات»، الدليل الدماغي الذي تصوّره السويدي أندرس رتزيوس (1796 ـ 1860) سنة 1842، يقارن عرض الرأس بطوله باتّباع القاعدة: العرض × 1000.

هذا الدليل يسمح بأن نميّز:

ـ مستطيلي الرأس: رؤوس طويلة وضيّقة (دليل حتى 75.9).

ـ متوسّطي الرأس: من 76 إلى 80.9

ـ قصيري الرأس: ابتداء من 81.

الأبحاث حول «الأعراق» كثرت منذ كتابات جوهانس فريدريك بلومنباخ (1752 ـ 1840)، وهو عالم أنثروبولوجيا من غوتنغن، إلى أعمال إدوارد بيرنيت تايلور (1832 ـ 1917) وڤيلم ووندت (1832 ـ 1920) (انظر جدول علماء الطبيعيات ومنظّري الأنثروبولوجيا). نظريات علم الجمجمة التي وضعها فرانز جوزف غال (1757 ـ 1828) ويوهان غاسبار شبورتزهايم (1774 ـ 1832) ربطت بين سعة الجمجمة وتطوّر الوظائف الفكرية. ودار نقاش بين علماء الطبيعيات والأنثروبولوجيا حول «نقاوة العرق». وافترضوا هرمية للمجموعات البشرية. النظريات العنصرية تلمح إلى وجود «أعراق نقية» أو تشير إليها بوضوح، وتقول إنّها متفوّقة على غيرها، لكي يسمح هذا التفوّق بسيطرة سياسية وتاريخية.

النظريات العنصرية التي تستند إلى أعمال تدّعي أنّها علمية وضعها علماء أنثروبولوجيا أوربيون، انتشرت ـ في الأمريكتين، في الولايات المتّحدة خصوصاً، حيث تُرجمت، وشُرحت ووُزعت. وكان لهذه النظريات العنصرية بالغ الأثر على كّل مثقّفي تلك الفترة، بما فيهم شخصيات عتيقة

أو رجل مثل إدوارد ويلموت بليدن الذين برّر بهذه الطريقة احتقاره للخلاسيين، هذه الفئة «غير النقية». هذه النظريات لم تمت بسهولة وبقيت آثارها المدمّرة تتفاعل حتى القرن العشرين.

العنصرية العلمية:

علماء طبيعيات ومنظّرون في الأنثروبولوجيا الطبيعية:

لينايوس كارل فون ليني (1707 ـ 1778)

جورج لويس لوكلير، كونت بوفون (1707 ـ 1788)

بييتر كامبر (1722 ـ 1789)

جان باتيست لامارك (1744 ـ 1829)

يوهان فريدريك بلومنباخ (1752 ـ 1788)

فرانز جوزف غال (1757 ـ 1828)

بارون ألكسندر فون همبولت (1769 ـ 1859)

جورج كوفييه (1769 ـ 1832)

إتيان جوفروا سانت ـ هيلير (1772 ـ 1844)

يوهان غاسبار شبورتزهايم (1774 ـ 1832)

السير وليام لورنس (1783 ـ 1867)

جيمس كاولز بريتشارد (1786 ـ 1848)

كارك غوستاف كاروس (1789 ـ 1869)

أندرس ريتزيوس (1796 ـ 1860)

غوستاف كليم (1802 ـ 1867)

تشارلز داروين (1809 ـ 1882)

أرمان دي كاترفاج دي بروه (1810 ـ 1892)

جوزف أرتور دي غوبينوه (1812 ـ 1881)

ر.ج. لاتام (1812 ـ 1888)

ڤيكتور كورتيه دوليل (1813 ـ 1867)

لويس هنري مورغان (1818 ـ 1881)

بيار بول بروكا (1824 ـ 1880)

إ. لاين فوكس بيت ـ ريفرز (1827 ـ 1900)

بول توبينار (1830 ـ 1911)

السير إدوارد بيرنيت (1832 ـ 1917)

جيمس هانت (1833 ـ 1869)

السير جون لوبوك (لورد إيڤبوري) (1834 ـ 1914)

أوتيس ت. ميسون (1838 ـ 1908)

إدروارد كلود (1840 ـ 1930)

الفصل السابع

بليدن بين الكاريبي وإفريقيا

«أعطي اسم الزنّاج ليس فقط لقبطان السفينة الذي يسرق، ويشتري، ويكبّل، ويحشر، ويبيع رجالاً سوداً أو خلاسيين، أو حتّى الذي يرميهم إلى البحر لإخفاء دليل الجريمة، ولكن لكل شخص يعتبر، من خلال تعاون مباشر أو غير مباشر، شريكاً في هذه الجرائم. هكذا فإنّ تسمية الزنّاج تشمل ملاّكي السفن، ومستاجريها، والمساهمين، والشركاء الموصين، والمؤمّنين، والمستوطنين ـ المزارعين، والوكلاء، والقباطنة، ورؤساء العمّال، وحتّى أصغر البحّارة المشاركين في هذه التجارة المشينة».

الأب غريغوار

عقوبات مخزية على الزنّاجين،

باريس، 1822

إدوارد ويلموت بليدن، زنجي من الكارايبب

المحيط العائلي:

ولد إدوارد ويلموت بليدن في 3/ 8/ 1832 في الكاريبي، في سان توماس، وهي واحدة من جزر العذارى الدانماركية. والداه روميو وجوديت آنا كانا خياطين من الزنوج الأحرار وأصلهما من سان أوستاش. لقد

أنشأوا أبناءهم السبعة في وسط ثقافي إنكليزي اللغة. حسب تعداد سكّاني أجرته في 3/ 10/ 1846 الحكومة الدانماركية للزنوج الأحرار في شارلوت أميلي (سان توماس)، كانت عائلة بليدن المقيمة في رقم 2 شارع الأناناس (في منزل تملكه سيدة تدعى روزا ماتياس) مؤلّفة من:

روميو	52 سنة، خياط
روبرت	15 سنة
وليام	14 سنة، إسكافي
إدوارد	13 سنة، خياط
روميو	8 سنوات
جون جوزف	3 سنوات
جوديت آنا	43 سنة، خياطة
جاين	10 سنوات
لاڤينيا	4 سنوات(1)

عاشت العائلة لسنتين، من 1842 إلى 1844، في بورتو بيبيو في فنزويلا. بعد العودة إلى سان توماس أصبح بليدن خياطاً متمرّناً مع أبيه، وبقي يقصد المدرسة قبل الظهر.

جون ب. نوكس، اللقاء الحاسم

لأسباب صحية، استقرّ الأب جون ب. نوكس، من الولايات المتحدة، في سان توماس سنة 1845 بصفة قسّ لكنيسة هولندا الإصلاحية. كان الشاب بليدن يحضر دروسه الدينية، فلاحظ نوكس وجوده وشجّعه في دراسته، بعدما عمّده. وعندما اختار بليدن أن يسلك الطريق الكنسي سنة 1850، دعا نوكس بليدن وكان في السابعة عشرة من عمره، لمرافقة زوجته

(1) في ريغسار كيفيت، كوبنهاغن، 4/ 9/ 1848، ذكره إ. هولدن، *بليدن من ليبيريا، حياة وأعمال إدوارد ويلموت بليدن، مدوّنة في الرسائل والمطبوعات*، نيويورك: منشورات ڤانتدج، 1966، ص 924، يقول هولدن إنّ روميو وجوديث آنا ولدا في سان أوستاش نحو 1794 و 1795 على التوالي، ما يتنافى مع العمرين المحدّدين في تعداد 1846، في هولدن، ص 19.

وابنه إلى نيوجرسي في الولايات المتّحدة. فأبحروا في 17/ 5 إلى نيويورك، على متن الباخرة فون أوكسولم. وعزم بليدن على متابعة دراساته العليا في الولايات المتحدة. وبالرغم من توصية نوكس، رفضت كلّية راتجر للاهوت طلبه. لم يكن يُقبل الزنوج في هذه المؤسسة.

بليدن ينضمّ إلى الجمعية الأمريكية للاستيطان

في نيويورك، أجرى بليدن عدّة لقاءات حاسمة. لقد قصد حلقة من الكالفانيين على علاقة وثيقة بعملية هجرة الزنوج. نذكر من بينهم الأب جون بروكس بيني، ووالتر لوري، ووليام كوبنغر. كان بيني ولوري يعملان في *الجمعية الأمريكية للاستطيان* منذ تأسيسها. كان بيني يهتمّ أيضاً بأحد فروع الجمعية: جمعية ولاية نيويورك للاستيطان. وقد عيّنته الجمعية حاكماً لليبيريا سنة 1834. وكان كوبنغر في تلك الفترة أمين سر جمعية بنسلفانيا للاستيطان، وهي فرع آخر من الجمعية الأمريكية، بينما كان لوري يدير المجلس *الكالفاني للبعثة الأجنبية*، في نيويورك.

حاول بليدن مرّتين أخريين الانتساب إلى الجامعات الأمريكية الشمالية لكنه رُفض، ففكّر عندئذٍ بالعودة إلى سان توماس. لكن أصدقاءه في الجمعية الأمريكية للاستيطان أقنعوه بأن يتابع دراسته في إفريقيا، في ليبيريا. وشجّعته زوجة نوكس على السفر ليذهب «ويمدّن إفريقيا»[1]. وقبل بليدن عرض جمعية نيويورك للاستيطان: تذكرة سفر إلى ليبيريا. كان عليه أن يلتقي كوبنغر في فيلادلفيا. وقد أبحر بحذر: قانون العبد الهارب، الصادر في 18/ 9/ 1850، كان قد بدأ لتوّه حيّز التنفيذ. هذا القانون يمنح المفوّضين الاتحاديين صلاحيات غير محدودة، كي يلقوا القبض على العبيد الهاربين ويعيدوهم إلى مكانهم. وكان من نتائجه إخافة ليس السيمارون فقط، بل أيضاً الزنوج الأحرار، المعرّضين لأن يطلبهم أيّ وكيل اتحادي أو مالك عبيد معدوم الضمير.

---

(1) انظر هولدن، المذكور آنفاً، ص 23.

ذهب بليدن إلى بالتيمور يرافقه كوبنغر. في 21/ 12/ 1851، صعد إلى متن ليبيريا *باكيت*، وسافر برفقة واحد وسبعين مهاجراً آخر إلى ليبيريا. في 26/ 1/ 1852، نزل بليدن في رأس ميزورادو، على بعد بضعة كيلومترات من مونروفيا، عاصمة ليبيريا.

دراسات موجزة في ليبيريا:

عند وصول بليدن إلى ليبيريا، كان من دون أي مورد، وحاول أن يتابع دراسته. كانت هناك كنيستان تتنافسان: الكنيسة الأسقفية، والكنيسة الكالفانية. كانت كلّ واحدة تسعى لاجتذاب المهاجرين الجدد. لأسباب مادّية، اختار بليدن «رعاية» هذه الأخيرة.

المجلس الكالفاني للبعثة الأجنبية في نيويورك، الذي كان يدير مدرسة ألكسندر العليا، قدّم له منحة. ورهبانية نوكس، في سان توماس، شاركت أيضاً في نفقات الطالب الشاب. كانت مدرسة ألكسندر قد فتحت أبوابها في 12/ 1/ 1852 وفيها ثلاثة عشر طالباً بأعمار تتراوح بين السادسة عشرة والعشرين. الأب ديفيد أ. ويلسون، المسؤول عن كنيسة مونروفيا الكالفانية، ومدير المدرسة، وضع بليدن في الصف الأول للغة اللاتينية. كما تابع الدروس التالية حتى سنة 1856: اللاهوت، واللغة اللاتينية، واليونانية، والرياضيات، والإملاء، والجغرافيا، والعبرية في أوقات فراغه. وقد تميّز بليدن عن باقي التلامذة بنتائجه الجيّدة[1]. سنة 1858، أصبح

(1) «تقرير من مدرسة ألكسندر العليا للسنة الأولى، المنتهية في 12/ 6/ 1852»، «الأرقام، التي ترمز إلى العلامات، تعني على التوالي: 5 منتهى الإتقان؛ 4 ممتاز؛ 3 جيد؛ 2 مقبول؛ 1 نقص عام».

إدوارد بليدن:

الكتاب المقدس	اللاتينية	اليونانية	الحساب	الإملاء	السلوك	الصناعة	الغياب
5	4 3/4	4	4	ـ	5	5	0

في مكتبة المجلس الكالفاني، ذكره هولدن، ص ص 36 ـ 37.

بليدن مدير المدرسة وعلّم اللاتينية، واليونانية والرياضيات لتسعة طلاّب[1]. وفي الشهر 10 من السنة ذاتها، قدّم ترشيحه للإدارة الكالفانية. فوافق كاهن الرعية على سيامته، التي جرت رسمياً في 3/ 1/ 1860[2].

وظيفتان:

أعمال بليدن تذهل من حيث كميّة كتاباته وأسلوبها المشغول. عندما كان في قمّة نجاحه، نشر سنة 1887 كتاباً أساسياً: *المسيحية، والإسلام والعرق الزنجي*[3]. إنّه كتاب يجمع خمس عشرة من محاضراته الأكثر أهمية. هذا الرجل لعب دوراً مميّزاً في تاريخ المهاجرين الأمريكيين (بالمعنى الواسع) في إفريقيا. عيّن مفوّض الحكومة الليبيرية في أمريكا، وعمل أيضاً كوكيل لدى الجمعية الأمريكية للاستيطان. وسمحت له مهمّاته بالذهاب مرّات عديدة إلى الأمريكتين (الكاريبي، الولايات المتّحدة، كندا) وإلى أوروبا.

مفوّض حكومة ليبيريا:

بليدن ذهب عدّة مرّات إلى الأمريكتين (1861، 1862، 1874، 1880، 1882 ـ 1883، 1889 ـ 1890، 1895) وإلى أوروبا. لقد أوكلت إليه حكومة ليبيريا مهمّة الاستثمارات إلى الجمهورية الإفريقية الفتية. في خريف 1861، تمّ التصويت في ليبيريا على قانون يسمح بتعيين مفوّضين، يكلّفون بالإعلام عن قضية ليبيريا إلى «أبناء إفريقيا» في العالم أجمع، وبأن يدعوهم إلى «العودة» إلى «أرضهم الأم»[4].

---

(1) مجلة نيويورك للاستيطان، الشهر الثامن من 1858.

(2) المرجع ذاته، الشهر الثالث من 1859، والشهر الثالث من 1860.

(3) إ.و. بليدن، *المسيحية، الإسلام، والعرق الزنجي*، لندن، و.ب. ويتنغهام، 1887، أعيد طبعه سنة 1967. في منشورات جامعة أدنبره، مقدّمة بقلم كريستوفر فايف.

(4) *مجلّة المخزن الإفريقي*، العدد 36، الشهر الأول من 1861.

في 18/ 3/ 1862، قام رئيس ليبيريا ستيفن آلن بنسون (1856 ـ 1864) بتعيين بليدن رسمياً، كما عيّن صديقه ألكسندر كراميل، وهو كاهن أسود ولد حرّاً في الولايات المتحدة، وج. د. جونسون، عيّنهما مفوّضين في بريطانيا والولايات المتحدة. في هذه المناسبة، حرّر كراميل وبليدن معاً رسالة مفتوحة «إلى الأشخاص الأحرار من أبناء الجالية الإفريقية في الولايات المتحدة»، يعرضان فيها الهدف من زيارتهما: «سادتي، باسم جمهورية ليبيريا، وساحل إفريقيا الغربي، نتشرّف بالتوجه إليكم، وبدعوتكم بكل ود إلى منزل متواضع ولكن لجماعة آخذة في الكبر...

التوقيع: ألكسندر كراميل ـ إدوارد. و. بليدن ـ ج. د. جونسون ـ مدينة نيويورك، 20/6/1862»[1].

في إطار حملته الدعائية، أصدر بليدن كتاباً، هو *عطاء ليبيريا* سنة 1862، في نيويورك، يعرض صورة مثالية لليبيريا[2]. في أسفاره إلى أوروبا وإلى الولايات المتحدة، في خدمة حكومة ليبيريا، كان على بليدن أن يجمع الأموال لقطاع التعليم. سنة 1861، دعي إلى سينودس الاتحاد الكالفاني في أدنبره والتقى ببعض الصاحبيين، المتعاطفين مع قضيته. كما تعرّف أيضاً إلى رجل الدولة البريطاني الشهير إيوارت غلادستون (1809 ـ 1898). هذا الأخير قدّم له فرصة متابعة دراسته في الجامعة البريطانية لكنه رفض[3]. وفسّر غلادستون هذا الرفض بأنّ «واجبات بليدن تجاه عرقه كثيرة وملحة بحيث لا تسمح له بتخصيص عدّة سنوات لدراسته»[4]. غير أنّه تلقّى

---

(1) في *المخزن الإفريقي*، العدد 39، 1863.

(2) بالنسبة إلى سياسة ليبيريا، انظر وزارة الشؤون الخارجية، باريس، مذكّرات ووثائق، ليبيريا، الملفين 60 و 121؛ المراسلة القنصلية والسياسية: مونروفيا، من دون رقم؛ شؤون سياسية مختلفة: إفريقيا؛ المراسلة السياسية والتجارية: ليبيريا، 1 ـ 2، 7 ـ 8، 30؛ انظر أيضاً مركز محفوظات ما وراء البحار، إيكس آن بروفانس، السلسلة الجغرافية: إفريقيا 4، ليبيريا، 7 ـ 8، 39، إفريقيا 6، 8، 57، 87، 95، 103، 112، 121، 130، القنصليات، الملف 194.

(3) رسالة من بليدن إلى غلادستون في 23/ 3/ 1861.

(4) غلادستون.

مساعدة مالية من الصاحبيين، ومنحتين لطلاّبه للدراسة في جامعة أدنبره، وفي كليّة الجراحة الملكية في إنكلترا.

وكيل الجمعية الأمريكية للاستيطان:

بقي بليدن طوال حياته على علاقة وثيقة بمسؤول كبير في الجمعية الأمريكية للاستيطان هو وليام كوبنغر. كوبنغر ولد في لندن سنة 1828، أي أنّه من جيل بليدن، وهاجر صغيراً إلى الولايات المتحدة. أدار فرعاً للجمعية هو جمعية بنسلفانيا للاستيطان خلال ست وعشرين سنة. سنة 1864، أصبح أمين سر الجمعية الأم حتى وفاته في 9/ 2/ 1892[1]. بليدن التقى به في نيويورك سنة 1850. ورافقه كوبنغر خلال رحلته إلى ليبيريا. ومنذ سفره، كان يراسل صديقه باستمرار، كاتباً إليه الرسائل الأكثر صدقاً من مجموع مراسلاته المتوفّرة في أيامنا.

بمساعدة بليدن، كوبنغر اختار 1256 مهاجراً أرسلهم إلى ليبيريا[2]. سنة 1866، وبناء على فكرة من بليدن، رصدت الجمعية الأمريكية للاستيطان 10.000 دولار لهجرة كاريبيين إلى ليبيريا. فاختار أمين صندوقها جون ماك لاين 346 شخصاً من الباربادوس، سافروا على متن المركب *كورا* في 6/ 4/ 1866 ووصلوا في 10/ 5 إلى كاريزبرغ[3]. في أحد المؤتمرات، شكر بليدن علناً جمعية «الاستيطان»، لفعاليتها في مجال هجرة الزنوج[4].

تنقّل بليدن مرّتين في أنحاء الولايات المتحدة ليروّج للسود لفكرة

---

(1) منشور ليبيريا، العدد 1، الشهر 11 من 1892.

(2) انظر هـ.ر. لينش، *إدوارد ويلموت بليدن 1832 ـ 1912 والقومية الزنجية*، أطروحة بالآلة الكاتبة، جامعة لندن، الشهر السادس من 1964، ص 227.

(3) تقرير الجمعية السنوي رقم أربعون، واشنطن، 1866، ص ص 7 ـ 8.

(4) المرجع ذاته.

الهجرة إلى إفريقيا. وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات في الكنائس الكالفانية، والميتودية، والمعمدانية، وفي الجامعات: جامعة هوارد في واشنطن، جامعة لنكولن في بنسلفانيا... ولرحلته سنة 1880، أذنت له إدارة كلية ليبيريا بدعوة طلاب زنوج من الولايات المتحدة لتكملة دراستهم في ليبيريا. وكُلّفت جمعية نيويورك للاستيطان بتمويل العملية[1]. كذلك فإنّ بليدن عمل مع فروع الجمعية الأخرى، ومع جمعيات الإرساليات، مثل الإرسالية الميتودية في نيويورك، ومع مختلف الجمعيات التي لها علاقة بهجرة السود إلى إفريقيا، مثل *أمناء التبرّعات للهجرة إلى ليبيريا*، في بوسطن.

سنة 1862، وفي خضم الحرب الانفصالية في الولايات المتحدة، تابع بليدن حملته لدى مواطنيه، في الكاريبي. في 1/ 8/ 1862، نزل في سان توماس، الجزيرة التي ولد فيها. كانت مؤلّفاته قد انتشرت أصلاً في كلّ المنطقة الكاريبية[2]. في باربادوس، وزّعت آلاف النسخ من كتيّباته. وهناك التقى أعضاء من جمعية *اتحاد الوطن الأم*، ومن جمعية *الباربادوس من أجل ليبيريا*. كان الكاريبيون ينتظرونه كما لو أنّه المنقذ: «علمتُ أنّ وصولي إلى الكاريبي كان له أثر شبيه بالذي أحدثه نشر أناجيل جديدة عن مجيء موسى ثان»[3]. في جزيرة سان توماس الصغيرة، تأسّست جمعية *سان توماس من أجل ليبيريا* بعد أشهر من زيارة بليدن، وذلك لجمع الأموال للجمهورية الإفريقية الفتية[4]. كان بليدن متعلّقاً جدّاً بهجرة أبناء سان توماس. منذ الشهر 11 من 1850، طلب من الجمعية الأمريكية للاستيطان دراسة المسألة[5]. ورأى والدته للمرة الأخيرة، قبل أن يسافر

---

(1) من بليدن إلى لوري، 7/ 2/ 1880.

(2) انظر أورونو د. لارا، مقال «ساحة الكاريبي»، في موسوعة أونيفر ساليس، 1985.

(3) بليدن يذكره هولدن، ص 936.

(4) مجلّة نيويورك للاستيطان، الشهر العاشر من 1862.

(5) من بليدن إلى جيني، 26/ 11/ 1850.

مجدّداً إلى كندا عن طريق برمودا. وألقى عظة في كنيسة هولندا الإصلاحية، التي لاحظه فيها الأب ج.ب. نوكس عندما كان صغيراً. يمكن إذاً اعتبار بليدن عنصراً حاسماً في هجرة الزنوج إلى إفريقيا. كلّ ما كتبه يعكس التزامه بهذه الهجرة، وعلاقته الخاصة بالجمعية الأمريكية للاستيطان، من خلال صديقه و. كوبنغر. كيف يبرّر «حملته الدعائيّة» في سبيل الهجرة؟ هل لديه تفكير دقيق؟ وإلى ماذا يستند؟ للإجابة على هذه الأسئلة، يلزم تذكير تاريخي، خصوصاً حول ظروف السود في الولايات المتحدة.

المحرِّض:

الزنوج الأحرار: خطر يجب استبعاده

في الأمريكيتين، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، كان وجود الزنوج الأحرار يخيف الفئة البيضاء المهيمنة في القرن التاسع عشر. في زمن الرق، كان هؤلاء الرجال الأحرار يمثّلون نموذجاً خطراً للعبيد. فبحثت القوى الرقية بسرعة عن وسيلة «لتصفية» هؤلاء «غير المرغوب فيهم» والتخلّص منهم[1]. لذلك كانت حركات تمرّد الزنوج خلال نظام الرق تُقمع بصورة مستمرّة. *قانون العبد الهارب* سنة 1850 يدخل في إطار هذه التدابير التي تسعى «لاحتواء» شعب الولايات المتحدة الأسود.

(1) أ.د. لارا، «جزر الكاريبي كملجأ في مشاريع الترحيل التي وضعها المزارعون الأمريكيون الشماليون»، محاضرة في معهد التاريخ في بلاد ما وراء البحار، جامعة بروفانس، «شهادة الدراسات المعمّقة ـ يوم الجزر»، الشهر الرابع من 1993.

إلغاء الرق ومسألة السلطة:

في 1/ 1/ 1863، بينما كان أبراهام لنكولن في موقف صعب في الحرب الانفصالية، أذاع بيان تحرير الزنوج العبيد وسمح رسمياً بتجنيد السود في الحرب. في 18/ 12/ 1865، منع التعديل الثامن في الدستور الرق في الولايات المتحدة. سنة 1865، ظهرت منظّمة سرّية، هي *الكو كلوكس كلان*، سعت لدبّ الذعر في صفوف السود حتّى أيامنا. وفي الكاريبي، ظهرت أشكال مماثلة من التخويف والتهويل[1].

أصبح يوجد خمسة ملايين رجل وامرأة أحرار في الولايات المتحدة. فما العمل بهم؟ مسألة سلطة السود في الأمريكتين طُرحت بقوة خلال تحرير الزنوج العبيد. في الكاريبي، تمّ التصويت على مراسيم إلغاء الرق في 1833 ـ 1838 لجزر الهند الغربية (جزر الكاريبي الإنكليزية) وفي 1848 للمستعمرات الفرنسية. *ضد مقتسمي السلطة:*

موقف بليدن المميّز:

أدرك بليدن تماماً نتائج إلغاء الرق في الولايات المتحدة. في مقال نشر سنة 1878، في *الإرسالي* الأمريكي أعلن معارضته لأنصار اندماج السود. كان هؤلاء يطالبون باقتسام السلطة مع البيض. فطمأن الحكام الأمريكيين الشماليين بتقديم حلّه: الهجرة[2]. لقد جزّأ «المسألة الإفريقية» إلى ثلاث مراحل: تحرير السود مع الحرب الأهلية، تعليم الجماهير السوداء والتحضير للهجرة. هذه المرحلة الأخيرة، الهجرة، كانت في رأيه النتيجة المنطقية للتحرير[3]. من خلال عمله في خدمة الجمعية الأمريكية للاستيطان وللحكومة الليبيرية، وسّع بليدن حملته الدعائية للهجرة بصورة

(1) أ.د. لارا، جزر *الكاريبي في طور البناء*...، المذكور آنفاً.

(2) بليدن، «أصداء من إفريقيا»، في *المسيحية، والإسلام والعرق الزنجي*، لندن، و.ب. ويتينغهام، 1887، ص ص 146 ـ 147.

(3) المرجع ذاته، «المشكلة الإفريقية»، في كتابات مطبوعة مختارة...، ص ص 317 ـ 321.

مبهمة. غير أنّه استطاع أن يدير بشكل ملفت أهداف الجمعية ومصالح ليبيريا.

تحليل كتاباته العديدة ومراسلاته الخاصة يسمح لنا بالتعرّف إلى بليدن أكثر صدقاً. هذه الوثائق تظهر شخصية معقّدة، باختياراتها وتناقضاتها.

التميز العنصري في الولايات المتحدة: ذريعة نموذجية:

ما العمل بآلاف الأشخاص السود الذين أصبحوا أحراراً؟ المسألة أثارت بجدّية قلق الولايات المتحدة، بعد بريطانيا وفرنسا. برأي بليدن، ورغم بعض التيارات ذات الأفكار المتحرّرة، مثل تيار وليام لويد غاريسون في الولايات المتحدة، يبقى الزنجي غريباً[1]. تكاثرت الإعدامات التعسّفية واستفحلت العنصرية، واعتمدت قوانين كثيرة تثبّت التمييز العنصري في أنحاء البلاد. وأعلن بليدن أكثر من مرّة تأييده لهذه الإجراءات.

سنة 1887، بعد التصويت على قانون في جورجيا، ينصّ على الفصل العنصري في المدارس، أيّد بليدن البيض العنصريين في جنوب الولايات المتّحدة، المعارضن لتعليم السود العالي[2]. وهو نفسه كان قد تعرّض لهذا النوع من التمييز في مجال التعليم. خلال محاضراته في جامعتي أتلانتا وكلارك سنة 1882، استعمل بالتحديد هذه الذريعة ليدافع عن الهجرة: استحالة متابعة السود للدراسات العليا في الولايات المتحدة.

كذلك اتّخذ بليدن موقفاً مؤيداً للقانون الجنائي في ولاية ألاباما الذي يمنع الزواج أو العلاقات الجنسية بين البيض وغير البيض[3]. وقد أسرّ إلى صديقه كوبنغر أنّه ليس ضد التمييز العنصري في الولايات المتحدة، لأنّ مكان الزنوج هو برأيه في إفريقيا.

---

(1) بليدن، «الاستعمار الإفريقي»، في *المسيحية...*، المذكور آنفاً، ص ص 350 ـ 351.
(2) من بليدن إلى كوبنغر، في 22/ 6/ 1886.
(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 3/ 12/ 1888.

إنقاذ إفريقيا:

برأي بليدن، في ليبيريا، «أزيح الأبيض عن عرشه، واستعاد الأسود مكانه»[1]. وطن الزنجي موجود في إفريقيا[2]. لا يستطيع الزنجي أن يزدهر، وأن ينمّي قدراته كليّاً إلاّ في إفريقيا، والحالة هذه في ليبريا، «أوفر الأبواب وعوداً»[3]... «إفريقيا بالنسبة إلى الزنجي هي مسقط رأسه»، «وطنه الأم».

تبرير خلاص إفريقيا على يد الزنوج:

نظّم رحيل الزنوج عن الأمريكتين نحو إفريقيا لتخليص البيض من فئة أصبحت مزعجة بعد الإعتاق. ولإخفاء الأهداف الحقيقية لهذه الهجرة، أي إبعاد كلّ السود، قدّم الكثير من الذرائع. في مجموعة حججه لصالح الهجرة، استعمل بليدن سلاح الدين وعمل الخير. وفي هذا الإطار تندرج فكرة «تخليص إفريقيا» من خلال تنصيرها وتمدينها.

ولكن كيف يمكن تبرير تنصير إفريقيا وتمدينها على يد السود، الذين كانوا يُعتبرون آنذاك أقلّ شأناً من البيض؟ لم يكن مسؤولو الجمعية الأمريكية للاستيطان يلتفتون كثيراً إلى هذا التناقض. أمّا بليدن، فقد وجد منطقاً من الضروري أن نتمعّن في دراسته.

انتقاد الأنثروبولوجيا العنصرية في القرن التاسع عشر:

كثير من النظريات الأنثروبولوجية العنصرية، التي تدّعي صفة العلمية، تطوّرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويمكن اختصارها ببضع نقاط: وجود عدة أعراق (بالرغم من أعمال غريغور مندل، التي أظهرت منذ 1865 وحدة العرق البشري)؛ هرمية هذه الأعراق التي تضع «العرق

---

(1) من بليدن إلى كوبنغر، في 29/ 8/ 1887.

(2) بليدن، «الاستعمار الإفريقي»، *المسيحية...*، المذكور آنفاً، ص 365.

(3) بليدن، «المسيحية والعرق الزنجي»، *المسيحية...*، المذكور آنفاً، ص 38.

الأسود» في أسفل السلّم؛ الخطر من «الخلط بين الأعراق»، الذي يُعتبر ظاهرة غير طبيعية، تؤدّي إلى انحلال جسدي وفكري؛ وأخيراً قدرات فطرية ودائمة، خاصة بكل عرق.

هذه الطروحات اعتمدها ونشرها الكونت ج. أرتور دي غوبينوه[1] وجمعية *الأنثروبولوجيا في باريس* (التى تأسّست سنة 1859)، في فرنسا؛ وجمعية *الأنثروبولوجيا في لندن* التي يديرها جيمس هانت وريتشارد بورتون (تأسّست سنة 1863)، ومسؤولو الجمعية الأمريكية للاستيطان في الولايات المتّحدة.

بليدن انتقد بعض هذه الأفكار التي لاقت رواجاً في تلك الفترة، ووضع مفهومه الأنثروبولوجي الخاص. إذ استعاد فكرة وجود أعراق مختلفة، ولكن رغم الفروقات بينها، هي تبقى متساوية في نظره: «مختلفة ولكن متساوية». وأدان نظرية تفوّق «العرق الأبيض» على «العرق الأسود» ووصفها بالسطحية[2].

إعادة الاعتبار للزنجي

انتقاد المفاهيم المهينة:

في محاضراته، انتقد بليدن المفاهيم التي تقلّل من قيمة الإنسان الأسود أو إفريقيا، مثل «العرق الأدنى» أو «إفريقيا المظلمة»[3]. وثار على الصورة المغلوطة التي تنسب إلى السود. هذه الصورة المزدرية كانت موجودة في كلّ مكان: في مقالات الصحف، وفي التعليم، وفي الأدب، وفي التاريخ الذي يكتبه الأوروبيون. . . لقد قدّمت فكرة مشوّهة عن الإنسان الأسود. والأسوأ أن كلّ هذا أدّى إلى إساءة احترام الأسود لذاته،

(1) انظر الفصل السابق، «قناعات العنصرية العلمية الزائفة».

(2) بليدن، «الإسلام والتمييز بين الأعراق»، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 247.

(3) بليدن، «أصداء من إفريقيا»، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 138.

وإلى عقدة نقص[1]. ودعا بليدن كلّ زنوج الأمريكتين إلى تصحيح هذه الصورة الزائفة.

أهمية السود في العالم:

حرص بليدن على أن يظهر في كلّ كتاباته قيمة الإنسان الأسود وعزّة نفسه. أوّلاً من خلال تواجده في العالم بأسره: ليس فقط في إفريقيا، بل أيضاً في الكاريبي، والولايات المتحدة، وشبه الجزيرة العربية، وبلاد فارس، والهند وحتّى في الصين[2]. في اثنين من مقالاته: «صوت من إفريقيا النازفة»، و «مدافعة عن الشعب الأسود»، أدّى بليدن التحية إلى الكثير من الشخصيات السوداء الشهيرة: توسّان لوڤرتور، بول كاف. . . كما ذكر بعض العبيد الهاربين: فردريك دوغلاس، وليام ويلز براون، هنري ريب، روبر. . . وأظهر تاريخاً مضيئاً للسود في أعين الجميع.

إفريقيا، «مهد الإنسانية»:

حرص بليدن أيضاً على تذكير البشرية بدور إفريقيا بصفتها «مهد الحضارة»[3]، «حافظة تراث العالم»[4]. خلال إقامته في مصر في الشهر الثامن من سنة 1866، أدرك فعلياً أهميّة إفريقيا في حضارات البشرية. فانبهر أمام هذا الإرث الإفريقي، المحفوظ في مصر والذي أُرسل حتّى اليونان، عبر المتوسّط. إنّ تاريخ مصر القديم ظهر باكراً في الذرائع التي يقدّمها الزنوج حين يتناولون أمجاد الماضي الإفريقي. سنة 1829، لفت إليه *نداء ديفيد ووكر*[5] وكذلك كتابات فريدريك دوغلاس، كخطابه:

---

(1) بليدن، «الاستعمار الإفريقي»، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 352.

(2) بليدن، «إثيوبيا تمدّ ذراعيها إلى الله» (تقدمة إفريقيا للعالم)، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 120.

(3) المرجع ذاته، ص 116 ـ 117.

(4) المرجع ذاته، ص 126.

(5) هـ. أبثيكر، *نداء ديفيد ووكر إلى المواطنين الملوّنين في العالم، 1829 ـ 1830: وضعه ومغزاه*، نيويورك، 1965، ص 70.

مطالب الزنوج من وجهة نظر عرقية، الذي نشر سنة 1854[1]. كونستانتان فرانسوا دي شاسبوف، كونت ڤولني (1757 ـ 1820)، كان قد أشار إلى أهميّة العنصر الزنجي في تطوّر الحضارة الفرعونية في كتابه الآثار، أو *تأمّلات في ثورات الامبراطوريات*[2]، الذي صدر في باريس سنة 1794. بعد ترجمة كتابه إلى الإنكليزية سنة 1822، انتشرت أفكاره في الولايات المتحدة. وقد استعادها مؤلّف مجهول، كتب في مجلّة *المخزن الإفريقي*، في عدد الشهر الثالث من 1825[3]، أنّ الأفارقة، هم أبعد من أن يكونوا عرقاً أدنى، لقد كانوا «منذ أكثر من ألف سنة، . . . أكثر الكائنات ذكاء على الأرض».

سنة 1882، في خطاب ألقاه في الولايات المتحدة، أدان التزوير الذي أحدثه الأوروبيون في التاريخ الإفريقي، وقال: «المصريون القدامى كانوا زنوجاً حقيقيون، بكل الخصائص الموجودة لدى السكّان الإفريقيين الأصليين. . .»[4]. في «الزنجي في التاريخ القديم» ـ وهو أوّل مقال لزنجي يظهر في المجلة الميتودية الفصلية، سنة 1869 ـ، وفي *من إفريقيا الغربية إلى فلسطين*[5]، يطالب بليدن بصوت عال بالإرث الإفريقي في مصر، التي أعطت حضارة أدهشت العالم أجمع: «كان المصريون والإثيوبيون القدامى ينتمون حتماً إلى العرق الأسود. . . هيرودوتس، الذي كان يكتب ببراءة شاهد عيان، يؤكّد أنّ الإغريق هم من دون شك من ذريّة المصريين، لأنّ بشرتهم سمراء وشعرهم كالصوف. وهو يعتبر المصريين القدامى أعظم الناس، وممدّني العالم، ويصف في مكانين مختلفين الإثيوبيين بأنّهم الأكثر

(1) ف. دوغلاس، *مطالب الزنجي من وجهة نظر عرقية: نداء*، روتشتسر، نيويورك، 1854، ص ص 17، 25.

(2) ڤولني، *الآثار، أو تأمّلات في ثورات الإمبراطوريات*، باريس، 1794.

(3) المخزن الإفريقي، المجلد 1، العدد الأول، الشهر الثالث 1825.

(4) بليدن، «فيليب والخصي»، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 154.

(5) في كتابات مطبوعة مختارة، ص ص 145 ـ 157.

أناقة...»[1]. بليدن تناول أيضاً الأصل الإفريقي لليهود[2]، كما انتقد جهل الأوروبيين وتسرّعهم في رؤية نقص فكري أو «عرقي» لدى الأفارقة[3].

مسألة اللون الدقيقة:

الشعوب المعنية بعملية القضاء على نظام الرق والبنى الاستعمارية، تظهر في الواقع منقسمة، خصوصاً بالنسبة إلى «مسألة اللون». هذا الحكم المسبق تجاه اللون هو من مخلّفات الرق، ويترجم سيطرة المستعمِرين المزارعين على مجموع المستعمَرين. لقد استفحلت إيديولوجيتهم العنصرية وعزّزت التبعية السياسية، والاقتصادية والثقافية. ومسألة اللون التي خلقت مواجهة بين السود والخلاسيين استخدمها كوسيلة غوغائية سياسيون مخادعون طامعون في ممارسة سلطة محلّية أو كذريعة لسيطرة أوسع نطاقاً»[4].

محاولات التوحيد:

في هايتي، ومنذ 1804، افتتح جان ـ جاك ديسالين تقليداً طويلاً يسعى للتجميع، وذلك في خطابه إلى منطقة الرأس الهايتي، في 28/ 4/ 1804. ودستور سنة 1805، في هذا البلد المستقل الحديث، يلغي في مادته الرابعة عشرة: «كلّ تمييز في اللون بين أبناء العائلة الواحدة التي يكون رئيس الدولة أباً لها، على أبناء هايتي أن يتحابّوا، ولن يُعرفوا من الآن فصاعداً سوى بالاسم الشامل: السود»[5].

---

(1) بليدن، «إثيوبيا تمد»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 126 ـ 127.

(2) بليدن، «إفريقيا والأفارقة»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 278.

(3) المرجع ذاته.

(4) أ.د. لارا، جزر *الكاريبي في طور البناء...*، الجزء الثاني، ص ص 1020 ـ 1021.

(5) المرجع ذاته، ص 1022.

في الغوادلوب ومنذ 1848، «الأحرار الجدد» طالبوا بالتسمية «زنجي». جريدة بوانتا بيتر *التقدّم*، نشرت في عدد 22/ 6/ 1849، رسالة مواطن من الغوادلوب، موقّعة باسم «موييز لارا، نجّار زنجي». وسنة 1893، كان النائب غاستون جيرفيل ـ رياش، يعتبر «استعادة تسمية الزنجي واجباً»[1].

استعمال بليدن لكلمة «زنجي»:

بليدن يندرج هو أيضاً في شكل من الأشكال ضمن هذا التقليد في جمع الشمل[2]. سنة 1887، طلب من صديقه كوبنغر استبدال كلمة «أسود» بكلمة «زنجي» في المادة الثانية من النظام الأساسي للجمعية الأمريكية للاستيطان[3]. سنة 1872، أطلق جريدته التي أرادت أن تكون لسان حال كلّ الزنوج: *«الزنجي»*. وطرح اشتراكات في الكاريبي، والولايات المتحدة، وبريطانيا[4]. وقد شرح سبب اختياره لاسم جريدته:

«أعطيناها اسم *الزنجي* (إن كان هناك داع للتفسير)، لأنّ دورها هو أن تمثّل وأن تدافع عن مصالح هذا الصنف المميّز من البشرية المعروف باسم الزنوج، في العالم أجمع.

وطموحها لا يقتصر فقط على إفريقيا الغربية، بل هي تسعى لتأكيد الأخوّة بين أبناء هذا العرق وتقويتها، في كلّ مكان يتواجد فيه... المصطلح شرعي تماماً ولا يمكن تحريفه، مهما تكن الظروف»[5]. في هذا التعليق، استعمل بليدن المصطلح زنجي ليدلّ على الزنوج والأفارقة في

---

(1) المرجع ذاته، ص 1021.

(2) بليدن، «الزنجي في الولايات المتحدة»، مجلّة الكنيسة الأسقفية الميتودية الأمريكية، الشهر الأوّل من 1900، ص ص 308 ـ 331.

(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 19/ 11/ 1887.

(4) لينش، أطروحة، ص ص 144 ـ 145.

(5) بليدن، «جامعة إفريقيا الغربية»، في *كتابات مطبوعة مختارة*، ص ص 223 ـ 229.

وقت واحد. بقي عدد واحد من هذه الجريدة في أيامنا، وهو محفوظ في مكتب المستعمرات في المملكة المتحدة[1].

شخصية بليدن: تناقضات وأحكام مسبقة:

في سعي بليدن «لإعادة تأهيل العرق الأسود» حسب تعبير هانيبال برايس[2]، ينبغي الكشف عن بعض تناقضاته من دون مجاملة. لسنا هنا بصدد أن نزدري هذه الشخصية[3]، ولكن أن ننتقد فكرها، بمساعدة مراسلاتها خصوصاً. هذه الرسائل تكشف لنا عن بليدن أكثر صدقاً بالنسبة إلى بعض المواضيع. كما تعطينا ما يكفي من العوامل لدراسة نقدية لشخصية كهذه، نادرة الغنى والتعقيد.

في كلّ أعمال بليدن المخصّصة للدعاية للهجرة، يجب تفحّص بعض النواحي باهتمام شديد، ومن بينها موقفه تجاه «الخلاسيين»، وتجاه الأفارقة، وعدم وضوحه بالنسبة إلى البيض.

أفكاره المسبقة ضد الخلاسيين ـ تأثير النظريات الأنثروبولوجية:

تعكس كتابات بليدن شخصية مشرّبة تماماً بنظريات ذلك العصر الأنثروبولوجية العنصرية. بالرغم من انتقاده لبعض النقاط، تبنّى بليدن النظرية التي تقول إنّ «خليط الأعراق» ليس طبيعياً. كان يشعر بحقد عميق تجاه الذين أسماهم «الخلاسيين»، وذوي الدم الممزوج، و «المهجّنين»، مقابلاً إياهم مع «الزنوج الأنقياء».

---

(1) المكتب الاستعماري 267/ 324، رقم 978: الزنوج، المجلد 11، العدد 1، 16/ 14/ 1873.

(2) هانيبال برايس، *إعادة تأهيل العرق الأسود من قبل جمهورية هايتي*، بورتو برانس، 1900، 736 صفحة.

(3) انظر مودمبي، *ابتكار إفريقيا: العلم الروحاني، والفلسفة، ودرجة المعرفة*، منشورات جامعة إنديانا، 1988، الفصل الرابع.

في واحدة من رسائله[1]، يذكر الدكتور تشارلز هودج من برنستون، في نيوجرسي (الولايات المتحدة الأمريكية). حسب ملاحظات هذا الأخير، «الخليط» بين شعبين يؤدّي إلى تراجع طبيعي، وإلى انحلال «العرقين»[2]. واستعمل بليدن نظريته ليبرهن «البنية الضعيفة» لدى الخلاسيين. فأهمل مشاكله الصحية، وحكم على «أصحاب الدم الممزوج» بالانحلال الجسدي والفكري، وبالانقراض[3].

في عدد 11/ 8/ 1885، وصفت جريدة *النيويورك صن* بليدن كرجل ذي بشرة داكنة جداً. ويقول بليدن إنّ والديه ينبثقان مباشرة من عرق نيجيري، هم الإيبو، وإنّ جدّه لأمّه كان إفريقياً[4].

ويظهر في كتاباته الامتعاض من الخلاسيين ونوع من الغيرة منهم. لقد استعمل في أعماله كلّ أنواع الصفات المحقّرة للدلالة عليهم.

الصراعات الناتجة عن «مسألة اللون»:

كانت *كلية ليبيريا* مسرحاً للعديد من الصراعات بين بليدن والخلاسيين. أكثر من مرّة تعرّض بليدن للتهديد بالرد ولجأ إلى سيراليون (1874، 1885، 1898 ـ 1899). كلّ «قضيّة» تعود إلى لون البشرة، كان يمكنها أن تؤدّي إلى حرب أهلية حقيقية[5]. كان بليدن ينتقدهم بقساوة. كان يقول إنّهم يشكّلون كتلة مغلقة، لا يمكن اختراقها، قائمة على لون البشرة. واتّهمهم بأنّهم استولوا على أعلى مناصب الدولة، في الميادين السياسية، والدينية، والتربوية[6]. وهاجم اكتفاءهم، وفراغهم، وحياتهم

(1) من بليدن إلى لوري، في 20/ 9/ 1875.
(2) هودج، محاولات ومراجعات، ذكر في رسالة لبليدن، مذكورة آنفاً.
(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 19/ 11/ 1874؛ من بليدن إلى ويلسون، في 31/ 5/ 1897.
(4) *أخبار سيراليون الأسبوعية*، 10/ 2/ 1912.
(5) من بيني إلى ترايسي، في 19/ 6/ 1871.
(6) من بليدن إلى لوري، في 6/ 1/ 1877.

السهلة الخالية من المبادىء[1]. في إحدى رسائله بتاريخ 20/ 9/ 1875، تناول بليدن وجود «حرب عرقية حقيقية» في ذلك البلد، دائرة منذ أربعين سنة[2]. كان هناك شعبان برأيه، يعيشان في ليبيريا: السود والخلاسيون[3].

محاولات للتعاون مع البيض، ضد الخلاسيين:

منذ السنوات 1860، تمنّى بليدن على «أصدقائه» في الجمعية الأمريكية للاستيطان ألاّ يسمحوا للخلاسيين بالإبحار إلى ليبيريا. وعتب عليهم أنّهم خلطوا بين الخلاسيين و «الزنوج الأصليين» وأرسلوهم إلى ليبيريا: «بعض فاعلي الخير في الولايات المتحدة لا يدركون أنّ القهوة بالحليب ليست قهوة ولا حليباً، وأنّه لا يسعنا تقدير مذاق كلّ منهما بعد خلطهما»[4]. فطالب بالتمييز في اختيار المهاجرين إلى إفريقيا: «لا يمكن أن تزدهر ليبريا، ازدهاراً سريعاً، إلاّ إذا ميّزتم الأشخاص الذين ترسلونهم إلينا ـ يجب أن يكونوا أشخاصاً يحبّون إفريقيا، ويتعلّقون بالعرق أكثر منه بالجماعات والقبائل»[5]. هذا الطلب الملح «لانتقاء» المهاجرين أثار قلقاً كبيراً لدى مسؤولي الجمعية الأمريكية للاستيطان، الذين كانوا في بحث دائم عن متطوّعين للسفر[6].

خلال رحلات بليدن الترويجية إلى الولايات المتّحدة، كلّ الصعوبة كانت تكمن في حثّ الزنوج على الهجرة، ورفض الخلاسيين في الوقت ذاته. في «أصل الاستيطان الإفريقي والهدف منه»، يقول بليدن: «لا نطلب من كلّ الأشخاص الملوّنين أن يغادروا الولايات المتحدة إلى إفريقيا. هذا

(1) من بليدن إلى ج.ك. برامان، في 27/ 3/ 1884.
(2) من بليدن إلى لوري.
(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 2/ 2/ 1879.
(4) من بليدن إلى كوبنغر، في 20/ 8/ 1887.
(5) من بليدن إلى كوبنغر، في 21/ 10/ 1875.
(6) من ترايسي إلى ماك لاين، أمين صندوق الجمعية الأمريكية للاستيطان، في 10/ 6/ 1871، كنيدي كمبرلي، 6/ 6/ 1871، في المكتب الاستعماري، 267/ 311.

ليس ضرورياً. إلاّ في حالة الزنوج، أي أبناء إفريقيا، الذين يؤمنون بغرائز العرق، وبواجبهم تجاه موطنهم الأصلي»[1]. من جهة ثانية، تذرّع بعدم وجود قدرة كافية لدى الخلاسيين لتحمّل مناخ إفريقيا، كي يمنع سفرهم[2].

سنة 1880، أوصى صديقه كوبنغر بالاحتفاظ بالخلاسيين في الولايات المتحدة، حيث تكون السيطرة عليهم أكثر سهولة[3]. وأكّد لويلسون، في 1/ 6/ 1900، أنّ الزنجي يشعر بأمان في يدي الأبيض، أكثر منه بين يدي زنجي، تحتوي عروقه على أصغر نقطة من الدم الأبيض[4].

ردّة فعل زنوج الولايات المتحدة:

بغية إبعاد الخلاسيين عن ليبيريا، وعن إفريقيا بشكل عام، لم يتردّد بليدن في عرض آرائه في مراسلاته مع البيض في جمعية الاستيطان الأمريكية الشمالية. في الولايات المتحدة، حيث التوتّرات التي تسبّبها مسألة لون البشر ليست معلنة كما في الجزر الكاريبية، تعرّض رجلنا الكاريبي للانتقاد الشديد بسبب مواقفه «العنصرية» تجاه الخلاسيين. وقد كشف أمره بعد نشر رسائل بعث بها إلى أعضاء من الجمعية ـ رغم معارضته ـ[5]، وذلك في منشورة الجمعية، مجلّة *المخزن الإفريقي والاستيطان*.

عدائية بليدن هذه صدمت زنوج الولايات المتحدة بشدة. خلال زيارة له إلى شارلستون، في كارولينا الجنوبية، في أواخر الشهر 11 من 1889، ارتفعت عدّة أصوات معارضه لمجيئه في الصحافة. وكانت جريدتا *أخبار*

---

(1) بليدن، في *المسيحية*. . .، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 108 ـ 109.

(2) بليدن، «وقائع متعلّقة بليبيريا»، في *الإرسالية الأجنبية والكنيسة الكالفانية*، الشهر 7 من 1880، ص ص 53 ـ 54.

(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 10/ 6/ 1880.

(4) من بليدن إلى كوبنغر، في 1/ 6/ 1900.

(5) من بليدن إلى كوبنغر، في 2/ 12/ 1887.

ورسائل شارلستون وعالم شارلستون وسيلتي التبادل بين مختلف الآراء[1].

حوادث في حياته الخاصة:

تزوّج بليدن في سنّ مبكرة، سنة 1856، في مونروفيا، من ساره ك. ياتس، نسيبة نائب رئيس ليبيريا، وكانت شابة فاتحة البشرة. ورزقا بثلاثة أولاد: فراي (ولدت سنة 1861)، أورياس (ولدت سنة 1863) وإدوارد ويلموت جونيور (ولد سنة 1864). وكان مصير زواجه الفشل. من جهة أخرى أخذ يدين كلّ مزيج بين السود والخلاسيين[2]، وبالمقابل، يشجّع الاتحاد بين «الزنوج الأنقياء». سنة 1875، تعرّف إلى معلّمة، آنا إسبادون إرسكين، الابنة الكبرى للأب هوبكنز و. إرسكين، المولودة في ليبيريا. آنا إرسكين كان لها لون بشرة بليدن. عاشت في سيراليون حيث أنجبا، بعيداً عن أنظار الفضوليين ـ بليدن لم يكن يرغب في الطلاق ـ خمسة أولاد: راكياتو ثيودورا ألبينا (ولدت سنة 1876)، ونيماتا كارولينا، وإيزا كليوباترا إيياتو، وصبي مات في سن مبكرة، وأمينا جوديث آنا (أو جوديث أميناتو، المولودة نحو 1889). كان بليدن يكنّ عاطفة خاصة لهذه الصغيرة الأخيرة. لكنها ماتت سنة 1909، تاركة أباً يغمره الحزن.

منذ سنة 1884، شجّع زواج «الزنوج الأنقياء» في ما بينهم، من أجل «الحفاظ على العرق»[3].

استبعاد الخلاسيين من الشخصية الإفريقية:

تبنّى بليدن نظرية وجود عدّة أعراق مختلفة، ولكن متساوية في ما بينها. ولكّل منها دوره في تطوّر البشرية. ولتأدية هذا الدور بشكل صحيح، على كل عرق أن يحافظ على مميزاته الخاصة، وعلى هويته: «كلّ عرق

(1) *أخبار ورسائل تشارلستون*، 1/ 12/ 1889؛ *عالم تشارلستون* 2 و 3/ 12/ 1889.

(2) من بليدن إلى ويلسون، في 1/ 6/ 1900.

(3) بليدن، في 24/ 5/ 1884، ذكره هولدن، المرجع المذكور آنفاً، ص 911.

يملك غرائز مميّزة ووسائل للحفاظ على نفسه وتوسيع مصالحه»[1].

في خطاب بعنوان «حول الأعراق المختلطة في ليبيريا»، ألقي في معهد سميثسونيان في مونروفيا، في 6/ 10/ 1869، طرح بليدن مفهوم *الشخصية الإفريقية*. وعند طباعة هذه المداخلة، التي صدرت سنة1870، جمع كلّ حججه ضد الخلاسين واستبعدهم كلّياً من مفهومه[2].

في مقاله «إفريقيا والإفريقيون»، أكّد بليدن أنّ الخلاسي ليس زنجياً، أو «زنجياً صافياً». فهو لا ينتمي إلى «العرق الزنجي»، ولا علاقة له «بالشخصية الإفريقية». «غريزة العرق» ليست موجودة لديه. كما اتّهمه بأنّه غير مبال بمشاكل السود: «لا يمكن أن ننتظر من إنسان يتحدّر من أصل عرقي مزدوج أو حتّى رباعي... أن يفهم حجم المسألة الإفريقية أو أن يشعر به. غريزة التساؤل عمّا هو مفيد للعرق ليست موجودة لديه»[3]. ويتابع: «إنّ أصغر كمية من الدم الأبيض لدى الإنسان الأسود تجرّده من واجباته تجاه العرق»[4].

«نقاء العرق»، محرّك القومية السوداء:

ربط بليدن «العودة» إلى إفريقيا بغريزة العرق: وحدهم الزنوج الصافون يشعرون بأنّهم معنيون بالرجوع إلى إفريقيا. في خطاب ألقاه أمام أعضاء الجمعية الأمريكية للاستيطان، في الشهر الخامس من 1880، «إثيوبيا تمدّ ذراعيها إلى الله»، جمع بوضوح بين بناء الأمّة الزنجية وصفاء العرق[5]. رأى في «العرق» أساس القومية وإنشاء الأمّة الزنجية. وفي مقال ظهر في جريدة *واشنطن ستار* في 17/ 10/ 1895، صرّح بليدن: «أنا أؤمن

(1) من بليدن إلى كوبنغر، في 20/ 9/ 1878.
(2) في لينش، *كتابات مطبوعة مختارة*...، ص ص 187 ـ 189.
(3) من بليدن إلى كوبنغر، في 20/ 9/ 1878.
(4) من بليدن إلى ويلسون، في 1/ 6/ 1900.
(5) بليدن، في *المسيحية*...، المرجع المذكور آنفاً، ص 121.

بمستقبل امبراطورية زنجية في إفريقيا»[1]. ولم نجد أيّ إشارة لهذه الأمنية في مكان آخر. بافتراضه «نقاء العرق» ـ كما لدى الزنوج الصافين ـ ضرورياً لإتمام واجبه على الأرض، بليدن حاول استبعاد الخلاسيين من الهجرة بطريقة أخرى. كان يريد أن يحافظ على «العرق الزنجي» لأنّ قسماً كبيراً من هذا العرق برأيه أصبح ملوّثاً. هذا «التلوّث» أصاب بضعة ملايين من أبنائه في الأمريكتين. وكان بليدن يقدّر عدد الأشخاص «السليمين» بمئتي مليون نسمة[2]. . .

بعد سنوات، انطلق كاريبي آخر، هو ماركوس غارفي، في «المغامرة الإفريقية». لقد قرأ أعمال بليدن بكلّ اهتمام وأظهر العداء ذاته تجاه «السمر» كما كان يسمّي الخلاسيين[3].

موقفه تجاه الأفارقة الأصليين:

عيّن بليدن قسّاً في مونروفيا سنة 1858. وشارك في عدّة بعثات وحملات عسكرية ضد المقيمين الأصليين. كان يوجد العديد من الجمعيات الإرسالية المتنافسة التي تتقاسم المنطقة. جمعية *الإرسالية الغربية* فتحت مركزاً لها في ريو بونغو منذ 1855. وكان إرساليوها كلّهم من الزنوج. والجمعية الأشهر، جمعية *إرسالية الكنيسة* (نيويورك)، كانت تعمل في إفريقيا منذ 1804.

لقد توالت قوميات عدّة على الساحل، بين سيراليون وليبيريا: باسا، كولا، كرو، مند، شيربرو، تمنيه. . . خلال الحملة إلى مقاطعة ليتل كاب ماونت ضد الكرو سنة 1853، خدم بليدن كمرافق. كان الكرو يعيشون جنوبي مونروفيا، بين سينو ورأس بالماس. في تقاريره إلى جريدة *ليبيريا*

(1) بليدن.

(2) بليدن، «الدراسة والعرق»، في *كتابات مطبوعة مختارة. . .*، ص ص 201 ـ 203.

(3) أ.د. لارا، جزر *الكاريبي في طور البناء. . .*، ص 670، وللكاتب نفسه، *ماركوس غارفي، أسد الكاريبي*، باريس، سيركام، 1992.

هيرالد، عرّف بليدن إلى بومبو، زعيم الكرو الأعداء، كشخص «شرس، ودموي، وغير قادر على السيطرة على انفعالاته...»[1]. كان بليدن مقتنعاً بصوابية الهجوم على المقيمين الأصليين، ووصفهم بالأعداء الخطرين:

«هزمنا أكثر من ألفي رجل عدو. (...) يجب أن نكافح للحفاظ على حرّيتنا، لكن الربّ إلى جانبنا والحقيقة والحرية ستنتصران»[2].

قاد بليدن عدّة بعثات لاستكشاف أراض «جديدة» لأنصار الاستيطان الأمريكيين. سنة 1862، خلال رحلة موّلها هـ.م. شيفلن، أحد إداريي جمعية نيويورك للاستيطان، وكاليب سوان من نيويورك، التقى بليدن الملك مومورو في بوبورو، وهي مدينة ماندية تجارية كبيرة، على بعد ألف ميل (160.9 كلم) من مونروفيا.

سنة 1871، حاكم سيراليون، آرثر إ. كينيدي (1868 ـ 1871)، أنشأ خصيصاً لبليدن مركز وكيل الداخلية. وقاد بليدن بعثتين: الأولى إلى فالابا سنة 1872، والثانية إلى فوتا جالو سنة 1873. في 5/ 1/ 1880 سُمّي وزيراً للداخلية في جمهورية ليبيريا. سنة 1895، وبناء على اقتراح الحاكم كارتر، عيّنته الحكومة البريطانية في منصب وكيل شؤون السكّان الأصليين في اللاغوس ـ حيث أسّس *كلية* في الشهر السادس من 1896 ـ وفي كالابار القديمة[3].

كان يُعتبر في الخارج «موسوعة حيّة» عن شعوب إفريقيا[4]. كان

---

(1) انظر تقارير بليدن في جريدة *ليبيريا هيرالد*، 16/ 3 و 6/ 4/ 1853، في كتاب هولدن، المرجع المذكور آنفاً، هوامش 25 ـ 26 ـ 27 ـ 28، ص 927.

(2) من بليدن إلى الأب ج.ب. نوكس، الشهر الثاني من 1852، في كتاب هولدن، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 33 ـ 34.

(3) المكتب الاستعماري 267/ 316: تقرير حملة فالابا؛ المكتب الاستعماري 267/ 320: تقرير حملة تيمبو.

(4) انظر مقال «أخبار من إفريقيا» في *الكالفاني*، فيلادلفيا، بنسلفانيا، في 29/ 1/ 1887، ص 8، بقلم س.س. سيرفيبه، في كتاب هولودن، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 574 ـ 575.

يجيد التحدّث بعدّة لغات إفريقية، ومنها الڤاي. سنة 1906، بعد انسحابه من العمل السياسي، ظهر كمحام متحمّس عن السكّان الأصليين. في الواقع بحكم مسؤوليته في السياسة المتعلّقة بالمقيمين، تطوّر موقفه تجاه الأفارقة بشكل ملحوظ. سنة 1887، عبّر في إحدى رسائله عن ندمه على مشاركته سنة 1853 في الحرب ضدّهم. واعترف بأنّهم شعب يدافع عن أرضه[1]. وهناك عامل آخر ربّما ساهم في تغيير سلوكه. في الحقيقة، أدرك بليدن تدريجياً الفائدة التي قد يجنيها بفصل السكان الأصليين.

دعاية تمدين إفريقيا وتنصيرها:

بالرغم من الوظائف التي عمل من خلالها مع الأفارقة، بقي ظاهراً أنّ بليدن لم يفهم هذه الشعوب. بعض التعابير التي استعملها في الكثير من مقالاته[2]، مثل «الوحشية الإفريقية»، و «عاداتهم الدموية» أو أيضاً «تطيّرهم»، تظهر أنّ بليدن لم يكن يعرف إفريقيا في العمق. وقد أيّد كلّياً الأفكار الغربية بالنسبة إلى ضرورة تمدين إفريقيا وتنصيرها. وهذا أمر مستغرب لدى رجل بذل جهده للتذكير بتألّق حضارة إفريقيا القديمة...

بإدخال فكرة تمدين إفريقيا وتنصيرها في حملته لترويج الهجرة، كان بليدن في الواقع يستعيد حملة مؤسّسي الجمعية الأمريكية للاستيطان... لقد طالب باستخدام «الزنوج المتمدّنين والمنصّرين» من قبل الكنيسة: «من أجل الحرب الروحية التي تدور حالياً في إفريقيا، على الكنيسة أن تستخدم الإفريقي كي يشارك في الهدف الأسمى وهو إنقاذ وطنه الأم[3].

استعمل بليدن كشعار عبارة للمطران هايفن: «الحلّ لإفريقيا، هو

---

(1) رسالة من بليدن بتاريخ 22/ 10/ 1887، في كتاب هولدن، المرجع المذكور آنفاً، ص 926.

(2) بليدن، «الإرساليات المسيحية في إفريقيا الغربية»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 60؛ «إثيوبيا تمد...»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 129.

(3) *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 335.

أمريكا»[1]. وفرض هذا العمل «الإنساني» كواجب للزنوج. كما أنّ تخليص إفريقيا يقع في نظره على عاتقهم. يجب أن تعود إلى المتحدّرين منها، إلى أبنائها المنفيين في الأمريكتين (الولايات المتّحدة والكاريبي). بعبارة «الأبناء المنفيين» كان يحاول التقريب بين الزنوج والأفارقة. من جهة ثانية، تناول إمكانية أن يتدخّل الأوروبيون وحرّض الزنوج على عدم السماح لهم بانتزاع مهمّة تمدين إفريقيا وتنصيرها.

يجب أن ننتبه إلى المفردات التي يستعملها بليدن. إنّ عبارة «الأبناء المنفيين» للدلالة على زنوج الأمريكتين غالباً ما تظهر في أعماله. وهذا يظهر أنّه يعتبر الزنوج أفارقة خضعوا لمجرّد تحويل ـ لأربع قرون! ـ نحو الأمريكتين. لكن بعض المؤرّخين أظهروا الاختلافات الأساسية الموجودة بين الأفارقة وزنوج الأمريكتين[2]. ولم يتردّد بليدن في خلط الأوراق باستعمال تسمية «الإفريقي» للإشارة إلى الأفارقة، والأصليين (المولودين في إفريقيا) والزنوج من دون تفرقة.

لكن إن كان بليدن يخلط بين «زنجي» و «إفريقي»، وبين «إفريقي» و «أصلي»، فهو في المقابل لم يستعمل قط المصطلح «أصلي» للدلالة على «زنجي». هذا الخلط بين المصطلحين «إفريقي» و «زنجي»، الذي يهدف إلى التقريب بين الشعبين، يبدو إذاً كواحدة من أدوات دعايته.

بعض العناصر تدعو لزعزعة الثقة في حجّة تنصير إفريقيا وتمدينها. هل كان بليدن مقتنعاً حقاً بجدوى هذه المبادرة؟ هل كانت تهمّه، كما يقول، الشعوب الأصلية؟

تحريك السكان الأصليين:

إنّ موقف بليدن من دور الأفارقة في حياة ليبيريا السياسية يبقى غير

---

(1) المرجع ذاته، ص ص 335 ـ 336.

(2) أ.د. لارا، *جزر الكاريبي في طور البناء...*

واضح. سنة 1871، تنظّمت علاقاته مع بعض الشعوب الإفريقية. أراد بليدن أن يضمّهم إلى جمهورية ليبيريا لدعم حزب *الإنسان الأسود* لوضع حدّ لنشاط «الخلاسيين»[1].

«لم يمسك قادتنا بفرصة التعاون مع الزعماء. (...) إنّ سياسة صحيحة، حازمة ولكن متضامنة مع الزعماء (الأفارقة) تجعل منهم مساعدين أقوياء للجمهورية»[2].

في مقالة «أصل الاستيطان الإفريقي وأهدافه»، الذي نشر سنة 1883، يعبّر بليدن من جديد عن رغبته في ضمّ المقيمين الأصليين إلى جمهورية ليبيريا بأسرع ما يمكن. حق الاقتراع لم يكن يمنح آنذاك «إلاّ للذين يخضعون للقوانين الليبيرية»، أي للمسالمين. عند تعيينه رئيساً *لكلّية ليبيريا*، منذ 1880، واجه بليدن مصاعب جدّية. لقد عارض بشدّة تسمية أستاذين، هما الأب هيو م. براون والأب ماك كانتس ستيوارت، وكلاهما زنجي فاتح اللون...

سنة 1888، في رسالة بعث بها إلى كوبنغر، قدّر بليدن أنّه على السكّان الأصليين أن يحكموا. كلّ ما كان الزنوج يفعلونه، لم يكن في رأيه أكثر من تقديم مساعدة مادية وروحية، ضرورية لبناء أمّة، على «مبادىء الحضارة»[3]. هذه الإشارة هي الوحيدة من بليدن التي تتعلّق بحكم البلاد من قبل الأفارقة. عدا ذلك فهو لم يقترح، ولم يؤيّد مطلقاً ترشيح إفريقي لرئاسة ليبيريا، ولا حتى كليّة ليبيريا، أو لأيّ منصب آخر للمسؤولية السياسية... من جهة أخرى شجّع بليدن الزواج بين «الزنوج الصافين» والأفارقة، كطريقة لمواجهة الخلاسيين...

---

(1) من يني إلى ترايسي في 19/ 6/ 1876، في كتاب هولدن، ص 176.

(2) من بليدن إلى كوبنغر، في 9/ 6/ 1876، في كتاب هولدن، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 340 ـ 343.

(3) المسيحية...، المرجع المذكور آنفاً، ص 102 ولينش، أطروحة، المرجع المذكور آنفاً، ص 207.

اهتمام بليدن بالأفارقة يظهر إذاً أكثر وكأنّ حافزه معارضة الخلاسيين وليس مساعدة الأصليين. بالتالي فإنّ الأولوية عنده لم تكن لتنصير الأفارقة أو لتمدينهم، بل لتشجيع هجرة الزنوج إلى إفريقيا.

ازدواجية بليدن تجاه البيض:

كان موقف بليدن تجاه البيض مبهماً. في الواقع، لقد انتقد ممارساتهم الرّقية في إفريقيا. ودعا مواطنيه إلى إنشاء مثالهم الخاص في التطوّر، من دون تقليد أعمى للنموذج الأوروبي. من ناحية أخرى أعلن أكثر من مرّة إعجابه بالحضارة الأوروبية، وخصوصاً في المملكة المتحدة... وأظهر اهتماماً شديداً بزخرفتهم الرسمية أيضاً...

الإقامة في الشرق، الوعي:

خلال صيف 1866، أقام بليدن في مصر، وفي فلسطين، وفي سوريا. رئيس *الكلية السورية البروتستانتية*، الأب دانيال بلس، طلب مساعدته لتنظيم مؤسسته. في 10/ 7/ 1866، وصل إلى مرفأ الإسكندرية (مصر) عن طريق ساوثهامتبون (بريطانيا). وفي هذا البلد أدرك فعلياً دور إفريقيا في الحضارة الإنسانية. ثمّ اكتشف فلسطين (يافا والقدس)، قبل أن يصل إلى بيروت (لبنان). وقد انجذب بليدن إلى الهوية الثقافية العربية ـ المسلمة. هذا الإعجاب ترافق مع خيبته من الإرساليين الأوروبيين، وحدّد ميله إلى الإسلام.

انتقاد الإرساليين:

بليدن انتقد بقسوة سلوك المسيحيين في إفريقيا. منذ سنة 1862، خلال إقامته في الولايات المتحدة، عبّر عن بعض التحفّظات حيال هذا الموضوع[1]. سنة 1876، أدان احتقارهم للشعوب المحلّية وجهلهم للتقاليد.

(1) بليدن، *ما تقدّمه ليبيريا*، نيويورك، 1862.

«لأنّ الإرساليين لا يفهمون شيئاً عن هذا الشعب، فإنّ أوّل ما يسعون إليه هو فرنجته، غير مبالين بخصوصيات عرقه أو ظروف البلد المناخية»[1].

وأسف للمظهر السطحي الذي تتّخذه المسيحية نتيجة لذلك: «القشرة الرقيقة للحضارة الأوروبية التي اكتسى بها السكّان الأصليون لا تكفي من أجل تحوّل ذهني حقيقي، حيث أنّ هذا التنصير ينتج بصفة عامة عن تبديل سريع للمعتقدات، بدل أن يكون خالصاً وينمّ عن إيمان بالخرافات، بدل أن يكون حقيقياً، إنّه شكلياً فقط، بدل أن يكون عميقاً، إنّه سطحي ومن دون جذور، لهذا لا يمكنه أن يتفتّح ويتفاعل»[2].

كما اتّهمهم بأنّهم أدخلوا إلى إفريقيا الاستعباد، والحرب، والكحول، والطمع[3].

انتقد بليدن أيضاً المسيحيين الذين يستعملون الكتاب المقدّس لتبرير الاستعباد[4]. سنة 1887، قدّم استقالته من الوزارة الكالفانية، يائساً من ممارسات الإرساليين الأوروبيين. وشرح دوافعه في رسالة إلى صديقه كوبنغر. لن يستطيع الزنوج أبداً أن يصلوا إلى السلطة بوجود وكلاء للمسيحية كهؤلاء في إفريقيا:

«أحبّ مسيحية المسيح، لكنّي لا أكنّ أيّ احترام لممثّليه الدنيويين الأوروبيين في هذا البلد. (. . .) أحبّ منهج المسيحية، لكنّي أكره طرق الذين يبثّونها في إفريقيا. المسيحية بطرقها هذه، لم تعطِ قط السلطة للزنجي وليست مستعدّة لإعطائه إياها»[5].

---

(1) بليدن، الإرساليات المسيحية في إفريقيا الغربية»، في *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 63.

(2) المرجع ذاته، ص 64.

(3) من بليدن إلى شيفلين، في 28/ 4/ 1888.

(4) بليدن، «المسيحية والعرق الزنجي»، *المسيحية. . .*، المرجع المذكور آنفاً، ص 30.

(5) من بليدن إلى كوبنغر، في 12/ 7/ 1887.

جاذبية الإسلام:

كان بليدن معجباً بدعوة المسلمين في إفريقيا، وبطريقة تقرّبهم من السكان الأصليين التي أسماها «التأثير المستوعب». إذ كانت تنفذ بهدوء، وبانسجام مع الشعوب المحلّية، بدل أن تطلب منهم الخضوع. وبليدن كان يعرف من جهة ثانية تماماً الأصول المشتركة للشعبين الإفريقي والعربي. واستند إلى هيرودوتس في هذا الشأن:

«ليس فقط دين العرب، بل العرق العربي ما منحهم هذا التأثير على ميول القبائل الكبيرة. فهي تنتمي إلى عرق قريب. قبل عصر محمّد، كان السود يشاركون في تراث شبه الجزيرة العربية العلمي وسياستها. هيرودوتس، في تلك الحقبة القديمة، اكتشف العلاقات الوثيقة بين هذين الشعبين، ويتكلّم عنهما كأنّهما من عرق كبير واحد»[(1)].

بليدن أخذ عن الإسلام صورة مجتمع عادل، ديمقراطي. وأُعجب بالقوّة الموحّدة التي يعكسها هذا الدين، وبفكرة منع تصوير محمّد وأصحابه. لم يكن في وسع أحد فرض نبي أبيض اللون...

بعد إدراكه لتأثير الإسلام في إفريقيا، واقتناعه بغنى الأدب العربي، علّم اللغة العربية في *كلية ليبيريا* منذ 1868. ورأى أنّ امتلاك هذه اللغة ضروري لكلّ الذين يرغبون في العمل في إفريقيا. وهذا قرّبه نوعاً ما من بعض الشعوب الإفريقية. منذ عودته من الشرق الأوسط في خريف 1866، اتّصل بالشعوب المسلمة داخل البلاد. سنة 1868، كرّم شعب فوتاه المسلم، الذي ينتمي برأيه إلى «عرق أسمى»[(2)].

أصرّ بليدن على الحكّام المتعاقبين في سيراليون لإعطاء دروس قرآنية في المستعمرة، احتراماً لتكوين المجتمع المحلّي، فاستطاع إقناع الحاكم

---

(1) بليدن، «سيراليون وليبيريا»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 230؛ ومن بليدن إلى ماري كنغسلي، في 7/ 5/ 1900.

(2) بليدن، «سيراليون وليبيريا»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 189 ـ 240.

ماثيو ناتان، وساعد الحكومة البريطانية منذ 1899 في فتح مدارس إنكليزية وعربية للمسلمين. من 1901 إلى 1906، كلّفه حاكم سيراليون تشارلز أنطوني كينغ ـ هارمان، بالإشراف على التعليم الإسلامي في هذه المستعمرة. فنظّم عدة مدارس للأطفال، منها اثنتان في خليج فوراه. في الشهر الثالث من سنة 1901، ترك بليدن نهائياً منصبه كأستاذ في *كلّية ليبيريا*.

«أصدقاء» بليدن، مسؤولو الجمعية الأمريكية للاستيطان، انتقدوا ميله المبالغ فيه إلى الإسلام. كان بليدن في تلك الفترة مشغولاً بتأليف كتابه *تاريخ ليبيريا*. الجمعية الأمريكية، التي كانت تنشر خطاباته، منعته من نشر هذا الكتاب الذي عمل عليه جاهداً. كذلك سرت عليه شائعة تتّهمه بتعدّد الزيجات.

من خلال اهتمامه عن قرب بطرق عمل المسيحية وبالإسلام كاد بليدن ينسف دافع الجمعية الأمريكية الأساسي، منذ نشأتها: تنصير إفريقيا وتمدينها على يد سود أمريكا... لطمأنة أصدقائه، أكّد بليدن سنة 1876 أنّ دين النبي ليس سوى «مرحلة» بين «البربرية» والمسيحية. ويجب أن تحضّر لفهم الأناجيل:

«الإسلام في إفريقيا سيكون مرحلة مهمّة بين البربرية والمسيحية... إنّ نشر اللغة العربية في هذه البلاد من خلال التأثير المسلم، يمكن اعتباره فترة إعدادية أساسية للتحضير للأناجيل»[1].

بحثاً عن تطوّر خاص بالزنوج:

من المواضيع الأكثر أهميّة التي ترد في كتابات بليدن هو من دون شك البحث عن تطوّر، بناء نموذج زنجي. دعا بليدن الزنوج إلى البحث عن نوع التطوّر الذي يناسبهم، وحذّرهم من التقليد الأعمى للأوروبيين، من دون تفكير مسبق:

---

(1) من بليدن إلى لوري، في 9/ 5/ 1876.

«من الدروس التي يتلقّاها كلّ يوم، الزنجي مقتنع بشكل لا واع بأنّه كي يكون إنساناً كبيراً، يجب أن يكون كالرجل الأبيض... أن يكون نفسه لا يعني له شيئاً... التشبّه بالأبيض قدر الإمكان: هذا هو طموحه. لكن الفضائل الوحيدة التي يكتسبها في ظروف كهذه هي طبعاً فضائل الطفيليين...»[1].

طلب من مواطنيه ألاّ يتأثّروا بالنماذج الأوروبية: لا «تمحوا» أنفسكم[2]. كان يطمح لأن يكتسب الزنجي المستوى الثقافي و «المعنوي» الذي يملكه الأبيض[3].

الجامعة الإفريقية الغربية:

في هذا الإطار، ومنذ بداية السنوات 1870، اقترح بليدن إنشاء جامعة لإفريقيا الغربية، وهو مشروع عزيز على قلبه. لقد أدرك أهميّة الاستفادة من مدارسه الخاصة ومن نموذجه الخاص في التعليم:

«المشكلة الحقيقية في تعليم الأفارقة هي تنمية مهارات الأفارقة... الطريقة القديمة المتّبعة عموماً... لا جدوى منها لأنّها لا تدرس الإنسان وقدراته الذهنية... بل هي تنتج كقاعدة عامة، صوراً مشوّهة عن تقاليد غريبة، تنسخ أسوأ خصائص الأسياد، بكلّ عيوبها»[4].

سنة 1876، بينما كان مدير *مدرسة ألكسندر العليا* في هاريسبرغ في ليبيريا، نجح في إلحاق *كليّة خليج خوراه* في سيراليون بجامعة دورهام، في بريطانيا. بليدن ركّز أيضاً على تعليم النساء، وأسف لكونه لم يجد امرأة

---

(1) بليدن، «المعضلة الإفريقية وطرق علاجها»، في كتابات مطبوعة مختارة، ص ص 45 ـ 52 و«أصل الاستعمار الإفريقي وهدفه»، ص ص 109 ـ 110.
(2) بليدن، «الدراسة والعرق»، 1893، في كتابات مطبوعة مختارة، ص 203.
(3) بليدن، «إفريقيا والأفارقة»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص 266.
(4) بليدن، «أهداف ووسائل تربية حرّة للأفارقة»، *المسيحية...*، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 82 ـ 92.

سوداء البشرة ومتعلّمة عندما تزوّج. فجمع الأموال لإنشاء مدارس للنساء في ليبيريا سنة 1861. آنا إرسكين، زوجته الثانية، كانت معلّمة وفخورة جدّاً بذلك.

بالنسبة إليه، كلّ عرق، لكونه يملك مهارات خاصة، يجب أن يتلقّى تعليماً خاصاً لينمّي قدراته. لهذا كانت جامعة إفريقيا الغربية تضمّ أفضل الأساتذة الزنوج في العالم(1).

مجلّة نشرة *اللاغوس* الأسبوعية أشارت إلى الدوافع وراء هذا المشروع. إذ تؤكّد في عددها الصادر بتاريخ 6/ 6/ 1896 أنّ الذين دعموا هذا المشروع في سيراليون بشكل أساسي هم «المحرّرون» وأبناؤهم، في مواجهة «العنصر الكريول»(2). هذا التحديد يكشف في الواقع عن رغبة بليدن ـ وهو في المنفى في المستعمرة البريطانية ـ في إنشاء مؤسّسة مستقلّة، متحرّرة من أي ضغط من جانب «الخلاسيين». فتلقّى دعم «المحرّرين» ـ أفارقة أحرار من تجارة العبيد غير الشرعية ـ أي من ذوي البشرة الداكنة ـ وفي الوقت ذاته اتّهم الخلاسيين بالهيمنة على نظام التعليم في ليبيريا لصالح أبنائهم. إذاً فرضية أنّ بليدن أراد إنشاء هذه الجامعة لمواجهتهم، ولإرضاء طموح شخصي، ليست مستبعدة.

في جميع الأحوال، رفضت الحكومة البريطانية إقامة جامعة كهذه في مستعمرتها في سيراليون. وفقط سنة 1960، قبل الاستقلال بسنة واحدة، صار للمستعمرة مؤسّسة بالمستوى الجامعي.

امتيازات البيض:

بالرغم من تصميمه على إيجاد نموذج تطوّر خاص بالزنوج، وسلوكه الانتقادي تجاه البيض، لم يتخلّ بليدن قط عن ميل واضح للزخرفات التي

(1) بليدن، «الدراسة والعرق»، المرجع المذكور آنفاً.

(2) لينش، أطروحة، المرجع المذكور آنفاً، ص 133.

هي من نتاجهم. وأعجب بوجه خاص بالحضارة البريطانية التي نعتها «بالمتفوّقة»[1]، وتباهى مفتخراً بانتمائه إلى هذه الثقافة[2].

سنة 1864، أسّس بمعاونة صديقه أ. كروميل، في مونروفيا، *الأتينيوم*، على صورة النادي البريطاني الشهير. كان طموحها إقامة مكان لقاء، ومحاضرات ونقاشات لتأهيل الشباب. سنة 1878، انتخب بليدن عضو شرف في هذه الحلقة الإنكليزية الراقية. من جهة أخرى، وخلال دراسته في مونروفيا، تعرّف بليدن إلى المؤلّفين الكلاسيكيين (هوميروس، هيرودوتس...). واستخدم ثقافته الأدبية خلال تبادله الرسائل مع رجل الدولة و.إ. غلادستون. وأشارت الجريدة البريطانية *إفريقيا الغربية* في مقال لها سنة 1901 إلى معرفته بالفلسفة، والعلوم، والتاريخ[3].

كلّفت حكومة ليبيريا بليدن أكثر من مرّة بتمثيل مصالحها لدى بلدان أجنبية. وسمّته مفوّضاً للتربية سنة 1861، ولهجرة زنوج الولايات المتحدة سنة 1862. بليدن، الذي أصبح وزير خارجية من 1864 إلى 1866، ذهب سفيراً إلى بلاط سان جيمس في 1877 ـ 1878 وفي 1892. وأرسلته الحكومة كموفد استثنائي إلى لندن وإلى باريس بين الشهرين السادس والتاسع سنة 1905. وقد سمحت له مهامّه الدبلوماسية بلقاء أهمّ الشخصيات في العالم الغربي: الملكة ڤيكتوريا سنة 1878، غلادستون منذ 1861، والرئيس الفرنسي إميل لوبيه (1899 ـ 1906) سنة 1905. وحصل في تلك المناسبات على بعض الأوسمة الرسمية: الوسام الاستعماري الفرنسي[4] ووسام التتويج سنة 1902[5]، والميدالية التركية سنة 1905،

(1) بليدن، «إفريقيا الغربية قبل أوروبا»، كتابات مطبوعة مختارة، ص 323.

(2) جريدة *الدايلي ساسكس نيوز*، 1/ 9/ 1877.

(3) *إفريقيا الغربية*، 14/ 9/ 1901.

(4) *أخبار سيراليون الأسبوعية*، 1/ 3/ 1902.

(5) المرجع ذاته، 27/ 9/ 1902.

من قبل السلطان، عن خدمات أدّاها للإسلام[1]. وعيّن بليدن لدى فرنسا وإنكلترا لمعالجة مشاكل حدود في إفريقيا الغربية[2]. كان فخوراً جداً بكونه أوّل ممثّل زنجي لدى قوى أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا[3].

إضافة إلى هذه الأوسمة الرسمية، حصل بليدن على شهادة جدارة فخرية من جامعة هوارد، ودكتوراه فخرية في القانون واللاهوت من جامعة لنكولن (بنسلفانيا، موطن كوبنغر)، سنة 1874.

إنّ تواجده في العديد من الجمعيات الأوروبية المهمّة، يعكس أيضاً حرصه على الاستفادة من بعض امتيازات البيض. والجمعيات التي كان فيها عضواً هي التالية:

1878: دخوله إلى الأتينيوم في لندن.

1880: الجمعية اللغوية الأمريكية.

1882: جمعية العلوم والآداب في البنغال.

1890: الجمعية الأمريكية للدين المقارن.

1898: الأكاديمية الزنجية الأمريكية.

1901: كان عضواً مؤسساً ونائب الرئيس في جمعية لندن الإفريقية.

في 1881 ـ 1882، خلال رئاسته *لكلّية ليبيريا*، قدّم بدوره اثنتي

(1) في 17/ 5/ 1905، في هولدن، المرجع المذكور آنفاً، ص ص 809 ـ 810.

(2) انظر وزارة الشؤون الخارجية، باريس، مذكّرات ووثائق، إفريقيا، 31/ 128؛ شؤون سياسية متفرّقة، الملف 6؛ مراسلة سياسية وتجارية، ليبيريا، 9، 18؛ مركز محفوظات ما وراء البحار، إكس آن بروفانس، السلسلة الجغرافية، إفريقيا 4، ليبيريا، الملفّات 14، 64، 71، و 78؛ وأيضاً: وزارة الخارجية البريطانية، 403، 363، سرّي 8690، مذكّرة للدكتور بليدن حول وضع ليبيريا.

(3) من بليدن إلى ويلسون، في 10/ 1/ 1906.

عشرة شهادة دكتوراه جامعية فخرية، منها ثمان لزنوج «صافين»، واثنتان لشخصين أبيضين (أحدهما ج.ب. نوكس). ولم يحصل أيّ خلاسي على هذا الشرف...

حتى 1906، سنة انسحابه من العمل العام، أكّد بليدن على حاجة الزنوج إلى «الإفادة» من خبرة البيض في مجالي الدين والتربية، ومن «تأثيرهم» الغالب، فكرياً ومعنوياً[1]. كان مقتنعاً بعدم خبرة الزنوج لاستلام الحكم، ويعتقد أنّهم لم يصلوا بعد إلى مستوى الرجل السياسي. من ناحية أخرى، أكّد عدّة مرّات أنّه يفضّل رؤية ليبيريا محكومة من قبل البيض على أن يحكمها الخلاسيون. كلّ هذا يدلّ على أنّه كان من أنصار ضرورة تلقّي مساعدة البيض، «معاهدة قوة أجنبية» لفترة من الوقت[2].

بليدن هو شخصية ممتعة للدراسة. يتجلّى ذكاؤه على مدى كلّ كتاباته. هذا الكاريبي ابن سان توماس انضمّ في سن مبكرة، في الثامنة عشرة، إلى حركة «هجرة» الزنوج، من الأمريكتين إلى إفريقيا، وكرّس لها حياته كلّها. لكن بالرغم من دوره الأكيد في هذه الحركة الأفريقانية الواسعة، وشهرته العالمية، لم يشارك في المؤتمر الأفريقاني في لندن سنة 1900. هل كان «المسألة اللون»[3] علاقة بالأمر؟ كان موقف بليدن من الخلاسيين معروفاً من قبل الجميع. كما أنّه لم يكن من مجموعة الأعضاء المؤسّسين والمنظّمين للمؤتمر. على كلّ حال، لم يشر أيّ من نصوصه إلى هذا المؤتمر أو إلى المشاركين فيه. فقط سنة 1905 التقى بليدن في باريس بشخصية أخرى أساسية لتحليل أصل الأفريقانية، الهايتي بينيتو سيلفان.

سنة 1906، انسحب بليدن نهائياً من العمل في الشؤون العامة. وتوفّي في فريتاون، سيراليون، في 7/ 2/ 1912، في الثمانين من عمره.

(1) بليدن، في 10/ 2/ 1874.

(2) من بليدن إلى ويلسون، في 1/ 11/ 1899 و 10/ 1/ 1906.

(3) عبارة لبينيتو سيلفان.

نظّم المأتم كاريبي آخر، هو الأب ج.ر. فريدريك، وأصله من أنتيغوا.

في الولايات المتحدة، يحمل ناد ومكتبة اسم بليدن: *نادي بليدن* في نيويورك، ومكتبة *إدوارد بليدن* في نورفولك، فرجينيا. وفي ولاية ميريلاند، في بالتيمور، توجد أيضاً *طريق بليدن*. وكلّ هذه أدلّة على العلاقات بين جزر الكاريبي والولايات المتّحدة. وأكثر من ذلك، وحده بليدن يرمز إلى العلاقات الأساسية بين هذه المناطق الثلاث في العالم، التي ربط بينها التاريخ: الكاريبي، والولايات المتّحدة، وإفريقيا.

الفصل الثامن

مهمّة أنتينور فيرمان السياسية

«لستُ مستعداً لاستبدال الفرح الذي وجدته منذ وصولي إلى إفريقيا بكلّ ما شاهدته في أمريكا. لقد زرعت كلّ أنواع الأشجار المثمرة التي تعيش في إفريقيا. نحضّر عظة كلّ أحد، ونلتقي للصلاة كل مساء على مدار الأسبوع... ابني، جورج واشنطن، بدأ يقرأ في كتاب التهجئة الأمريكي الجديد، كلمات من مقطع لفظي واحد. أظنّ أنّ مونروفيا ستصبح مكاناً يطيب فيه العيش، خلال بضع سنوات. الناس يبنون كلّ يوم. مررنا بحرب، منذ وصولنا، مع السكّان الأصليين. في اليوم الأوّل، ذهبنا إلى بلدة سان بول؛ وفي اليوم التالي، اتجهنا إلى بلدة كينغ بروملي واستولينا عليها. لم نخسر سوى رجل واحد».

رسالة من مقيم في ليبيريا إلى سيّده القديم، 1832 .*مجلة المخزن الإفريقي والمستعمران*. واشنطن، دي. سي، 1826، طبعة جديدة 1967، المجلّد الثامن، ص 282.

«الزنجية ليست عرقاً بقدر ما هي مرض حقيقي».

ميشليه، تاريخ القرن التاسع عشر، المجلد الثالث، ص 298، 1875.

بعد توسّان لوفرتور وأبطال حرب الاستقلال، لفت كاتب هايتي آخر،

هو ل.ج روزموند، إلى «شخصية أنتينور فيرمان الكريمة» التي تستحقّ التمييز والإعجاب[1].

شغل فيرمان من 1880 إلى 1900 مكاناً مهمّاً في سياسة بلادة، كعالم اجتماع، ودبلوماسي، ورجل دولة.. بالنسبة إلى هذا الرجل العظيم، لم يكن تنظيم الدولة الهايتية، ووضع نظام سياسي واجتماعي، هدفاً مستقلاً بذاته، إنّما يجب أن يخدما «لإعادة تأهيل إفريقيا»[2]. كان يدرك بوضوح أنّ عبء التمييز العنصري الناتج عن فكرة الدونية العرقية لدى الإفريقيين كان يؤثّر أيضاً على سكّان هايتي. كان يؤمن ويقول دائماً إنّ على بلده أن يكون مثالاً جيداً للزنوج الآخرين وللأفارقة. وتساءل ألم يقدّم شعب هايتي الأسود أدلّة على ذكائه وعلى نشاطه[3]؟.

لا يمكن الفصل بين الرجل السياسي والمفكّر الذي ألّف كتاباً بعنوان *مساواة الأعراق البشرية* (باريس، 1885) عرض فيه قرائن تتنافى تماماً مع أفكار الفرنسي غوبينوه. فيرمان يرفض مفهوم *العرق*، الذي يقوم برأيه، على «قدرية بيولوجية وطبيعية...». وقد استند إلى العمل السياسي وإلى خبرته الدبلوماسية آملاً في تحقيق أهداف مثال أفريقاني.

ملاحظات أوّلية حول غوبينوه:

بعض الملاحظات الأوّلية تبدو ضرورية في هذا المستوى من النقاش. في انتقادات فيرمان الأنثروبولوجية في كتابه سنة 1885 اتّهام مباشر لغوبينوه وطروحاته العنصرية. عندما وصل فيرمان إلى باريس، وجد

---

(1) ل.ح. روزموند، *يقظة الوعي الوطني*، المكتبة الهايتية، بورتوبرانس، هايتي، 1932، ص 40.

(2) أ. فيرمان، عن *مساواة الأعراق البشرية (الأنثروبولوجيا الوضعية)*، باريس، كوتيون، 1885، ص 13.

(3) «لكن هل تقدّم هايتي مثالاً بنّاءً لصالح العرق الذي تفتخر بتمثيله بين الشعوب المتحضّرة؟ كيف تثبت امتلاكها للصفات التي تُنكر على السود الأفارقة؟» في المرجع ذاته، ص 13.

في المكتبات الطبعة الثانية من كتاب غوبينوه التي صدرت سنة 1884. هنا تفرض بعض التفسيرات نفسها قبل متابعة تحليلنا لمشاركة فيرمان في الحركة الأفريقانية. يتعيّن خصوصاً أن نتناول بعض النقاط المهمّة في أفكار غوبينوه والتي تسمح بتوضيح حملة فيرمان وفهم مسيرته في الأنثروبولوجيا الوضعية.

كتاب غوبينوه *محاولة في اللامساواة بين الأعراق البشرية* نشر في المرّة الأولى سنة 1853 (المجلّدان الأول والثاني) و 1855 (المجلّدان الثالث والرابع). غوبينوه لم يكن رجل علم بل رجل مشاعر. البيولوجيا، كما نعرفها، لم تكن موجودة. وعلم الوراثة، نحو 1850 ـ لم تكن الكلمة موجودة كذلك ـ كان يقوم بوجه خاص على الملاحظة الاختبارية للتشكّلات الخارجية. لم تتم صياغة أوّل قانون وراثي حيوي أساسي إلاّ سنة 1860 من قبل عالم الطبيعيات الألماني إرنست هاكل (1834 ـ 1919)، وهو دارويني مندفع، العدو اللدود لغوبينوه، ولا تعود قوانين أخرى إلاّ إلى بداية القرن العشرين. غوبينوه مثل معاصريه لا يميّز بين الثقافة والطبيعة.

استند غوبينوه إلى خطاب رائج يتعلّق بتاريخ الرؤى الكبرى في مسار البشرية، والعلوم الطبيعية المطبّقة على الإنسان (بوفون، أعمال الأطبّاء، والعلماء الوظائفيين، وعلماء الأنثروبولوجيا في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر)، خطاب مهتمّ بالتصنيفات كما أراد ليني الذي يعود عمله *نظام الطبيعة* إلى 1735. *المحاولة* هي مجموعة استعارات من التاريخ، ومن العلوم الطبيعية ومن أدب الرحلات. غوبينوه ظهر كمؤرّخ من الدرجة الثانية، وعالم طبيعيات، وأعراق، وأنثروبولوجيا رديء.

غوبينوه، سكرتير السفارة في بيرن، وهانوفر، وفرنكفورت من 1849 إلى 1854، جمع وثائق وكتباً ألمانية كثيرة. يقدّم الكتاب صورة عن نتائج مؤرّخي العلوم اللغوية في ذلك العصر، وليس فقط الفرنسية، بل الأوروبية أيضاً. في هذا العمل، مفهوم العرق، وفقاً للعنوان، هو العنصر الأكبر في

النظام: ولكن ماذا يغطّي؟ عرق: أصناف (كوفييه: العرق الأصفر، العرق الأسود، العرق الأبيض) أو عرق: ثقافة وطنية، غوبينوه لم يتجاوز المعلومات الوظائفية لدى الإنسان التي كانت لسابقيه عالمي «فراسة الدماغ» أو «الأنثروبولوجيا»: إدوارد، لورنس، أو بلومنباخ.

كتاب *المحاولة* هو نتائج قرن من الوثائق والأحكام التي تتعلّق «بالعرق الأسود». غوبينوه يكرّر بهذا الخصوص ما كتبه أو قاله المستعمرون، علماء الطبيعيات، الرحّالون، الإرساليون، الجنود أو التجّار. إذاً لم يتكلّم عن السود إلاّ من خلال ما سمعه أو قرأه. إنّه يستعيد مسألة «دونية» الزنوج، و «تفوّق» الحضارة الأوروبية. وهو يدين «قبح» السود، وغرائزهم «البدائية»، وشخصيتهم «الباحثة عن المتعة» و «كسلهم»، و «عدم قدرتهم على المبادرة الخلاّقة» و «المثابرة في العمل». غوبينوه يتبنّى أيضاً تصنيف عالم الطبيعيات الألماني كريستوف ماينرز (عناصر من التاريخ البشري)[1]: البشرية «لم تكن مؤلّفة سوى من فئتين: الجميلة، أي البيضاء، والقبيحة، التي تشمل كلّ الآخرين». ودارت عدّة نقاشات في نهاية القرن الثامن عشر حول مسألة البشرة والبشاعة، سواء من وجهة نظر فيزيولوجية أو فلسفية. نذكر مثلاً الدكتور لوكات، رئيس قسم الجراحة في مستشفى أوتيل ديو في روان، فرنسا، مؤلّف «دراسة في لون بشرة الإنسان بشكل عام، وبشرة الزنوج خصوصاً، وتحوّل اللون إلى آخر، سواء منذ الولادة، أو نتيجة لحادث»[2].

غوبينوه يستعيد أيضاً توزيع الأنواع لدى ڤيكتور كورتيه دوليل الذي يميّز بين «أعراق» ذكورية و «أعراق» أنثوية: «نعم، هناك أعراق مهيمنة بطبيعتها؛ نعم، هناك أعراق ضعيفة بطبيعتها؛ إذا صحّ القول هناك أعراق من الأطفال، وأعراق من الراشدين، أو أيضاً، حسب الفكرة الصائبة

(1) ليمغو، 1785، الطبعة الثانية، 1789.

(2) أمستردام، 1765.

لصديقي النبيل، السيد ديكتال، يوجد في الصنف البشري جزء مؤنّث وجزء ذكوري»[1]. برأي غوبينوه، الأسود هو أحد القطبين الذي لا تجد البشرية توازنها من دونه: القطب المؤنّث.

إنّ تقسيم البشرية إلى أعراق ذكورية وأعراق أنثوية عرضه للمرّة الأولى، على ما يبدو، غوستاف كليم (تاريخ البشرية الحضاري العام)[2]. وقد أشار إليه غوستاف ديكتال في *أوراق حول العرق الأسود والعرق الأبيض*[3]. كما استعادها أوماليوس دالوي في *الأعراق البشرية أو عناصر في علم العراقة*[4].

زوجة غوبينوه، كليمانس مونروه، كانت من كريول الغوادلوب. وشقيقها كان صديق غوبينوه، وتبادلا مراسلة مهمّة جدّاً بالنسبة إلى الدبلوماسي[5]. غوبينوه استعمل جزافاً وثائق عالم الطبيعيات الإنكليزي جيمس كول بريتشارد: *أبحاث في تاريخ البشرية الطبيعي* التي تُرجمت إلى الفرنسية سنة 1843 (باريس، بايير، 1843، ترجمة الدكتور ف. رولان). فكرّر نصّه حول حجم الجمجمة، وعرض الحوض، وطبيعة الشعر، وشكل الأنف، وألوان البشرة لدى الأعراق المختلفة. من جهة ثانية، يقول لودفيغ شيمان عن كورتيه إنّه «أحد الروّاد الذين وللأسف نسيهم غوبينوه في فرنسا»[6].

سنة 1785، عرض توماس جفرسون في *ملاحظات حول فرجينيا*

---

(1) انظر كورتيه دي ليل، «خطاب في جمعية علم السلالة في باريس، في 25/ 6/ 1847» استعاده ف. كورتيه في *جدول الصنف البشري*، 1849، ص 28.

(2) لايبزيغ، 1843 ـ 1852، عشرة أجزاء.

(3) باريس، 1839.

(4) باريس، برتران، 1845، الطبعة الثانية.

(5) رسائل غوبينوه إلى جول موبروه نشرها ج. غوميه في *دراسات غوبينية*، 1974 ـ 1975، ص ص 77 ـ 136. انظر أيضاً شيمان، *أعمال غوبينوه*، *1910*.

(6) شيمان، مذكور سابقاً، ص 39.

الرأي التالي: «لا يوجد أيّ واقع، وأيّ اختبار يمنعنا من التفكير في أنّ أنواعاً مختلفة من الجنس نفسه قد يكون لها خصائص مختلفة ومتفاوتة. هذا الفارق المؤسف في اللون، وربّما في القدرات، هو حاجز منيع أمام إعتاق العبيد». واستنتج قبل غوبينوه أنّ على البيض أن ينتبهوا من «مزيج الأعراق الذي يؤذي مستوى الجنس البشري وجماله». غوبينوه الذي ينتقد في كتابه الرابع (الفصل السابع) «الغرائز النفعية»، والخبث السياسي، والسوقية «البرجوازية» لدى الأمريكيين الشماليين في العصر الحديث وفي المستقبل، استغرب النجاح الذي حقّقه كتابه في الولايات المتحدة، حيث قام هوتز ونوت بترجمته، فكتب إلى بروكش، في 20/ 6/ 1856: «ألا تقدّر كذلك أصدقائي الأمريكيين، الذين يعتقدون أنّني أشجّعهم على ضرب الزنوج (...)، ولكن لا يريدون ترجمة الجزء الذي يعنيهم من الكتاب»[1].

من 1853 إلى 1884، تاريخ الطبعة الثانية للكتاب، *محاولة في لامساواة الأعراق البشرية* لم يكن معروفاً كثيراً: نحو 500 قارىء في فرنسا، و 150 في ألمانيا. حين كان غوبينوه يكتب، العدو الوراثي لم يكن الألماني، بل الإنكليزي. هناك عشرة تقارير ظهرت بالإنكليزية. ولم تر الطبعة الثانية، التي ظهرت بعد وفاته (غوبينوه توفّي سنة 1882) النور إلاّ سنة 1884، عند دار ديدو، بفضل اهتمام الكونتيسة دي لاتور، الموصى لها بملكية غوبينوه الأدبية والكونت دي باستروه. غوبينوه كان تمنّى منذ 1874 تحضير وإصدار طبعة ثانية من كتابه. لقد كتب من ستوكهولم إلى ألبير سوريل من 1/ 5/ 1874: «كتابي عن الأعراق هو أفضل ما أنتجت (...) والشيء الوحيد الذي سيكون أفضل هو طبعته الثانية التي أحضّرها، والتي ستكون أكبر حجماً، والتي سأتناول فيها الداروينية المنبثقة عن كتابي والإنسان البدائي المنبثق من جنون العلماء الذين

---

(1) من غوبينوه إلى بروكيش، ص 92.

لا يعلمون شيئاً»[1]. لكن المشروع لم يتم، ولم يستطع إنهاءه، كما كتب إلى ماتيلد دي لاتور. بعد ذلك، بين 1896 و 1900، ظهرت لدى الناشر فرومان في شتوتغارت، وفي ثلاثة أجزاء، الترجمة الألمانية للودفيغ شيمان.

توجد مقدّمة لغوبينوه في الجزء الأوّل من طبعة 1884، وقد كُتبت في الشهر السابع من 1877. هذه المقدّمة تلقي الضوء على نشأة الكتاب والمكان الذي يضعه فيه صاحبه في نتاجه الأدبي. كما تشرح بوضوح طريقة الدمج التي قام عليها تأليف أعماله الثلاثة حول التحليل العرقي: *المحاولة...*، *وتاريخ الفرس*، *وقصّة أوتار جارل*. أخيراً هي تشهد على المثالية الذاتية التي تكمن وراء هذا العمل، ذو الطبيعة التاريخية تحديداً، لأنّ غوبينوه صرّح سنة 1877، أنّه لا يهتم للاكتشافات الحديثة في علوم ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا وأنّه لن يغيّر صفحاته التي عرض فيها، في 1853 و 1855، «معتقده» و «نظريته».

لننهِ هذه الملاحظات الأوّلية بالنص الذي يتناول فيه المؤلّف دولة هايتي:

«في سانتو دومينغو، الاستقلال تام. لم يعد يوجد فيها مبعوثون يمارسون سلطة خفية ومطلقة؛ لم يعد يوجد وزير أجنبي يعمل بذهنية أوروبية وكلّ شيء ترك لمبادرات الشعب المحلّي. هذا الشعب، في القسم الإسباني، يتألّف من الخلاسيين. لن أتكلّم عنهم. هؤلاء الناس يبدو أنّهم يقلّدون، قدر المستطاع، ما هو الأسهل في حضارتنا: ويميلون، مثل كلّ الخلاسيين، إلى أن يذوبوا في فرع شجرتهم العائلية التي تكون مدعاة لفخرهم؛ وهم أيضاً مستعدّون، إلى درجة معيّنة، لممارسة عاداتنا. ليسوا الجهة المناسبة لدراسة المسألة المطلقة. لنقطع إذاً الجبال التي تفصل جمهورية الدومينيكان عن دولة هايتي.

---

(1) من غوبينوه إلى ألبير سوريل، «رسائل غوبينوه - سوريل»، في *مجلّة التاريخ الدبلوماسي*، 1977، العدد 4، ص 41.

. هنا نجد أنفسنا في مواجهة مجتمع لا تشبه مؤسّساته ما لدينا وحسب، بل أيضاً تتحدّر من أحدث شعارات نضجنا السياسي. كلّ ما أرسته الليبرالية الراقية، منذ ستين سنة، في الجمعيات الأوروبية، كلّ ما كتبه المفكّرون أنصار الاستقلال وكرامة الإنسان، كل بيانات الحقوق والمبادىء، وجدت صداها على ضفاف نهر الأرتيبونيت. لم تبقَ مخلّفات إفريقية في القوانين المكتوبة؛ ذكريات الأرض الحاميّة اختفت رسمياً من النفوس؛ ولم تحمل اللغة الرسمية أيّ أثر منها؛ المؤسسات، أكرّر، هي أوروبية تماماً. لنرَ الآن كيف تتكيّف مع التقاليد.

هذا التناقض صارخ. التقاليد؟ نجدها فاسدة، همجية، وحشية كما في الداهومي أو في بلاد المتخلّفين. حب البربري للزينة ينضمّ إلى اللامبالاة تجاه أناقة الشكل؛ الجمال يكمن في اللون، ورغم كلّ الذهب المقلّد الذي يزيّن مثلاً قطعة ثياب حمراء فاقعة، فليس هناك أيّ أهميّة لنوع القماش؛ أمّا بالنسبة إلى النظافة، فهي لا تشغل بال أحد. هل تريدون الاقتراب في هذا البلد من مسؤول كبير؟ ستجدون زنجياً كبيراً متمدّداً بالمقلوب على مقعد خشبي، رأسه مغطّى بمنديل بال وممزّق وبقبّعة مزيّنة بشرائط ذهبية. وإلى جانب هذه الكتلة من الأطراف يتدلّى خنجر كبير؛ وثوبه المطرّز ليس معه صدرة؛ والجنرال ينتعل خفّين. هل تريدون أن تسألوه؟ هل تسعون لاختراق ذهنه لتقدير طبيعة الأفكار التي تشغله؟ ستجدون الذكاء الأكثر جهلاً يرافقه الغرور الأكثر تخلّفاً، الذي لا يعادله سوى استهتاره العميق والمستفحل. إذا فتح هذا الرجل فمه، سيدلي بكلّ الأخبار العادية التي أرهقتنا بها الصحف منذ نصف قرن. هذا الهمجي يحفظها عن ظهر قلب؛ لديه اهتمامات أخرى، وغرائز مختلفة جداً؛ ولا يملك مفاهيم مكتسبة. يتكلّم مثل بارون دولباخ، يفكّر مثل م.دي غريم وفي الحقيقة، همّه الوحيد هو مضغ التبغ، وشرب الكحول، وقتل أعدائه، ومصالحة المشعوذين. أمّا باقي الوقت، فينام.

البلد مقسوم إلى فئتين، لا يفصل بينهما اختلاف في المعتقد، إنّما

في اللون: الخلاسيون من جهة، والزنوج من جهة. لا شكّ في أنّ لدى الخلاسيين ذكاء أكبر، وروحاً أكثر انفتاحاً. سبق أن لاحظتُ هذا لدى أهل الدومينيكان: الدم الأوروبي غيّر الطبيعة الإفريقية، ويمكن لهؤلاء الناس، إذا اختلطوا بعدد كبير من البيض، وشاهدوا على الدوام نماذج جيّدة، أن يصبحوا مواطنين مفيدين. ولسوء الحظ فإنّ التفوّق في العدد وفي البأس يعود، في الوقت الحالي، إلى الزنوج. وهؤلاء، بالرغم من أنّ جيل أجدادهم، على الأكثر، وحده عرف أرض إفريقيا، لا يزالون متأثّرين بها كلّياً؛ أقصى درجات فرحهم، هو الكسل؛ ومنطقهم الأوحد، هو القتل. بين الفئتين اللتين تتقاسمان الجزيرة، كان الكره الشديد دائماً سيّد الموقف. تاريخ هايتي، هايتي الديمقراطية، ليس سوى سرد من المجازر: مجازر حلّت بالخلاسيين على يد الزنوج، حين يكون هؤلاء أكثر عدداً؛ وبالزنوج على يد الخلاسيين، عندما تكون السلطة بين هؤلاء الأخيرين. والمؤسّسات، مهما تكن جادّة في عمل الخير والإغاثة، لا تستطيع شيئاً؛ إنها تنام عاجزة على الأوراق التي كُتبت عليها؛ ما يسود هناك هو الذهنية الحقيقية للشعب. وفقاً لقانون طبيعي سبقت الإشارة إليه، الفئة السوداء، التي تنتمي إلى قبائل بشرية غير مستعدّة للتمدّن، تضمر كرهاً شديداً لكل الأعراق الأخرى؛ لهذا نرى زنوج هايتي يصدّون البيض بشراسة ويمنعونهم من الدخول إلى أراضيهم؛ كذلك هم يريدون إبعاد الخلاسيين، ويسعون إلى القضاء عليهم. كره الغريب هو الدافع الأساسي للمواطنين المحلّيين. ونتيجة للكسل العضوي لدى هذا الصنف، فإنّ الزراعة مهملة، والصناعة غير معروفة حتى بالإسم، والتجارة تتضاءل بين يوم ويوم، والبؤس، في أسوأ أشكاله، يمنع الشعب من التكاثر، أمّا الحروب المستمرّة، والثورات، والإعدامات العسكرية، فتنجح دائماً في تقليص البلاد. هكذا ستكون النتيجة الحتمية وغير البعيدة لهذا الوضع تصحّر بلد أغنى بخصوبته وموارده الطبيعية في الماضي أجيالاً من المزارعين، وترك الماعز البرّي يسرح في السهول الخصبة، والوديان الجميلة، والتلال الكبيرة في ملكة الأنتيل. (مستعمرة سانتو دومينغو، قبل تحريرها، كانت من الأماكن التي

وصلت إلى أعلى درجات الرقي بفضل ثرائها وأناقة تقاليدها. ما صارت إليه هاڤانا بفضل النشاط التجاري، كانت تعيشه سانتو دومينغو على نحو أفضل. وللعبيد المحرّرين دور في ذلك).

أتصوّر لو أنّ شعوب هذا البلد المسكين أُتيح لها أن تتصرّف وفقاً لعقلية الأعراق التي انبثقت منها، حيث لا تكون موجودة تحت الوصاية وفي ظلّ المعتقدات الغريبة. ربّما لكانت شكّلت مجتمعها بحرّية تامّة متّبعة غرائزها الخاصة. عندها لكان تكوّن، بدرجات متفاوتة من الفطرية، ولكن ليس من دون بعض مظاهر العنف، انفصال بين اللونين.

لكان الخلاسيون أقاموا عند ضفاف البحر، للحفاظ على علاقات مع الأوروبيين يسعون إليها دائماً. وتحت إدارة هؤلاء، كانوا سيصبحون تجاراً، سماسرة خصوصاً، ومحامين، وأطبّاء، يشدّون الأواصر فيما بينهم، ويتخالطون أكثر فأكثر، ويتحسّنون تدريجياً، ويفقدون، في نسب معيّنة، الشخصية الإفريقية.

أمّا الزنوج فينسحبون إلى داخل البلاد، ويؤلّفون مجتمعات صغيرة شبيهة بالتي شكّلها في ما مضى العبيد السيمارّون في سانتو دومينغو، والمارتينيك، وخصوصاً كوبا، التي تقدّم أرضها الشاسعة وغاباتها الكثيفة أماكن لجوء أكثر أمناً. هنا، وسط منتوجات البساط النباتي الأنتيلي المتنوّع والمتألّق، لكان الأسود الأمريكي، مزوّداً بوفرة وسائل العيش التي تؤمّنه لها بتكاليف لا تذكر أرض غنية، لكان عاد بكلّ حريّة إلى هذا النظام الأبوي الطبيعي جداً بالنسبة إلى أجدادهم الذين لم يقمعهم بعد الغالب المسلم في إفريقيا. لكان الميل إلى العزلة وفي وقت واحد سبب هذه المؤسّسات ونتيجتها. ولكانت هذه القبائل بعد تشكّلها أصبحت غريبة ومعادية الواحدة منهم للأخرى، ولكانت الحروب المحليّة الحدث السياسي الوحيد في مختلف المقاطعات، والجزيرة، المتوحّشة، غير المأهولة جيّداً، وحيث الزراعة في وضع رديء، لكانت حافظت على شعب مزدوج، هو الآن محكوم بالاختفاء بسبب قوانين ومؤسسات لاعلاقة لها بهيكلية ذكاء

الزنوج، ومصالحهم، وحاجاتهم»[1].

المقاومة الهايتية:

عدّة باحثين، في أوروبا ـ خصوصاً في فرنسا ـ وأميركا الشمالية، تبنّوا مثل غوبينوه، دونية السود القائمة على معطيات بيولوجية وعدم قدرتهم على الاندماج بالحضارة. في فرنسا، كثيرون استندوا إلى المادة «زنجي» في القاموس الكبير الشامل من بيار لاروس، الذي أراد «إثبات تفوّق الجنس الأبيض على الجنس الأسود»[2]. بين الذين اتّبعوا هذا التيار العنصري، ترد شخصيات مثل إرنست رينان، وغوستاف لوبون، وليو كينيل، وجول فيري، وليون بلوم.

المفكّرون الهايتيون في تلك الفترة ـ نهاية القرن التاسع عشر ـ رفضوا كلّ النظريات التي تحاول عرض الدونية العرقية وإثباتها. فتحرّك شعراء، وكتّاب، ورجال سياسة للمطالبة بمساواة «الأعراق» وخصوصاً لتكريم هايتي: «الشمس التي ترتفع عند الأفق» (ل.ج. جانفييه).

قام نوع من التوافق بين أنصار السود ومعارضيهم، الزنوج أو «الخلاسيين» لتمجيد بلدهم، هايتي، التي كانوا يعتبرونها «طلعة إفريقيا على طريق بوّابة الذهب». ج.ن. ليجيه وهانيبال برايس تناولا رسالة هايتي المقدّسة وهي تأهيل «العرق الأسود» و «تجديد» الشعوب السوداء. وقدّم الهايتيون أنفسهم «كفرع من العرق الإفريقي الكبير».

أكّد روش غرلييه سنة 1891: «العرق الأسود قادر، مثل الأعراق الأخرى، على تحقيق كلّ التطوّرات المعنوية والمادّية ولم ينقصه حتّى الآن سوى الظروف المناسبة لدفع نموّه في كل الاتّجاهات»[3]. الدبلوماسي

(1) غوبينوه، *محاولة في لامساواة الأعراق البشرية*، في *أعماله الكاملة*، باريس، غاليمار، مجموعة لابلياد، 1983.

(2) بيار لاروس وزمنه، منشورات لاروس، 1995، ص ص 337 ـ 338.

(3) *دراسات اقتصادية حول هايتي*، باريس، 1891، ص 29.

هانيبال برايس يقول إنّه يحمل اسم جندي من البحرية البريطانية. ويؤكّد أنّه «خلاسي، هايتي، وريث محاربي 1802 ـ 1803». ويتناول في مقدّمة كتابه عن *تأهيل العرق الأسود من قبل جمهورية هايتي* (بورتو برانس، 1900) «ذكريات تملأني فخراً»: أبناء جدّة أمّه، الإخوة الخمس بوبات، كانوا عبيداً ماتوا في يوم واحد «في حملة الفرسان التي لا تُنسى والتي قادها ضد *لحد السكّان الأصليين* قريبهم، غابار الخالد... الذي أُعطي في ساحة المعركة اسم غابار الشجاع». وختم مفتخراً: «لا، أنا لا أخجل من الدم الإفريقي الذي يجري في عروقي؛ لا، لن أحتقر أصلي، العرق الإفريقي، لأنّ منه، خصوصاً، يصلني كلّ ما يحمل إليّ التاريخ من مجد وفخر. أنا من هايتي، قبلة الشعب الأسود، البلد الذي توجد فيه الحقول المقدّسة ڤيرتيير، وكريت آبيارو، وراڤين آكولوفر، ولحد السكّان الأصليين إلى حيث يجب أن يحجّ على الأقل مرّة في حياته، كلّ إنسان يجري في عروقه دم إفرقي؛ لأنّ هنا أصبح الزنجي إنساناً؛ هنا حطّم أصفاده، وقهر الرق إلى غير رجعة...».

هانيبال برايس عاهد نفسه على أن ينتقد كتاب السير سبنسر سانت جون، الوزير الإنكليزي السابق في هايتي: *هايتي أو الجمهورية السوداء*[1]. هذا الكتاب الذي وضعه دبلوماسي نجح في عمله خلال اثنتي عشرة سنة في بورتو برانس بدا نقداً لاذعاً وعنيفاً ضد هايتي والهايتيين. لاحظ هانيبال برايس أنّ المؤلّف كان يظهر «بلداً تنخره الرذائل، ويسكنه متوحّشون من آكلي لحوم البشر»[2].

سفير المملكة المتحدة السابق أكّد كخلاصة لمرافعته: «أنا الآن من رأي الذين ينكرون على الزنجي أنّه استطاع بناء حضارة خاصة: ولو حصل على أفضل تربية، سيبقى دوماً نوعاً أدنى من الناس»[3].

---

(1) لندن، 1889.

(2) *عن إعادة تأهيل...*، ص 698.

(3) *هايتي أو الجمهورية السوداء*، ص 132.

هانيبال برايس، الذي أصبح وزيراً مطلق الصلاحية لجمهورية هايتي لدى حكومة الولايات المتحدة سنة 1890، اكتشف أنّ صورة هايتي التي رسمها سبنسر سانت جون كان يعتبرها «عدد كبير من الناس» في أمريكا الشمالية «صورة صادقة للجمهورية السوداء»[1]. وفي الولايات المتّحدة حاول برايس أن يدحض ادّعاءات السفير الإنكليزي في كتاب.

في المقدّمة التي كتبت بعد موته، يمكننا أن نقرأ: «وعندما شعر بأولى عوارض المرض الذي خطفه بسرعة، بدل أن يستريح، ضاعف مجهوده في العمل، فكان يكتب حتّى ساعات متأخّرة من الليل، وأحياناً حتّى الصباح، بالرغم من نصائح طبيبه وأفراد عائلته. كان يفعل ذلك، كما كان يقول، خشية من الموت قبل إنهاء الكتاب، للأهميّة التي كان يوليه إياها واعتقاده أنّه بنشره، سيؤدّي خدمة لبلاده».

قبل مماته، في 1/ 1/ 1893 في بروكلين، تمنّى هانيبال برايس «أن يُنشر الكتاب بأسرع ما يمكن». لكن العمل لم يعرف طريقه إلى المطبعة إلاّ بعد سبع سنوات، في بورتو برانس، سنة 1900. وقد تمّ نشره بفضل الجهود المشتركة لوريثيه هـ. برايس، محام وتوماس برايس، مهندس، مع تشارلز م. دوبوي (مترجم) وج. فيرّولوه (ناشر).

أمّا أنتينور فيرمان، وبالرغم من انشغالاته السياسية العديدة، رأى من الضروري أن يردّ على طروحات غوبينوه العنصرية.

رجل في مهمّة: أنتينور فيرمان

رجل السياسة:

سنتناول باختصار شخصية أنتينور فيرمان قبل أن نغوص في ردّه الشهير على نظريات غوبينوه العنصرية. كان جوزيف أنتينور فيرمان من إقليم

(1) هـ. برايس، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 701 ـ 702.

الشمال في هايتي. لقد ولد في الرأس الهايتي في الشهر العاشر من 1850 وأصبح على التوالي أستاذاً، ومحامياً، وصحافياً. أسّس جريدة *مراسل الشمال* سنة 1878. بدأ حياته الدبلوماسية سنة 1884 برئاسة سيلفان سالناف (1867 ـ 1869)، كمفوّض لهايتي في أعياد كاراكاس. أقام في باريس حتى سنة 1888 وعقد صداقات متينة في فرنسا.

سقوط الجنرال ليزيوس فيليسيتي سالومون في 10/ 8/ 1888، تبعته حرب أهلية. فيرمان أصبح وزيراً ـ مستشار العلاقات الخارجية لحكومة الشمال الانفصالية. مقتل الجنرال سيد تيليماك ـ خلف سالومون المفترض ـ تبعه نفي فرانسوا د. ليجيتيم (1888 ـ 1889) فقط بعد أشهر من انتخابه رئيساً الذي سبقه تفتيش السفينة جمهورية *هايتي*، وكانت ترفع علم الولايات المتحدة، في 16/ 12/ 1888.

الجنرال فلورفيل إيبوليت، الملقّب بمابيال (الرهيب)، زعيم الأقاليم المعارضة (الشمال، الشمال الغربي وأرتيبونيت) استلم الحكم في الشهر 12 من 1889 واحتفظ به حتى موته في 24/ 3/ 1896. وقد كلّف أنتينور فيرمان بالاهتمام بالنشاط الدبلوماسي وبالشؤون المالية. كان دين البلاد الداخلي يصل في تلك الفترة حتى 20 مليون دولار ـ ذهب، وهو «مبلغ هائل». وقد حاول أن يكافح التزوير، ونقص الإحصاءات الاقتصادية والتجارية.

اهتمّ فيرمان على الصعيد الدولي بمعالجة مشكلة الحدود مع جمهورية الدومينيكان. فوقّعت *اتفاقية تومازو* في 5/ 2/ 1890 مع الجمهورية المجاورة للتحكيم بشأن الخلافات الحدودية. فيرمان أرسل مندوباً هايتياً، هو هانيبال برايس، ليشارك في اجتماع واشنطن حيث وقّعت اتفاقيّة التحكيم في 28/ 4/ 1890. المادة الأولى كانت تنص على أنّ البلدان التالية، هايتي، بوليفيا، الإكوادور، غواتيمالا، هوندوراس، نيكاراغوا، السلفادور، الولايات المتحدة، البرازيل، «المجتمعة في هذا المؤتمر تعتمد التحكيم كأحد مبادىء القانون الدولي الأمريكي، لمعالجة المشاكل،

والخلافات والنزاعات التي قد تظهر بين اثنين أو أكثر من هذه البلدان»[1].

انضباط الوضع المالي سنة 1890 أثار عدواة كبيرة من جهة بعض السياسيين المستفيدين من الفوضى التي أثروا خلاها. جان برايس ـ مارس، في وقت لاحق، أشاد بحرارة بالعمل الذي أنجزه أنيتنور فيرمان عندما كان وزيراً للمالية. لقد لخّص الإنجازات التي قام بها رجل الدولة الكبير بهذه العبارات: «أوّل هدف عيّنه في هذه المهمّة هو إعادة النظام إلى هذا القسم من الإدارة، وتنظيم خدمات جبايات الضرائب ونفقات الدولة. كما أعاد تأهيل جهاز جمارك الجمهورية بإدخال عناصر لا غبار عليهم من النواحي الثلاث الجدارة، والنزاهة، والاستقامة، في كلّ مستويات الهرمية. في مصرف هايتي الوطني، أي صندوق الدولة، طلب تعديلاً في النسبة المئوية المقتطعة في خدمة التحصيل والدفع لحساب الإدارة، وحصل غلى ما أراد. هذه الحركة الإصلاحية سرعان ما أثبتت فعاليتها. فأخذت الإيرادات كلّ شهر في الازدياد وأصبحت تخصيصاتها أكثر عقلانية.

نتج من كلّ ذلك تجدّد النشاط في الأعمال، واندفاع جديد في التجارة. وبعد إعادة النظام والانتظام إلى العمل الإداري، صار بإمكان فيرمان أن يعني بسهولة بالتزامات الدولة. فأعاد خدمة الدفع العادي لقسائم دين الدولة الخارجي المتأخّر، ودفع سندات الخزينة المؤجّلة. وحلّ مشكلة دفع رواتب موظّفي الإدارة من دون اللجوء إلى قروض مرتفعة قصيرة الأجل. كلّ هذه التصحيحات المالية والاقتصادية تحقّقت خلال وقت قصير فارتفع رصيد الدولة. وانعكست النتيجة عبر الارتفاع التدريجي لقيمة سندات الدين الخارجي في بورصة باريس[2].

(1) في ج.ج. بنجامين، *دبلوماسية أنتينور فيرمان...*، باريس، 1960، ص 69.

(2) أ. فيرمان، *مدافعة*، ص ص 41 ـ 46، ذكره ج. برايس مارس، *أنتينور فيرمان*، ص ص 247 ـ 248، في ر. غايار، *الجمهورية القاضية*، الجزء الأوّل، ص 184، الهامش 10، ص 345.

أحد المؤرّخين الهايتيين أدلى هو أيضاً برأيه بمرور فيرمان في وزارة المالية: «ما يبدو أنّه يبرّر إلى حدّ معيّن ثقة وزير المالية والعلاقات الخارجية والكثير من زملائه، هو الوضع الخاص والمرضي لمالية الدولة.

بفضل السياسة الاقتصادية الحكيمة التي حقّقها السيد فيرمان، بفضل حسّ التنظيم ومبادىء النزاهة التي عمل على إدخالها إلى مختلف فروع إدارته المالية، بفضل الانتظام الذي تنجز به إيرادات الخزينة التي تتزايد باستمرار، أصبح لدى حكومة هايتي اليوم احتياطي نقدي من 600 ألف قرش (أي 3 ملايين فرنك)، وهذا ما لم تجمعه أيّ من الحكومات السابقة.

في الواقع يجب الاعتراف بهذا الجميل للسيد فيرمان، وحتى ألدّ أعدائه لن ينكروا عليه أنّه، منذ تولّيه الوزارة، لم تكن مالية الدولة أكثر ازدهاراً، ووضع خزينة البلاد أكثر متانة»[1].

قضية ميناء سان نيكولا:

وصل فريدريك دوغلاس في 8/ 10/ 1888 إلى بورتو برانس. في السابق، كان الرئيس غرانت قد كلّفه سنة 1871 بالذهاب إلى جمهورية الدومينيكان، كعضو من لجنة تحقيق تسعى لإلحاق الجزء الشرقي من الجزيرة. سنة 1888، نزل في هايتي كسفير للولايات المتحدة، ولديه كلّ صلاحيات الإدارة الفدرالية للمفاوضة بشأن تملّك ميناء سان نيكولا.

في الشهر الأوّل من 1891، وصل العميد البحري بانكروفت جيراردي، على رأس أسطول، إلى مرسى بورتو برانس. في الواقع، رئيس الولايات المتحدة، بنجامين هاريسون، أرسله مع سفنه ومدافعه لإخافة الحكومة الهايتية. الوزير فيرمان عرف كيف يهدّىء الأجواء. فكتب العميد

(1) برقية بتاريخ 8/ 11/ 1890، في ر. غايار، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 184 - 185، الهامش 11، ص 346.

البحري جيراردي في 2/ 2/ 1891 إلى وزير العلاقات الخارجية لتعيينه مندوباً في اتفاقية حول إيجار ميناء سان نيكولا.

فريدريك دوغلاس وبانكروفت جيراردي قدّما في 21/ 4/ 1891، كتاباً من رئيس الولايات المتحدة إلى السلطات الهايتية:

«بنجامين هاريسون

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

تحية إلى كلّ من ستصلهم هذه الرسالة.

أمنح عبر هذه الرسالة فريدريك دوغلاس، الوزير المقيم وقنصل الولايات المتحدة الأمريكية العام في هايتي، وبانكروفت جيراردي، العميد في بحرية الولايات المتحدة، مطلق الصلاحية للتفاوض مع أشخاص بمثل صفاتهما، مجازين من الحكومة الهايتية وأكلّفهما بعقد اتفاق، بعد قبول وتصديق مجلس شيوخ الولايات المتحدة، بشأن استعمال ميناء سان نيكولا كمحطّة بحرية.

بناء عليه آمر بوضع ختم الولايات المتحدة.

أصدرت بتوقيعنا وختمنا في مدينة واشنطن في التاسع من الشهر الثالث من سنة ألف وثمانمئة وواحد وتسعين، والخامسة عشرة بعد المئة من استقلال الولايات المتحدة.

(توقيع): بنجامين هاريسون

لرئيس

جيمس ج. بلاين

وزير الخارجية.

وثيقة مصدّقة كنسخة طبق الأصل عن الأصلية.

(توقيع): ف. دوغلاس،

بانكروفت جيراردي»[1].

---

(1) أنتينور فيرمان، ذكره ج.ج. بنجامين، المرجع المذكور سابقاً.

، من الملفت للنظر المسؤولية المعطاة لأحد المفوّضين الأمريكيين الشماليين، الزنجي فريدريك دوغلاس، المشهور من جهة ثانية بمواقفه العتقية. نستغرب وجوده هنا، يخدم بكامل طاعته كأداة لسياسة المدافع!

في ردّه في 22 من الشهر الرابع، لفت أنتينور فيرمان المفوّضين إلى أنّ «حكومة هايتي لا تؤجّر أيّ مرفأ أو أيّ جزء من أراضيها، ولا تمنح أيّ امتياز خاص أو حق استعمال لأيّ سلطة، أو دولة أو حكومة»[1]. ورفضه للتنازل عن ميناء سان نيكولا كمحطّة بحرية للولايات المتّحدة يقوم على المادة الأولى في دستور جمهورية هايتي. ووصول مجموعة ثانية من «مراكب حربية قوية» تعود إلى بحرية الولايات المتحدة لم يثنِ عزيمة فيرمان. فريدريك دوغلاس وجيراردي ذكرا هذا الرفض في برقيتهما المرسلة في الرابع والعشرين من الشهر الرابع. هذا الانتصار الدبلوماسي لاقى استحسان الشعب بكامله. غير أنّ أنتينور فيرمان اضطر للاستقالة في 3/ 5/ 1891، تحت ضغط الرئيس إيبوليت و «مراعاة لظروف الوسط السياسي ولتهدئة تذمّرات بعض المتعجرفين في الحكومة»[2].

مرشّح للرئاسة:

سافر فيرمان إلى فرنسا في الشهر العاشر من 1891. وألقى عدّة محاضرات حول تاريخ هايتي، والاستعمار، وحرب الاستقلال، والاقتصاد، والعلاقات الدولية. بعد عودته انسحب إلى الرأس الهايتي ليمارس مهنة المحاماة. بعد موت الجنرال إيبوليت سنة 1896، الرئيس تيرسياس سيمون سام، الذي انتُخب في 1/ 4/ 1896، طلبه من الشهر 12 من 1896 إلى الشهر السابع من 1897، كوزير للمالية وللعلاقات الخارجية. فيرمان، الذي لا يمكن رشوته، أبعد خطر الإفلاس. وكان مع تسمية الجنرال فرانسوا مانيغا كمبعوث فوق العادة ووزير مطلق الصلاحية

(1) أنتينور فيرمان، ذكره ج.ج. بنجامين، المرجع المذكور سابقاً.
(2) انظر بنجامين، ص 93.

في باريس. فقدّم أوراق اعتماده في الإليزيه للرئيس فيليكس فور في 31/ 12/ 1896. وشارك فيرمان في توقيع معاهدة سانتو دومينغو في 3/ 7/ 1895 في المؤتمر البريدي (15/ 6/ 1897).

أرسله الرئيس سام كوزير مطلق الصلاحية إلى باريس ليفاوض بشأن اتفاقات أدّت في 31/ 7/ 1900 إلى الاتفاقية التجارية مع فرنسا[1]. ومنحت الحكومة الفرنسية الرئيس سام رتبة الوسام الأكبر *نجمة بينان السوداء*. خلال محاضرة ألقاها فيرمان في حلقة الوحدة الأمريكية اللاتينية، ركّز على فكرة ضرورة الحفاظ على استقلال هايتي: «جمهورية هايتي المزدهرة والتي تلقى تشجيعاً في نموّها الوطني، هي مسألة حيوية بالنسبة إلى سياسة فرنسا الاستعمارية. إذا انهارت هايتي، فإنّ الغوادلوب، والمارتينيك، وكوبا، وبورتوريكو ستصبح مستعمرات أمريكية»[2]. اهتمامات فيرمان السياسية المتعلّقة بالمستعمرات الفرنسية والإسبانية في الكاريبي لا تنفصل هنا عن الاهتمام الذي كان يصبّه عليها الثائر البورتوريكي بيتانسيس. الدكتور رامون إيميتيريو بيتانسيس (1827 ـ 1898)، ولد في بورتوريكو، ودرس في فرنسا ونال شهادة في الطب من باريس سنة 1856. كان مدافعاً ناشطاً عن استقلال بلاده، وسافر إلى الكاريبي من 1867 إلى 1875: سانتو دومينغو، كوراساو، هايتي، سان توماس، فنزويلا، قبل أن يستقر في فرنسا. من 1875 إلى 1898، وضع مشروع «كونفدرالية أنتيلية» لاقت تأييد أنتينور فيرمان والغوادلوبيين هـ. أدولف لارا وشقيقه أورونو لارا. ثمّ أهملت فكرة الكونفدرالية مع استيلاء الولايات المتحدة على كوبا بعد الحرب الإسبانية ـ الأمريكية الشمالية في 1898 وتوصيات تعديل بلات سنة 1901.

فيرمان المرشّح إلى الرئاسة سنة 1902 اصطدم بمناورات الجنرال

---

(1) انظر بنجامين، ص 98.

(2) من محاضرة لفيرمان، «فرنسا وهايتي»، في بنجامين، ص 131.

نور آلكسيس الذي أراد إيقافه. لكن فيرمان الذي يحميه الأميرال كيليك، لجأ في الشهر السادس من 1902 إلى سفينة حربية هايتية، هي السميرية عرف *بيارو*[1]. هذا المركب أخضع للتفتيش في 3 من الشهر التاسع، السفينة التجارية الألمانية *ماركومانيا*، التي كانت تنقل شحنة من الأسلحة للجنرال نور ألكسيس. وكانت نهاية ثورة 1902 سيئة على فيرمان، فنفي إلى سان توماس مع العديد من رفاقه.

خلال هذه الإجازة، في جزر العذارى، وضع فيرمان مشروع كونفدرالية كاريبية. وقد استند في فكرته إلى التاريخ المشترك لهذه الجزر، وأيضاً إلى هويتها، واقتصادها، ومصالحها الخاصة. كان يعتقد أنّ مجموعة من الأراضي تشمل كوبا، وهايتي، وجمهورية الدومينيكان، وجامايكا، وبورتوريكو، يمكنها أن تحمي استقلالها بشكل أفضل تجاه القوى الأوروبية. مخطّط الكونفدرالية هذا كانت قد أطلقته منذ 1885، شخصيات من المنطقة مثل الدكتور بيتانسيس وتوريس كايسيدو. وكان مؤتمر واشنطن سنة 1907 قد نظّم اتحاداً لأمريكا الوسطى يضمّ البلدان الستة: غواتيمالا، كوستاريكا، سان سالفادور، هوندوراس، نيكاراغوا، باناما. في كتابه *رسائل من سان توماس*، دافع أنتينور فيرمان عن مشروع *كونفدرالية أنتيلية* أمام الكثيرين من رجال السياسة في المنطقة. فتلقّى موافقة ودعم الغوادلوبيين هـ. ـ أدولف لارا، مدير جريدة *النوفليست*، وشقيقه أورونو لارا، صحافي ومؤرّخ. فيرمان أعطى إشارة التمرّد في الشهر الأوّل من 1908 لقهر الرئيس نور ألكسيس. ونزل في منطقة لير روج للمشاركة في المعارك. بعد وفاة الجنرال جان ـ جومو، رئيس جماعته، عاد فيرمان إلى المنفى من جديد. لكن إزاحة نور ألكسيس وانتخاب الرئيس أنطون سيمون، أحد أصدقائه، أعاداه إلى هايتي. وقد سافر إلى هاڤانا كوزير مطلق الصلاحية في 7/ 6/ 1910. في كوبا، أقام صداقة مع خوسيه مارتي

(1) اللواء البحري هامرتون كيليك على متن المركب عرف *بيارو* الذي أطلق في هال سنة 1896، مركب أميرال الأسطول الهايتي.

ونشر فكرته عن الكونفدرالية الكاريبية. كما شارك في تأسيس *لجنة مركزية للمجتمعات الملوّنة* مع شخصيات مثل خوان غوالبرتو غوميز - عاد من المنفى سنة 1895 - والدكتور بيدرو بيتانكور، وإميليو دومنغيز، وخوسيه ماريا أغيري، وأنطونيو ماسيو.

سنة 1910، أُرسل فيرمان إلى لندن كمبعوث فوق العادة، وقدّم أوراق اعتماده إلى الملك جورج الخامس في 14/ 10. وانسحب إلى بورتوريكو في الشهر الأول من 1911، ثمّ إلى سان توماس بعد ثورة الشهر الثامن من 1911 وانتخاب الجنرال سينسينواتوس لوكونت، وهو زعيم *لجنة ثورية* مركزها الغونايف. أنتينور فيرمان مات مرهقاً بعد ذلك بوقت قصير، في السنة ذاتها 1911.

بينما كان في المنفى، في سان توماس، ألّف أنتينور فيرمان سنة 1905 كتاباً بعنوان *روزفلت وهايتي*...[1]. وتناول في خلاصة ما كان يسميه «مسؤوليتنا الوطنية». وكان يظهر آنذاك كمنسّق للتيارات الديمقراطية وقد حدّد بوضوح مفهومه للديمقراطية:

«البلد يسقط وينهار، منزلقاً في خندق يؤدّي إلى الاضمحلال الكلّي. كي نخرج منه، يتعيّن على الذين يحملون لواء الحريّات السياسية ألاّ يعتقدوا أنّ مصلحتهم هي في قمع أكثرية مواطنيهم، سواء على الصعيد الاجتماعي أم على الصعيد السياسي؛ وعلى الذين يطمحون إلى المساواة الحقيقية، وغير الأسطورية والمصطنعة، ألاّ يبحثوا في خنق الحريّات العامة، عن الوسيلة التجريبية في تخفيض كلّ الرؤوس إلى المستوى ذاته. الديمقراطية من دون حريّة من العبثية كديمقراطية من دون مساواة... مع الحريّة، والمساواة، اللتين نضمّ إليهما الأخوة، واستبعاد الأحقاد والأحكام المسبقة، تزدهر هايتي. لقد آن لها الأوان».

---

(1) أ. فيرمان، *السيد روزفلت، رئيس الولايات المتحدة، وجمهورية هايتي*، باريس ونيويورك، 1905

كان فيرمان يوصي بالمصالحة، واجتماع العناصر الديمقراطية، متمثلاً بالتجمّعين الليبرالي والوطني في السنوات 1870 ـ 1880. كان الأول يطالب «بالسلطة للأكثر كفاءة» والثاني «بالسلطة للأكثر عدداً». فيرمان، بعد لويس جوزيف جانفييه[1]، كان يركّز على أهميّة التشاور لتشكيل طليعة جديدة، ولتكامل الليبرالية والوطنية. كانت هايتي في وضع سيّىء، والدليل فوضى الرئاسات: ستّة رؤساء، بين الشهر الثامن من 1911 والشهر السابع من 1915، منهم أربعة في سنتين، وحكومات توالت على القصر الوطني. الرئيس ڤيلبران غييوم سام، كان مستبدّاً حمله الإعصار وأوقعه انقلاب في الشهر السابع من 1915. وقد فتكت به الجماهير، بعدما اعتبرته مسؤولاً عن قتل مئات المساجين السياسيين. هكذا فتح الطريق أمام الولايات المتحدة التي كانت تريد وضع البلاد تحت مراقبتها المالية. فوصلت المدفعيات البحرية واحتلت الولايات المتحدة البلاد عسكرياً لمدّة عشرين سنة.

التأكيد على المساواة:

إنّ صدور الطبعة الثانية من كتاب غوبينو (اللامساواة بين الأعراق البشرية) أثار تعليقات كثيرة في هايتي. خلال إقامته في باريس كدبلوماسي، قرأ فيرمان الكتاب وفكّر أوّلاً في التدخّل لدى جمعية *الأنثروبولوجيا*، التي كان أصبح عضواً فيها في 17/ 7/ 1884، بعد تقديمه من قبل مورتييه وجانفييه ـ هذا الأخير من أصل هايتي ـ وقد عبّر عن أفكاره:

«كان في وسعي، منذ نهاية السنة الماضية، عند استعادة أعمالنا، إثارة نقاش في داخل الجمعية لإلقاء الضوء على المسألة، والتفكير على الأقل في الأسباب العلمية التي تسمح لأكثرية زملائي العلماء بتقسيم الصنف البشري إلى أعراق عليا وأعراق دنيا، لكن أما كنتُ سأُعتبر دخيلاً؟

(1) ل.ج. جانفييه، هايتي للهايتيين، باريس، 1884.

أما كان سيصار إلى محاولة مؤسفة لإسقاط طلبي بمجرّد أن أطرحه؟ إنّ أبسط قواعد المنطق كانت تبرّر لي شكوكي»[1].

بعد هذا التردّد، فضّل أن يبدأ بتأليف كتاب، صدر في باريس، في الشهر الخامس من 1885.

كان فيرمان من أنصار «وحدة الصنف البشري»، وتردّد في الاختيار بين وحدة الأصل وتعدّديته. والمسألة بالنسبة إليه، لم تكن في تحديد موقفه من هذين الطرحين، بل في تقييم مفهوم «العرق» الذي كان يرى أنّه «مصطلح غير كامل». وركّز على «اختلاط الأفكار» الذي كان سائداً:

«إن كانت فكرة الصنف التي تبدو دقيقة جداً في علم الحيوان، أمكن نقضها، وتقريباً زعزعتها من قبل نظرية التحوّلية، فإنّ فكرة العرق، غير الواضحة أصلاً، وغير الدقيقة، عندما يتعلّق الأمر بالحيوان، تصبح مظلمة، ومبهمة، ومخادعة، وحتى وهمية، عند تطبيقها على الإنسان»[2].

كيف يتم تصنيف «الأعراق البشرية»؟ فيرمان يتناول هذه الانتقادات مستنداً إلى ألكسندر فون همبولت:

«سواء اتّبعنا تصنيف معلّمي بلومنباخ إلى خمسة أعراق (القوقازي، والمنغولي، والأمريكي، والإثيوبي، والماليزي) أواعترفنا مع بريتشارد بسبعة أعراق (الإيراني، والتوراني، والأمريكي، وعرق الهوتنتوت والبوشيمان، وعرق الزنوج، وعرق البابو، وعرق الألفورو)، يبقى الصحيح أنّه ليس هناك أي فارق جذري ونوعي، وأيّ مبدأ تقسيم طبيعي ودقيق يحكم هذه المجموعات»[3].

---

(1) أ. فيرمان، عن *مساواة الأعراق البشرية*، باريس، كوتيون، 1885، ص 9.

(2) أ. فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 127، *إسناد لروزني*، *تقرير المؤتمر الدولي لعلوم الأعراق المنعقد في باريس سنة 1878*، ص 750.

(3) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 128، إسناد لِ أ. دي همبولت، كوزموس، الجزء الأول، ص 427.

تكهّن فيرمان بنقد علمي في القرن العشرين، «حيث السود، والبيض، والصفر، والسمر سيقولون كلمتهم»[1]. وهذا سمح له بالبحث في مقارنات «علم الجمجمة» المأخوذة من حسابات دي بروكا وتوبينار، والزاوية الوجهية لدى كامبير، والتفرّع الثنائي لدى ريتزيوس، والمؤشّر الأنفي، وزاوية التكافؤ لدى كاترفاج.

كما أدان «التسميات العشوائية: العرق الآري، والعرق الهندي - الأوروبي، والقوقازي. ولا توجد بشرة حمراء»[2]. ما هو تفسير «الهرمية المصطنعة للأعراق البشرية»؟ برأيه:

«الطرح المناهض للفلسفة والعلم الزائف لعدم المساواة بين الأعراق لا يقوم إلاّ على فكرة استغلال الإنسان للإنسان. وحدها المدرسة الأمريكية كانت منسجمة مع نفسها، بتأييدها لهذا الطرح؛ لأنّ أتباعها لم يخبّئوا مصلحتهم الأساسية في الترويج لها»[3].

بعد تحليل العوامل اللغوية والجسدية (القامة، مدّة الحياة، الجمال)، والخلاسة، والداروينية، لاحظ فيرمان أنّ «العلماء يسخرون ممّن ينتظرون منهم الحقيقة»[4]. ويضيف: «استنتاج علماء الأنثروبولوجيا هو إذاً خاطىء كما لدى الفلاسفة أو المفكّرين الذين تبنّوا نظرية لا مساواة الأعراق أو أيّدوها».

وأنهى بحثه الأنثروبولوجي مارّاً بكلّ النظريات العنصرية: «بعد استعراضنا لكلّ الحجج التي يمكن تقديمها للدفاع عن نظرية لامساواة الأعراق البشرية، يبدو أنّ أيّاً منها لا تصمد أمام أبسط الامتحانات»[5].

---

(1) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 147.
(2) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 171.
(3) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 204.
(4) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 648.
(5) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 650.

بالنسبة إليه، لم يعد هناك أيّ شك: «من المسموح لنا أن نؤكّد أنّ المساواة الطبيعية موجودة بين كلّ الأعراق»[1]. قال إنّه يجب البحث في التطوّر الاجتماعي، عن سبب اختلافات «التركيب الأخلاقي والفكري الموجود بين مختلف فئات البشرية». وتوقّع فيرمان مستقبلاً لا يعود فيه لمسألة «الأعراق» أي وجود، لأنّ «هذه الكلمة تعني قدرية بيولوجية وطبيعية معيّنة، ليس لها أي علاقة بدرجة الكفاءة التي تقدّمها لنا مختلف التجمّعات البشرية في أنحاء الكرة»[2].

انتقادات فيرمان هي علامات مهمّة في مرحلة حاسمة من مراحل تطوّر الفكر الزنجي ـ الكاريبي. لقد شكّل فصلاً مع الهيمنة الإيديولوجية لأوروبا الاستعمارية. وكانت أفكاره ضربة قاسية للطروحات العنصرية التي ازدهرت في الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فيرمان هو أوّل زنجي تحرّر كلّياً من النظرية الأنثروبولوجية، ورفض استنتاجات ما يسمّى بالعلم الأوروبي، وأوصى بمسيرة مستقلّة وذات سيادة للسود، الكاريبيين والأفارقة على حد سواء:

«لو أنّ العلم، الذي اعتدتُ على الانحناء أمامه، يكشف لي أخيراً كلمة السر، أو الخيط الخفي الذي يجب امتلاكه لإجبار الطبيعة على التكلّم... لأصغيت مذهولاً، ولكن متحفّظاً. لكن، إذاً بالرغم من كلّ الإرادة الطيبة، من المستحيل اختراق ألغاز الأنثروبولوجيا؛ إذاً هي الأنثروبولوجيا، خبّأت كعاهرة نزقة كلّ فوائدها، لتجعل هالة تضيء حول رأس مورتون، ورينان، وبروكا، وكاروس، وكاترفاج، وبوكنر، وغوبينوه، وكلّ الكتيبة الفخورة والمغرورة التي تدّعي أنّه مقدّر للإنسان الأسود أن يكون موطىء قدم تحت سلطة الإنسان الأبيض، سيكون من حقّي أن أقول لها، لهذه الأنثروبولوجيا الكاذبة: لا، لستِ علماً»[3].

---

(1) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 650 ـ 651.

(2) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 661.

(3) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً، ص 230.

إذاً بفضل فيرمان، حاولت الحركة الأفريقانية أن تخرج نهائياً من التناقضات الأمريكية الشمالية. بدا أنتينور فيرمان مفكّراً مميّزاً، ضرب جذور تفكيره وعمله في الركيزة التاريخية لبلده، هايتي، المستقل منذ 1804، والذي كافح طويلاً من أجل البقاء.

إنّ رؤية أنتينور فيرمان شبيهة بنوع من الرسالة، «الزنوجية»، حسب المؤرّخ الهايتي بونوا جواكين. في كتابه الأهم سنة 1885، اقترح خطّة طموحة تتجاوز بكثير بناء أمّة حديثة:

«إنّه مجدنا، وفي الوقت ذاته شهادتنا، عدم الوصول أبداً إلى حكم إيجابي أو سلبي بالنسبة إلى قدرات الأسود على حكم نفسه أو على الارتقاء في دوائر الحضارة العليا حسب التطوّر المرضي للأمّة الهايتية أو توقّفها عن النمو، الذي سيكون في الواقع تراجعاً، ضمن مجموعة الشعوب التي تصعد، وتصعد باستمرار، فتغيّر الرديء إلى جيّد، والجيّد إلى الأفضل، تحملها مركبة التقدّم الخاطفة، الضمانة الأكيدة لاكتماليتها اللامتناهية. هذه هي مسؤوليتنا الوطنية»[1].

---

(1) فيرمان، المرجع المذكور سابقاً.

الفصل التاسع

ضابط بحرية من هايتي
في بلاط النيغوس

«إذا وُجد ملاذ في إفريقيا، سيكون المقصد المناسب للعرق البائس بيننا. إنّهم دمويون ولن تُنجز هذه المهمّة إلاّ بفضل مساعي جمعية للاستيطان موجودة أصلاً [الجمعية الأمريكية للاستيطان]؛ لكن جلّ ما يُتوقّع لا يتعدّى ان يكون نجاحاً جزئياً جدّاً. لهذا ينبغي إيجاد منطقة ثانية من اجلهم عندما يصبحون احراراً ومستعدّين للهجرة. إنّ نفور البيض من استمرار وجودهم بينهم يقوم على احكام مسبقة، تقوم بدورها على اختلافات جسدية، احكام لا يبدو انّها ستزول في وقت قريب، إن زالت».

رسالة من جيمس ماديسون إلى لافاييت، 1821

إنّ حالة أثيوبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مهمّ من أكثر من ناحية. كانت الحبشة آنذاك أقدم بلد مستقل في إفريقيا. لقد قاومت بكلّ شجاعة الإمبريالية الأوروبية، لا سيّما في عهد الامبراطور مينيليك الثاني (1889 ـ 1913). من جهة ثانية، كانت الحبشة تشكّل مثالاً في أعين الكاريبيين. كثيرون من الذين يعود أصلهم إلى الكاريبي سافروا

وعملوا هناك، مثل الدكتور جوزيف ڤيتاليان المولود في 4/ 4/ 1868 في مول في غوادلوب، والهايتي بينيتو سيلفان، والكوبي غييرمو إنريكي وإيليسيو[1]. بينيتو سيلفان الذي أصبح فيما بعد موفد إثيوبيا وهايتي إلى المؤتمر الأفريقاني سنة 1900، نسب إلى مينيليك اللقب الفخري «الحامي الكبير للجمعية الأفريقانية».

بدت إثيوبيا رمزاً حيّاً لمؤسّسي «المجموعة الأفريقانية». سنة 1893، مستعيداً فقرة من الكتاب المقدّس في مواجهة الافتراءات الإيطالية، قال مينيليك: «إثيوبيا ليست في حاجة إلى أحد، إنّها تمدّ يديها إلى الله». في ذلك الوقت، كانت إثيوبيا ترمز إلى البلد وإلى القارة الإفريقية. وقد استعمل العديد من زنوج الأمريكتين (ومنهم إ.و. بليدن) هذه العبارة كشعار للحركة الأفريقانية الواسعة.

هنا تدعو الحاجة إذاً إلى توضيح تاريخي لنفهم أكثر تعلّق مؤسّسي الحركة الأفريقانية بإثيوبيا.

الدكتور جوزيف ڤيتاليان، غوادلوبي، ولد في مول في 1868/4/4، وسافر إلى جيبوتي سنة 1899 قبل أن يصبح طبيب الامبراطور مينيليك المقرّب. سنة 1909، روى مغامرته لمحرّر من جريدة *باريس*: «منذ عشر سنوات وأنا في هذا المنصب قرب الامبراطور؛ كنت أقيم في قرية في البورغوني، وألحّ عليّ بعض الأصدقاء بالذهاب إلى هناك؛ فسافرتُ إلى الحبشيين، عند الغالا، أشقّائي السود؛ كنتُ ذاهباً لأنظّم التجمّع الصحي في جيبوتي. ذات يوم، قصدت رأس ماكونن قاطعاً مسافة اثني عشر يوماً سيراً من الساحل، عبر صحارى الصومال. قمتُ ببعض

(1) انظر أورنو لارا، *الغوادلوب في التاريخ*، منشورات لارماتان، أعيد نشر هذا الكتاب الذي يعود إلى سنة 1921، في 1979 وفي 1999، باريس، ص ص 304 ـ 305.

العلاجات، وأصبحتُ طبيب راس ماكونن ثمّ مستشاره؛ عندئذٍ قال مينيليك: «أنا الملك، والطبيب الماهر لي». فرافقني ماكونن إلى بلاط النيغوس (زعيم الحبشة)، وأصبحتُ طبيب الأخير.

أسرّ إليكَ أيضاً... بأنّ مينيليك عرض عليّ أكثر من مرّة أن أستلم وزارة الصحة العامّة التي أنشأها من أجلي، لكنّي كنتُ أعرف أنّي إن قبلت، سأثير حفيظة روما ولندن. فرفضتُ أن أصبح وزير النيغوس واكتفيتُ بأن أكرّس نفسي لدوري المتواضع، ولكن المفيد أيضاً، دور الطبيب - الإرسالي».

أورونو لارا، في كتابه الغوادلوب...، يعلمنا أنّ: «جوزيف ڤيتاليان، بعد مغادرته إثيوبيا منذ 1910، يقيم في باريس؛ منح وسام جوقة الشرق برتبة فارس، وترشّح لانتخابات مجلس الشيوخ (1912) والانتخابات النيابية (1919) في الغوادلوب.

خلال حرب 1914 - 1918، كان مدير «البيت الاستعماري» (1915 - 1919)، الذي أسّسته في باريس هيئة *المساعدة* والدعم الاستعماري، لجنود المستعمرات[1].

كان الفضل في توحيد الامبراطورية الحبشية واستقلالها يعود إلى كاسا هايلو، الذي أصبح الامبراطور تيوودروس الثاني وافتتح في عهده (1855 - 1868) إثيوبيا الحديثة. فأخضع الراس لسلطته (الأمراء الحاكمين) في مختلف الأقاليم الإثيوبية (تيغري، بيجيمدير، غوجام، سيميان، وولو، شووا. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان

(1) المرجع ذاته، ص 305.

الإقليمان أمهرة والتيغري نقطة انطلاق توسّع الحكومة الامبراطورية. خليفته كاسا ميرشا، خلال عهده ـ يوهانس الرابع (1872 ـ 1889) ـ صدّ الغزوات المصرية والمهدية من السودان. وبعده استعاد الامبراطور مينيليك الثاني توسيع الامبراطورية الإثيوبية، بالرغم من استيلاء الأوروبيين على الكثير من الأراضي الإفريقية.

منذ 1869، واجهت إثيوبيا الاختراقات الأوروبية لأراضيها. مثلاً، مرفأ أساب، على البحر الأحمر، اشتراه الإيطالي جوزيبي سابيتو من ماري تيريز بـ 6000 تالر. ثمّ استعادت شركة روباتينو، وهي شركة ملاحة إيطالية، مرفأ أساب الذي أصبح مستعمرة إيطالية سنة 1882.

في عهد الامبراطور يوهانس، كانت مصر تسيطر على السواحل الإفريقية على البحر الأحمر وخليج عدن. سنة 1882، احتلّها الإنكليز، وسنة 1883، بعد تمرّد المهدي محمد أحمد في السودان، قرّرت إنكلترا سحب قواتها البريطانية والمصرية. هكذا انتهت السيطرة المصرية على المنطقة تحت ضغط البريطانيين وحلفائهم، أوروبيي السودان، ويوهانس امبراطور إثيوبيا. في 3/ 6/ 1884، عقدت معاهدة بين يوهانس والعميد البحري الإنكليزي وليام هيويت، تنصّ على إعادة الأراضي عند الحدود السودانية، التي تحتلّها مصر، إلى إثيوبيا وعلى حريّة الوصول إلى مرفأ ماساوا، الذي كان «تحت الحماية البريطانية»[1]. غير أنّه في 3/ 4/ 1885، فضّل البريطانيون، الذين كانوا يتنافسون مع الفرنسيين على اقتسام إفريقيا، فضّلوا أن يكون مرفأ ماساوا من نصيب الإيطاليين. وهؤلاء لم يمنعوا وصول الإثيوبيين إلى المرفأ وحسب، بل أيضاً دخولهم إلى عمق البلاد، برفعهم الحصون والحواجز. راس ألولا، وهو قائد حربي إثيوبي كبير،

(1) وزارة الشؤون الخارجية، باريس، مذكّرات ووثائق، الحبشة، الملفات 62، 105، و 138؛ المراسلة القنصلية والسياسية، أديس أبابا، بلا رقم؛ أنظر أيضاً أ.ب. وايلد، *الحبشة الحديثة*، لندن، ميتوين، 1901، ص ص 35 و 472 ـ 474.

أوقفهم في دوغالي في الشهر الأول من 1887. وهكذا انثنى الإيطاليون وحجزوا الساحل الإثيوبي. فطلبوا وساطة المملكة المتحدة، لكن يوهانس، في رسالة إلى الملكة ڤيكتوريا(1)، لم يقبل أيّ تجاوز لمعاهدة 1884.

في الشهر الثالث من 1889، خلال معركة مع مهديي السودان، أصيب الامبراطور بجرح مميت. وبالرغم من انتصار قواته، انهار جيشه كلّياً. في الوقت ذاته، كان الإيطاليون قد تقدّموا في داخل البلاد. سنة 1889، أقاموا مستعمرة إرتيريا في الشمال، وكانت عاصمتها أسمرة(2). مينيليك، حاكم إقليم شووا (1865 ـ 1889)، تفاوض من جهته مع الإيطاليين، عبر الكونت بييترو أنطونيللي، ممثّل إيطاليا في بلاطه. هذا الأخير كان يؤمّن له الأسلحة النارية والأطبّاء. من جهة ثانية وبفضل علاقاته، حصل مينيليك على عدّة مناطق مزدهرة: أروسي، وهارار، وكولو، وكونتا في الجنوب والجنوب الغربي، وكذلك غوراج والاغا في الجنوب الغربي(3).

في 12/ 5/ 1889، وقّع مينيليك معاهدة سلام وصداقة مع إيطاليا، في ووكال (أو تشالي بالإيطالية). واعترف به امبراطوراً، بينما كانت إيطاليا تتمّ احتلال إريتريا. المعاهدة حُرّرت باللغتين، الأمهرية والإيطالية، لكن معنى النسختين كان يختلف في المادة السابعة عشرة. حسب النسخة الأمهرية، كان يمكن لإثيوبيا أن تستشير السلطات الإيطالية بالنسبة إلى

(1) انظر وزارة الشؤون الخارجية، باريس، شؤون سياسية متفرّقة، الملفّات 22، 23، و 24؛ المراسلة السياسية والتجارية، الحبشة، الملفّات 1، 3، 4، 5، 6، 10، 11، 20، 78؛ انظر أيضاً ج.ل. بورتال، *مهمّتي في الحبشة*، لندن، أرنولد، 1892، ص 158.

(2) انظر إثيوبيا، وزارة الخارجية البريطانية 1؛ وأيضاً وايلد، المرجع المذكور سابقاً، ص 49.

(3) هـ.ج. ماركوس في ل.هـ. غان و ب. دوينيان، *الاستعمار في إفريقيا، 1870 ـ 1960*، الجزء الأوّل: *تاريخ الاستعمار وسياسته، 1870 ـ 1914*، كامبردج، منشورات جامعة كامبردج، 1969، ص ص 422 ـ 424؛ ر. غرينفيلد، *إثيوبيا: تاريخ سياسي جديد*، نيويورك، بريغر، 1965، ص ص 98 ـ 99.

الشؤون الخارجية، بينما الترجمة الإيطالية كانت تجعل رأيها إلزامياً.

في الشهر السابع من 1889، أرسل مينيليك قريبه، راس ماكونن، والدار ـ ميكاييل، حاكم هارار، إلى إيطاليا، للتباحث بشأن تطبيق المعاهدة. في الأول من الشهر العاشر، وقّع ماكونن في روما اتفاقاً إضافياً: يحتفظ مينيليك بلقب الامبراطور، بينما تبقي إيطاليا على سيادتها على مستعمرة البحر الأحمر، وتقرض مبلغ أربعة ملايين لير لإثيوبيا[1].

في الحادي عشر من الشهر العاشر، كريسبي، وزير الشؤون الخارجية الإيطالي، أعلن بكلمات مبطّنة أنّ إثيوبيا أصبحت محمية إيطالية. السلطات الأوروبية وافقت، وأمام لامبالاة الأوروبيين خلال تتويجه، أدرك مينيليك حقيقة الاحتلال الإيطالي. رفضت البلدان الأوروبية التفاوض معه مباشرة، ففرضت إيطاليا نفسها وسيطاً إلزامياً.

في الشهر الأول من 1890، تجاوز الإيطاليون حدود الأراضي التي تنصّ عليها معاهدة 1884، واحتلوا أدووا، وهي مدينة في إقليم التيغري، يحكمها الراس مانغاشا، ابن الامبراطور يوهانس. ورفضوا الانسحاب طالما أنّ مينيليك لا يقبل النسخة الإيطالية من معاهدة ووكال[2].

في رسالة بتاريخ 27/ 9/ 1890 إلى ملك إيطاليا أومبرتو الأول، أعلن مينيليك رفضه القاطع لوضع المحمية الذي كان يراد فرضه على إثيوبيا. وزوجة مينيليك نفسها، الامبراطورة تايتو، دافعت عن الحقوق الإثيوبية، في ردّ على رسالة من السفير أنطونيللي: «تريدون أن تكون إثيوبيا محميّة لكم، لكن هذا لن يتمّ أبداً»[3].

قبل أن ينقض رسمياً معاهدة ووكال في 12/ 2/ 1893، أخذ مينيليك وقته في تجهيز جيشه بالأسلحة النارية، وبضمّ عدّة أراض. في 27/ 2/

---

(1) روسيتي، *تاريخ إثيوبيا الدبلوماسي*، تورينو، 1910، ص ص 45 ـ 47.

(2) وايلد، المرجع المذكور سابقاً، ص 51.

(3) ذكره إ. ويرك، *إثيوبيا: بيدق في الدبلوماسية الأوروبية*، نيويورك، 1936، ص 118.

1893، نبّه القوى الأوروبية وأعلن للإيطاليين: «إثيوبيا ليست في حاجة إلى أحد، إنها تمدّ يديها إلى الله». كان قد جمع 8000 بندقية و 28 مدفعاً[1].

اندلعت الحرب بين إيطاليا وإثيوبيا مع تمرّد الزعيم الإريتري باتا هاغوس سنة 1894، ضد الهيمنة الإيطالية. بعد ذلك، في الشهر الأول من 1895، سيطر الإيطاليون على مقاطعة التيغري، التي يحكمها راس مانغاشا. بعدما أمر مينيليك بالاستنفار العام في 17 من الشهر الثاني عشر، سار مع جيشه نحو الشمال، حيث حقّق عدّة انتصارات، ودفع الإيطاليين حتّى أدووا.

الإريتريون تحالفوا مع مينيليك ضدّ الإيطاليين. كان جيش الامبراطور يتألّف من 50 ألف رجل مسلّح، ضد 17 ألف جندي عدو (من الإيطاليين: 10596 والعساكر ـ جنود إريتريين). خلال معركة أدووا سنة 1896، وكانت انتصاراً ساحقاً لمينيليك والإثيوبيين على الإيطاليين، مات أو جرح أكثر من 40% من عديد الجيش الإيطالي. وأخيراً تمّ التوقيع على معاهدة السلام في أديس أبابا في 26/ 10/ 1896. كانت تغلي معاهدة ووكال وتعترف باستقلال إثيوبيا الوطني[2]. من جهة ثانية كان هناك اتفاقية تنصّ على إعادة الأسرى الإيطاليين إلى وطنهم. وبموجب اتفاق بقي سريّاً، سمح مينيليك للإيطاليين بالبقاء في إريتريا. ورسمت الحدود بين إثيوبيا ومستعمر إريتريا الإيطالية سنة 1900. فقط سنة 1941، مع تحرير إريتريا وضمّها إثيوبيا بعد إحدى عشرة سنة، أي في 1952، استعادت امبراطورية النيغوس حدودها الطبيعية حتى البحر.

بعد شهادتهم على هذا الانتصار الساحق، وفد المندوبون من كل حدب لتمثيل أممهم لدى مينيليك؛ من فرنسا، وإنكلترا، ومن المهديين في السودان، والامبراطورية العثمانية، وروسيا.

مينيليك كان الإفريقي الأوّل، بعد هنيعل، الذي يهزم قوات أوروبية.

---

(1) المرجع ذاته، ص ص 134 ـ 135.

(2) روسيتي، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 181 ـ 183.

فجذبت سمعته عدداً من سود الأمريكتين نحو إثيوبيا. الدكتور ڤيتاليان، غوادلوبي، أصبح الطبيب الخاص لمينيليك، من 1899 إلى 1906[1]. الهايتي بينيتو سيلفان مثّل لأربع دورات رئيس هايتي، نور ألكسيس، لدي مينيليك، من 1897 إلى 1906[2]. ولیام هـ. إيليس - غييوم إنريكي إيليسيو، وهو أمريكي شمالي من أصل كوبي، اقترح على الامبراطور مرّتين، سنة 1903 و 1904، عدّة مشاريع للتنمية الاقتصادية ولهجرة سود من الولايات المتحدة[3]. بعد ذلك بقليل، ج.إ. كايسلي هايفورد، من ساحل الذهب، صديق إ.و. بليدن و «تلميذه»، أهدى كتابه سنة 1911، *إثيوبيا بلا قيود*، «إلى أبناء إثيوبيا في العالم أجمع». هذا الكتاب شهد مرّة جديدة على أهميّة إثيوبيا مستقلة في نظر السود في أنحاء العالم.

مينيليك أعطى كلّ الابتكارات التقنية في عصره حقّ تقديرها. وتميّز عهده بالتطوّر والتحوّلات في إثيوبيا. نجح في الدفاع عن بلده ضد الإمبريالية الأوروبية، بفضل تحديث جيشه وبفضل استراتيجية دبلوماسية حاذقة. كان دائم الاطّلاع على التحالفات والعلاقات المتينة بين القوى الأوروبية - خصوصاً بين إيطاليا، وفرنسا، والمملكة المتحدة - وعزّز استقلاله خلال العقد 1896 ـ 1906. ومنذ أولى بوادر المرض لدى مينيليك سنة 1906، قسّم البلدان الثلاثة إثيوبيا إلى ثلاث مناطق نفوذ من خلال اتفاق سرّي، اكتشفه الامبراطور قبل موته بقليل سنة 1913[4]. كان للإيطاليين، والفرنسيين، والبريطانيين مفوّضياتهم في أديس أبابا سنة 1897. وكان يمثّلهم على التوالي الوزراء الدبلوماسيون الخبراء: فديريكو تشيكوديكولا (إيطاليا)، وليونس لاغارد (فرنسا)، وجون هارنغتون

(1) أ. لارا، *الغوادلوب في التاريخ*، المرجع المذكور سابقاً.

(2) أ. بيرفان، *بينيتو سيلفان، داعية نهضة السود الاجتماعية*، بورتو برانس، لا فالانج، 1969.

(3) ر. بانكورست، «و.هـ. إيليس - غييوم إنريكي إيليسيو: أوّل أمريكي أسود مناصر لإثيوبيا»، *إثيوبيا أوبسرفر*، أديس أبابا، المجلّد 15، العدد 2، ص ص 89 ـ 121.

(4) روسيتي، المرجع المذكور سابقاً، ص 331.

(بريطانيا). الولايات المتحدة أرسلت وفداً تجارياً سنة 1903 وظهر الألمان على الساحة سنة 1905. هذه الوفود قوّت من تفاهم القوى الاستعمارية الثلاث التي سرعان ما وقّعت اتّفاقاً يرمي إلى استبعاد الواصلين الجدد. بعد هذا «التفاهم الثلاثي» سنة 1906 بين بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، ومعاهدة كلوبوكوسكي سنة 1908 ـ على اسم الوزير الفرنسي الذي وقّعها مع مينيليك ـ التي تمنح حقوق حصانة سياسية وامتيازات ضريبية لمواطنين أجانب مقيمين في البلد، تمّ قبول إثيوبيا في عصبة الأمم سنة 1923.

ماري ـ جوزيف بنوا دارتانيان المعروف باسم «بينيتو» سيلفان، ولد في بورتو برانس، مقاطعة في الشمال الغربي في هايتي، في 21/ 3/ 1868. تابع قسماً من دراساته الابتدائية والثانوية في مدرسة سان مارسيال الإكليريكية في بورتو برانس وأنهاها في مدرسة ستانيسلاس في باريس. حاز على شهادته في الآداب من كلّية الآداب في جامعة السوربون وعيّن في 29/ 6/ 1889 من قبل الرئيس، سكرتيراً لمفوّضية هايتي في لندن. ثمّ ترك هذا المنصب الدبلوماسي سنة 1890 ليؤسّس في باريس، شارع باك، جريدة *الأخوّة، أداة الدفاع عن مصالح هايتي والعرق الأسود*. وقد أدار هذه الجريدة لمدة سبع سنوات، من 1890 إلى 1897، يساعده أخوه الأصغر الدكتور إدمون سيلفان، ويحيط به الكثير من الهايتيين اللاجئين إلى فرنسا. وكان هناك رجلا سياسة من الغوادلوب شاركا في هذه الجريدة: السيناتور إيزاك، والنائب غاستون ـ جيرفيل رياش.

بينيتو سيلڤان شارك في 1889 ـ 1890 في المؤتمرات المناهضة للرق في بروكسل وأقام صداقة مع الكاردينال شارل مارسيال لافيجري (1825 ـ 1892)، كبير أساقفة إفريقيا هذا المطران الفرنسي، مؤسّس جمعية *الآباء البيض* سنة 1868 وجمعية *الأخوات الإرساليات في إفريقيا* سنة 1869، رئيس كنيسة إفريقيا، كاردينال سنة 1882، تابع عمل تنصير في إفريقيا وكافح ضد الرق. الكاردينال لافيجري حصل لبينيتو سيلفان على لقاء مع ليوبولد الثاني، ملك بلجيكا.

مع تدخّل ميشال أورست ـ وهو رجل سياسي أصبح رئيساً لهايتي سنة 1913 ـ الذي أكّد أنّ جريدة *الأخوّة* هي «عمل وطني صرف تحرّر بموهبة تتعدّى كلّ إطراء»، قدّم له الجسم التشريعي مساعدة سنة 1891. بعد ذلك بسنتين، عيّنه الرئيس إيبوليت في 15/ 12/ 1893 ملازماً في البحرية الحربية الهايتية. كيف توصّل، وبمساعدة أي أصدقاء، ليُعيّن سنة 1894، رئيساً للهيئة الشرقية الإفريقية لجمعية علم السلالة في باريس؟

بدأ اجتياح الجيش الإيطالي لاثيوبيا في الشهر الأول من 1895. فرنسيسكو كريسبي، الوزير الأوّل الإيطالي، أرسل الجنرال أوريستي باراتييري، الحاكم المدين والعسكري لاريتريا مع الأمر بأن يستولي على كل الأراض المحيطة بإقليمه. التيغري، وكواتي، وأسمرة وقعت على التوالي في أيدي الإيطاليين. في 14/ 3/ 1895، احتلت القوات الإيطالية كل شمال الحبشة. بعد أديغرا، وقعت ماكالي في الأول من الشهر الرابع وأدووا في السابع منه. فنظّم مينيليك المقاومة حول أدووا، عاصمة الامبراطورية سابقاً. وكلّف الامبراطور راس ماكونن بقيادة قواته العليا. فنجح الأمير، بمساعدة راس ميكاييل، ووالو، وراس مانغاشا وتاكلا ـ هاي، في التغلّب على الإيطاليين وفي ردّهم. في 21/ 1/ 1896، مينيليك، والامبراطورة تايتو وراس ماكونن دخلوا إلى أدووا، دخول الفاتحين. وأعلنت نهاية النزاع رسمياً مع توقيع معاهدة السلام في أديس أبابا في 26/ 10/ 1986.

بينيتو سيلفان الذي تابع من باريس مجريات الأمور قرّر أن يأتي إلى الحبشة في الشهر الأول من 1897. وأخبر بذلك أباه ميشال سيلفان الذي شجّعه على «أن يسمع خلجات قلبه ويتبع مصيره». وفي غياب الإمكانات المادية، منحه مباركته الأبوية. من باريس، وصل إلى أديس أبابا في اثنتين وخمسين مرحلة عن طريق مرسيليا حيث أبحر في 25 من الشهر الأول، الساعة الرابعة بعد الظهر على متن *آفا*، من سفن «المراسلات البحرية» القديمة.

بينيتو سيلفان ترك مفكّرة يسجّل فيها بكلّ دقة نشاطه، ومغامراته، ولقاءاته، ومشاكله. وهكذا نستطيع أن نلحق بكلّ دقّة مراحل سفره من

مرسيليا إلى أديس أبابا والذي استمرّ عشرة أيام في البحر وواحداً وثلاثين يوماً في البر.

من باريس إلى أديس أبابا:

باريس، الثانية بعد الظهر
مرسيليا
بور سعيد، الثانية صباحاً
قناة الإسماعيلية، الثانية بعد الظهر
جيبوتي، الخامسة صباحاً
نيديريك شيبيلي
غورومو
بيادي
دوسو ـ روموني
(جبل بورا)
فيراد
مورداليه
هضبة سرمان
داغاغو
سهل دايمالي
بيا ـ كابوبا
وارغي (قمة بانوراما)
غاراسلي
أرتو
غيلديسا
والدييا
بيلاوا
غومبولتشا
هارار
بحيرة أرامايا
ياباتا
كولوبي
فوريه
تشالانكو
ديرو
بوركا
كوني
بوروما
تشيرشير
لاغاهاردين
كاتشينوا
لا واش (8 أيام)
فانتاليه
تاديكيا ـ ميلكا
نهر راسان
جبل أنكوبر
تشوبا
مانابيلا
غودو بوركا
بالتشي
شانكورا
دولي
تشيفي ـ دونسا
لاكاكي
إيسكا
تشووا
أديس أبابا»(1).

---

(1) مقتطف من أنطوان بيرفان، بينيتو سيلفان. *داعية نهضة السود الاجتماعية*، منشورات لافالانج، بورتو برانس، هايتي، 1969، ص 97.

التقى سيلفان في هارار الحاكم غيرازماتش بانتي وبعد عشرين يوماً، التقى راس ماكونن شخصياً. هذا الأخير، قريب الامبراطور، ومستشاره الذي كان أكثر من يستمع إليه، كان «رجلاً متوسّط القامة، ذا ذكاء حاد وأناقة يشهد لها كلّ المسافرين الأوروبيين. لديه من العمر اليوم 43 سنة؛ لقد زار إيطاليا سنة 1889 وكان له في الحرب مشاركة مهمّة ومشرّفة انتهت بدحر كامل للمحتلين». بفضل كرم أخلاق راس ماكونن، استطاع بينيتو سيلفان، مزوّداً بعربة جديدة، أن يغادر هارار بعد يومين. في طريقه إلى أديس أبابا، التقى الجنرال الإيطالي ماتيو ألبرتوني، المهزوم في أدووا وليونس لاغارد، حاكم الساحل الفرنسي في الصومال.

عند لقائه مع النيغوس مينيليك في 10/ 4/ 1897 الساعة الحادية عشرة صباحاً في القصر الامبراطوري، حدّثه مطوّلاً عن هايتي وعن وضع السود في جزر الكاريبي وفي أمريكا.

ويروي سيلفان قائلاً: «قمت بهذه الرحلة إلى الحبشة التي استغرقت عشرة أيام في البحر وواحداً وثلاثين يوماً على التوالي في البر على ظهر البغل، كدتُ أموت خلالها ميتة بائسة أكثر من مرّة، إمّا برصاصة أحد اللصوص في صحراء الدانكالي أو برمحه، أو بين فكّي واحد من تلك الوحوش المفترسة التي التهمت ذات مساء مطيتي حالما فككتُ السرج عنها؛ إذاً قمت بهذه الرحلة، المكلفة، والمتعبة والخطرة، فقط لأمتع ناظري بشقيق كبير، هو النيغوس مينيليك، صاحب الفضائل العظيمة التي لا تشرّف العرق الأسود وحسب، بل أيضاً الإنسانية كلّها.

واليوم أجد في شخص زعيم جمهورية هايتي، رجلاً من الطينة ذاتها والعائلة ذاتها، رجلاً يسرّ امبراطور إثيوبيا لو يمكنه أن يشدّ على يده.

من المستحيل ألاّ أتوصّل إلى التفاهم أيضاً مع السيد الرئيس نور ألكسيس، شاكراً إياه على النهضة ببلدنا وإعادة تأهيل عرقنا تأهيلاً كاملاً. (. . .) ولد النيغوس سنة 1842، له من العمر نحو ثمان وخمسين سنة.

يستيقظ عادةً الساعة الخامسة صباحاً. فيتنزّه في حدائق القصر (غيبي، باللغة الأمهرية) حيث تنمو أهمّ أشجار أوروبا المثمرة، أويزور محترفاته الميكانيكية حيث يتمّ اختبار الاختراعات الجديدة في مجال العلوم التطبيقية. منذ ثلاث سنوات أقيم مشغل لضرب القطع النقدية الذهبية في غيبي بإدارة مهندس ألماني. وغني عن القول إنّ جلالة الملك يتابع هذه الأعمال الدقيقة باهتمام بالغ»[1].

الامبراطورة تايتو ـ «شبيهة الشمس» باللغة الأمهرية ـ ولها من العمر خمسون سنة، هي خلاسية من عائلة يعود أصلها إلى التيغري، وكان في إمرتها مجموعة عسكرية من خمسة إلى ستة آلاف رجل، بالإضافة إلى مواكبتها العادية من 400 محارب. خلال اللقاءات التالية، تناولت الأحاديث بين الملازم سيلفان والامبراطور مسائل دولية:

مقابلة جديدة للقبطان سيلفان مع الامبراطور:

فرشت أمام ملك ملوك إثيوبيا الخرائط الثلاث التي حرصت على أن أحضرها معي.

ـ كما يمكن لجلالتك أن تلاحظ، القوى الكبرى الثلاث التي تملك حدوداً مع إثيوبيا، لا تفكّر في أن تعيد لها حدودها التاريخية، بل تسعى لأن تنتزع أجزاء جديدة من أراضيها.

إنكلترا التي لديها أصلاً مرفآن: زيلاه وبربيراه، عند ساحل الصومال، تضع في دائرة نفوذها إقليم أوغادن الغني، والذي تطالبون به لأحقّيتكم به، كما تحلم بالاستيلاء على الأقاليم الاستوائية المجاورة لكافا، والتي كانت دائماً جزءاً لا يتجزّأ من الامبراطورية الإثيوبية، وذلك لتسهيل مشروعها الضخم في بناء سكة حديد من الرأس الأثيوبي حتى القاهرة.

(1) المرجع ذاته، ص 98.

فرنسا من جهتها، وضعت يدها على خليج تادجوره؛ وبعد احتلال أوبوك، ضمّت جيبوتي، وبفضل اتّفاق لرسم الحدود عقدته سنة 1888 مع إنكلترا، يمكنها أن تدّعي حقوقاً لها على منطقة تمتدّ حتى غيلديسا، عند مدخل هارارا.

أما إيطاليا، فجلالتكم ليست غافلة عن معاهدة وقعتها سنة 1891 مع إنكلترا، تعترف بحقّها في وضع إثيوبيا بكاملها تحت وصايتها؛ وخريطة إفريقيا التي اقترحتها الدائرة الجغرافية التابعة لمجلس القيادة العليا الإيطالي، تثبت أنّ هذا الحق أُخذ على محمل الجد من قبل حكومة جلالة الملك أومبرتو الأوّل.

فأجاب النيغوس:

ـ تحديداً للاعتراض على هذه المعاهدة الإنكليزية ـ الإيطالية المضحكة، أعلمت القوى الكبرى بالترسيم الحقيقي لحدود امبراطوريتي.

فقلتُ له:

ـ الوضع بالتأكيد لم يعد كما هو، منذ معركة أدووا؛ لكن ولو لم يعد في وسع القوى الأوروبية تجاهل حجم امبراطوريتكم، فهي لن تغيّر من تلقاء نفسها، ولمصلحة إثيوبيا، تقاسم إفريقيا الذي كرّسته اتفاقاتهم.

ـ ما العمل إذاً، برأيك؟

ـ التحرّك، تجاه القوى الأوروبية، بذات الاستقلالية التي أبديتها تجاه الحكومة الإثيوبية، وذلك بالتداول مباشرة مع أتباعكم عند الساحل: لتشغل جلالتكم، وفقاً لما نصّ عليه مؤتمر برلين، فعلياً كلّ النقاط المهمّة على خطّ حدودها، ولتنتظر الأحداث من دون وقف التسلّح.

إنكلترا سيكون لديها ما يشغلها في الترانسفال؛ وإيطاليا يلزمها بعض الوقت لتصحو من ضربة أدووا؛ وفرنسا من صالحها أن تبقى على علاقة طيبة بإثيوبيا. بالتالي، أعتقد أنّه طالما جلالتكم على قيد الحياة، يمكن

للبلاد ألاّ تخشى أي خطر.

ـ تظنّ إذاً أنّه لن يوجد ما يدعو القوى الأوروبية المعنية الثلاث إلى تسليم الامبراطورية الإثيوبية أحد المصارف البحرية التي كانت لها في الماضي؟

ـ هذه هي قناعتي، سيدي. غير أنّه مع نهضة الأفكار السلمية، خصوصاً في فرنسا وفي إنكلترا، ربّما من المفيد محاولة لفت نظر الفكر في أوروبا لأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، في ظروف تصبح مؤاتية أكثر يوماً بعد يوم. وهنا لتسمح لي جلالتكم بأن أتأسّف لعدم وجود أيّ تمثيل دبلوماسي للامبراطورية الإثيوبية في الخارج.

فقال الامبراطور:

ـ أفكّر في هذه المسألة، لكنّي أريد أن أتقدّم بحذر على هذه الطريق.

حدود إثيوبيا الجغرافية وفق إشعار من الامبراطور مينيليك إلى زعماء الدول الأوروبية:

عشية اليوم المحدّد لمقابلتي الثانية مع الامبراطور مينيليك، سألني الجيرازمات نيغوسييه إن كنتُ قرأتُ الرسالة التي بعث بها جلالته سنة 1891، إلى كلّ قادة الدول الأوروبية والتي تتحدّد فيها بكلّ دقّة حدود الامبراطورية الإثيوبية الجغرافية.

فأجبته:

ـ أذكر أنني قرأتُ مقتطفاً منها في جريدة فرنسية، لكنّي لا أعرف إن كانت تلك نسخة صحيحة.

قال لي مضيفي:

ـ سأحضر لك هذا المساء النسخة الأصلية، وستقرأها قبل أن تذهب

غداً إلى غيبي، أظنّ أنّ جلالته سيحدّثك عنها.

وبالفعل سلّمني الجيرازمات، عند عودته إلى القصر، الوثيقة التالية التي لا أحتاج إلى الإشارة إلىٰ أهميتها السياسية، إنها نسخة عن الرسالة التي بعث بها إلى الرئيس كارنو والتي استعملت كنموذج لإشعار قادة الدول الأخرى:

«أسد قبيلة جودا المنتصر
مينيليك الثاني، المختار من الله
ملك ملوك إثيوبيا

إلى صديقنا الكبير، سادي ـ كارنو

رئيس الجمهورية الفرنسية

تحية لفخامتك،

نسأل أوّلاً عن أخبار صحتك الثمينة.

لثقتنا بنواياكم الطيبة تجاه الامبراطورة الإثيوبية، التي طالما كانت الجمهورية الفرنسية الكبيرة صديقة لها، نعبّر لكم عن خالص شكرنا.

رغبة منّا في تعريف أصدقائنا، القوى الأوروبية العظمى، إلى حدود إثيوبيا، نوجّه إلى حضرتكم هذه الرسالة آملين أن تأخذوا بعين الاعتبار ما يلي:

انطلاقاً من حد أرافالي الإيطالي، الواقع عند شاطىء البحر، يتّجه من إثيوبيا نحو الغرب عند سهل جيغرا ـ ميدا، ليذهب إلى ماهيجا ـ هالاي، ديغسا، غورا ويصل إلى أديبارو.

من أديبارو يصل حدّنا إلى المكان الذي يلتقي فيه ماريب ونهر أتبارا.

هذا الحد، بعد انطلاقه من المكان المذكور، يتّجه جنوباً ويصل إلى

المكان الذي يلتقي فيه نهر أتبارا ونهر سيتيت (تاكاسي) وحيث توجد مدينة كارغاغ، على النيل الأزرق.

من كارغاغ، يصل هذا الحد إلى المكان الذي يلتقي فيه النيل الأبيض وسوبات.

من هذا المكان يتبع الحد نهر سوبات المذكور، بما فيه بلاد الغالا، المعروفة باسم باراني، وكل بلاد الأروسي حتى حدود الصومال، بما فيه أيضاً إقليم أوغادن.

في الشمال يلامس الحد الهبر ـ أوال، وغادابورسي، إيسا ـ صومال ويصل إلى أمبوس.

من أمبوس، يلامس الحد الإثيوبي بحيرة أسال، ومقاطعة تابعنا القديم محمد ـ أنفاتي، فيحاذي الساحل ويلتقي أرافالي من جديد.

بعد إشارتي اليوم إلى الحدود الحالية لامبراطوريتي، سأسعى، إذا ما كتب لي الله الحياة والقوة، لاستعادة حدود إثيوبيا القديمة حتى الخرطوم وحتى بحيرة نيانزا مع بلاد الغالا»[1].

بينيتو سيلفان قدّم أيضاً للامبراطور معلومات عن الرق وعن وسائل التخلّص منه:

لقاء مع الامبراطور:

ـ هل علمتم سيدي أنّ الصحافة الأوروبية، وبوحي من وكالة أنباء إيطالية، تعلن بانتظام خبر موت جلالتكم، التي أرى لحسن الحظ أنّها في صحّة جيدة؟ هذا الخبر الذي يصدر من وقت إلى آخر، ونظراً لسنّ الأمير ولي العهد، تؤدّي إلى شعور بعدم الثقة والاستقرار يخيّم على كلّ أعمال الامبراطورية. كما تلمح الصحف الإيطالية إلى استمرار وجود الرق في

(1) المرجع ذاته.

الحبشة، بإذن وبتشجيع من جلالتكم، وهذا يضعكم في موقف معنوي يثير غضب الرأي العام في أوروبا . . .

فقاطعني الامبراطور سائلاً:

ـ وهل تعرف شيئاً عن الموضوع؟

ـ نعم سيدي، أعرف أنّكم جدّدتم مرّتين مرسوم منع الرق الذي صدر منذ وصولكم إلى الحكم. لكن هذا لا يمنع وجود مساكين، أُسروا خلال الغزوات وأُخضعوا للعمل من دون أجر لدى الزعماء ونوّابهم الذين يعطون لأنفسهم حق التصرّف بحرّيتهم وبحياتهم. هذا الشكل الخاص من الاستخدام هو استعباد بكل معنى الكلمة؛ والصحافيون الإيطاليون الذين يزيد حسّهم الإنساني عندما يتعلّق الأمر بالحبشة، لا يتوانون عن استعمال هذه الذريعة ضدّ جلالتكم.

ـ لكني للأسف لا أستطيع شيئاً. لقد منعتُ كلّ أنواع الغزو في أنحاء امبراطوريتي. لكن الحبشة شاسعة، وتصل حدودها حتى السودان، حيث لا يزال الرق موجوداً. والتجار الذين يقطعون البلاد هم وبضاعتهم الحيّة، يسافرون أكثر الأحيان في الليل؛ لذا من الصعب جداً قمع أفعالهم. أمّا الرق المحلي، الذي لم يعد ناشطاً كما في الماضي، فسينطفىء من تلقاء ذاته بعد فترة من الوقت.

ـ بكلّ فرح أسجّل هذا التصريح الصادر عن جلالتكم؛ وأنا واثق من أنّه سيملأ بالرضا أيضاً، كلّ سود أمريكا المتحضّرين، الذين ولو أنهم لا يزالون عاجزين عن المشاركة فعلياً للنهوض الاجتماعي بأبناء عرقهم في إفريقيا، فهم يأسفون لوضعهم البائس وتخلّفهم.

ـ إذاً سود أمريكا يهتمّون لهذه الدرجة بالوضع في إفريقيا؟ سأل الامبراطور.

ـ الحركة لم تصبح عامّة بعد، لكنها تتوسّع أكثر فأكثر. وأفتخر بأنّني شاركت في هذه المسألة عبر جريدة /الاخوّة التي أسّستها في باريس لهذه الغاية، ودعوت مواطنيّ لمواجهة مسألة إحياء إفريقيا، كما يتعيّن علينا.

ـ ولم تفكّر أيّ مجموعة من سود أمريكا، حتّى الآن، في أن تزور أرض أجدادها.

ـ على العكس سيدي، الكثيرون يفكّرون في ذلك؛ لكنّهم لا يزالون متأثّرين بالصورة المشوّهة التي يقدّمها الأوروبيون أصحاب المصالح عن المقيمين الأصليين في إفريقيا... إذ يتّهمونهم بأنّهم جهلة متوحشون يستعصون على كل محاولة لتمدينهم.

ـ أهذا ممكن؟

ـ إنها الحقيقة كاملة سيدي. وعندما تظهر خلال قرون فئة من الأفارقة، كالمصريين والاثيوبيين، تكشف عن كفاءاتها الحضارية، يسارع الأوروبيون إلى اعتبارها من عرقهم، وفصلها عن الجماهير السوداء الأقل تقدّماً. ولكن يمكن لجلالتكم أن تعتمدوا عليّ لنشر الحقيقة في كلّ مكان وبالتالي لتعزيز شعور التضامن الذي يجب أن يجمع بين السود الأمريكيين والسود الإفريقيين... لكنّي آخذ الكثير من وقتكم الثمين، سيدي؛ أعرف أنّ هناك زوّاراً بعدي ينتظرون لقاءكم...

ـ صحيح، يجب أن أقابل بعثة بونفالو (وهي بعثة مساعدة، جاءت للمشاركة في الحملة الشهيرة «الكونغو ـ النيل» التي يقودها الملازم مارشان). لكنك لن تخرج قبل أن تشرب من هذا الشراب من تيدج (نبيذ العسل).

فانحنيت، ثمّ صدرت عن الجيرازمات إشارة بالكاد تُلمح: فأحضر لي السقّاء قنينة ممتلئة بالشراب الوطني اللذيذ، وقدّم لي أحد الخدم كوباً على صينية من الفضة، بينما كانت مجموعة أصحاب المقام الذين بقوا جانباً تتوجّه للاقتراب من جلالته...

ـ متى تنوي أن تسافر؟ سألني الامبراطور، وهو يشدّ على يدي.

ـ بعد غد، سيدي. وإذا سمحت لي جلالتكم، سآتي في الصباح لتحيّتكم للمرّة الأخيرة.

ـ بكلّ سرور. كتبت البارحة إلى ماكونن، بشأن قضيتك؛ وهو سيهتمّ بها في الحال. إذا خطر لك شيء من الآن وحتى بعد غد، فأعلم به الجيرازمات نيغوسييه»[1].

«القضية» التي يشير إليها مينيليك تتعلّق بعرض سيلفان لبناء مصنع للأسلحة والذخيرة في هارار. والعقد، الذي حرّره راس ماكونن بناء على طلب الحاكم، يجب أن يحظى بقبول الحكومة الهايتية. وهذا ما يفسّر انفتاح العلاقات الدبلوماسية بين إثيوبيا وهايتي فيما بعد. بينيتو سيلفان، خلال لقائه الثاني مع الامبراطور، كان قد نصحه بمتابعة تحديث جيشه لتعزيز الدفاع عن بلاده المحاطة بأعداء محتملين. ونجهل ماذا حلّ بهذا المشروع العزيز على سيلفان، والذي يبدو أنّه اصطدم بمعارضيه الهايتيين في أروقة السلطة في بورتو برانس.

(1) المرجع ذاته، ص ص 54 ـ 57.

الفصل العاشر

مؤتمر لندن سنة 1900
ظهور الافريقانية وصداها

«يا أخوتي، أنا سعيد لكوني في موطني. هذه أعظم لحظة في حياتي. كان الأمر يستحقّ كلّ ساعة أمضيتها في أمريكا للتمتّع بعيش هذه اللحظة. لقد أسعدتموني كثيراً. يخبرون الشعب الأسود في أمريكا أنّ الأفارقة لا يريدونه. أعرف الآن أنّهم كانوا يكذبون علينا لإبقائنا متباعدين. الشعب الأسود في أمريكا ينتمي إلى هذه القارة، وأنا أحمل لكم سلاماً من كلّ الذين لا يستطيعون أن يكونوا هنا. أنا سعيد فعلاً».

«أعطنا دولاراً»، قال الرجل متحمّساً.

«دولاراً؟ ولكنّي لا أفهم». شعرتُ بالارتباك.

«نعم، أنت من أمريكا. لديكَ الكثير من الدولارات. أنت رجل كبير، وأمريكا بلد غني. هنا بلد فقير. نحتاج إلى دولارات. فاعطنا دولارات».

وفجاةً ظهر كلّ شيء واضحاً كالشمس فوق رؤوسنا.

ليزلي ألكسندر لايسي،

نهوض وسقوط زنجي، نيويورك، 1970، ص 123.

إنّ ازدياد النخبة «الملوّنة» في جزر الكاريبي والولايات المتحدة، المتخرّجة من الجامعات الأوروبية أو الأمريكية الشمالية، طبعت اتجاهات جديدة في الحركة الزنجية عند نهاية القرن التاسع عشر. ونمت الأفكار الأفريقانية في أجواء دولية مشحونة بالأزمات: الغزو والاستعمار تثبّتا في إفريقيا، وفي الكاريبي وحتّى في الولايات المتّحدة حيث انتصر بعد فترة إعادة البناء «استعمار داخلي» يخضع الفئة السوداء لسيطرة البيض.

العنصرية التي وصفت بالعلمية، ظهرت في كلّ مكان: أوروبا، والأمريكتين، وإفريقيا. في هذا المناخ من العنصرية الحادة، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية، والغزوات و «التهدئة» ـ في الواقع، احتلال للأراضي ـ انعقد *المؤتمر الأفريقاني* في لندن سنة 1900. تحت تأثير أنتينور فيرمان وبينيتو سيلفان وهنري سيلفستر وليامس وقادة سود آخرين، كان هناك حلّ فرض نفسه: الاجتماع والتنظيم للمقاومة. تأسيس حركة أفريقانية لمواجهة كلّ الصعاب التي تعترض تطوّر السود في جزر الكاريبي، وأمريكا الشمالية والجنوبية، وحتّى في أوروبا، حيث يلوح خطر حرب عالمية.

الشبكة العالمية:

أدّت بي أربعة عقود من الأبحاث إلى أن أستبعد الحوادث الصغيرة والتفاصيل التي كانت تجري على مرّ القرون لأحتفظ بلحظات كبيرة في التاريخ: تجارة العبيد ـ القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر ـ، ونظام الرق ـ القرن السادس عشر إلى التاسع عشر.

عند نهاية القرن التاسع عشر بدأت تُسمع بوضوح أمواج التغيير التي كانت ملامحها بدأت ترتسم منذ 1760 ـ 1868 في البحر الكاريبي. تمّ إلغاء تجارة العبيد نهائياً نحو 1870 ـ 1880. وأوقفت جولات الطرّادات البريطانية حملات السفن الزناجة انطلاقاً من المرافىء الأوروبية والأمريكية. فسبّبت البحرية الملكية الإنكليزية انزعاجاً كثيراً في فرنسا، والبرازيل، وكوبا وإفريقيا. الطرادات الإنكليزية «نظّفت» المحيطات

وخصوصاً الأطلسي. اختفت المراكب الزنّاجة وحلّت مكانها سفن بخارية تحمل عمّالاً متعاقدين من آسيا إلى منطقة الكاريبي: من الهند، وجاوه، والصين، واليابان، والهند الصينية. وكان يتم السفر في أسوأ ظروف النقل البحري بالرغم من تطوّر التكنولوجيا. ازدادت السفن سرعة وحمولة وبقيت تبحر كسجون عائمة. كان العمال ينقلون والأصفاد في أرجلهم، فلا يجدون أيّ نوع من الراحة خلال رحلتهم، لهذا كانوا يثورون وأحياناً يضيعون في عرض البحر. هكذا اختفت شحنات من الهنود من دون ترك أيّ أثر. كانت السفن تغرق، وتُخرق، وتجنح، وتُدمّر كلّياً... ولم يُعرف شيء عن حالات الاختفاء تلك وعن العودة إلى الوطن.

المراقب الذي يضع نفسه نحو 1900 على التوالي في الكاريبي، والولايات المتّحدة، والبرازيل، وإفريقيا، يكوّن نظرة عن العالم الأسود في لحظة صياغة نظريات في الإمبريالية[1].

صيد المستعمرات:

في نهاية الشهر الثالث من 1899، نشر لينين كتابه: *تطوّر الرأسمالية في روسيا*. وفي كرّاسه، *الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية* الذي كتبه في زوريخ، خلال الفصل الأوّل من 1916، يعطي النسب المئوية للأراضي التي تنتمي إلى القوى الاستعمارية الأوروبية (إضافة إلى الولايات المتحدة):

	1876	1900
إفريقيا	%10.8	%90.4
بولينيزيا	%56.8	%98.9
آسيا	%51.5	%56.6
أوستراليا	%100.0	%100.0
أمريكا	%27.5	%27.2

(1) ج.أ. هوبسون، *الإمبريالية*، لندن، 1902 ورودولف هيلفردينغ، *الرأسمالية*، فيينا، 1910.

واستنتج لينين: «إنّه التقسيم النهائي للكرة. . . أيّ تقسيم جديد مستحيل. . . في المستقبل، يمكن النظر فقط في تقاسمات جديدة، الانتقال من «مالك إلى آخر»، وليس «امتلاك» أراض ليس لها أسياد» وقد استقى لينين أرقامه من كتاب للعالم الجغرافي أ. سوبان، *تو أراضي المستعمرات الأوروبية*[2].

وأرى أن الأرقام الواردة لأمريكا ليست دقيقة. سنة 1900 وضـ الولايات المتّحدة يدها على بورتوريكو وضمّتها، واستولت على ـ بفرضها تعديل بلات. مستنداً إلى دراسة هنري موريس (الولايات المتحـ *تاريخ الاستعمار*[3]، ويلاحظ لينين أنّه بالنسبة إلى بريطانيا «فترة ازد الغزوات الاستعمارية كانت بين 1860 و 1890، وبقيت ناشطة أيضاً السنوات 1880 ـ 1900. أمّا بالنسبة إلى فرنسا وألمانيا فهذه العشرون الأخيرة هي أكثر ما يهم».

هوبسون يحدّد أنّه خلال الفترة 1884 ـ 1900 التي «شهدت انتشـ واسعاً للبلدان الأوروبية الكبيرة»: استولت إنكلترا على أرض مساحتها ـ مليون ميل مربّع، تضمّ 57 مليون نسمة؛ فرنسا 3.6 مليون ميل مربع 14.7 مليون نسمة؛ بلجيكا 900 ألف ميل مربّع و 30 مليون نسـ البرتغال 800 ألف ميل مربّع و 9 مليون نسمة.

ينهي لينين فصله حول تقاسم العالم بين القوى الكبرى بكلمة للمؤ الفرنسي ج. إ. دريّوه، مؤلّف كتاب *المشاكل السياسية والاجتماعية أواخر القرن التاسع عشر* الذي يؤكّد: «في هذه السنوات الأخيرة، ـ الأماكن الشاغرة على الأرض، باستثناء الصين، احتلتها قوى من أوروبا من أمريكا الشمالية. . . لأنّه يجب الاستعجال. الأوطان غير الثرية قد

---

(1) لينين، *الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية*، منشورات بكين، 1970، ص ص 89 ـ 0
(2) 1906، ص 254، توسّع أراضي المستعمرات الأوروبية.
(3) نيويورك، 1900.

تشرى أبداً ولن تشارك في الاستثمار الشامل للأرض الذي سيكون من السمات الأساسية للقرن المقبل (العشرين). لهذا أصيبت كلّ أوروبا وأمريكا مؤخّراً بحمّى التوسّع الاستعماري، حمّى «الإمبريالية» التي هي أبرز ميزات أواخر القرن التاسع عشر»[1].

الحمّى الاستعمارية دفعت الأوروبيين للحصول على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي «من دون أن يعرفوا بالتحديد ماذا سيفعلون بها لاحقاً»[2]. نحو 1900، في كلّ المستعمرات القديمة أو الحديثة، كان يسود الشعار: الحفاظ على النظام. كان مستعمرو 1900 يردّدونه بصوت عال تماماً كما كان يفعل مستعمرو 1833 أو 1848 في الكاريبي، أو أسلافهم مستعمرو القرنين السابع عشر والثامن عشر الحريصون على «احتواء الزنوج»...

إرساء الأمن سنة 1900، احتواء الزنوج في القرن الثامن عشر، لا شك في أنّ البيض بقوا يعزفون الموسيقى ذاتها: هنا بسياطهم وكلابهم، وهناك ببنادقهم ورشّاشاتهم ومدافعهم.

قرناً بعد قرن، توالى المستعمرون في بلاد تخضع لأهوائهم، مسيطرين على شعوب مستعمرة محطّمة، مهزومة، خارج اللعبة، مصدومة. مستسلمة عند أبواب الموت، تاركة نفسها تنزلق بلا هوادة، من دون احتجاج، في غياهب التطبيع على الطريقة الفرنسية في مستعمرات الغوادلوب، وغويانا، والمارتينيك.

في الكاريبي - الأمريكتين سنة 1900:

نحو 1900، كانت الامبراطورية الاستعمارية البريطانية تضمّ جزر

---

(1) ج.إ. دريوه، *المشاكل السياسية والاجتماعية في أواخر القرن التاسع عشر*، باريس، 1907، ص 209.

(2) بول بوهانان، *إفريقيا والأفارقة*، منشورات الآفاق الجريدة، 1975، ص 407.

الهند الغربية «المحتضرة» التي حاول أن يحييها وزير المستعمرات جوزف شامبرلاين بتحفيزها عبر إقامة «دائرة الزراعة الإمبريالية»[1].

في حين أنّ البرازيل شهدت ازدهاراً بفضل المطّاط بين 1880 و 1900، انطلق إنتاج البترول سنة 1900 في المكسيك. في هايتي، من 1880 إلى 1908، كان المصرف الوطني فرنسياً. ألمانيا، من 1895 إلى 1913، وظّفت رؤوس أموالها على نطاق واسع في البرازيل، وفنزويلا وعدّة أراض في الكاريبي.

تفوّق الولايات المتّحدة تأكّد مع حربها ضد إسبانيا سنة 1898. وبفضل معاهدة باريس في 10/ 12/ 1898 وضعت يدها على كوبا وبورتوريكو. في 1/ 1/ 1899 سُلّمت مقاليد السلطة في كوبا إلى الولايات المتّحدة. وجاء احتلال عسكري من 1898 إلى 1902 ليكون إطاراً لنظام وصاية مؤقّت عهد به إلى إدارة الجنرال بروك حتى سنة 1900 والجنرال وود من 1900 إلى 1902. فأصبحت كوبا دائرة عسكرية تابعة للولايات المتحدة، بينما تمّ إلحاق بورتوريكو مباشرة.

في الشهرين الثامن والتاسع من 1900، استقبلت جامعة هارفرد 1300 أستاذ كوبي لتدريب من نوع خاص. كان الجنرال وودير تخريج «طبقة محافظة من القادة، مؤيّدة للولايات المتحدة»[2].

بعد الانتخابات العامة ـ البلدية (الشهر السادس من 1900)، والمؤتمر الدستوري (الشهر الحادي عشر) ـ أُعلن عن دستور 1901. تعديل بلات (سيناتور من كونيتيكات) في 11/ 12/ 1902 أصبح معاهدة دائمة في 23/ 5/ 1903. توماس استرادا بالما بدأ عهده كرئيس في 20/ 5/ 1902.

بين القادة الذين برزوا في تلك الحقبة كان في غواتيمالا مانويل

(1) تاريخ كامبردج الحديث، 12، *انقلاب الموازين*، 1898 ـ 1945، ص 375.

(2) ليزلي مانيغا، *التطوّر والثورات*، منشورات ريشليو، 1973، ص 121.

استرادا كابريرا، وفي فنزويلا خواكين كريسبو (1887 ـ 1898) الذي خلف أنطونيو غوسمان بلانكو. في المكسيك استمرّ عهد الجنرال خوسيه دي لاكروس بورفيريو دياز (1876 ـ 1911).

بعد كوبا، أحكمت الولايات المتحدة سيطرتها على باناما ـ معاهدة هاي ـ باونسفوت الثانية، في 20/ 11/ 1901، سمحت للولايات المتحدة بالشروع في بناء القناة، مع تخصيص منطقة بطول ستة أميال تكون مراقبتها المباشرة. وقد صدّق مجلس الشيوخ على هذه المعاهدة في 16/ 12/ 1901. المعاهدة النهائية، في 18/ 12/ 1903، زادت منطقة القنال إلى 10 أميال ووضعت الدولة البانامية الجديدة في ظروف تبعية للولايات المتحدة شبيهة كالتي في كوبا. تنصّ هذه المعاهدة على تدخّل القوات الأمريكية الشمالية وإقامة قواعد عسكرية على أرضها. في النهاية ثبّتت الولايات المتحدة وجودها في كوبا وفي باناما. في هذه الأثناء قرّرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة سنة 1900 أنّ البورتوريكيين ليسوا من مواطني الدولة الاتّحادية.

سنة 1917، احتلّت الولايات المتحدة جزر العذارى الدانماركية. وهكذا برهنت منذ 1900 أنّ السيادة لها في منطقة الكاريبي.

في الولايات المتحدة كان يعيش 994 833 8 زنجياً (إحصاء 1900) يمثّلون 11.6% من مجموع السكّان. 89.7% من هؤلاء الزنوج يقطنون الجنوب ويمثّلون ثلث السكّان الجنوبيين. كان معدّل حياتهم 34 سنة مقابل 48 للبيض تقريباً. في الشمال، 61.1% من الزنوج يعيشون في المدن، 66.7% في الغرب، و 22.1% في الجنوب.

بين المدن التي تتضمّن أكثر من 10.000 أسود: واشنطن دي.سي. 86702، بالتيمور 79258، ونيو أورليانز.

يوجد 32069 زنجياً منتمياً إلى النقابات.

في الولايات المتحدة من السود: 21267 أستاذاً ومعلّماً، 15528

كاهناً، 1734 طبيباً، 212 طبيب أسنان، 310 صحافياً، 728 محامياً، أكثر من 2000 ممثّل، 236 فنّاناً، نحّاتاً ومعلّم فنون، عضو واحد في الكونغرس هو ج.و. وايت من كارولينا الشمالية، 3915 موسيقياً وأستاذ موسيقى، 247 فيلسوفاً، 52 مهندساً. كما يوجد أربعة مصارف لسود.

بوكر ت. واشنطن جمع مجموعة من رجال الأعمال السود في بوسطن، لتنظيم *رابطة الأعمال الزنجية الوطنية*. فانتخبه 400 موفد من 34 ولاية رئيساً لها.

في الولايات المتّحدة 44.5% من الزنوج أمّيون. سنة 1900، تخرّج أكثر من 2000 أسود من الكلّيات. كان هناك 21267 معلّماً و 1500000 ولداً مسجّلاً في المدرسة. وكانت توجد مدارس للسود في أربع ولايات: فرجينيا، وأركنساس، وجورجيا، وديلاوير.

في 20/ 1/ 1900، اقترح ج.و. وايت قانوناً يعتبر الإعدام العسفي جريمة. لكن مشروع القانون اختفى وكان هناك 105 زنوج أعدموا عسفياً في الولايات المتحدة. الكوكلوكس كلان (التي تأسّست سنة 1871) كانت تضمّ 200 ألف عضو سنة 1900.

ب.ت واشنطن أرسل سنة 1900 فريقاً من حملة الشهادات من تاسكيفي في التوغو بناء على طلب الحكومة الألمانية. كان لديها مشروع تربوي يمتدّ ست سنوات ويهدف لتأهيل مزارعين أفارقة وتعليمهم زراعة القطن.

إفريقيا سنة 1900

على مدى ثلاثة عقود، من 1880 إلى 1910، خضعت القارة الإفريقية لتحوّلات عميقة وطويلة الأمد. بعد الاعتداءات والحروب نتيجة قرون من تجارة العبيد ونظام الرق، تبعت فترة من التغيّرات السريعة تميّزت بالغزوات والاحتلالات وإرساء النظام الاستعماري. وتنقسم هذه الفترة إلى

مرحلتين: مرحلة الغزو: 1880 ـ 1900، ومرحلة الاحتلال: 1900 ـ 1919. نحو 1880، كان نحو 80% من أرض القارة لا يزال ينتمي إلى الأفارقة: كان الأجانب يسيطرون على المناطق الساحلية والجزر في سينيغامبيا، وسيراليون، وساحل الذهب (غانا حالياً)، وساحل أبيدجان، وبورتو نوفو (الداهومي)، وجزيرة اللاغوس، والأشرطة الساحلية في أنغولا وموزمبيق. في إفريقيا الشمالية، كان الفرنسيون يحتلّون الجزائر، ومكّن الأوروبيون تواجدهم في جنوبي إفريقيا حيث بدأت الحرب بين الإنكليز والبوير (1899 ـ 1902).

سنة 1910، بعد مؤتمر لندن بعشر سنوات، تمّت اللعبة. ملوك، ملكات، زعماء قبائل، أمراء وأميرات أفارقة خسروا امبراطورياتهم، وممالكهم، وجماعاتهم، وممتلكاتهم. باستثناء إثيوبيا وليبيريا، كلّ إفريقيا كانت «خاضعة لسيطرة القوى الأوروبية ومنقسمة إلى مستعمرات متفاوتة المساحة»[1].

خلال الفترة 1880 ـ 1910، تغيّرت العلاقات بين الأوروبيين والأفارقة تغيّراً عنيفاً: لقد حصل تحوّل مهم. الأفارقة الذين يسيطرون على القارة منذ القرن الخامس عشر، بينما كان الأوروبيون يسيطرون على البحر، أصبح عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم، ويقاوموا وإلاّ سحقهم الغزاة. في مرحلة أولى، رفض القادة والمسؤولون الإفريقيون أي تغيير وأرادوا متابعة علاقاتهم التجارية، والمحافظة على سيادتهم واستقلالهم.

كان هؤلاء القادة يجهلون آنذاك أنّ الأوروبيين قرّروا القضاء عليهم، بعدم تزويدهم بالأسلحة الحديثة وتنظيمهم حملات عسكرية لاحتلال كلّ الأراضي الإفريقية.

في الشهر التاسع من سنة 1900 في باريس، تناول المؤتمر الدولي

(1) *تاريخ إفريقيا العام*، الجزء السابع، *إفريقيا تحت سيطرة الاستعمار*، ص 23.

للاشتراكية الاستعمار بهذه العبارات: «إنّ تزايد الرأسمالية والآلية يؤدّي إلى التوسّع الاستعماري: يصبح هناك حاجة إلى أسواق جديدة، من أجل تطوّر الرأسمالية والتجارة: هذا أمر لا يمكن تجنّبه، لأنّ من دونه سيصير العالم إلى ثورة حتمية قريبة»[1].

ظهرت معارضة ضد الاستعمار في مؤتمر أمستردام سنة 1904 (المؤتمر الدولي الثاني) وفي مؤتمر شتوتغارت سنة 1907. كانت المسألة الاستعمارية آنذاك تقسم بين اشتراكيي البلدان الأوروبية المعنية بالغزوات: إ. دافيد بدا في ألمانيا مؤيّداً للفكرة الاستعمارية «كعنصر متكامل لهدف الحضارات الشامل تتبعه الحركة الاشتراكية»، وكذلك فإنّ بيديل ـ ولاحقاً جوريس في فرنسا ـ قبل بالاستعمار، كشرّ لا بدّ منه، يستحيل استبعاده، ولكن تجب إدانة همجية وسائله ودفع تطوّر سريع نحو الاستقلال. أمّا لينين وكوتسكي فقد شجبا الاستعمار لكن من دون جدوى.

وبدا الاشتراكيون منقسمين في البرلمانات والمؤتمرات الوطنية: الاشتراكيون الإيطاليون مثلاً وافقوا على الحرب في ليبيا، واعتمد الاشتراكيون الألمان سياسة استعمارية. استحدثت الشعبة الاستعمارية في وزارة الشؤون الخارجية في برلين في 1/ 4/ 1890. وظهرت وزارة للمستعمرات[2] في فرنسا سنة 1894، وفي إيطاليا سنة 1902، وفي ألمانيا سنة 1907.

خاف البرتغال من طرده إلى خارج إفريقيا فدعا إلى عقد مؤتمر دولي لحل النزاعات حول أراضي وسط إفريقيا. كما أعيد الطرح من قبل بسمارك. فعقد المؤتمر في برلين من 15/ 11/ 1894 إلى 26/ 11/ 1895.

(1) جان ـ لويس مياج، *التوسّع الأوروبي وزوال الاستعمار منذ 1870 حتى أيامنا*، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، 1973، ص 195.

(2) مكتب *المستعمرات*، في بريطانيا، يعود إلى سنة 1854. تشامبرلاين أصبح وزير المستعمرات سنة 1894.

بناء على مرسوم برلين، وهو وثيقة وقّعها المشاركون في المؤتمر، على كلّ أمّة أوروبية ستمتلك، بدءاً من تاريخه، أرضاً على السواحل الإفرقية، أو تدخلها تحت وصايتها، عليها أن تعلم الدول الأعضاء التي وقّعت مرسوم برلين للتصديق على أقوالها. هذا ما عرف باسم «دوائر النفوذ»[1].

بعد المؤتمر، أصبحت المعاهدات الأدوات الأساسية لتقاسم إفريقيا: معاهدات وقّعت بين الأفارقة والأوروبيين، ومعاهدات ثنائية وقّعها الأوروبيون في ما بينهم.

خاض الفرنسيون والإنكليز حملات غزو عسكري من 1885 إلى 1902. تقدّم الفرنسيون من النيجر الأعلى إلى النيجر الأسفل، فهزموا زعيم كاجور، لا تجور، الذي قتل سنة 1886، وانتصروا على مامادو لامين سنة 1887 (معركة توبا ـ كوتا) وقضوا على الامبراطورية السونينكية. وقمعوا مقاومة ساموري توريه الذي سجن سنة 1898 ونفي إلى الغابون (1900).

الملازم لويس أرشينار، بعد عدّة انتصارات (كودران، 1989، سيغو، 1890، ويوري، 1891)، دمّر امبراطورية توكوبور، التي قاوم زعيمها أحمدو حتى وفاته، في سوكوتو سنة 1898.

احتل الفرنسيون عدّة بلدان واستقرّوا فيها: ساحل العاج، وغينيا ـ من مستعمرات 1893 ـ والداهومي سنة 1894، والغابون ومدغشقر سنة 1900. سنة 1897 قاموا بنفي الملكة رانا فالونا الثالثة إلى الجزائر.

أطلق الإنكليز حملات عسكرية انطلاقاً من ساحل العاج ونيجيريا. احتلوا شمال بلاد الأشانتي من 1896 إلى 1898، وضمّوها سنة 1901 ونفوا نارا برمبيه إلى جزر السيشيل، وسيطروا على نيجيريا باعتمادهم الحيلة والقوة على السواء. جونستون، القنصل البريطاني، فضّل مواجهة الملك جاجا دوبوبو خارج ساحة المعركة. فدعاه إلى لقاء على متن سفينة

(1) الجزء السابع، ص 51.

حربية للبحرية الملكية البريطانية. وبعد سجنه، أُرسل الملك إلى الكاريبي سنة 1887. ثمّ احتلّ الإنكليز برام، والبينان، وجنوب نيجيريا سنة 1900. أقاموا في مصر وفي السودان سنة 1898، وفي زنجبار، وأوغندا (1894). ألقوا القبض على الملكين كاباريجا وموانغا، وأرسلوهما إلى السيشيل سنة 1899. في إفريقيا الوسطى، سيسيل رودس وشركة جنوبي إفريقيا البريطانية احتلوا ماشونا لاند وأجبروا الملك لوبنغولا سنة 1893 على الهرب من عاصمته.

انتهى غزو زامبيا سنة 1901. استقرّ الألمان في التوغو عبر تحالفات مناسبة، وتخلّصوا من مقاومة الكونكومبا في 1897 ـ 1898 والكابر سنة 1890. في الكاميرون، أخضعوا إمارات شعب البول وسعوا لتحطيم المقاومات في إفريقيا الشرقية في 1888 ـ 1907: ضد أبوشيري الذي لا يُقهر (1888 ـ 1889)، قوم الواهيهي (1889 ـ 1890)، وزعماء ثورة الماجي ماجي (1905 ـ 1907).

سعى البرتغاليون لتثبيت سيطرتهم في أنغولا، والموزمبيق، وغينيا ـ بيساو. احتلال الكونغو عسكرياً تمّ بقيادة ليوبولد الثاني سنة 1892 ـ 1895، لكن غزو كاتانغا الذي بدأ سنة 1891 استمرّ حتى بداية القرن العشرين. إيطاليا احتلّت قسماً من إريتريا سنة 1883 والقسم الشرقي من الصومال سنة 1886. سنة 1896 واجهت الهزيمة في أدووا. وبعدما فقد المغرب استقلاله سنة 1912، لصالح فرنسا وإسبانيا، لم يبق في إفريقيا بلاد مستقلّة غير ليبيريا واثيوبيا، على الأقلّ اسمياً. في بنود اتفاق 1890، تعهّدت القوى بعدم بيع الأسلحة إلى الأفارقة. تجاه المحاربين الإفريقيين الذين كانوا يستعملون بنادق الحجارة والفتيلة القديمة، والفؤوس والخناجر، كانت الجيوش الأجنبية تملك أسلحة حديثة: بنادق رشّاشة غاتليغ وماكسيم، المدفعية الثقيلة، أسلحة بحرية (قاذفات، طرّادات) وفيما بعد مركبات بمحرّكات وطائرات.

سنة 1902 بدا غزو إفريقيا شبه منته. والتر رودني ركّز على بعض

نواحي الاستعمار المأسوية في كتابه *كيف أعاقت أوروبا تطوّر إفريقيا*[1]. بهذه العبارات يصف فقدان السلطة: «الصفة الحاسمة للفترة الاستعمارية القصيرة (. . .) تنمّ بشكل أساسي عن انتزاع السلطة من إفريقيا (. . .) خلال القرون التي سبقت هذه الفترة، كانت إفريقيا لا تزال تحتفظ في تبادلاتها التجارية بنوع من التحكّم بالحياة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، ولو أنّ هذه التجارة مع الأوروبيين كانت على حسابها. خلال الفترة الاستعمارية، حتّى هذا التحكّم الصغير بالشؤون الداخلية لم يعد موجوداً (. . .) القدرة على التحرّك باستقلالية هي ضمانة المشاركة الفعّالة والواعية في التاريخ. المستعمر يُبعد تلقائياً عن التاريخ (. . .) بين ليلة وضحاها، خسرت الدول الإفريقية سلطتها، واستقلالها ومعناها»[2].

في العواصم الأوروبية، كانت صالونات 1900 تستقبل المسافرين ـ المستكشفين، والعسكريين، والصحافيين العائدين من إفريقيا. كانوا يروون مغامراتهم الاستعمارية عند آكلي لحوم البشر، وحملاتهم، ومعاركهم، وانتصاراتهم. وكلّما أمعنوا في استعراض شجاعتهم، واستراتيجيتهم العسكرية، وحضارتهم كان الأفارقة الذين يصفونهم يبتعدون عن صورة الآدميين. بنوع خاص المتحذلقون الفرنسيون، العنصريون حتى العظم، يبرزون لنا وجوهاً مستورة لعملية الغزو و «التهدئة».

هكذا مثلاً الصحافي شارك كاستيلاني يروي عن سفره إلى إفريقيا إلى جانب العسكري الشهير مارشان. فيذكر آكلي لحوم البشر الذين التقاهم و «الزعماء الأساسيين المذنبين. . . لأنّهم قاوموا الغزوات الفرنسية. مابالا، في منطقة ماكابانديلو، ماسيتو ومايوكي في منطقة مبامو».

يروي كاستيلاني عن موت «مابالا أو ماكاباناديلو الشهير»، وكان

(1) *كيف أعاقت أوروبا تطوّر إفريقيا*، دار السلام، تنزانيا، 1972.
(2) والتر رودني، المرجع المذكور سابقاً، منشورات جامعة هوارد، واشنطن دي.سي.، 1974، ص ص 224 ـ 225.

زعمياً يُهاب ويُحترم، وصاحب نفوذ له اعتباره. كان الفرنسيون يبحثون عنه بصفته «قاطع طرق» عندما وشت به امرأة.

الملازم مانجان اهتمّ بملاحقة الزعيمين الآخرين ومعاقبتهما. ميسيتو وضع في قفص، قبل أن تطلق عليه النار «بحضور مئة من أبناء قوم اللوانغو، وأكثرية زعماء الباكونغو وعدد كبير من السكّان الأصليين، وكانت كتيبة المركز (في مبامو) تشكّل الصف المسلّح»[1].

بعد أيام قليلة ألقي القبض على مويوكي الذي أعدم بدوره. وحين كان المساعد العسكري دي برات يلومه على أفعاله الشنيعة، أجابه: «ما الفائدة ممّا تقوله لي ما دمت ستقتلني؟ لستُ مضطراً إلى الرد عليك».

قبل ذلك بسنتين خلال أحد اللقاءات، كان مويوكي قد أمسك المساعد من ذقنه، ومرّر طرف سكينه على عنقه في حركة لها مدلولها. لا شكّ في أنّ برات لم يكن منزعجاً من الحصول أخيراً على فرصة الانتقام[2].

كاستيلاني يذكر أيضاً التضحيات البشرية: عدد الأسرى الذين يضحّى بهم عند موت أحد الزعماء يتراوح بين ثلاثة وثلاثين، حسب أهميّة الراحل وثروته. في ليرانغا، مونونابيكا، من قرية بونغا، الذي هاجم القائد أ. لويتيير وقتله بضربة رمح، أُعدم بلا محاكمة.

في 18/ 3/ 1900، غادرت بيلا حملة بقيادة الملازمين وولفيل من المشاة وإنجان على رأس فرقة من مئة قنّاص تنقل مئة وخمسين حمّالاً وتتجّه نحو نزو في حوض كافالي. إنجان اصطدم بآكلي لحوم البشر. اجتازت الحملة بلاد البلولو حيث «لم يكن سكّان هذا الإقليم قد شاهدوا أوروبيين: وقد استقبلوا الملازم بحفاوة، منذ الأيام الأولى، تدفعهم

(1) «الحملات الإفريقية؛ تاريخ قرن، 1843 ـ 1944»، كتاب باريس، 1987، ص 133.
(2) المرجع ذاته، ص 133.

غرائزهم الميالة للنهب والأمل في الربح السهل. كان هدفهم غير المعلن أن ينصبوا له كميناً، في ديئّي نفسها. لكن خطّتهم كشفت لحسن الحظ لأنّه لو نجحت، لكنّا فقدنا نصف المجموعة. على رأس التلة حيث تمّ بناء القرية، تعرّضنا على مدى يومين، لهجومات 6000 إلى 7000 من السكّان الأصليين، مسلّحين ببنادق حجارة، وكان علينا القيام باستطلاعات هجومية عديدة لإبعاد آكلي لحوم البشر، الذين كانوا يكتفون بحصار الموقع آملين أن يستسلم المدافعون من الجوع. في اليوم الثامن، أدّى هجوم عام إلى خسائر عديدة في صفوف العدو، الذي قرّر الانسحاب. في أحد الهجومات الأولى أصيب الملازم مانجان برصاصتين في رجله: الخسائر الأخرى كانت قنّاصين قتيلين، وخمسة جرحى وحمّالين قتيلين، وثلاثة جرحى. بعد ذلك بعدّة أيام، جاء البلولو يعلنون خضوعهم ومثلهم فعلت القبائل المجاورة، اليارو، والليي، والغوانيه.

الملازم مانجان شفي بسرعة من جراحه، وطلب المتابعة، وواثقاً بما قاله قوم اليارو، سار جنوباً نحو قرية لوغوالي ليحدّد وجهة نهر زو ويتعرّف إلى طريق تجارية تؤدّي إلى هذه القرية. لكنه لم يأخذ بعين الاعتبار مكر هؤلاء الناس؛ وبالفعل لقد هاجموه في قرية سيروبلي. كان منطلقاً برفقة خمسين رجلاً والرقيب فان كاسل، فتعرّض للهجوم ليس بعيداً عن هذه القرية ولم يستطع الوصول إلى لوغوالي، الواقعة على بعد 17 كيلومتر من هنا، إلاّ بقتال متواصل. ولقد كانت خسارته قاسية: قتل خمسة قنّاصين وجرح ثلاثة منهم وخمسة حمّالين. وبعد بقائه أربعة أيام لمعاقبة المتمرّدين، عاد من دون صعوبة تذكر إلى غويكانغوي. وتمّ نقل الجرحى إلى توبا»[1].

أمّا حملة لنفان، من النيجر إلى تشاد بالطريق النهرية سنة 1904 فكانت انتصاراً. واستقبلته جامعة السوربون برعاية جمعية الجغرافيا. هؤلاء

(1) المرجع ذاته.

العسكريون، كانوا يقدّمون أنفسهم في الواقع كمستكشفين وعلماء جغرافيا يضعون أنفسهم تحت غطاء الجامعة.

لهذا كان يوجد الكثيرونَ من هؤلاء العسكريين في ساحات الغزوات الاستعمارية: لويس فيديرب (1828 ـ 1889)، جوزيف غالييني (1849 ـ 1916)، جوزيف جوفر (1852 ـ 1931)، لويس ليوتي (1854 ـ 1934)، شارل مانجان (1866 ـ 1925)، مؤلّف كتاب *القوة السوداء*، هنري غورو (1867 ـ 1946).

في مقدّمته لكتاب بول ڤيني دوكتون، *مجلد السيف*[1]، الصحافي أوربان غوبيه، مؤلّف كتاب *الجيش ضدّ الأمّة*، أدان «الغزو وما يواكبه من آلام»: «انظروا إلى هؤلاء الضباط الذين يلبسون زيّنا ويحملون رايتنا: إنهم مجانين من الكحول، والغرور، والطمع، يعاملون مواطنينا المدنيين كأعداء، يغطّيهم الدم والوحل، يشيعون الجريمة، والحرائق، والاغتصاب والسرقة في قارة شاسعة، يصل بينهم كلّهم تواطؤ مرعب، ويحوّلون أكثر المناطق بهجة إلى صحراء من دون اسم، ويجعلون من أكثر الشعوب مسالمة ركام من العظام المتفحّمة. الكواسر تقتفي آثارهم. يطلقون النار على كولونيلاتهم، بدل أن يتخلّوا عن جزء من فريستهم. يضطهدون رفاقهم الذين يوقفهم الاشمئزاز، ويقضون عليهم كما لو كانوا خونة. فوق الخرائب المحروقة، فوق جثث المخلوقات الوديعة التي ذبحوها بكلّ برودة، يحرّرون تقارير كاذبة، ويرسلون إلى فرنسا روايات عن انتصارات وهمية. يسرقون رتباً، يسرقون أوسمة، يسرقون المجد، كما سرقوا منذ قليل كنز الملك الزنجي الصغير والمسكين. إنّهم أسوأ لصوص حملتهم الأرض منذ فاتحي المكسيك والبيرو. إنّهم عار على فرنسا وعلى الراية الفرنسية. والصحافة الركيكة تصطنع لهم سمعة؛ والحشود العمياء تعتبرهم أبطالاً.

(1) ص 38.

وخلفهم، انظروا أيضاً إلى هؤلاء الجنود، والقنّاصة، والمساعدين، الذين كانوا البارحة عبيداً بائسين، وصاروا اليوم جلاّدي إخوتهم. إنّهم يخونون عرقهم؛ ويلعبون دور كلاب الصيد لدى الفاتح للحصول على بضع عظام. في ظل العلم ثلاثي الألوان، يحرقون، ويقتلون، ويعذّبون، ويروون شهواتهم المفترسة، ويغرقون في الدماء، ويخترعون عقوبات للجرحى، ويمزّقون نساء وفتيات على قيد الحياة قبل أن يدنّسوهن. إنّهم يبيعون، ويشترون، ويبيعون من جديد كائنات بشرية، الأسرى الذين يوزّعهم عليهم الضباط الفرنسيون».

خلال غزو إفريقيا واحتلالها، حارب الجنود الأوروبيون إلى جانب قنّاصة من المحليين. هذا تعاون يصعب فهمه، ودراسته، كما في زمن تجارة العبيد. المؤرّخ لا يصدر حكماً، إنّما يحاول أن يفهم وأن يفسّر. وما تبقّى هو أعمال أدبية، حكايات للأطفال، وللنسيان أيضاً، في النهاية. من أجل محو العار، والجبن، والحقد، والمجازر.

أمّا كتاب بول ڤينيي دوكتون، مجد *السيف*، الذي صدر سنة 1900، فتجب قراءته وإعادة قراءته. بول ڤينيي دوكتون (1859 ـ 1943)، نجح في امتحان الدخول إلى كلّية الطب البحرية في تولون، في الشهر الرابع من 1880، وبدأ حياته المهنية في الغوادلوب في 16/ 11/ 1881 كمساعد طبيب. أقام سنتين في الجزيرة، حتى 1883، وناقش أطروحته للدكتوراه في 24/ 11/ 1883 في كلية الطب في مونبلييه. عمل في السنغال، في مستشفى سان لويس البحري. شارك في عملية ريو نونييز التأديبية في غينيا. دخل كطبيب في خدمة شركة سكة الحديد داكار ـ سان لويس. غادر إفريقيا في 7/ 2/ 1889. قدّم استقالته ليتزوّج في أوكتون في 24/ 10/ 1888، فأقام في أوكتون سنة 1890، ثمّ في باريس. بعد ذلك انصرف إلى الأدب، وكتب روايات وقصصاً قصيرة بين 1889 و 1914. انتخب نائباً وبقي في المجلس حتى 1906، مقرّباً من الاشتراكيين.

أصدر ڤينيي سنة 1900 كتاب مجد *السيف*، وصاغ تهماً دقيقة حول

جرائم رتل ڤوليه ـ شانوان الذي انطلق من السودان سنة 1899. شانوان هو ابن الجنرال شانوان، وزير الحربية في ذلك الوقت. الحملة، ولنقص الموارد، أرادت أن «تعيش على حساب البلد»: فسرقت، وقتلت، وفرضت سيطرتها على السكّان الذين جعلت منهم فدية. الغنائم، أسرى وماشية، كانت عبئاً على مسيرة الرتل الذي لم يعد خاضعاً لباريس. وانتهت القضية نهاية مؤلمة بمأساة دانكاري (14/ 7/ 1899). بعد موت شانوان، الذي قتل في 16/ 7، وڤوليه في 17 منه، عادت الحملة إلى يد السلطات الفرنسية في الشهر الأول من 1900. الإدارة الاستعمارية ألقت ستاراً من رصاص حول هذه القضية وفرضت السكوت.

انتقد ڤينيي أيضاً النفاق في إلغاء الرق سنة 1848. في السنغال وبعد التعويض على ملاّكي العبيد، رمي القانون في غياهب النسيان. فيديرب، حاكم السنغال «الجمهوري»، طلب من مجلس إدارة المستعمرة أن يحدّد صراحة أنّ القانون لن يتم تطبيقه.

تجارة العبيد داخل إفريقيا الغربية لم تمنع صراحة إلاّ سنة 1905، لكن هذا لم يلغِ وجودها «في كلّ مكان حتى نهاية العهد الاستعماري، وأحياناً إلى ما بعده: في غينيا، استمرّ الرق في فوتا ـ دجالون حتى 1957»، وفي موريتانيا، بقي إلغاء الرق مجرّد قرار نظري...

في الجزء الثالث من كتابه، «الجريمة والجنون»، يتناول فينيي دوكتون عدّة أمثلة عن السادية التي يتّهم بها المستعمرين الذين زرعوا الخوف، وقتلوا، وذبحوا، من دون أي عقاب، في ظل الإدارة الاستعمارية.

لقد شجب تصرّف ونشاط غالييني، فاتح مدغشقر الذي أبقى على الرق في الجزيرة الكبيرة. وانتقد الحرب الاستعمارية التي تسبب الكثير من الضحايا، وممارسات العسكريين في قضية دامبيكي وغزوة مينابي. لقد تمّ غزو مدغشقر الاستعماري على مرحلتين: كانت هناك حملة فرنسية بقيادة الجنرال دوكين في 1894 ـ 1895، فاحتلّت تاناناريف في 30/ 9/ 1895.

غالييني الذي وصل سنة 1896 أتمّ الاحتلال، وقضى على النظام الملكي في 28/ 2/ 1897 وتخلّص من الملكة رنافالونا الثالثة.

ثار بول فينيي دوكتون ضد المجازر التي ارتكبها الجنود الفرنسيون في مدغشقر، وفي تونكان وفي كاليدونيا الجديدة. بين المستعمرين القتلة الذين يخدمون المحتل بإخلاص كما لدى الكلاب، متعطّشين للمجد وللأوسمة، تميّز غوادلوبي في مدغشقر وفي الهند الصينية ـ في سايغون وهايفونغ ـ: إنّه مورتينول[1].

المؤتمر الأفريقاني سنة 1900:

استند المؤرّخون المهتمّون بمؤتمر لندن إلى المصادر المتوفّرة وكانت بمعظمها وثائق مكتوبة بالإنكليزية تنقسم إلى ثلاث فئات: 1 ـ تقرير المؤتمر، نصوص المنظمين والمشاركين وتقاريرهم الشخصية؛ 2 ـ أعمال المؤتمر؛ 3 ـ المقالات المتعلّقة بالمؤتمر، المنشورة في الصحافة آنذاك.

أضع في ملف المؤتمر ليس فقط التقرير الحقيقي، ولكن أيضاً تقرير الهايتي بينيتو سيلفان الموجود في كتابه الذي نشر سنة 1901، *عن مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال*[2]. هذا الكتاب، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه قدّمت سنة 1899 في كلّية باريس، لم يلفت نظر المؤرخين كما يستحق. هذا العمل المكتوب بالفرنسية يبدو لنا ضرورياً لفهم أساس الحركة الأفريقانية... كما تلقي دراسته ضوءاً جديداً على مؤتمر لندن سنة 1900. فيما بعد، سنة 1917، تناول الأسقف ألكسندر والترز المؤتمر في سيرة حياته، *حياتي وعملي*[3].

---

(1) انظر بالنسبة إلى حياة مورتينول المهنية: أورونو د. لارا، *مورتينول، ضابط غوادلوبي في «البحرية الملكية»*، منشورات سيركام، مركز أبحاث الكاريبي ـ الأمريكتين، 1985، 285 صفحة.

(2) باريس، ل. بوابيه، 529 صفحة.

(3) نيويورك، فليمنغ هـ. ريفيل.

الفكرة الأفريقانية: أساس مشروع المؤتمر:

عدّة أشخاص ادّعوا فيما بعد في القرن العشرين أنّهم الذين أوحوا بالمشروع الأفريقاني، منهم مثلاً توماس ت. فورتشن و و.إ.ب. دوبوا. بينيتو سيلفان، في تقريره حول *المؤتمر الأفريقاني سنة 1900*[1]، يشير إلى تأثيره كممثّل عام للجمعية الأفريقانية: «لقد كنّا المحرّك الأساسي». ماذا تعني كلمة «محرّك» لسيلفان؟ هل كان يريد بهذا أن يقدّم نفسه بكونه «الشخص الذي أعطى الدفعة الأولى، الفكرة الأفريقانية، والذي أدّى إلى تنفيذها؟».

ب. سيلفان يذكر الرسالة المرسلة في 2/ 1/ 1895 إلى أنتينور فيرمان، الذي كان يمرّ بباريس. وفيها يقترح عليه مشروعاً يهدف إلى «دفع عجلة إعادة تأهيل العرق الأسود خطوة كبيرة إلى الأمام». سيلفان انتقد مثل فيرمان مهيني العرق الأسود، أنصار نظرية الأعراق الدنيا والأعراق المتفوقة المشؤومة، واقترح في رسالته: «المراجعة هذه القضية الكبيرة... يجب توجيه نداء إلى وفاء علمائنا البار. كلّ بلد سيوفد ممثّلاً عنه أو أكثر، لتشكيل كتلة كبيرة. هؤلاء الرجال الأكفاء، الذي ستنضمّ إليهم طبعاً وجوه لامعة من هذا العرق الذي يعاني، يمكنهم الاجتماع في مؤتمر، بمناسبة المعرض العالمي المقبل في باريس». وجاء رد فيرمان[2] سريعاً ومتجاوباً:

«استلمتُ رسالتك البارحة، وقرأتها باهتمام بالغ.

لا شكّ في أنّها فكرة جديدة وممتازة، تلك التي تذكرها بشأن عقد مؤتمر لعلماء مختلف الأمم، خلال المعرض العالمي في باريس سنة 1900، لمناقشة مسألة مساواة أو لا مساواة الأعراق البشرية المثيرة للجدل. هكذا يبدأ القرن العشرون بإلقاء الضوء على معضلة سيؤثّر حلّها وبقوة على توجّه السياسة والفلسفة».

---

(1) ب. سيلفان، *مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال*، باريس، بواييه، 1901.

(2) انظر رسالته بتاريخ 3/ 1/ 1895.

فيرمان، في رسالته، يشير إلى أهميّة العامل الاستعماري ويعتقد أنّه «بالإمكان التكهّن بأنّ كل سياسة النصف الأول من القرن العشرين، على الأقل، ستدور حول المسائل الاستعمارية». وكان في نية بينيتو سيلفان أن يطوّر مشروعه، مستنداً إلى جريدته *الأخوّة*، التي أسّسها في باريس سنة 1890، والتي جمع حولها فريقاً مهمّاً من المتعاونين أبرزهم أنتينور فيرمان، وسيناتور الغوادلوب إيزاك، ونائب الغوادلوب غاستون جيرفيل - رياش وشخصيات فرنسية.

لكن بينيتو سيلفان اصطدم بظروف مزعجة جداً، بين 1896 و 1900، لم تسمح له بالتفرّغ لتحضير «هذا المؤتمر الكبير في علم السلالات». ما جرى هو أن جريدة *الأخوّة* توقّفت عن الصدور سنة 1897 بعد مؤامرة من معارضيها في هايتي، الذين استطاعوا إقناع البرلمان بوقف المساعدة المخصّصة لها «كمكافأة وطنية».

يقول سيلفان إنّه في الشهر الثاني عشر من 1897، وعند عودته من هايتي بعد رحلته الأولى إلى اثيوبيا، التقى في لندن بوكرت. واشنطن. ومعاً قرّرا الانضمام إلى *الجمعية الأفريقانية* «التي أسّسها في لندن القس جوزف مايسون، وطالب شاب، هو هنري سيلفستر وليامس، من ترينداد».

بعد ذلك بشهرين، أسّس سيلفان في باريس جمعية *الشباب الأسود*. أفي هذا الإطار الاجتماعي شارك في التحضيرات للمؤتمر الذي استعيدت فكرته، لكن بعد تعديل خطّته الأولى.

تجدر الإشارة إلى أنّه يجب أن نقف مطوّلاً أكثر عند هذا «الطالب الترينداي» الذي ذكره سيلفان، لفهم أفضل لأساس المشروع الأفريقاني.

هنري سيلفستر وليامس، معلّم ومحام من ترينداد:

يعود أصل عائلة وليامس إلى جزر الباربادوس. هاجرت إلى ترينداد للعمل في المزارع التي يفضّل أصحابها يداً عاملة محلّية على الهنود

الواصلين حديثاً. وكان يعرف عن العمّال الواصلين من الباربادوس أنّهم جدّيون في العمل، مستقلّون ولا يحتاجون إلى حماية كالمهاجرين الهنود. غير أنّ هؤلاء الأخيرين ولأنّهم أقلّ كلفة، فرضوا أنفسهم كيد عاملة حتى السنوات 1920 ـ 1925.

والد هنري سيلفستر وليامس، هنري بيشوب وليامس، كان عاملاً زراعياً متخصّصاً في إصلاح عجلات العربات. هنري سيلفستر وليامس، كبير أولاده، ولد في 19/ 2/ 1869. وكان له خمسة إخوة وأخوات: أوررورا أوسولي، وفيوليت، وروث، وهاملتون، وروفوس. كان لقب هنري «باكي»، وكانت تربيته صارمة جداً. كان الوالدان يزوّدان أولادهما بتربية دينية ويذكران لهم قصصاً عن شخصيات زنجية شهيرة من الباربادوس مثل صموئيل جاكمان برسكود ووليام كونراد ريفز. برسكود الذي كان يعتبر «أذكى رجل يتعاطى الشأن العام في الباربادوس في القرن التاسع عشر» كان رجل سياسة وصحافياً. أسّس جريدة *الليبرالي* وانتُخب سنة 1844 عضواً في مجلس بريدجتاون. وهو الذي شجّع العمال الزراعيين على السفر إلى ترينداد وغويانا البريطانية للهرب من ظلم أصحاب الأراضي الزراعية البيض في الباربادوس[1]. ريفز كان ابن عبدة وزنجي من فيلادلفيا وصل إلى الباربادوس في بداية القرن التاسع عشر مع شقيقته. بدأ كمراسل صحافي في *الليبرالي* ثمّ سافر إلى لندن ليدرس ويصبح وكيل دعاوى. عاد سنة 1864 وانتُخب في المجلس سنة 1875.

هنري سيلفستر وليامس ولد في أروكا، وهي قرية في ترينداد بناها سنة 1847 عدد من العبيد المعتوقين الذين اشتروا عدّة أراض من الإدارة الاستعمارية. كانت أروكا تقع بين العاصمة بورت أوف سباين وبلدة أريما، داخل الجزيرة. وكانت توجد فيها ثلاث مدارس: المدرسة الحكومية،

---

(1) بروس هاملتون، *البربادوس ومسألة الاتحاد، 1877 ـ 1885*، لندن، منشورات وكلاء كراون، 1956، ص ص 4 ـ 7.

والمدرسة الكاثوليكية، والمدرسة الكالفانية. القس الكالفاني، جامايكي من أصل إفريقي، الأب وليام فرايزر ديكسون، الذي وصل سنة 1862، أصبح صديق وليامس وأكثر أتباعه اندفاعاً في *الجمعية الأفريقانية*. كان قد بنى أوّل كنيسة كالفانية في البلدة وفتح منزله ليكون أوّل مدرسة كالفانية[1].

كان هناك تأثير إفريقي يتجلّى من خلال تقليد ديني معيّن يتحدّر من اليوروبا. وكان العديد من الآلهة الإفريقية يلوحون خلف قدّيسي الكنيسة الكاثوليكية، مثل شانغو إله الحديد والحرب ويبمايا ربّة البحر. كذلك كانت إفريقيا حاضرة مع جاجا ملك الأوبوبو الذي نفاه الإنكليز إلى جزر الهند الشرقية، إلى جزيرة سان فانسان تحديداً، سنة 1887. وجذب وصول الملك جاجا إلى غرانادا عدداً كبيراً من السود الذين خاب أملهم عندما لم يروه[2].

بالنسبة إلى بعض الأشخاص في ترينداد، لم يكن هناك مجال للشك في حضور إفريقيا في ذلك الوقت. وليامس وعائلته، وكانوا ينتمون إلى كنيسة إنكلترا، ساهموا في جميع التبرّعات *لإرسالية الهند الغربية* في الريو بونغو في إفريقيا. جمعية الكنيسة الغربية التي أسّسها شخص إنكليزي، الأب ريتشارد رول، سنة 1855، وأشخاص آخرون، لمست أهميّة الحس الإرسالي في الهند الغربية وقرّرت تخريج قسيسين لإفريقيا. أحد تلامذة رول، الأب فيليب هنري دوغلين، أسود من الباربادوس، وبعدما خدم سبعة عشر عاماً في إرسالية ريو بونغو، دُعي إلى تظاهرة في سان فرناندو في 1/ 8/ 1888. فأكّد على فكرة أنّه من واجب كلّ أسود من ترينداد أن يشارك في الحفاظ على إفريقيا[3].

---

(1) سارة إ. مورتون، جون مورتون *من ترينداد: صحف، رسائل، وأوراق*، تورنتو، شركة وستمنستر، 1916، ص 245. انظر أيضاً: دونالد وود، ترينداد والانتقال. سنوات ما بعد الرق، لندن، 1968.

(2) *مجلّة سان فرناندو*، 16/ 6/ 1888، ونقلاً عن *جريدة غرانادا*، 9/ 6/ 1888؛ انظر أيضاً *العهد الجديد*، 6/ 7/ 1888، نقلاً عن *حارس سان ڤنسنت*، 15/ 6/ 1888.

(3) *مجلّة سان فرناندو*، 6/ 8/ 1888.

عندما أنهى الشاب هنري س. ويليامس دراسته، دخل إلى دار المعلمين في بورت أوف سباين ليصبح معلّماً بعد ثلاث سنوات. كان مدير تلك الدار إنكليزياً، جيمس هنري كولنز، وهو «واقعي ليبرالي»، و «فارس هيكل جيد»، و «معتدل ناشط»(1). هناك التقى ويليامس بطالب من أصل إفريقي، وكان أميراً، ابن ملك أسانتي كوفي كاريكاري الذي خلعه الإنكليز. كان الأمير كوفي إنتيم قد وقّع هو وتسعة عشر زعيماً آخر، على معاهدة الخضوع لبريطانيا في كاب كوست في الشهر الثالث من 1874. يقول فريديك تشارلز فولر، مؤلّف كتاب *الأشانتي، السلالة المنقرضة*، إنّ كوفي إنتيم درس في مدرسة مقاطعة سوري في إنكلترا ثمّ أرسل إلى ترينداد وبعدها إلى ساحل الذهب مع منحة 120 ليرة استرلينية في السنة(2). الأمير كوفي إنتيم وصل إلى ترينداد في الشهر السابع من 1891. يوصف بأنّه كان «قصير القامة»، وكان يلحق به حشد من الأشخاص يرافقونه حين كان يذهب إلى الكنيسة مع ج.هـ. كولنز. كان معروفاً باسم «الأمير الأسود»(3). وكان لوجود هذا الشاب الإفريقي تأثير أكيد على الطلاب الترينداديين، إذ أثار اهتمامهم بإفريقيا، القارة التي لم يكونوا يعرفونها إلاّ بوجهها الأسطوري.

كان برنامج الدراسة في هذه المدرسة كبرنامج أيّ مدرسة إنكليزية مشابهة. كان الطلاب يخضعون لامتحان يتضمّن القراءة، والإملاء، وتاريخ إنكلترا بسطوره العريضة، وقواعد اللغة الإنكليزية، وديوان شعر لميلتون، والجغرافيا، والتربية، والجبر، والموسيقى(4). وهكذا يحصلون على شهادة

---

(1) عنه أخذ ويليامس «محبته للاعتدال»، و «انجذابه نحو الامبراطورية»، عن أوين تشارلز ماتورين، *هنري سيلفستر ويليامس ونشأة الحركة الأفريقانية، 1869 ـ 1911*، لندن، منشورات غرينوود، 1976، ص 20.

(2) لندن، موري، 1921، ص 143.

(3) لينيس إينيس، *ترينداد والترينداديون*، بورت أوف سباين، منشورات المرآة، 1910، ص 98.

(4) مجلّة ترينداد الملكية، 28/ 11/ 1888.

الكفاءة للتعليم. كان وليامس في سن السابعة عشرة عندما نجح في الامتحان، وكان واحداً من المرشّحين السبعة الذين حصلوا على شهادة الدرجة الثالثة، ووحده نال شهادة لتعليم الموسيقى الصوتية. كان في كلّ ترينداد في تلك الفترة ثمانية معلّمين فقط حاصلين على شهادة تعليم الموسيقى الصوتية[1].

بسبب صغر سنه، انتظر سنة قبل تعيينه للتعليم في إحدى المدارس. فعلّم أوّلاً في بورت أوف سباين في *المدرسة الحكومية الشرقية للبنين*[2] سنة 1886. وكانت رواتب المعلّمين منخفضة جدّاً. سنة 1887، عيّن معلّماً في *مدرسة لافورتون بيانغونو الحكومية* في سان فرناندو، ثاني مدينة في الجزيرة. وكان معظم تلامذته من أولاد الهنود الذين يعملون في أراض زراعية تملكها شركة من غلاسغو، شركة *تشارلز تينانت* وشركة تملك مصنع سانت مادلين[3].

بعد وصوله بقليل التقى بقس أسود هو الأب فيليب دوغلين الذي عمل كإرسالي في إفريقيا الغربية، فأصبحا صديقين وبقيا كذلك لفترة طويلة. في أواخر سنة 1887، أرسل وليامس إلى كانان، بالقرب من سان فرناندو، قرب مزرعة قصب السكّر تعود إلى ملاّك كبير هو الاسكتلندي لامونت، بالرغم من صغر سنه، كانت حياة وليامس المهنية في السنتين الأوليين لامعة جداً. في بداية سنة 1889، عيّن في *مدرسة سان جوان الحكومية* بالقرب من بورت أوف سباين وليس بعيداً عن قريته أروكا. كانت منطقة زراعية، تقطنها رعية كاثوليكية يشرف عليها الأب الفرنسي فورستييه. ويظهر أحد تقارير تلك الفترة الإعجاب الذي كان يكنّه ذوو التلامذة وسكّان المنطقة لوليامس. في الشهر السادس من 1889، شارك في اجتماع للمدرّسين في *المدرسة النموذجية للبنين* ينظّمه أنطوان فورتون، مدير إحدى

---

(1) مجلّة بورت أوف سباين، 19/ 12/ 1909.

(2) مجلّة ترينداد الملكية، 28/ 11/ 1888.

(3) *الرأي العام*، 21/ 6/ 1889.

المدارس الكاثوليكية. وتقرّر في تلك المناسبة تأسيس جميعة للأساتذة، فانتخُب كولنز رئيساً لها وفورتون أميناً للسر[1]. في الشهر الأول من 1890، أطلق *اتحاد المعلّمين النموذجيين في ترينداد* رسمياً بعد جمعية افتتاحية له برئاسة كولنز. كان راتب كولنز متخفضاً جداً، لا يتعدّى الستين ليرة، بالرغم من حصوله على شهادة الدرجة الثالثة. وكان زملاؤه الذين حصلوا على شهادة الدرجة الأولى بعد سنين من الخبرة يتقاضون مئة ليرة على الأكثر. ورواتب النساء كانت أقل أيضاً. ففضّل وليامس السفر إلى الولايات المتحدة بحثاً عن عمل آخر مثمر أكثر، يؤمن له حياته ويرضي طموحه.

وصل إلى الولايات المتحدة سنة 1891، ولا نعرف الكثير عن حياته في تلك الفترة في نيويورك. لم تنفعه شهادته هناك واضطر إلى اختيار عمل يدوي أو في أحد المنازل. يبدو أنّ مفهوم *الأفريقي ـ الأمريكي* انتشر على يد تيموتي توماس فورتشن، صديق بوكرت. واشنطن، مدير جريدة *عهد نيويورك*[2]. كان فورتشن صحافياً مناضلاً وقد أصبح فيما بعد ناقداً قاسياً للقضية الأفريقانية التي تبنّاها وليامس[3].

كان ت.ت. فورتشن رئيس *الرابطة الإفريقية ـ الأمريكية الوطنية* التي تأسست في شيكاغو سنة 1889. ولاحقاً خلف الأسقف ألكسندر والترز في منصبه في *المجلس الوطني الأمريكي*. إضافة إلى *عهد نيويورك*، نشر فورتش مع شريكه جيروم ب. بيترسون جريدتي *أفرو ـ أمريكان برس وبلاك فالانكس* اللتين تعتمدان أيضاً على الاشتراكات[4].

فورتش الذي كان له اعتباره لدى الجالية السوداء في نيويورك، صرّح في وقت لاحق أنّه هو الذي أوحى بفكرة مشروع وليامس الأفريقاني

---

(1) كان الأب الدكتور و.ب. ديريك يعتقد أنّ فورتون «اكتشف المصطلح ونشره»، انظر *عهد نيويورك*، عدد 23/ 10/ 1891 *والعهد الجديد* في لندن، عدد 3/ 2/ 1898.

(2) انظر إيم لو ثوربرو، *تيموتي توماس فورتشن: الصحافي المناضل*، شيكاغو، منشورات جامعة شيكاغو، 1972.

(3) *عهد نيويورك*، 1891، كانت الصحف الثلاث تقدّم لقاء اشتراكات بأسعار خاصة.

(4) المرجع ذاته، 22/ 3/ 1906.

ومؤتمر لندن سنة 1900[1].

توماس تيموتي فورتشن (1856 ـ 1928)، صحافي، وناشر وكاتب، ولد في ماريانا (فلوريدا). أحد أعضاء الكونغرس، وليام.ج. بورمان، ساعد فورتشن الشاب في إيجاد عمل كمفتّش في الجمارك في ديلاوير. تابع دراسته في جامعة هوارد وبعد تخرّجه سنة 1881، ذهب إلى نيويورك وأصبح مدير أسبوعية غلوب التي تتوجّه إلى السود. سنة 1884، أطلق مجلّة الرجل الحر ونشر كتاب *الأرض، العمل، والسياسة في الجنوب*، ثمّ *الزنوج في السياسة* سنة 1885. سنة 1887 نظّم *الرابطة الإفريقية ـ الأمريكية* التي طالبت بكامل الحقوق للزنوج، بما فيها حق الاقتراع. وطالب أيضاً بقانون لمنع الإعدام العسفي وتوزيع أموال دعم المدارس توزيعاً عادلاً. نحو سنة 1890 كانت الرابطة الإفريقية ـ الأمريكية تضمّ ممثلين عن إحدى وعشرين ولاية. في العقد 1890 ـ 1900. تحمّس فورتشن لبوكر ت. واشنطن (1858 ـ 1915)، وأصدر جريدة عهد *نيويورك* المؤيّدة لأفكاره وساهم في كتابة سيرته. لكن العلاقة بينهما لم تستمر، بسبب إدمان فورتشن على الكحول وتهجّمه على مونرو تروتر وجورج فوربس، اللذين كافحا في أجل المساواة في الحقوق[2].

شارك فورتشن، رغم التحفّظات العائدة إلى وجود بعض البيض الليبراليين والاشتراكيين، في تأسيس *الجمعية الوطنية لإنهاء الملوّنين*. لكنه ترك هذه المنظمة سنة 1914 وأخذ ينتقد

(1) إدوين س. ريدكي، *الهجرة السوداء*، نيو هافن، منشورات جامعة يال، 1969 وهـ.ر. لينش، المرجع المذكور سابقاً، الفصل السادس.

(2) ج. فوربس وم. تروتر نشر *الحارس* سنة 1901، حيث عرضا نظرياتهما في المساواة وعارضا نظريات بوكر ت. واشنطن.

بعنف بوكرت. واشنطن ودوبوا. أخيراً أسس فورتشن جريدة الشمس في واشنطن وأدار، قبل وفاته بقليل سنة 1928، *عالم الزنوج*، أداة جمعية *تحسين أوضاع الزنوج*.

كانت جريدة *عهد نيويورك* تذكر غالباً نشاطات الكنائس السوداء، والتحرّكات السياسية وحملة الأسقف هنري ماك نيل تيرنر لهجرة السود إلى إفريقيا. كما خصّصت عدة مقالات لمبادرات الأب ألكسندر والترز، القس الذي اشتهر بعظاته في صفوف الجالية السوداء. لا نعرف متى التقى وليامس ووالترز لكنهما عملا معاً فيما بعد في إطار *الجمعية الأفريقانية*. في تلك الحقبة كان هناك «حمى إفريقية» تتصاعد بين الجاليات السوداء في الجنوب[1]. ظهرت رغبة شديدة في السفر إلى ليبيريا كما يشهد العدد الكبير للطلبات التي تقدم بها السود للجمعية الأمريكية للاستيطان.

في نيويورك، سمع وليامس بخطة «العودة إلى إفريقيا» التي دعا إليها الأسقف تيرنر. جريدة *عهد نيويورك* هاجمت هذه الخطة رغم اعترافها بأنها فكرة مثيرة للاهتمام. مما حدا بتيرنر إلى أن يكون محامياً لتيار هجرة من «مئة إلى مئة وخمسين ألف شخص أسود»[2]. وقدّم خطّته خلال اجتماع في كنيسة في بروكلين قبل سفره إلى إفريقيا في الشهر 10 من 1891[3] في المنصة، كان يوجد توماس ماك كانتس ستيوارت، وهو محام أسود، ديمقراطي وعضو في إدارة *مدرسة بروكلين*. كان ستيوارت قد عمل في ليبيريا وسيتعاون لاحقاً مع وليامس خلال إقامته في هذا البلد[4]. بالرغم من انتقادات فورتشن لخطّة تيرنر، نشر وجهة نظر ستيوات الذي كان أكثر تأييداً لها. وقد اقترح على كل المشاركين أن يقيموا، قبل سفرهم إلى

(1) عهد نيويورك، في 3/ 10/ 1891.
(2) المرجع ذاته، في 10/ 10/ 1891.
(3) المرجع ذاته، في 3/ 10/ 1891.
(4) المرجع ذاته.

إفريقيا، لفترة من الوقت في كنساس، أو كاليفورنيا، أو أي ولاية غربية ليحصلوا على الإعداد المناسب وليتكيفوا مع المناخ[1].

أمضى وليامس سنتين في الولايات المتحدة، وبسبب المشاكل العنصرية وصعوبة إيجاد وظيفة محترمة، سافر إلى كندا وانتسب إلى جامعة دالهوسي في هاليفاكس في نوفاسكوتيا[2]. لقد تسجّل في قسم الحقوق للسنة الجامعية 1893 ـ 1894[3]، لكننا لا نعرف ما هي الدراسات التي تابعها ولا عدد السنوات التي أمضاها في دالهوسي. كانت مقاطعة نوفاسكوتيا الكندية تضم عدداً كبيراً من السود، الذين كان أجدادهم إمّا عبيداً فرّوا من الولايات المتحدة، أو زنوجاً سيمارّون أُسروا خلال حرب في جامايكا في نهاية القرن الثامن عشر[4].

هنري ماك نيل تيرنر (1834 ـ 1915)، أسقف الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية، وُلد قرب أبفيل في كارولينا الجنوبية. بعد وفاة أبيه عمل في مزارع القطن ثم تدرّب لدى أحد الحدادين. تعلّم القراءة في سن الخامسة عشرة وعمل في مكتب قانوني حيث تعلّم الكتابة. سنة 1853، أصبح عضواً في الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية وحصل على إذن لإلقاء العظات. اشتهر بين السود وسيم نائب كاهن سنة 1860. سنة 1863، عيّنه الرئيس لنكولن مرشداً في الجيش، في الفوج الأول للقوات السوداء. ثمّ غادر الجيش وأنشأ الكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية في ولاية جورجيا. ساهم تيرنر

(1) سجل جامعة دالهوسي، 20/ 2/ 1968.

(2) سجل جامعة دالهوسي.

(3) روبن و. وينكس، *السود في كندا: تاريخ*، نيوهافن، منشورات جامعة يال، 1971، الفصل الأول.

(4) *ماريلبون مركوري*، 17/ 11/ 1906؛ *مجلة غرب لندن*، 7/ 11/ 1906.

في تأسيس الحزب الجمهوري في جورجيا وانتُخب ممّثلاً في مجلس جورجيا الدستوري سنة 1867.

بعد تعيينه مديراً لمكتب البريد في ماكون (جورجيا) من قبل الرئيس غرانت، ترك هذا المنصب بسبب مضايقات البيض الكثيرة له. كموظّف حكومي، شغل مراكز مختلفة فكان مفتّش جمارك، وشرطياً ومحقّقاً. بعدما كان أسقفاً في كنيسته في جورجيا بين 1880 و 1892، أصبح تيرنر مدير معهد موريس براون من 1892 إلى 1904. سافر كثيراً، زار إفريقيا الجنوبية وإفريقيا الغربية حيث نشر الميتودية الإفريقية. كان محامي عودة الزنوج إلى إفريقيا. كما أسّس عدة جرائد ومجلّدات مثل صوت *الإرساليات* سنة 1892. سنة 1885 نشر كتاب *فكر وطريقة* الميتودية.

من نبذة عن حياة وليامس نُشرت سنة 1906 نعرف أنّه سافر في أنحاء كندا والولايات المتحدة[1]. هل قام بتلك الأسفار من أجل العمل أم لأسباب أخرى؟ لا نعرف تماماً. يقول المؤرّخ ج.هـ. هوكر، الذي قابل أولاده، إنّه يبدو أنّ وليامس دفع أقساط دراسته في أمريكا الشمالية من مسح الأحذية، وغسل الأواني في المطاعم والخدمة في نزل للطلاب[2]. كذلك فإن نشاطه الديني ليس معروفاً جيداً: هل شارك كما يقال في المؤتمر الذي نظّمه الأسقف تيرنر في سينسيناتي سنة 1893، والذي طرحت خلاله فكرة العودة إلى إفريقيا[3]؟ الشيء الأكيد هو أنّه سافر إلى إنكلترا سنة 1896 وانتسب فوراً إلى الكينغز كولدج في جامعة لندن.

(1) جيمس ر. هوكر، *هنري سيلفستر وليامس. الأفريقاني الإمبراطوري*، لندن، ريكس كولنغز، 1975، ص ص 18 ـ 19.

(2) المرجع ذاته، ص ص 19 ـ 20.

(3) إ.س. ريدكي، *الهجرة السوداء*، يال، 1969، ص 182.

الحدث الأبرز سنة 1896 كان هزيمة الجيش الإيطالي في معركة أدووا أمام قوات مينيليك، امبراطور الحبشة. وليامس التقى في لندن بصديقة الملازم إيمانويل مزومبو لازار الذي كان يعرض في 20/ 6/ 1897 بمناسبة *أحد اليوبيل* في أفواج المدفعية التي تمثّل ترينداد(1). شارك وليامس في الشؤون العامة وانتسب كطالب إلى *الغرايز إين* في 10/ 12/ 1897(2)، بعدما نجح في امتحان الدخول الذي تضمّن الإنكليزية، والتاريخ، واللاتينية. فتابع دراسات قانونية (منها القانون الدولي، والقانون المدني الروماني، وقانون الملكية، وقانون الجنايات). تقدّم لامتحان القانون الروماني بعد ثلاثة أشهر من انتسابه(3) وبعد ذلك بشهرين، تقدّم لامتحان القانون الدستوري وتاريخ القوانين(4).

تزوّج من إنكليزية بيضاء. كان يؤمن بالمساواة بين «الأعراق»(5). زوجته، أغنيس باول، التي كانت أكبر سنّاً منه بقليل، هي الابنة الكبرى للواء فرنسيس باول، ماسوني محافظ معروف(6) كان يسكن هو وزوجته في غيلنغهام، في مقاطعة كنت. أغنيس باول كانت في الثانية والثلاثين من عمرها حين كانت تعمل كسكرتيرة في جمعية تابعة لكنيسة الاعتدال. وكان مقرّ هذه الكنيسة الإنكليزية في دينسفايت في وستمنستر(7).

والد أغنيس كان رجلاً ذا شخصية قومية جداً. ولد سنة 1842 في ستوربريدج، والتحق سنة 1861 بالبحرية الملكية. خدم على سفن كثيرة وخلال إحدى وعشرين من سنوات عمله الست والثلاثين كان ضابط صف، قبل أن يحصل على رتبة معاون، ثمّ ضابط، في تشاتهام. تقاعد في

(1) مجلة بورت أوف سباين، 25/ 6/ 1897.
(2) من أمين مكتبة الغرايز إين إلى ماتورين، في 5/ 12/ 1966.
(3) التايمز، 30/ 4/ 1898.
(4) المرجع ذاته، 8/ 6/ 1898.
(5) مجلّة بورت أوف سباين، 2/ 6/ 1901.
(6) روتشستر، جريدة تشاتام وغيلنغهام، 25/ 4/ 1904.
(7) رسالة من وليامس إلى «الآنسة باول» في 20/ 12/ 1897، أوراق وليام، ترينداد.

11/ 3/ 1897، في الفترة التي التقت فيها ابنته بوليامس. ثمّ طُلب من جديد وأصبح نقيباً خلال حرب البوير، لينهي حياته العسكرية برتبة لواء[1].

أغنيس باول وهنري سيلفستر وليامس تزوّجا سنة 1898. كانت أغنيس زوجة مثالية حتى وفاة وليامس سنة 1911. وقد رزقا بخمسة أولاد عاش منهما ثلاثة. بقيت أغنيس إلى جانب زوجها وشاركته اللحظات الصعبة كما عندما أقاما في لندن وفي بورت أوف سباين. بعد وفاة زوجها، عانت من نبذ الآخرين لها ومن الحاجة المادية. لكنها لم تندم قط على قرارها ودافعت بشجاعة عن ذكراه حتى توفّيت بدورها.

في سنة زواجه بدأ وليامس بمراسلة مدراء عدّة مجلاّت ليكلّمهم عن إفريقيا[2]. يوجد في *أوراق وليامس*، بين الوثائق التي يملكها ابنه الأكبر

---

(1) روتشستر، جريدة تشاتام وغليلنغهام، 15/ 4/ 1904.

(2) من تلك الفترة وصلتنا رسالتان من الرسائل التي أُرسلت إلى مجلاّت. الأولى ظهرت في مجلة لم يُعرف ما هي، وكانت محرّرة على الصورة التالية: «لو أنّ ليفنغستون يستطيع أن يرى اليوم ما آلت إليه الأمور من وضع سيّىء ومؤسف في هذه الديار، وبين الناس الذي عاش من أجلهم، فماذا كان سيقول؟ لكان سيصيبه الذهول حين يرى الطمع يحلّ مكان الحق والعدالة في نفوس الذين توقع السكّان الأصليون أن يروا النور بمساعدتهم، لكنهم الآن فقدوا ثقتهم بالذين يُسمّون المستعمرين المتحضرين. ولكان موفات ذرف الدموع إن عرف أنّ الثقة بالإنسان الإنكليزي فقدت جاذبيتها. الجمعية الإفريقية توجّه نداء للأمّة ـ التي هي بعد كلّ اعتبار المسؤول الأوّل عن العمليات الاستعمارية ـ كي تطلب من مندوبيها أن يعودوا إلى الطريقة الأصيلة وأن يحافظوا على تقاليدها. إنّ الجمعية ترحّب بكل سرور بمؤسسات حضارة راقية، مثل المدارس الصناعية، وتعليم حقيقي لتعاليم المسيح، تتواجد بين المواطنين الأصليين، بعد تأكّدها من أنّهم يتقبلون دائماً ما هو جيد. مع أصدق المشاعر، هـ.س. وليامس». وفي رسالة بعثت إلى مجلة *القائد* في الشهر الثامن من 1898 نقرأ: «إلى رئيس التحرير العزيز، ـ أنا من العرق الإفريقي، وأودّ أن أتوجّه إلى الآلاف من أخوتي وأخواتي البيض من قراء مجلّتكم باسم مواطنيّ الذين يعانون من سوء المعاملة. إذا وقع الظلم على البريطانيين، فسرعان ما يعالج؛ لكن الوضع مختلف بالنسبة إلى السكّان الأصليين. وفي هذا ظلم لهم. إن كانت عاداتهم، وممارساتهم، وحقوقهم مختلفة عمّا لدى العرق المتحضّر الذي أخضعهم، فمن العدل أن يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند التعاطي معهم. نعرف أنّ على المسيحية أن تطبّق تعاليم المسيح، الذي يقول إنّه يجب أن نعامل الآخرين كما نحبّ أن نعامل. وبرأيي أنّ=

هنري فرنسيس سيلفستر وليامس في باراتاريا، في ترينداد، رسالتان من وليامس إلى زوجته. الرسالة الأولى المكتوبة في 2/ 12/ 1897، بعد عشرة أيام من قبوله طالباً في الحقوق في الغرايز إين، كانت تدعوها لتناول فنجان من الشاي بعد يومين من تاريخها. وبعد ثلاثة أسابيع، شاركت أغنيس وأختها إيمي، في اجتماع أعضاء وأصدقاء الجمعية الإفريقية في قاعة إكزيتير[1]. تمّ الزواج سنة 1898، بالرغم من معارضة النقيب باول الذي لم ير في اقتران ابنته برجل زنجي أمراً مناسباً، بعكس السيدة باول وابنتها إيمي اللتين وافقتا عليه. استمرّ النقيب باول في معارضته ولم يشأ استقبال صهره؛ أغنيس كانت تذهب وحدها إلى منزل والديها في غيلنغهام. ابنهما الأوّل، هنري فرنسيس سيلفستر وليامس، ولد سنة 1899[2].

سنة 1897 أو 1898 ـ في جميع الأحوال بعد اليوبيل الماسي سنة 1897 ـ بدأ وليامس إعطاء دروس عن ترينداد في إطار الصفوف الشعبية

= الطرق التي تُعتمد بحجّة التمدين هي موضع تساؤل. ما يعطى لهم هو مسيحية غير حقيقية، وما يقوم به الذين يسعون للتمدين يثير أكثر من شك. وأخشى ما أخشاه هو أن يخجل الضمير الوطني من الممارسات الظالمة التي ترتكب تحت الراية البريطانية. من النادر أن نرى الحكومة الحالية تدين عودة الرق في جنوبي إفريقيا تحت قيادة سيسيل رودس، أو أن نسمع السلطات البريطانية في زنجبار وبمبا (محميّتينا في إفريقيا الشرقية) تعترض على استعباد النساء (الاستسرار في أسوأ أشكاله) في تلك البلاد. هل سيستمرّ التجار الأوروبيون في تهريب المشروبات الكحولية لتدمّر كل ما هو كبير ونبيل بين المواطنين المحلّيين الجهلة والبسطاء، فتدمّرهم جسداً وروحاً، كما قال خاما ملك بتشانالاند؟ هل يجب أن تقاد الفئات الصامتة، والخاضعة للقانون، والطموحة إلى التمرّد، والدموية، والتخريب من خلال سن قوانين مشبوهة في سيراليون ومونتسرات، من دون أي احتجاج من قبل الشعب المسيحي في هذا البلد العظيم، الذي طالما كان نصير الضعيف؟ يجب أن أعبّر عن مخاوفي. هذه السياسة تترك على يافطة معايير هذه الأمّة لطخة تصعب إزالتها. ولكن من الضروري إزالتها، والرأي العام هو الأفضل للمهمّة»، رسالتان ذكرهما هوكر، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 25 ـ27.

(1) جريدة *العهد الجديد*، 20/ 1/ 1898.

(2) أحاديث أ.س. ماتورين مع هـ.ف. سيلفستر وليامس في ترينداد، في الشهر 11 من 1968، في كتاب ماتورين، المرجع المذكور سابقاً، ص 40.

بعد ظهر أيام السبت المتعلّقة بالامبراطورية البريطانية، في *معهد ساوث بلايس*، في فينسبوري. امتدّت دروسه على ثلاث سنوات من1895 إلى 1898 وتضمّنت مئة محاضرة نشرت في خمسة أجزاء. وليامس وستّة هنود كانوا غير الأوروبيين الوحيدين بين المحاضرين الذين كانوا يجوبون «أراضي الامبراطورية الكثيرة»[1]. وليامس أعلن بوضوح موقفه كنصير لحكومة تتضمّن ممثّلين عن الشعب وعارض استعمار المملكة الذي وصفه بأنّه «نظام بلا قلب... مرادف ازدراء عرقي». كما أشار إلى التداعيات العنصرية لمجلس تشريعي، في ترينداد، لا يتضمّن سوى أشخاص بيض، غير منتخبين، في جماعة أكثر أفرادها ليسوا بيضاً. وأكّد أيضاً، بكلّ بساطة: «الضريبة من دون تمثيل هي جريمة شنيعة»[2].

وضع وليامس كتيباً بعنوان *قضية الشعب* أرسله إلى أعضاء البرلمان في الشهر الثالث من 1899[3]. كان قد جمع حوله بعض الشخصيات الترينيدادية التي تعيش في لندن وعبّر عن أفكاره بخصوص الإصلاحات السياسية الضرورية في ترينداد. وشكّلوا وفداً قابل عدداً من البرلمانيين برعاية *نادي كوبدن*، وهو مجموعة ضغط في الحزب الليبرالي تهتم بالمسائل التجارية. في كتيبه، ينتقد وليامس العلاقات بين الحاكم والمستعمرين الأثرياء أصحاب مزارع قصب السكر، بينما الناس العاديون، زارعو البن والفاكهة والخضر لا يؤخذون بعين الاعتبار. اعترض أيضاً على إلغاء المجلس البلدي في بورت أوف سباين، وهو قرار أصدره وزير المستعمرات جوزف تشامبرلاين، وانتهى إلى المطالبة «بحق كلّ مواطن بريطانيا: التمثيل مع الضريبة». وبدا وليامس مصمّماً على تجاهل إرادة تشامبرلاين التي عبّر عنها سنة 1895، وهي رفض تمثيل المستعمرين.

---

(1) مقدّمة *سلسلة الإمبراطورية البريطانية* لوليام شيرينغ، سكرتير الشرف في هيئة المعهد؛ إنّ قراءة محاضرة وليامس، «ترينداد»، تظهر أنّها أُلقيت بعد «اليوبيل الماسي» سنة 1897.

(2) وليامس، «ترينداد»، ص 474.

(3) نُشر الكتيّب في *المرآة*، عدد 6/ 4/ 1899.

قال وليامس في وقت لاحق (1901) إنّه كان «أوّل رجل أسود» يتكلّم داخل مجلس العموم[1]. تشامبرلاين أشار إلى الوفد المذكور خلال إجابته عن سؤال طرحه في مجلس العموم السير تشارلز دايلك. وفي تلك المناسبة قال إنّه من المستحيل تعيين حكومة تمثيلية في جزر الهند الغربية ومنح حق الاقتراع للشعب الأسود لأنّ الأمر لا يستحق العناء. بالرغم من جهود المحامي اللامع وليامس، وأصدقائه، لم تنجح تلك الحملة من أجل الإصلاح الدستوري في ترينداد. كيف يمكن تصوّر تغيّر مؤسساتي بهذا الحجم في زمن انتصار الإمبريالية الإنكليزية، وهيمنة وزير مستعمرات رجعي وعنصري مثل تشامبرلاين. وليامس الذي أظهر معرفة عميقة بالوضع السياسي في ترينداد، شعر بخيبة الأمل، فنقل اهتماماته وآماله وطموحاته إلى المشاكل الإفريقية. بين أصدقائه الذين وقّعوا معه الوثائق التي سلّمت إلى البرلمانيين البريطانيين، نذكر أسماء: هـ. هامل سميث، ر. سيدني سميث جونيور، هـ.أ. ألكازار، أ بولتشيري، ر.إ. فيبس، ف. ماثيو سيموندس، وليام غريل، س. رينيه[2].

حياة هنري سيلفستر وليامس في سطور:

19/ 2/ 1869:	ولد وليامس في أروكا، ترينداد.
1886:	تخرّج من دار للمعلّمين.
1887:	عيّن مديراً لمدرسة ابتدائية.
1891:	هاجر إلى الولايات المتحدة.
1893:	انتسب إلى جامعة دالهوسي، هاليفاكس، نوفاسكوتيا، كندا، في كليّة الحقوق.

(1) *المرآة*، عدد 8/ 7/ 1901.

(2) هل كان عدد هؤلاء البرلمانيين الحاضرين ليستمعوا إلى وليامس ويسألونه سنة 1899 هل كان 150، كما يقول أحد تقارير وليامس، أم 32 كما تقول *الدايلي نيوز*؟ انظر أيضاً مجلّة بورت أوف سباين، في 6/ 4/ 1899.

1896:	وصل إلى لندن، في إنكلترا، وانتسب إلى الكينغز كولدج.
24/ 9/ 1897:	أسّس *الجمعية الإفريقية*.
10/ 12/ 1897:	تسجّل في دراسة القانون في الغرايز إين.
1898:	جولة في برمنغهام، مانشستر، ليفربول، أدنبره، ستيرلنغ، داندي، غلاسغو، بلفاست، دبلن وفي أماكن كثيرة في ضاحية لندن لتأليف مجلس مهمّته التحضير للمؤتمر.
23 ـ 25/ 7/ 1900:	المؤتمر الأفريقاني في قاعة وستمنستر تاون، في لندن.
7 ـ 9/ 8/ 1900:	شارك في المؤتمر المضاد للرق في باريس.
من الشهر الثالث إلى الشهر الثامن 1901:	سافر إلى جامايكا وإلى ترينداد بصفته الأمين العام *للجمعية الأفريقانية*. تأسيس فروع لها.
الشهر الرابع:	حلّ *الجمعية الأفريقانية* في لندن في غياب وليامس.
7 ـ 9/ 8/ 1901:	شارك في اللقاء السنوي الرابع للمجلس الإفريقي ـ الأمريكي الوطني في فيلادلفيا، بنسلفانيا.
4/ 9/ 1901:	وصل إلى لندن يرافقه الأسقف والترز.
19/ 9/ 1901:	اجتماع للجمعية الأفريقانية في معهد ساوث بلايس في لندن، وإعادة إنشائها هناك.
الشهر العاشر من 1901:	صدور العدد الأوّل من *الأفريقاني*.
11/ 6/ 1902:	وليامس يدخل في نقابة المحامين عن طريق الغرايز إين؛ ويبدأ بممارسة المهنة.
الشهر التاسع من 1903:	سافر إلى جنوبي إفريقيا.
29/ 10/ 1903:	يدخل إلى نقابة المحامين في رأس الرجاء الصالح.

1904:	سافر إلى باسوتولاند بدعوة من الملك ليروتودي.
1905:	العودة إلى لندن واختياره كمرشّح ليبرالي للبرلمان.
2/ 11/ 1906:	انتخب عضواً في مجلس سانت ماريلبون بورو في لندن.
الشهران الأول والثاني من 1908:	سافر إلى ليبيريا بدعوة من الرئيس باركلي. ألقى محاضرة في الجمعية السنوية في نقابة المحامين الليبيريين. سافر إلى غينيا وسيراليون قبل أن يعود إلى لندن.
28/ 8/ 1908:	وصل إلى ترينداد، آتياً من لندن.
26/ 3/ 1911:	وفاة هـ.س. وليامس.

تأسيس الجمعية الأفريقية سنة 1897:

بعد إدراكه صعوبة تغيير الوضع الاستعماري في ترينداد كما يتمنّى، حوّل وليامس اهتمامه إلى إفريقيا. سنة 1897، كانت تذكر في صالونات لندن أسماء مثل سيسيل رودس وجيمسون رايد، ويحكى عن الحرب ضد الماتابيلي، والنزاعات في ماشونالاند. وليامس لم يكن يعرف الكثير عن مشاكل إفريقيا عند وصوله إلى لندن. لكنّه تعرّف إلى امرأة إفريقية شرحت له الوضع في جنوبي إفريقيا وأخبرته عن حال عمّال المناجم. وفي برمنغهام، التقى السيدة إ.ف. كنلوش، وأصلها من الناتال، زوجة مهندس اسكتلندي، متخصّص في الماس. وليامس، الذي كان يلقي المحاضرات في أنحاء المملكة المتّحدة، دعاها لكلام في أحد هذه الاجتماعات وأعجب بمواهبها الخطابية(1).

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

يقول إيمانويل مزومبو لازار، الذي شارك في لندن في احتفالات العيد السنوي الستين للملكة ڤيكتوريا، إنّ السيدة كنلوش كانت تودّ أن تصبح عضواً في نادي الكتاب الذي ترأسه الليدي هنري سومرست. الليدي سومرست عرّفتها إلى جمعية حماية السكّان الأصليين[1] وإلى تشامبرلاين[2]. أعجب وليامس بشخصية «هذه المرأة ابنة عرقنا»، التي كانت تتكلّم دائماً عن مشاكل السود في جنوبي إفريقيا[3]. وليامس والسيدة كنلوش عملا معاً على تنظيم حملة لمساعدة الإفريقيين الجنوبيين، في بداية سنة 1897. وقد تلقّيا مساعدة منظمتين إنسانيتين هما جمعية حماية السكان الأصليين والجمعية الأجنبية المناهضة للرق.

أسّس وليامس الجمعية الافريقية في 24/ 9/ 1897، وأصبح أمينها العام[4]. وانضمّ إلى هذه الجمعية كلّ من هـ.ر. فوكس - بورن، سكرتير جمعية حماية السكّان الأصليين، وفلتشر، مدير مجلّة *العهد الجديد*. السيدة كنلوش أرسلت له مقالاً تدين فيه سلوك الإرساليين البريطانيين، والمعاملة القاسية التي يلقاها الأفارقة[5]. وكانت نشاطات الجمعية الإنسانية تذكر بانتظام في أسبوعية *العهد الجديد*، التي كان يقرأها جميع الأعضاء.

في أواخر الشهر الثامن، اعتقل «متمرّدون» إفريقيون في بشوانا لاند وسيقوا إلى مدينة الكاب حيث تمّ تأجيرهم لمزارعين لقاء عشرة شلنات في الشهر. «إن لم يكن هذا استعباداً، فماذا يُعتبر؟» تساءلت *العهد الجديد* بغضب[6]. وليامس وصف في مقال ظهر في عدد 1/ 6/ 1901 من *المرآة*،

---

(1) كاثلين فيتز باتريك، *اللايدي هنري سومرست*، بوسطن، ليتل، براون، 1923، ص 120؛ *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

(2) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

(3) المرجع ذاته.

(4) لاغوس ستاندارد، 27/ 7/ 1898؛ جريدة ساحل الذهب، 12/ 8/ 1898.

(5) جريدة العهد الجديد، 27/ 5/ 1897.

(6) المرجع ذاته، 2/ 9/ 1897.

وضع أسرى حرب الماتابيلي، «أولئك المساكين الذي كانوا يباعون في ساحة كيبتاون كما في أيام الرق في الولايات المتحدة». ويقول إن هذه القضية أثارت الشعب البريطاني فدارت النقاشات في كلّ مكان. وجابت السيدة كنلوش البلاد وألقت عدة محاضرات حول هذه المسألة.

منذ وصول وليامس إلى إنكلترا سنة 1896، أحاط نفسه بمجموعة من الأفارقة يتّفق معهم على مسائل وطنية تتعلّق بمصير «العرق الإفريقي»[1]. وكانت أهداف *الجمعية الإفريقية* «تعزيز الرغبة في الوحدة وتسهيل علاقات الصداقة بين الأفارقة بشكل عام، وحماية مصالح كلّ أبناء السلالة الإفريقية، كليّاً أو جزئياً، في المستعمرات البريطانية وأماكن أخرى، خصوصاً في إفريقيا، عبر نشر المعلومات المناسبة حول المسائل التي تتعلّق بحقوقهم كمواطنين تابعين للامبراطورية البريطانية، وبالاتصال مباشرة بالحكومة الامبراطورية وبالإدارات المحلّية»[2].

سعى البريطانيون جاهدين ليزرعوا في نفوس أبناء مستعمراتهم إيماناً ثابتاً بعظمة امبراطوريتهم، وبطيبة الملكة ڤيكتوريا. فحصلوا على نتائج مهمّة، منها مثلاً عندما أرسل غاندي جهازاً من المسعفين لمساعدة البريطانيين في حربهم ضد «المتمرّدين الزولو». وقد أكّد في وقت لاحق قناعته أنّ الامبراطورية البريطانية تساهم في رفاهية العالم[3]. دوبوا من جهة ثانية، ألم يعترف بإعجابه بالملكة ڤيكتوريا، معتبراً إياها «رمزاً رائعاً للامبراطورية»، ترفع علمها في أنحاء الدنيا، وتمسك بيد الشعوب غير

---

(1) لاغوس ستاندارد، 27/ 7/ 1898.

(2) *تقرير المؤتمر الأفريقاني*، لندن، الجمعية الأفريقانية، 1900، ص ص 3 ـ 4. كلّ الهوامش التي تلي تتعلّق *بالتقرير*، بتاريخ 28/ 7/ 1900، المطبوع بالآلة الكاتبة، والمحفوظ في *أوراق دوبوا*، في مكتبة دوبوا، جامعة أمهرست، ماساتشوستس، الولايات المتحدة.

(3) م.ك. غاندي، *مذكّرات: قصة تجاربي مع الحقيقة*، واشنطن، منشورات الشؤون العامة، 1954، ص 313.

البيضاء نحو التنصير، والحضارة، وربّما الاستقلالية[1].

وليامس، مثل الكثيرين من أبناء المستعمرات، كان خاضعاً لأسطورة التفوّق الإنكليزي، وبدا مقتنعاً بالسيطرة البريطانية، وبامبراطورية تشعّ على العالم وتقدّم للأفارقة «أنوار الحضارة». حول هذه النقطة نعرف أنّ لقاءه بالسيدة كنلوش غيّر له مفاهيمه. لكن بالرغم من كلّ المعلومات، لم يتخلّ وليامس عن إعجابه بالقوّة البريطانية وبسلطتها على ملايين الأفريقيين.

بدأ وليامس وأصدقاؤه بالإجراءات لدى الحكومة البريطانية لتأسيس جمعيتهم[2]. كان تفكيرهم على النحو التالي: إن كان البريطانيون يسعون لحماية من هم «ليسوا أهلهم ولا أصدقاءهم»، فلِمَ لا يقوم رجال ونساء من السلالة الإفرقية، تعود أصولهم إلى جزر الهند الغربية (جزر الكاريبي الإنكليزية) بتشكيل جمعية تُعنى بأشخاص لا يستطيعون مساعدة أنفسهم. وفي وقت لاحق، سنة 1901، صرّح وليامس بأنّه على الأفارقة أن يتّحدوا لينفّذوا مشاريعهم بأنفسهم، بالرغم من نوايا الآخرين النبيلة[3]. خلال مقابلة معه في ترينداد، قال إن أعضاء الجمعية الإفريقية يرون من واجبهم مساعدة جمعية حماية السكان الأصليين والجمعية المناهضة للرق ليثبتوا للبريطانيين أنّ مواطني جزر الهند الغربية من السلالة الإفريقية هم فعلاً مهتمّون بأوضاع الشعوب في إفريقيا[4].

ضمن أصدقاء وليامس الذين انضمّوا إلى الجمعية الإفريقية وشاركوه توجّهاته نذكر فريدريك إ. باس[5]. وهو طبيب ولد في أنتيغوا، وجاء إلى بريطانيا لمعادلة شهادته كي يستطيع العمل في ترينداد، إلى حيث هاجر

---

(1) و.إ.ب. دوبوا، *ظلمة الفجر*، نيويورك، شوكن بوكس، 1968، ص 41 (الطبعة الأولى: 1940).

(2) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

(3) المرجع ذاته.

(4) المرجع ذاته، 17/ 5/ 1901.

(5) المرجع ذاته، 1/ 6/ 1901.

والداه. الأب هنري مايسون جوزف هو صديق آخر، أيضاً من أنتيغوا، انتخب رئيساً للجمعية، وقد ترأس أوّل اجتماع لأعضاء وأصدقاء الجمعية، في 11/ 1/ 1898. هذا الاجتماع عقد في الإكزيتير هول، مركز العتقيين القديم، الذين كان مديرهم جورج وليامس، مؤسس جمعية الشبان المسيحيين. تقرير الاجتماع الذي نشرته مجلة العهد الجديد يذكر ثمانية وعشرين شخصاً من الحضور نذكر منهم بالإضافة إلى وليامس وجوزف: فلتشر، السيدة جوزف وابنتها، الدكتور لوو وزوجته، السيدة سيفبرايت غرين، السيدة م.ت. كول، هاري غورني، ف.و. فوكس، السيد والسيدة والآنسة ت. بوين غرين، إ. أ. دورهام، الآنسة غروم، الآنسات باول، الأب و. فاركوهار، د.ف. إيليس باس، د. إ. جيمس هايفورد، أ.س. دورهام، ر. إ. فيبس، والسيد والسيدة هـ. آلن.

نشر عدد 20/ 1/ 1898 من *العهد الجديد* كلمة الترحيب التي ألقاها جوزف وعرض فيها «أهداف وتميّز الجمعية». كما ذكرت المجلة ملخصاً عن كلمتي فلتشر والسيدة لوو، وعلّقت بأن فيهما بعض المبالغة خصوصاً بتشبيه الجمعية *بالمؤتمر الهندي الوطني* في حال عملت بشكل فعّال. الأب فاركوهار، من جزر لوس في إفريقيا، ألقى خطاباً بليغاً حول «مستقبل العرق». أما الدكتور إرنست جيمس هايفورد فقد وجّه رسالة تهنئة للرئيس. ود. هايفورد (1858 ـ 1913) هو شقيق ج.إ. كيزلي هايفورد (1864 ـ 1930)، محام وكاتب من إفريقيا الغربية، من تلامذة بليدن المقرّين. وليامس ذكّر بتمنّي أعضاء الجمعية وهو جمع أكبر عدد من الأفراد. كما اقترح العمل على فتح فروع لها في المستعمرات والمحميات[1].

فقط بعض مسؤولي الجمعية عرفت هويتهم في أيامنا هذه. الاخوة دورهام، وأصلهم من ترينداد، كانوا أولاد جورج أوراسيو دورهام، مدرّس متقاعد تحوّل إلى زراعة الكاكاو والتجارة. إرنست أصبح محامياً مثل شقيقه

(1) جريدة *العهد الجديد*، 20/ 1/ 1898.

فريدريك الذي ألّف كتاب نجمة *ليبيريا الوحيدة* (دفاعاً عن هذه الجمهورية، سنة 1892). ولا نعرف الكثير عن أخيهم إ.س. دورهام سوى أنّه كان الأمين المساعد للجمعية الإفريقية[1]. الأب و. فاركوهار، من أنتيغوا، كان أستاذاً في مدرسة ميكو في سان جون، عاصمة الجزيرة. عمل فيها خمس عشرة سنة وسيم نائب كاهن في كنيسة إنكلترا. ثمّ قصد جزيرة كاسا (في جزر لوس) في إفريقيا الغربية، في الشهر العاشر من 1890، بهدف تأسيس مدرسة للبنين لإرسالية ريو بونغو[2]. ريتشارد إ. فيبس، وأصله من أروكا، في ترينداد، مثل وليامس، كان طالب حقوق في إنكلترا هو أيضاً. الشخص الوحيد المولود في إفريقيا من المعروفين هو د. هايفورد، من مواليد ساحل الذهب. كذلك أمكن التعرّف إلى عدد محدود من أصدقاء الجمعية الإنكليز.

هنري غورني كان عضواً في هيئة جمعية حماية السكّان الأصليين، ومن أوائل أعضاء الشرف في الجمعية الإفريقية، تشارلز هـ. ألن كان سكرتير الشرف للجمعية البريطانية والأجنبية المناهضة للرق. وكان هناك أعضاء آخرون من جمعية حماية السكان الأصليين من الذين حضروا الاجتماع، مثل البرلمانيين فيليب ستانهوب وجورج و.إ. راسل[3]، وهو كاتب غزير الإنتاج ومن الوجوه البارزة في الحزب الليبرالي.

مجلة الجمعية المناهضة للرق نشرت بياناً يعرض أهداف الجمعية الإفريقية، ولمزيد من المعلومات، كان يُرجى التوجّه إلى هـ. س. وليامس، في الغرايز إين[4]. ويبدو أنّ بعض الجهات لم يرق لها ظهور جمعية من هذا النوع ولم تتوقّع لها الاستمرار أكثر من ثلاثة أشهر. لم تكن تتصوّر قدرة الملوّنين على الاتّحاد. وليامس كان قد ركّز على ضرورة

(1) *كريول بيترز*، الشهر الخامس من سنة 1901.
(2) أ.هـ. بارو، *خمسون سنة في إفريقيا الغربية*، لندن، 1900، ص ص 131، 135.
(3) مجلّة المراسل المناهض للرق، الشهر الثالث ـ الشهر الخامس 1899، ص 112.
(4) المرجع ذاته، الشهر السابع ـ الشهر الثامن 1898، ص 182.

استقلالية الجمعية، وإدارتها من قبل ممثّليها، وليس من قبل أوروبيين[1]. وبالفعل استمرّت الجمعية مدّة أربع سنوات.

انسجاماً مع حرص الجمعية على حماية مصالح «إخواننا الأفارقة»، اتصل وليامس ببرلانيني وافقه على الإجابة عن أسئلة تطال الوضع في المستعمرات، لا سيما في جنوبي إفريقيا. وكتب إلى جوزف تشامبرلاين، وزير المستعمرات، حول وضع الأفارقة في روديسيا[2] وإلى صحف عديدة باسم الجمعية. وقد نشرت إحدى رسائله في *القائد*، بعنوان «نداء من إفريقي»[3]. بالرغم من أنّه لم يكن إفريقيا كان يعرّف عن نفسه على هذا الأساس ربما لأنّ أكثرية الإنكليز لا يميزون بين الأشخاص الملوّنين.

عرض وليامس الإصلاحات التي كان يسعى إليها. فأظهر الامتياز الذي كان يحصل عليه البريطانيون باختيار ممثلين لهم في البرلمان، وغيابه لدى السكّان الأصليين الذين كانوا «مواطنين بريطانيين بالاسم». كما انتقد الطرق المعتمدة لتمدين السود وأهداف «الساعين لهذا التمدين الذين كانوا يقدّمون لهم مسيحية ناقصة». وشجب موقف الحكومة البريطانية التي سمحت بإدخال الرق إلى جنوبي إفريقيا، بقيادة سيسيل رودس. ودعا الرأي العام الإنكليزي وممثّليه، باسم الجمعية الإفريقية، إلى توفير عدالة غير متحيّزة. وكتب أنّ الجمعية مستعدّة لاستقبال منظمات حضارية تدعم التعليم (كالمدارس والمؤسسات التعليمية التي يديرها رجال الدين مثلاً).

لم يكن وليامس مع تغريب كامل للأفارقة، بل مع أن يتبنّوا المظاهر الجيدة من الثقافة الأوروبية، ويحتفظوا بأفضل ما في تقاليدهم. إنّ الإيمان الساذج لوليامس بالرأي العام الإنكليزي وثقته بانقلاب ممكن في السياسة

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

(2) إيمانويل غايس، *الأفريقانية*، فرنكفورت سور لومان، 1965، ص 283، عن لاغوس ستاندارد، عدد 4/ 1/ 1899.

(3) رسالة من دون عنوان، استعادتها جريدة *القائد*، تحت عنوان: «نداء إفريقي»، *أوراق وليامس*، باراتاريا، ترينداد.

تجاه الأفارقة مستغرب لدى مستعمَر يعيش في عصر الإمبريالية. غير أنّ عالم الاقتصاد ج.أ. هوبسون، وهو من أوائل الذين كتبوا عن الامبريالية، سنة 1902، أشار إلى «عمل السياسيين المباشر والواعي»، الساعي للتأثير على الرأي العام في تلك الحقبة. بين المؤسسات الحريصة على هذا التوجّه نذكر *الرابطة الإفريقية الجنوبية*، التي كان مبعوثوها ينشطون في إفريقيا الجنوبية وفي إنكلترا، «تساعدهم بصورة فعالة جهود السيد رودس الصحافية». رودس، رئيس الرابطة، كان، مع رأسماليين آخرين، يؤمّن مساعدة مادية. وتكثّفت جهود الرابطة مع توسّع السلطة الإمبريالية في جنوبي إفريقيا[1]. كيف استطاعت الجمعية الإفريقية مواجهة هذا المارد السياسي والمالي الذي نجح في التأثير على المفوّض الأعلى، اللورد ماينر، وعلى سلوك الحكومة البريطانية؟

«المؤتمر الأفريقاني»: التحضير والأهداف:

نفهم من التقرير الرسمي أنّه منذ «بداية السنة 1897» ـ أي قبل تأسيس الجمعية الإفريقية ـ[2] ولدت فكرة مؤتمر يعود «بفائدة كبيرة على مسألة معاملة السكّان الأصليين».

الرأي البريطاني، حسب الوثيقة، كان «مضطرباً» بسبب عدّة معلومات تتعلّق بنتائج حروب الماتابيلي وبشوانا لاند، والنظام «المختلط» السائد في منطقة المناجم في جنوب إفريقيا، ووجود الرق في بمبا وزنجبار، وتمرّد السكّان الأصليين في سيراليون، ويأس سكّان مستعمرات الكاريبي الإنكليزية، نتيجة لأزمة اقتصاد السكّر وما خلّفه الإعصار.

السنة 1900 فرضت نفسها بسرعة بسبب المعرض العالمي في باريس الذي جذب الزوار من أنحاء العالم. بشكل خاص، أدى تواجد شخصيات

(1) ج.أ. هوبسون، سيكولوجية الجنغوية، لندن، ج. ريتشاردس، 1901، ص ص 136 ـ 137.

(2) تقرير المؤتمر الأفريقاني، لندن، 1900، ص 3.

من الكاريبي والولايات المتحدة والبرازيل في باريس إلى مشاريع لجمع هؤلاء المسافرين. وكثيرون منهم، خصوصاً الناطقون باللغة الإنكليزية، كانوا مضطرين إلى المرور بلندن، أو أحد المرافىء الإنكليزية.

عن قراءة التقارير ووثائق العمل، نلاحظ أن أهداف المؤتمر تغيّرت حسب العصر وحسب المنظّمين. بيان 19/ 3/ 1898[1] أراد لفت انتباه الرأي العام إلى وضع السكّان الأصليين في المستعمرات الإنكليزية في الكاريبي وإفريقيا.

التقرير الرسمي يشير إلى إرادة المنظِّمين محاربة النقص في المعلومات المتعلّقة «بمعاملة السكّان الأصليين تحت السيطرة الإنكليزية»[2] وكذلك المستعمَرين من قبل الأوروبيين والأمريكيين الشماليين[3].

في رسالة بتاريخ 11/ 11/ 1899، يقول هـ س. وليامس إنّ مشروع المؤتمر يهدف خصوصاً إلى «التقريب بين قياديي المؤتمر الأفريقاني» والإجابة على الانتظار الذي عبّرت عنه رسائل أشخاص كثيرين مؤيّدين للفكرة.

المستغرب في الأمر أنّ التقرير الرسمي لم يذكر وجود بينيتو سيلفان وبوكر ت. واشنطن في لندن سنة 1897، ولا مشاركتهما. هـ.س. وليامس وهنري مايسون جوزف، رئيس الجمعية الإفريقية، التقيا بينيتو سيلفان الذي كان يزور لندن في الشهر 12 من 1897، قبل أن يتوجه إلى باريس. كان آتياً من الكاريبي بعد رحلته الأولى إلى الحبشة[4].

---

(1) المرجع ذاته، ص 2؛ المراسل المناهض للرق، الشهر الثالث ـ الشهر الخامس 1899، ص 112.

(2) المراسل المناهض للعنصرية، الشهر الثالث ـ الشهر الخامس 1899: 112.

(3) تقرير المؤتمر الأفريقاني، لندن، 1900، ص 4.

(4) بينيتو سيلفان، *مصير السكان الأصليين في مستعمرات الاستغلال*، باريس، بواييه، 1901، ص 508.

سنة 1897 هي السنة الحاسمة التي تبلورت فيها فكرة مؤتمر أفريقاني في لندن. بينيتو سيلفان وأنتينور فيرمان أيّدا هذا المشروع وبدأا من جهتهما أعمالاً تحضيرية تهدف إلى إعلام الناطقين باللغة الفرنسية وتلقّي الانتسابات. أنتينور فيرمان الذي كان سفير هايتي في باريس، قدّم للمشروع مساهمة لا يمكن إغفالها.

في اجتماع للجمعية في 19/ 3/ 1898، قرّر الحاضرون كتابة مذكّرة تعلن «انعقاد مؤتمر في الشهر الخامس من سنة 1900، بغية اتخاذ تدابير للتأثير على الرأي العام بالنسبة إلى الوضع القائم وشروط حياة مواطني مختلف أنحاء الامبراطورية البريطانية... جنوبي إفريقيا، وإفريقيا الغربية، وجزر الهند الغربية البريطانية». وقد تمّ التركيز على النواحي التي تلقي بالمسؤولية على عاتق الحكومة البريطانية، والتي بخصوصها يجب أن تجيب أمام البرلمان.

عيّن تاريخ المؤتمر بادىء الأمر في الشهر الخامس من سنة 1900، لكنّه تأجّل بطلب العديد من القادة السود في الكاريبي، والولايات المتحدة، وإفريقيا الذين كانوا من لندن وحضروا الاجتماع التحضيري لهيئة المؤتمر الأفريقاني في 12/ 6/ 1899. فاختاروا الشهر السابع وعيّنت الهيئة تاريخ 23 ـ 24 و 25/ 7/ 1900، خصوصاً لأنّ الكثير من المدعوّين كانوا يريدون المشاركة في مؤتمر الاجتهاد المسيحي العالمي بتاريخ 16/ 7/ 1900 في لندن[1].

التقرير الرسمي يشكر «الأشخاص النافذين» للخدمات التي أدّوها لهيئة المؤتمر. لقد قاموا بالدعاية له في بلدانهم، وبعضهم كانوا رؤساء فروع الجمعية الأفريقانية، التي أنشئت من أجل المؤتمر. هؤلاء المستشارون هم شخصيات تشرّف المؤتمر بحضورهم، ويذكر التقرير أسماء الأساقفة جيمس ت. هولي، جيمس جونسون، هنري ماك نيل تيرنر، والأب د. موجولا أغبيبي، و و. فاركوهار، والقاضي ديفيد أغوستوس ستريكر، وبينيتو

---

(1) المرجع ذاته.

سيلفان، والبروفسور و.س. سكار بورو، وهنري ريتشارد كارغيل، و.ج. تنغو جيبافو، وج. أوتونبا بايني، والبروفسور بوكرت. واشنطن[1].

بالرغم من أنّ البعض منهم كان لا يزال غير معروف، فقد كانوا كلهم من الشخصيات السوداء المعتبرة في تلك الفترة. البروفسور بوكر ت. واشنطن كان مشهوراً بأنّه «حكيم تاسكيغي» بعد خطابه الشهير في أتلانتا سنة 1895. في لندن، في الشهر السادس من 1899، ألقى ب.ت. واشنطن محاضرة حول «ظروف الأعراق الملوّنة في أمريكا وتطلّعاتها»[2].

الأسقف هولي، من الكنيسة الأسقفية في هايتي، كان قد نظّم مع مارتن ر. ديليني مؤتمر *الهجرة* في كليفلاند، أوهايو، في الشهر الثامن من 1854، وكان يحظى بتأييد السلطات الهايتية. الأسقف جونسون، صديق إ.و. بليدن، ولد في سيراليون، من والدين أسيرين محرّرين. كافح لسنوات لتنظيم كنيسة إفريقية. وترك الكنيسة الأنغليكانية عند تأسيس الكنيسة الجديدة. كان إرسالياً في سيراليون، ولاغوس، ويوروبالاند، وفي الدلتا السفلى في النيجر. طوّب أسقفاً مساعداً لدلتا النيجر في لندن في 18/ 2/ 1900[3]. الأسقف تيرنر كان مديراً ناشطاً للكنيسة الأسقفية الميتودية الإفريقية وبدءاً من السنوات 1870 ـ 1880، أصبح من أنصار الهجرة إلى إفريقيا. هو من يقف وراء توسّع نفوذ كنيسته في جنوب إفريقيا. أغبيبي (ديفيد ب. ڤنسنت سابقاً) كان قسّاً معمدانياً، مدير مدرسة *الأمل* في لاغوس، وقد حاول إنقاذ الأطفال من الفقر. وصفه بليدن سنة 1902 بأنّه تجسيد «الشخصية الأفريقية»[4]. كما أنّه كان مدافعاً عن بعض التقاليد والمؤسسات الإفريقية التي يجب الحفاظ عليها لحداثتها. القاضي ستريكر،

---

(1) المرجع ذاته.

(2) *التايمز*، 4/ 7/ 1899.

(3) إ.أ. أياندیلي، هولي جونسون: *رائد الوطنية الإفريقية*، نيويورك، منشورات الإنسانيات، 1970.

(4) انظر هوليس ر. لينش، *إ.و. بليدن: مواطن أفريقاني، 1832 ـ 1912*، نيويورك، منشورات جامعة أوكسفورد، 1967، ص ص 238 ـ 240.

الذي كان يجب أن يمضي تقاعده في ميشيغان، كان قد نشر ثلاثة كتب، من ضمنها كتاب صغير عن حياة توسان لوڤرتور. البروفسور سكاربورو، عالم إنسانيات لامع، كان رئيس جامعة ويلبر فورس، في أوهايو. هنري ريتشارد كارغيل كان مزارعاً من جامايكا، وتاجراً ورجل سياسة في بور أنطونيو، وعرّف به كتاب مشاهير جامايكا بكونه «عضواً ناشطاً في الكنيسة المعمدانية»[1]. جيبافو، من جنوبي إفريقيا، كان مدير الأسبوعية الإفريقية *الرأي الإفريقي*، في كينغز وليامس تاون في مستعمرة الكاب. أوتونبا بايني كان رئيس كتبة المحاكم في لاغوس، ومسؤولاً عن إدارة مدرسة الأمل. لقد استضاف بليدن، وكان عضواً في الهيئة التي دعته لأوّل رحلة له إلى لاغوس سنة 1890.

هذا التجمّع لأبناء السلالة الإفريقية، لرجال من بلدان مختلفة، يثبت اهتمامهم المشترك بمصير إخوتهم المظلومين، ورغبتهم في التوحّد لحمايتهم وتطويرهم.

المصطلح «أفريقاني» لم يُستعمل خلال التحضيرات، بالرغم من أنّه ذكر قبل مؤتمر 1900 للإشارة إلى اللجنة التحضيرية. إنّ أوّل وثيقة نجد فيها عبارة «أفريقاني» هي رسالة بتاريخ 11/ 11/ 1899 كتبها وليامس إلى ج.م. بورن، عضو في الجمعية الإفريقية. هذا الأخير كان يعترض لأنّ تنظيم المؤتمر لم يكن هدفاً نصّ عليه نظام الجمعية الأساسي. وليامس وجوزف لم يكونا من رأيه. أجابه وليامس بأنّه يأسف لنبرته الغاضبة ويعتذر لأنّه لا يستطيع أن يلبّي له طلبه الذي يهدف ربّما إلى إلغاء مشروع المؤتمر. في رسالته أكّد وليامس أنّه ليس هناك أي انحراف وأنّهم يحترمون بنود نظام الجمعية الأساسي. وافترض أنّ بورن ربّما لم ينتبه كثيراً إلى البيانات التي سبقت مشاريع تأسيس الجمعية. وكتب يقول: إنّ «مؤتمراً أفريقانياً»[2] سيقرّب بين قادة الجمعية. من جهة أخرى، كلّ الإجابات التي

(1) *مشاهير جامايكا*، كنغستون، ستيفن أ. هيل، 1916.

(2) أفريقاني: بان ـ أفريكان، كان وليامس يكتب: بانافريكان.

وصلت كانت تؤيّد انعقاد المؤتمر، وتتوقّع له نجاحاً كبيراً[1]. هل كان بورن من الإعضاء المؤسسين للجمعية؟ يحقّ لنا أن نشكّ لأنّه في هذه الحالة، لكان عرف أنّ فكرة المؤتمر كانت موجودة من البداية، وأنّ قرار تنظيمه اتّخذ شكلياً في اجتماع 18/ 3/ 1898.

أدرك وليامس أنّه آن الأوان لكي يكافح السود من أجل مصالحهم الخاصة. كان قد سئم سماع الليبراليين يسألونه: «ماذا يفعل السكّان الأصليين في الكفاح للدفاع عن حقوقهم؟».

بهذا المؤتمر، كان وليامس يدرج مشروعه في عملية بدأت بها الحركة السلافية الجامعية في براغ سنة 1898. كان هناك أيضاً الرابطة الجرمانية الجامعة الممثّلة *بالاتّحاد الألماني* الذي عقد مؤتمراً في السنة ذاتها، في ميونيخ، وقد شارك فيه مندوبون من كلّ منطقة في ألمانيا ومجموعات محلية مقيمة في الخارج. *الاتحاد* كان يسعى لبث الروح الوطنية، وتشجيع التضامن بين كلّ الشعوب الناطقة بالألمانية، وتحضير وحدتهم السياسية[2].

إنّ إقامة ثلاث مستعمرات ألمانية في إفريقيا، كانت مصدر نزاع بين أتباع الجامعة الألمانية والأفريقانيين. لقد أصرّت المجموعة الألمانية لدى الحكومة النمساوية وحصلت على ما تريد. أمّا الأفريقانيون، فقد كانوا مضطرين إلى الاعتداد في طلباتهم، بسبب أوضاعهم الخاصة. بعكس الشعوب الجرمانية المتجمّعة في منطقة جغرافية كبيرة، مؤلّفة من عدّة بلدان يتكلّمون لغة واحدة، كان السود مشتّتين في قارتين يفصل بينهما محيط كبير، من دون لغة مشتركة، وتحت سيطرة أمم بيضاء متفرّقة. وفي جهدهم لتجاوز انقساماتهم الثقافية كي يستمرّوا ويتقدّموا، وجدوا أنفسهم مضطرين

(1) رسالة من وليامس إلى بورن، في 11/ 11/ 1899، أوراق المناهضة للرق، مكتبة رودس هاوس، أوكسفورد.
(2) التايمز، 6/ 10/ 1898.

إلى استعمال أدوات الثقافة والتواصل الموجودة لدى المستعمر الأوروبي.

لا نعرف إن كان هناك إنكليز غير بورن عارضوا مشروع المؤتمر الأفريقاني، لكن هذا النزاع يظهر أنّه منذ البداية كانت فكرة الأفريقانية موضوعاً للاعتراض من قبل بعض أعضاء الجمعية. لا شك في أنّ بورن رأى أنّ الجمعية تسير في مسالك سياسية تشكّل تغييراً جذرياً بالنسبة إليه. أمّا وليامس ورفاقه، وبالرغم من امتنانهم لمساعدة أصدقائهم، فقد كانوا مقتنعين بأنّ السود قادرين على حماية مصالحهم بأنفسهم.

كانت هيئة المؤتمر الأفريقاني مكلّفة بتنظيمه، فأخذت تبحث فوراً عن مشاركين محتملين. وكان الشعار المطروح «أنوار وحرّية».

كان اسم وليامس مدرجاً على الدعوات كأمين عام للجمعية إلى جانب المسؤولين الآخرين، الرئيس: الأب هـ. مايسون جوزف، نائب الرئيس: الأب ت.ل. جونسون، سكرتير للكاريبي: ر.إ. فيبس، وسكرتير لإفريقيا الغربية: هنري بلانج[1]. كما عُيّن سكرتير لجنوب إفريقيا، لكن اسمه لم يرد على الدعوات. كانت التعليمات الأولى بخصوص جمع النقود لتمويل المؤتمر. ولم يصل سوى تبرّعين سنة 1899، الأوّل من ج. تومسون بقيمة خمسة جنيهات استرلينية والثاني بقيمة أربعة جنيهات من د. كامبل، ولم نتعرّف إلى أيّ منهما.

في بداية الشهر الرابع من 1900، وصل وفدان للمشاركة في المؤتمر المقرّر انعقاده في الشهر السابع. أوّل الواصلين كان جون إ. كينلان من سانتا لوسيا في الكاريبي، والأب س.ر.ب سولومون من أكرا في إفريقيا الغربية، لكن اسم هذا الأخير لا يرد على أيّ من لوائح المشاركين في المؤتمر. كان سولومون من أوائل الوطنيين في ساحل الذهب، وقد غيّر اسمه إلى أتوه ـ أهوما وألّف كتابين: *مذكّرات مشاهير من إفريقيا الغربية*[2]

(1) رسالة من وليامس إلى باكتسون، 2/ 4/ 1900، أوراق المناهضة للعنصرية، أوكسفورد.
(2) ليفربول، د. ماربلز، 1905.

وساحل الذهب والوعي الوطني[1]. كينلان من جهته كان قد كتب مذكّرة موجّهة إلى «مفوّضية الهند الغربية الملكية» يطالب فيها الحكومة البريطانية بتعويضات للمتّحدرين من العبيد. لكنّه صرّح بأنّه يطلب قرضاً بدل «هبة شرعية يجب أن نستلمها»[2].

في نهاية الشهر الخامس من سنة 1900، تلقّى وليامس رسائل عديدة من شخصيات مدعوّة من الولايات المتّحدة وجنوب إفريقيا تعلن عن وصولها بعد شهر أو شهرين. فطلب دعم *الجمعية المناهضة للرق* من أجل تحقيق إنجاز «لانيس»[3]، ولكن لم تصله منها أي مساعدة، بالرغم من أنّها شجّعت *الجمعية الإفريقية* قبل ذلك بسنتين وقامت بالدعاية للمؤتمر. ربّما أعضاء تلك الجمعية الخيرية خافوا عندما اقترب موعد المؤتمر وبدا أنّه سيتحقّق فعلياً.

إنّ تلكّؤ الجمعية المناهضة للرق لم يحبط عزيمة وليامس وأصدقائه، فتابعوا الاستعدادات ووصلت الأموال. وحُدّدت التواريخ ردّاً على الراغبين في زيارة المعرض العالمي في باريس، والمشاركين في مؤتمر الاجتهاد المسيحي في لندن. لولا هاتين المناسبتين، نتساءل كم شخصاً كان سيجمع المنظّمون لحضور المؤتمر الأفريقاني. هكذا، انتقل و.إ.ب دوبوا من نيويورك إلى باريس حيث يفترض به الإشراف على جزء من المعرض مخصّص لزنوج الولايات المتّحدة[4]. بالنسبة إلى الآتين من الكاريبي أو من إفريقيا، كانت تلك مغامرة كبرى. بناء على فكرة من وليامس، قرّر المنظّمون إحداث مفاجأة كبيرة بالطلب من أسقف لندن، د. مانديل

(1) ليفربول، د. ماربلز، 1911؛ لتفاصيل أكثر حول هذه الشخصية، انظر روبرت جولي، *أصول الفكر الإفريقي الحديث*، نيويورك، فريدريك بريغر، 1968، ص ص 341 ـ 344.

(2) تقرير لجنة الهند الغربية الملكية، لندن، 1897، 3، 74.

(3) من وليامس إلى باكستون، في 31/ 5/ 1900، أوراق المناهضة للعنصرية.

(4) و.إ.ب. دوبوا، *مذكّرات و.إ.ب. دوبوا*، نيويورك، الناشرون العالميون، 1968، ص 221.

كوايتون، أن يكرّم التظاهرة ويفتتح المؤتمر[1].

القرار الأوّل المتعلّق بالمؤتمر اتّخذ قبل افتتاحه بستة عشر يوماً. أقام أعضاء *نادي الإصلاح الجديد* حفلة دعي إليها «الموفدون المشاركون في المؤتمر الأفريقاني الذي سيعقد هذا الشهر في لندن لكي يُسمع رأي السكّان الأصليين بخصوص المواضيع المتعلّقة بالأعراق المحلية في مختلف مناطق العالم»[2]. ولأوّل مرّة، استعملت الصحافة التي تحدّثت عن الاجتماع المصطلح «أفريقاني».

بعد هذا الحدث عقد اجتماع برئاسة أمين الصندوق الفخري ب.و. كلايدن. وأعلن وليامس أنّ المؤتمر سيكون الفرصة الأولى للسود للاجتماع في إنكلترا، للتحدّث فيما بينهم ومحاولة توجيه الرأي العام في صالحهم. هذا المؤتمر سيتناول أيضاً وضع السود في جنوب إفريقيا الذين يجب أن يعرفوا أنّ مصالحهم لم تؤخذ بعين الاعتبار في الحرب الإفريقية الجنوبية[3].

المتحدّثون الآخرون كانوا كينلان، السيدة كوبدن أنوين، زوجة الناشر ت. فيشر أنوين، ابنة السياسي الراديكالي الكبير ريتشارد كوبدن، ود.ر.ف. كولنو، أسقف ناتال الذي قاد حملة صعبة ضد المعاملة السيئة للسكان الأصليين في جنوب إفريقيا.

خلال لقاء نُظّم برعاية الجمعية الإفريقية، قبل أسبوع من افتتاح المؤتمر، قُدّمت مذكّرة للأسقف جيمس جونسون عند سفره من اللاغوس لتعيينه في أسقفية النيجر الأسفل. الذين هنّأوه لم يكونوا يعرفون أنّه كان قد رفض هذا المنصب مرّتين. هذه التسمية كانت تحرمه من ممارسة كامل سلطته وتأخذ منه نصف راتبه؛ ولهذا السبب لقّب بـ «نصف أسقف»[4].

---

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

(2) *التايمز*، 7/ 7/ 1907.

(3) المرجع ذاته.

(4) إ.أ. أيانديلي، المرجع المذكور سابقاً.

كان جونسون القس الأبرز في إفريقيا الغربية، وكان منذ البداية، بتشجيع من صديقه بليدن، قائداً يكافح من أجل كنيسة إفريقية وفيما بعد، مشرّعاً عيّنه المجلس التشريعي في اللاغوس، من قبل الرئيس كورنيليوس ألفرد مولوني.

كاتبو الوثيقة ارتأوا أنّه يجب إيفاء ميزات الأسقف وإنجازاته حقّها، وأنّه آن الأوان للشعب الأسود أن ينمّي «مواهبه وطاقاته» الخاصة.

لقد اعترفوا بأنّ وضع الأسود ـ «في موطنه أو تحت رايات القوى المعروفة» ـ لم يكن مطمئناً. وكانوا يعتقدون أنّه بإمكانهم تسخير جهودهم لتربية الجيل الجديد لإبراز «إمكانيات العرق الهائلة»، وأنّه على أعضاء العرق أن ينشئوا مكتباتهم ومنظّماتهم الخاصة ويدعموها. هكذا سيسيرون جنباً إلى جنب مع «إخوتهم الأوفر حظاً القوقازيين»[1]. كانوا يدركون التزوير التاريخي الذي قام به «القوقازيون» وضرورة إصلاحه.

تضمّنت اللائحة الجزئية لموقّعي المذكّرة أسماء بعض الموفدين الذين جاؤوا من أجل المؤتمر، وأعضاء مقيمين من الجمعية الإفريقية. من هذه الأسماء: ف.إ.ر. جونسون، وزير سابق للعدل في ليبيريا؛ بينيتو سيلفان، مرافق مينيليك امبراطور الحبشة؛ هنري ف. داوننغ، قنصل سابق للولايات المتحدة في لواندا؛ السيدة م.ت. كول؛ أ.ر. هاملتون، من جامايكا؛ ن.و. هولم؛ ر.إ. فيبس؛ م.ف. ريبيرو؛ د. شوميروس؛ د.إ. توبياس؛ ج. و. د. ووريل؛ هنري سيلفستر وليامس وآخرون[2].

الأسقف جونسون أسف لأنه لا يستطيع البقاء وحضور الجمعية الأولى والوحيدة لإخوانه في العالم أجمع. وحيّى عمل وليامس ونشاطه، وجهود شبّان الكاريبي، والولايات المتحدة، وليبيريا والحبشة، الذين قاموا بهذا الإنجاز «الرائع»، مصمّمين على إيجاد حلّ لمشكلة السود. وبعدما

(1) تقرير المؤتمر الأفريقاني، المرجع المذكور سابقاً، ص 3.

(2) المرجع ذاته، ص 4؛ انظر أيضاً لائحة المشاركين في المؤتمر.

حث الحضور على أن يتحلّوا بالإيمان وأن يثقوا ببعضهم، صرّح الأسقف جونسون أنّ «المؤتمر الأفريقاني هو بداية اتّحاد انتظرته طويلاً وسيكون بإذن الله عالمياً!»[1]. مع كلمات التشجيع هذه من قبل رجل مميّز، كان أوائل الأفريقانيين حاضرين، مستعدّين لتحقيق هدفهم في إعطاء «النور والحرية» لأبناء عرقهم الآخرين.

المنظّمون والمشاركون:

لقد شارك في هذا المؤتمر، موفدون من الكاريبي، والولايات المتحدة، وإفريقيا وأوروبا. هنا لائحة غير شاملة، مستقاة من دراسة التقرير الرسمي، من بينيتو سيلفان، ومن تقرير والترز.

من الكاريبي:

- وليامس، هنري سيلفستر، محامٍ، لندن.
- فرانش، س.و.، سانت كيتس، جزر الهند الغربية البريطانية.
- بيار ألكسندر بولتشيري، مؤسّس جمعية ترينداد الأدبية، ترينداد.
- كينلان، جون إفراييم، مشرف إقليم، سانتا لوسيا.
- غيبس، ريتشارد إيمانويل، محام، ترينداد.
- كريستيان، جورج جيمس، الدومينيكان.
- ألسيندور، د. جون، طبيب أصله من ترينداد، كوبا.
- هاملتون، أ.ر.، جامايكا.
- جوزف، هـ. مايسون، أنتيغوا.
- هولي، الأسقف ج.ف.، هايتي.

(1) تقرير المؤتمر الأفريقاني، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 4 ـ 5.

-ووريل، ج.و.د.، الباربادوس.

من الولايات المتحدة:

- والترز، الأب ألكسندر، نيو جرسي، رئيس الجمعية الأفريقانية.

- دو بوا، وليام إدوارد بورغاردت، بروفسور، جورجيا.

- أرنيت، تشابلاين بنجامين و.، إيلينوي.

- لاف، جون. ل. أستاذ في كليّة الملوّنين العليا، واشنطن، دي.سي.

- داوننغ، هنري فرنسيس، قنصل سابق للولايات المتحدة في لواندا، إفريقيا الغربية.

- كالواي، توماس.ج.، أستاذ في معهد هامبتون (فرجينيا)، واشنطن، دي. سي.

- لي، تشارلز ب.، مدّع عام في روتشستر، نيويورك.

- جونس، الآنسة آنا هـ.، أستاذة في كلية كنساس سيتي العليا، كنساس سيتي، ميسوري.

- بارير، آنسة، واشنطن دي.سي.

- كوبر، الآنسة آنا جوليا، أستاذة لاتينية، واشنطن دي.سي.

- هاريس، الآنسة آدا، إنديانا.

- ستريكر، ديفيد أغوستوس، قاض سابق، ميشيغان.

- تيرنر، الأسقف هـ.م.، الولايات المتحدة.

- أغبيبي، الأب م.، الولايات المتحدة.

- واشنطن، بوكر. ت، أستاذ.

ـ وليامس، فاني بارير، صحافي في شيكاغو، إيلينوي.

من كندا:

ـ براون، الأب هنري ب.، كندا.

من إفريقيا:

ـ سيلفان، بينيتو، مرافق مينيليك امبراطور الحبشة.

ـ جونسون، ب.س.ر.، مدّع عام سابق، ليبيريا.

ـ دوف، ج.و. مستشار قانوني، فريتاون، سيراليون.

ـ ريبيرو، ميغيل فرنسيسكو، محام، ساحل الذهب.

ـ كنلوش، السيدة أ.ف. جنوب إفريقيا.

ـ جونسون، الأسقف جيمس، لافوس.

ـ سولومون، الأب س.ر.ب.، ساحل الذهب.

من المملكة المتحدة:

ـ سافاج، د.ر.أ.ك، موفد الجمعية الأدبية لإفريقيا والهند الغربية (اسكتلندا)، جامعة أدنبره.

ـ تايلور، صموئيل كولريدج، موسيقي، أ.ر.س.م، لندن.

ـ ماير، وليام هنري (ترينداد)، موفد الجمعية الأدبية لإفريقيا والهند الغربية في أدنبره.

ـ سميث، الأب هنري، لندن.

ـ باكل ج.، لندن.

ـ لودين، ج.ب.، مير مغنّيي يوبيل فيسك، لندن.

ـ لودين، السيدة ج.ف، لندن.

ـ كرايتون، الأسقف الدكتور، لندن.

ـ واير، فرنسيس.

ـ كوبدن ـ أنوين، السيدة جاين، إنكترا.

ـ كولنسو، د.ر.ح.، إنكلترا.

ـ كلارك، د.، إنكلترا.

ـ فوكس بورن، الأمين العام للجمعية الإنكليزية لحماية السكان الأصليين، لندن.

ـ باكستون، السير فاول، رئيس الجمعية المناهضة للعنصرية في لندن.

ـ باترسبي، هايفورد، عضو الهيئة المناهضة لتعويد السكّان الأصليين على الكحول.

ـ فاركوهار، الأب و..

ـ سكاربورو، أستاذ.

ـ كارغيل، هـ.ر..

ـ جيبافو، تنغو.

ـ باين، ح. أوتونبا.

ـ كول، السيدة م.ت.

ـ هولم، ن.و..

ـ شوميروس، دكتور.

ـ توبياس، د.إ.

أعضاء المنظّمة الدائمة (مهمّة لمدة سنتين):

- والترز، ألكسندر، نيوجرسي، رئيس.
- براون، الأب هنري ب.، لندن، نائب رئيس.
- دو بوا، و.إ.ب.، جورجيا، نائب رئيس في أمريكا.
- وليامس، هنري سيلفستر، أمين عام.
- كالواي، ت.ج.، أمين في أمريكا.
- كولنسو، د.ر.ج.، أمين صندوق.
- روبرترس، جاين، أرملة أوّل رئيس لليبيريا.
- روبرتس، جوزف جنكنز.
- موشيل، السيد والسيدة فيليكس.
- أدامز، الآنسة، إيرلندا.
- باترسبي، هايفورد، الهيئة المناهضة لتعويد السكان الأصليين على الكحول.
- باكل، ج.، الجمعية الجغرافية الملكية.
- باكستون، السير توماس فاول، الجمعية المناهضة للرق، لندن.
- كلارك، د. غيفين، نائب ليبرالي.
- كرايتون، د. مانديل، أسقف لندن.
- واير، فرنسيس.

الهيئة التنفيذية:

- تايلور، س. كولريدج.
- آرشر، جون.ر..

- لودين، ج.ف..

- داوننغ، هنري ف..

- كوبدن ـ أنوين، السيدة جاين.

- كوبر، الآنسة آناج.

مجريات المؤتمر:

هناك وثيقة استثنائية، غير معروفة كثيراً، حرّرها الهايتي بينيتو سيلفان ونشرها في كتابه الذي صدر سنة 1901، *مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال*[1]. وهي عبارة عن تقرير عن مؤتمر 1900.

المؤتمر الأفريقاني الأوّل تحدّد في 23، و 24 و 25/ 7/ 1900 وعقد في قاعة وستمنستر تاون في لندن. وقد استُحدثت لجنتان. الأولى لتهتمّ بتأسيس جمعية أفريقانية دائمة، وتتابع نشاطاتها. والثانية، برئاسة و.إ.ب. دوبوا، كلّفت بكتابة نداء لأمم العالم[2].

في غياب أسقف لندن، مانديل كرايتون، المكلّف بالترحيب بالمشاركين، افتتح والترز المؤتمر في 23 من الشهر السابع. فقال إنّه للمرّة الأولى يجتمع سود العالم من أجل تحسين وضعهم، والمطالبة بحقوقهم، واتخاذ مكان بين الأمم. وتابع مشيراً إلى خطأ السود في اختيارهم العيش في الولايات المتحدة، بين قوم كانت قوانينهم وتقاليدهم وأفكارهم موجّهة ضد السود.

كان على الشعب أن ينتظر مئتي سنة كل يحصل على حريته بينما لا يزال ينتظر حقوقه السياسية والإجتماعية ونوّه بانخفاض نسبة الأمية لدى السود في الولايات المتحدة بنسبة 45% وحيازتهم على 735 مليون دولار.

(1) باريس، بوابيه، 529 صفحة.

(2) تقرير المؤتمر الأفريقاني، لندن، 1900، ص ص 12 ـ 15.

المداخلة الأولى، بعنوان «شروط عيش أفضل للجماعة الإفريقية» كانت من س.و. فرانش، من سان كريستوف. وقد أدان سوء المعاملة والظلم تجاه السود تحت السيطرة البريطانية، وطالب بالمساواة في الحقوق. آنا هـ. جونس، من كنساس، تناولت في «الحفاظ على فردية العرق» فكرة المحافظة على «هوية العرق الأسود» وتنمية قدراته الفنية[1].

مع هبوط الليل، وصل أسقف لندن، الدكتور مانديل كرايتون، إلى وستمنستر هول. هو والأسقف والترز كانا انتهيا لتوّهما من المشاركة في *المؤتمر العالمي للاجتهاد المسيحي*، حيث كان كرايتون من أبرز مدعوّيه. وخلال *المؤتمر الأفريقاني* ناشد مواطنيه البريطانيين لإعادة الاستقلال إلى الشعوب المستعمَرة بأسرع ما يمكن. وذكّر في خطابه «بمسؤولية الشعب البريطاني الكبيرة لحماية الأعراق الأخرى وتأمين رفاهيتها». لقد دقّت ساعة الأخوّة العالمية. . .

ثمّ ألقى بينيتو سيلفان كلمته، بعنوان «ضرورة الاتفاق بين أعراق السكّان الأصليين والمستعمرين الأوروبيين»، خلال دورة 23/7 مساءً. كان يمثّل هايتي، موطنه الأصلي الذي حقّق استقلاله منذ سنة 1804 بتخلّصه من السيطرة الاستعمارية الفرنسية بعد حرب دامت من 1791 إلى 1803. وكذلك كان في هذا المؤتمر موفد مينيليك، امبراطور الحبشة (إثيوبيا)، رمز مقاومة الإمبريالية، بعد انتصاره الساحق في معركة أدووا ضد الإيطاليين سنة 1896. وبدا له اختيار لندن، عاصمة الامبراطورية البريطانية، ممتازاً كمقرّ للمؤتمر، إذ كان يعتبر البريطانيين «مسؤولين عن ردّة الفعل المضادة للحريات التي ميّزت السياسة الاستعمارية في الخمس عشرة سنة الأخيرة. الحكومة البريطانية سمحت بأشنع الممارسات من قبل شركات الاستعمار. كان على السلطات الاستعمارية أن تعترف منذ زمن بحقوق السكان الأصلين. صار يجب عدم اعتبارهم خدماً، يعملون تحت رحمة سيّدهم،

(1) الأمريكي الملوّن، 11/ 8/ 1900.

ولكن كعناصر ضرورية لازدهار المستعمرات. بالتالي يجب أن يستفيدوا من المكتسبات، المادية والمعنوية على السواء، الحاصلة من الاستعمار. لا أحد يستطيع إيقاف نمو المواطنين الإفريقيين المحلّيين اجتماعياً وسياسياً. الآن السؤال هو إن كان هذا التطوّر في صالح أوروبا أم لا. الجمعية الأفريقانية، التي يجب أن تنبثق عن المؤتمر، ستسعى بكلّ الوسائل لتحقيق هذا التفاهم المنتظر»[1]. آنا ج. كوبر، من واشنطن دي. سي، قالت كلمتها خلفه. وقد لفتت فيها نظر الحضور إلى مسألة مؤلمة: «مشكلة الزنوج في أمريكا».

اليوم الثاني، 24/ 7/ 1900، كرّس لنقاش عام، يدور حول عدّة مواضيع. الموضوع الأول طرحه فريدريك جونسون، من ليبيريا، مع «تطوّر شعبنا في ظلّ التاريخ الحاضر». وفيه نشد بشجاعة السود، وجدّيتهم، وقدرتهم على إدارة استقلالهم.

جون إ. كينلان، من سانتا لوسيا، شجب سوء التوزيع بين البيض والسود، للمال الإنكليزي المخصّص للإصلاحات بعد إعصار 1898 في الكاريبي. كما اتّهم الرأسماليين البريطانيين بأنّهم يريدون إعادة الرق إلى جنوب إفريقيا، ودعا الشعب الإنكليزي إلى متابعة عمله العادل والعظيم الذي بدأه مع إلغاء الاستعباد.

وليام ماير، من ترينداد، طالب في الطب في جامعة إدنبره، أدان «عرق الفلاسفة» الأوروبيين الذين يدّعون أنّ الأسود ليس إنساناً، بل هو مخلوق في رتبة أعلى من القرد، مجرّد من أي قيمة.

ريتشارد فيبس، أحد مواطنيه، أكّد أنّ أسوأ إهانة لغير البيض هي استبعادهم عن مراكز المسؤولية.

النقاش الثاني كان موضوعه «إفريقيا، القارة العريقة في التاريخ، في ضوء مشاكل غير محلولة»، وقد استلمه د. إ. توبياس، الذي تكهّن للحضور

---

(1) *التايمز*، 24/ 7/ 1900.

أنّه بعد انتهاء حرب البوير، ستختفي المبادىء الكريهة التي أدّت إليها.

دو بوا، المحاضر التالي، عاد إلى قضية حرب البوير الشنيعة. لم تكن تمثّل ظلماً تجاه السود وحسب، بل أيضاً تعيق تطوّر البشرية.

الأب هنري سميث تناول بعده النظرية التي تقول إنّ آدم كان أسود البشرة، وأنّ الأفارقة، بعد الطوفان، هم الذين أنتجوا الحضارة. وقد استشهد بعدّة مؤلّفين قدماء مثل هوميروس، وهيرودوتس، وبليني... في قولهم أن إثيوبيا القديمة أنتجت الحضارة المصرية، التي كانت بدورها مصدر وحي مهمّ للإغريق. وتوقّع لإفريقيا مستقبلاً زاهراً، بفضل اتحاد كل السود. على الجميع أن يعملوا معاً، من أصحاب البشرة الفاتحة إلى أكثرها سواداً.

بعد خطابي تشابلاين ب.و. أرنيت والبروفسور ت.ج. كالواي، دعا كرايتون الحضور إلى شرب الشاي في فولهام بالاس، المقر الرسمي لأساقفة لندن منذ القرن الخامس عشر. في هذه السهرة، جرى تداول بعض مواضيع النهار، تقاطعها استراحات موسيقية أظهر خلالها المدعوّون مواهب فنية مختبئة، مثل صموئيل كولردج تايلور، عازف البيانو والمؤلّف الموسيقي الإنكليزي الأسود(1). ج.ف. لودين، مدير فرقة مغنيي يوبيل فيسك، لفت النظر أيضاً، أمّا بينيتو سيلفان، فقد أدهش الجميع بمواهبه الموسيقية الحقيقية.

الأسقف والترز افتتح اليوم الثالث، في 25/ 7/ 1900، بتقديم الشكر السريع للخدمات التي أسداها بيض بريطانيا والولايات المتحدة إلى الشعب الأسود.

ثمّ في مداخلة لجورج كريستيان، من الدومينيك، قال إنّ الأفارقة، بعدما انتُزعوا من موطنهم الأصلي، ها هم الآن يلقون سوء المعاملة على أرضهم. في جنوب إفريقيا، حيث يعتبرهم المزارعون البوير كالماشية، لا يستطيعون التنقّل من دون تصريح، مهما تكن أملاكهم، أو شخصيتهم أو

---

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

ذكاؤهم. وفي روديسيا، هم يجبرون على العمل برواتب بائسة، والسياسيون يسلّمونهم فرقاً للعمل في المناجم في خدمة أرباب عمل بيض. وقد شجب هذه الظاهرة معتبراً إياها عودة إلى الرق، تنهك الشعب الأسود. كما بدا كريستيان متشائماً بخصوص مستقبل المستعمرات الأوروبية في جنوب إفريقيا، نظراً للازدراء الذي يظهره البيض تجاه الأفارقة. واقترح لتجنّب الأسوأ «ضمانة لحمايتهم عبر قوانين لا يمكن لأيّ تشريع استعماري أن ينتهكها، أو يرشي أحد القضاة».

هنري ف. داوننغ، من الولايات المتحدة، أكّد أنّ السود لن يتنازلوا لمن يريد أن يبقيهم عبيداً. تشارلز ب. لي، من الولايات المتحدة أيضاً، ارتأى أنّ حل المشكلة السوداء يكمن في الملكية وفي إثبات كفاءة عالية لمنافسة البيض في كل المجالات.

فيليكس موشيل، من مستعمرة الكاب، اعتلى المنبر بعده. وأخيراً، أقنع وليامس أصدقاءه بالاحتجاج ضد الظلم الذي يطال السود في جنوب إفريقيا. وفي جلسة الختام، ذكّر الأسقف والترز بأهداف المؤتمر وهي الحفاظ على حقوق السود المدنية والسياسية. المؤتمر بحد ذاته لم يكن سوى المرحلة الأولى من عمل طويل المدى. على السود في العالم أجمع أن يحظوا بتنظيم محكم كي يصلوا إلى تحسين حقيقي لوضعهم.

بعذ ذلك انتخب المشاركون مسؤولي التجمّع التالي، الذي حدّد بعد سنتين:

- الرئيس: الأسقف ألكسندر والترز.
- نائب الرئيس: الأسقف هنري ب. براون.
- أمين الصندوق: د.ر.ج. كولنسو.
- المندوب العام في إفريقيا: بينيتو سيلفان.
- الأمين العام: هنري سيلفستر وليامس

الهيئة التنفيذية: هنري ف. داوننغ، س. كولريدج تايلور، ج.ف.

لودين، ج.ر. آرشر، السيدة جاين كوبدن أنوين، السيدة آنا ج. كوبر[1].

وأكّد سيلفان على ضرورة التعاون الوثيق بين البلدان السوداء المستقلّة الثلاثة، لمحاربة سياسات التنكيل الأوروبية تجاه السود[2]. لم ترد أي إشارة لهذا الاقتراح في تقرير المؤتمر. ولسوء الحظ، مشروع التعاون هذا بين هايتي، وإثيوبيا وليبيريا لم يترجم عملياً.

الأعمال والرسائل

النداء إلى الأمم:

عند نهاية جلسات المؤتمر، اتّفق الأعضاء بالإجماع على إرسال «نداء إلى أمم العالم» يقدّم لكلّ رؤساء البلدان السوداء. في هذا النداء، الذي وقّعه مالترز، وبراون، ووليامس ودوبوا ـ رئيس لجنة تحرير النداء ـ نقرأ العبارة الشهيرة: «مشكلة القرن العشرين الأساسية ستكون مسأل اللون»[3]. وقد استعادها دوبوا في كتابه *أرواح الشعب الأسود* الذي صدر سنة 1903. «مشكلة القرن العشرين ستكون مسألة اللون، والعلاقات بين الأعراق، من الأكثر دكناً إلى أكثرها بياضاً، في آسيا وفي إفريقيا، في أمريكا وفي جزر المحيط». والنص في *نداء* تقرير 1900 يختلف عن نص 1903[4].

كان دوبوا يعتبر أنّ «الأعراق الأكثر دكناً» هم «الأقل من حيث التقدّم الثقافي بالنسبة إلى النماذج الأوروبية». وحذّر الأوروبيين من أن يتراجعوا بدورهم باستعباد شعوب المستعمرات، واعتماد النهج العنصري كنهج تقدّمي.

(1) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 6.

(2) ب. سيلفان، *مصير السكان الأصليين...*، ص 511.

(3) ترجمة ب. سيلفان في المرجع المذكور سابقاً، الذي «يترجم نداء إلى أمم العالم» بِ «نداء إلى أمم الكون».

(4) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 12. دوبوا، *أرواح سوداء*، الحضور الإفريقي، باريس، 1959، ص ص 27 ـ 28.

كذلك كان *النداء إلى الأمم* موجّهاً إلى «القوى الكبيرة في العالم المتمدّن»، لوضع حدّ للأحكام المسبقة المتعلّقة باللون. وكان يرمي بشكل خاص إلى بريطانيا التي كانت تستعمر وحدها أكبر عدد من السود، ولكن أيضاً إلى الولايات المتحدة، وفرنسا، وبلجيكا وألمانيا.

سيلفان استعاد نص النداء إلى الأمم وترجمه كاملاً في كتابه مصير *السكان الأصليين*. . .[1].

طلب النداء من حكومة المملكة المتّحدة استقلال المستعمرات في إفريقيا، بأسرع ما يمكن. وطالب الموفدون بالمساواة في معاملة السود في مستعمرات البيض في أوستراليا، وكندا، ونيوزيلنده، والمستعمرات في الكاب والناتال التي يسيطر عليها البيض، والتي يسود فيها التمييز على أساس لون البشرة.

جوزف تشامبرلاين، سكرتير الحكومة البريطانية في المستعمرات، كان يعتبر السود «غير جديرين بأن يكونوا في المؤسّسات التمثيلية»[2]. إنّ عبارة «الحكومة المسؤولة» تنتمي إلى القانون الدستوري الإنكليزي، وهذا النوع من الحكومات كان سائداً آنذاك في المستعمرات الإنكليزية. وكانت هذه المستعمرات، التي تتمتّع بمجلس تنفيذي مسؤول عن التشريع، تختلف عن تلك التي كانت تكتفي بمؤسسات تمثيلية.

كان النداء يطالب «بحكومة مسؤولة» وليس «بمسؤولية حكومة خاصة» كما اعتقد البعض[3]، ولا الاستقلال[4]. وعبارة «مستعمرات ذات حكومة

(1) باريس، ل. بوابيه، ص ص 50 ـ 55.

(2) من تشامبرلاين إلى دايلك، 16/ 4/ 1896، ذكره هـ.أ. هيل، التغيير الدستوري في جزر الهند الغربية البريطانية، أوكسفورد، منشورات كلارندون، 1970، ص 232.

(3) إليوت م. رودفيك، و.إ.ب. دوبوا، *دراسة في قيادة عرق الأقلّية*، فيلادلفيا، منشورات جامعة بنسلفانيا، 1960، ص ص 208 ـ 209.

(4) ر.و. لوغان، «المظاهر التاريخية للأفريقانية، 1900 ـ 1945»، في *الأفريقانية في رؤية جديدة*، بركلي، منشورات جامعة كاليفورنيا، 1962، ص 38.

مسؤولة»[1] الواردة في النداء، لم تكن تعني دولاً مستقلّة. إنها كيانات تابعة للبرلمان البريطاني، الذي يحق له التشريع في بعض المجالات. وخلال المؤتمر الأفريقاني سنة 1919 في باريس، كانت المطالب التي تقدّم بها دوبوا بالنسبة إلى حكومة «سكّان إفريقيا الأصليين والشعوب المتحدّرة من أصل إفريقي»، تشكّل تراجعاً بالنسبة إلى مطالب 1900.

دعا *النداء إلى الأمم* الولايات المتحدة إلى اعتماد أفكار ويلبر فورس وغاريسون. فطالب بإنهاء الظلم، وبحق الاقتراع، وبسلامة الممتلكات والأشخاص. كما لفت نظر فرنسا والامبراطورية الجرمانية بعدالتهما المتحيّزة. وطلب من ملك بلجيكا ليوبولد الثاني أن يسمح لدولة الكونغو الحرة بأن تصبح بلداً أسود كبيراً في إفريقيا الوسطى.

وينتهي النداء بالطلب من الأمم الامبريالية أن تحترم سيادة واستقلال «البلدان السوداء والحرة الحبشة، وليبيريا، وهايتي»[2].

مذكّرة إلى الملكة ڤيكتوريا

موازاة مع *النداء إلى الأمم*، وجّه مبعوثو المؤتمر في الشهر التاسع من 1900، مذكّرة إلى الحكومة البريطانية، حول المعاملة القاسية التي يعاني منها «الملوّنون» في جنوب إفريقيا. وبعد استئذان الوزير الأول، مركيز سالزبوري[3]، وُجّهت المذكرة إلى الملكة ڤيكتوريا في بالمورال في اسكتلندا. وهذا ما ورد فيها:

«مذكّرة من المؤتمر الأفريقاني، الذي اجتمع في وستمنستر تاون هول في 23 و 24 و 25/ 7/ 1900. إلى صاحبة الجلالة، ملكة بريطانيا وإيرلندا، امبراطورة الهند، حامية الإيمان. بعد إذن جلالتك، نحن

---

(1) أ.ب. كيث، حكومة *مسؤولة في المستعمرات*، أوكسفورد، منشورات كلارندون، 1910، الجزء الأول، ص 96.

(2) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 14.

(3) المرجع ذاته، ص 11.

الموقّعين أدناه، ممثّلي المؤتمر الأفريقاني، الذي اجتمع مؤخراً في مدينة جلالتكِ لندن، والذي جمع رجالاً ونساءً من دم وأصل إفريقيين بصفتهم موفدين إلى المؤتمر من مستعمرات عديدة تابعة لجلالتكم في غرب وجنوب إفريقيا، وجزر الهند الغربية، وبلاد أخرى، كالولايات المتّحدة، وليبيريا، إلخ.، نتوجّه إلى جلالتكِ بإكبار وندعو انتباهها إلى أنّ وضع الأعراق الأصلية في جنوب إفريقيا يثير لدينا ولدى أصدقائنا أعمق القلق. والأسباب هي الواردة في ما يلي:

1 ـ النظام المركّب غير الشرعي لعمل السكّان الأصليين الرائج في كمبري وروديسيا.

2 ـ ما يسمّى بنظام عقد الاستخدام، وهو ليس سوى عبودية الرجال أو النساء أو الأولاد الأصليين للمستعمرين البيض.

3 ـ نظام العمل الإجباري في الأماكن العامّة.

4 ـ «إذن المرور» أو نظام البطاقة المطبّق على الأشخاص الملوّنين.

5 ـ القوانين المحليّة التي تميل إلى فصل السكّان الأصليين، مثل حظر التجوّل؛ ومنع السكّان الأصليين من استعمال الأرصفة؛ واستعمال وسائل نقل عام منفصلة.

6 ـ الصعوبات في الحصول على ملكية عقارية.

7 ـ الصعوبات في الحصول على إعفاءات.

لهذا نلتمس من جلالتك استعمال نفوذها لكي يصار إلى معالجة المشاكل الناجمة عن هذه الممارسات، التي دعونا إليها لفتتك الكريمة، لإرساء قواعد حضارة سليمة بين مواطني جلالتكِ من السكّان الأصليين. وسندين بالشكر لجلالتكِ، إلى الأبد»[1].

---

(1) مجلّة بورت أوف سباين، 2/ 6/ 1901، ذكره ألكسندر والترز، *قصة حياتي*، نيويورك، 1917، ص 256.

في 11/ 1/ 1901، لم تكن الهيئة التنفيذية قد حصلت بعد على ردّ الملكة عن المذكّرة، فكلّفت وليامس بالسؤال إن كانت استلمتها. وليامس كتب لها في المساء نفسه، وفي 17/ 1/ 1901 تلقّى أخيراً جواباً من سكرتير تشامبرلاين: «سيدي، السيد الوزير تشامبرلاين طلب منّي إعلامكم بأنّ مذكّرة المؤتمر الأفرقاني حول أوضاع السكان الأصليين في جنوب إفريقيا نُقلت إلى جلالة الملكة، وأنّها طلبت أن يُردّ عليها، باسم حكومتها. السيد تشامبرلاين يرغب في طمأنة أعضاء المؤتمر والإشارة إلى أنّه بوضع الحدود التي سيصار داخلها إلى إدارة الأراضي المكتسبة، ستعمل الحكومة على الاهتمام بمصالح الأعراق الأصلية وراحتهم. وقد أرسلنا نسخة عن المذكّرة إلى مندوبنا السامي في جنوب إفريقيا. خادمكم الأمين هـ. برترام كوكس»[1].

سرّ وليامس بالرد وبالوعد بأخذ مصالح السكّان الأصليين بعين الاعتبار وأسرع إلى تقديم الجواب للصحافة. فنشرته *التايمز* في اليوم التالي مع مقدّمة تذكّر بالمؤتمر الذي «حضره رجال ونساء من دم وعرق إفريقيين. . . وأمينه العام هنري سيلفستر وليامس»[2].

غير أنّه بالرغم من إشارة المذكّرة إلى السكّان الأصليين في كلّ أنحاء جنوب إفريقيا، لم يشر تشامبرلاين إلاّ إلى الأراضي المكتسبة أي إلى الترانسفال والنهر البرتقالي. إذاً تشامبرلاين لم يردّ على مطالب المذكّرة الحقيقية. هل كان الأمر ناجماً عن خطأ أم عن مناورة سياسية؟ فهو لا يشير إلى العمل الإلزامي، وقيود التنقّل، وفصل المواطنين الأصليين، والحرمان من حق الاقتراع، وكلّ الظلم الذي كان وليامس وأصدقاؤه يتمنّون رفعه.

بعد موت الملكة ڤيكتوريا في 22/ 1/ 1901، وبالرغم من تأويل

(1) *التايمز*، 18/ 1/ 1901.

(2) ذكره والترز، *قصة حياتي*، ص 257.

تشامبرلاين الخاطىء للمذكرة، بقي وليامس متعلّقاً بذكرى الملكة، وبرمزها. وقد كتب في جريدة *المرآة*، في 1/ 6/ 1901، مقتنعاً بصدق الملكة في نواياها واحترامها للسكان الأصليين: «لدى السود كلّ الأسباب لتكريم ذكرى الملكة وتحيتها، لأنّ عملها الأول والأخير كان تسهيل سبل التحرير الكامل لشعبنا»[1]. إلاّ أن وليامس أدرك بعد مرور بعض الوقت أن الحكومة البريطانية لم تحافظ على وعد جلالتها، ولم تلقَ مطالب سكان جنوب إفريقيا الأصليين سوى التجاهل والاستخفاف.

في ختام لقائهم التاريخي، دعي الموفدون لشرب الشاي في مجلس العموم، من قبل البرلماني الليبرالي الدكتور غيفين كلارك. كذلك أقام هـ. ر. فوكس ـ بورن، سكرتير الشرف في جمعية حماية السكان الأصليين، حفلة غداء على شرف المشاركين. ونشير إلى أنّه وحدهم الرجال سمح لهم بدخول مجلس العموم، أمّا النساء وباقي المستعمَرين، فلم يحصلوا على هذا «الامتياز» لأنّه ليس لديهم حق الاقتراع. ثمّ اجتمع الموفدون مجدّداً في أمسية موسيقية ألقى خلالها س.و. فرانش ورئيس هيئة المؤتمر الأفريقاني، الأب ميسون جوزف، كلمتين لإنهاء برنامج الأيام الثلاثة.

أثر المؤتمر في الصحافة:

بدا وليامس راضياً عن الاهتمام الذي أولته الصحف اللندنية للمؤتمر. غير أنّه لم تخصص له أي افتتاحية، ربّما لأنّه لم يكن من صلب اهتمامات رجال السياسة البريطانيين، أم لأنّ المسائل التي طرحها كانت دقيقة للغاية.

وكان التقرير الأشمل في مجلّة *المجلاّت* اللندنية حيث اعتبر الصحافي اللامع و.ت. ستيد المؤتمر ثورة عالمية للشعوب السوداء ضد سيطرة البيض، وخصّص فقرة «موضوع الشهر» في عدد الشهر الثامن من

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901.

سنة1900 للمؤتمر تحت عنوان «الثورة ضد الوجوه الشاحبة». وفيه ذكّر ستيد قراءه بالهزيمة التي ألحقها بالإيطاليين امبراطور إثيوبيا، وتسمية هذا الأخير عضو شرف في الجمعية الأفريقانية[1]. وانتهى ستيد إلى أنّ العالم الأبيض سيجد نفسه في مواجهة تصميم «الأعراق الملوّنة» على انتزاع حقّهم في العيش بحريّة وحسب قواعدهم الخاصة بعيداً عن «استبداد البيض».

في فرنسا، أشار سيلفان إلى أن الصحافة اعتبرت المؤتمر «تظاهرة غريبة»[2]. كما كتب والترز تقريراً نشر في جريدة *الأمريكي الملوّن* في 17/10/ 1900 في ترينداد، يستعيد مقالات الصحف الإنكليزية ووثائق المؤتمر. وأشارت صحف ترينداد واللاغوس إلى أنّ هذا التقرير يدعو السود في العالم إلى دعم *الجمعية الأفريقانية*.

المشاكل المالية:

على الصعيد المالي، لم يكن المؤتمر الأفريقاني لسنة 1900 ناجحاً. إلاّ أنّ وليامس حصل على مساهمة بعض الأشخاص الذين كانوا يؤيّدون قضيته ومنهم شخصيات إنكليزية من جميع الآفاق، إضافة إلى المشاركين في المؤتمر وأعضاء *الجمعية الإفريقية*. ونذكر بينهم: الأب ف.ب. ماير، مدير مجلس الكنيسة الوطنية الحرة، وفريدريك كورتني سيلوس، مؤلّف عدّة كتب حول جنوب إفريقيا، وآرثر إ. بيز، برلماني حر التقى الامبراطور مينيليك سنة 1901، والسير جورج وليامس، مؤسّس جمعية *الشبان المسيحية*، وكاثرين إيمبي، صحافية، والآنسة أدامس من إيرلندا، والآنسة بالغارين، التي شاركت في الاجتماع السنوي *لجمعية التحرير* سنة 1897.

ومن أعضاء الجمعية الذين كان لهم مشاركة مالية مهمّة في المؤتمر نذكر أ.ر. هاملتون من جامايكا، ج.و.د. ووريل من الباربادوس، والأب

(1) مجلّة المجلاّت، الشهر الثامن من 1900، ص ص 131 ـ 137.

(2) ب. سيلفان، *مصير السكّان الأصليين...*، ص 504.

توس ل. جونسون من إفريقيا، وهنري ف. داوننغ. كما قدّم شكر خاص لِـ س. كولريدج تايلور من جمعية الكلية الملكية للموسيقى.

يجب أيضاً ذكر مساهمة ترافرز باكستون، سكرتير *الجمعية المناهضة للرق*، وهـ. ر. فوكس ـ بورن، سكرتير جمعية *حماية السكان الأصليين*. الهندي داداباي ناوروجي كان أيضاً من أبرز المتبرّعين. هذا الرجل قدّم عملاً مهمّاً في عملية إعادة البناء الوطنية في الهند، ووصف في جريدة *العهد الجديد* في 29/ 4/ 1897 بأنّه «ليس رجل الدولة الهندي الأوّل وحسب، بل أيضاً أوّل عالم اقتصاد هندي يضع أسس مدرسة هندية للفكر الاقتصادي»[1]. وقد عاش وعمل في إنكلترا لعدّة سنوات وكان أوّل هندي يُنتخب في البرلمان البريطاني[2]. ناوروجي وجد شبهاً بين عمله من أجل الشعب الهندي، وعمل وليامس للأفارقة وذرّيتهم خارج إفريقيا. والأمر ذاته دفع وليامس للبحث عن إنجازات مشابهة من أجل شعبه و «مواطنيه» في الكاريبي وفي إفريقيا[3].

حسابات المؤتمر، التي انتهت في 31/ 8/ 1900، كشفت عن عجز بقيمة 22 ليرة استرلينية تقريباً، ونفقات بقيمة مئة ليرة. ولا نعرف من الذي سدّ هذا العجز وإن كان سُدّ فعلاً، لكن النقص في الأموال سيكون عاملاً مهمّاً في بداية تفكّك *الجمعية الأفريقانية*.

تقدّم وليامس لامتحانات مجلس المحامين من 16 إلى 18 من الشهر العاشر، فنجح فيها وظهر اسمه في لائحة المقبولين. وكان قد فوّت عليه فصلين بسبب غياباته المتكرّرة عن لندن، ولم يُطلب إلى المجلس في 19 من الشهر 11 كباقي الناجحين، فطلب إذناً لم يُعط له ربّما لأنّ المسؤولين

---

(1) جريدة *العهد الجديد*، 29/ 4/ 1897. المقصود هو توماس كلاركسون.

(2) انظر أندروز وجيريجا موكرجي، *نهوض وتطوّر المؤتمر في الهند*، لندن، ألن وأنوين، 1938، ص 159.

(3) المرجع ذاته، ص 60.

كان على علم بأنّ يوزّع وقته بين دراسته وكفاحه من أجل السود[1]. وبقي وليامس فترة طويلة من دون أن يزاول مهنته.

تقرير المؤتمر:

تقرير المؤتمر، الذي حرّره وليامس وأصدقاؤه بينما كان ينهي دراسته، كان يتضمّن المذكّرة إلى الملكة ڤيكتوريا، والنداء إلى الأمم، ونظم الجمعية الأفريقانية ومقررّات المؤتمر. وقد ورد في هذه المقرّرات كلمات شكر لجمعيات عديدة بذلت جهوداً من أجل إلغاء الرق في منطقة الكاريبي وإفريقيا والولايات المتحدة والبرازيل، وتحسين أوضاع السكان الأصليين، وإلغاء تهريب الكحول إلى بلادهم. ويشير التقرير إلى إدراك أعضاء الجمعية لألم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا لا يزالون «عبيداً تحت الراية البريطانية». ويذكر التقرير أيضاً كلمة شكر للأصدقاء والجمعيات ولكل من شجّع وليامس، بصفته سكرتير الشرف للجمعية الإفريقية، على تحضير هذا الحدث التاريخي. وكلّف وليامس بتنقيح المذكّرة للملكة ڤيكتوريا، ونشر النداء إلى الأمم، وإرسال التقرير إلى الامبراطور مينيليك ورئيسي هايتي وليبيريا. كذلك كان من مسؤولياته تحرير رسائل الشكر للدعم الذي قُدّم للمؤتمر. وقد أرسل وليامس إلى الجمعية المناهضة للرق نسخة عن التقرير تعبّر عن امتنان المشاركين في المؤتمر[2].

تقرير مؤتمر 1900 لم يُنشر على الإطلاق[3]. كان يوجد بين *أوراق دوبوا* في أكرا (غانا) قبل أن ينقل إلى جامعة أمهرست في الماساتشوستس. لماذا و.إ.ب. دوبوا لم يذكر وليامس ومؤتمر لندن في مذكّراته؟ دوبوا

---

(1) *المرآة*، 1/ 6/ 1901؛ أ.ب. ثورنتون، *الفكرة الإمبريالية وأعداؤها*، نيويورك، منشورات سان مارتن، 1959، ص 125.

(2) من وليامس إلى باكستون، 30/ 8/ 1900، أوراق المناهضة للرق، مكتب رودس هاوس، أوكسفورد.

(3) هيربرت أبثيكر نشر مقتطفاً من المؤتمر، النداء «إلى أمم العالم»، في كتابات في الأدب غير الدوري، ميلوود، نيويورك، كراوس ـ تومسون، 1982، ص ص 11 ـ 12.

يشير إلى سفره إلى باريس وزيارته للمعرض العالمي في كتابه *ظلمة الفجر* (1940). وفي سيرة *و.إ.ب. دوبوا الذاتية* (1968) يذكر أنه كان «أمين المؤتمر الأفريقاني الأول في إنكلترا»[1]. لكن الأسقف والترز يقول إنّ جون ل. لاف هو الذي انتُخب أميناً للمؤتمر[2].

غير أنّ دوبوا يؤكّد في كتبه أنّه كان المحرّك الأساسي للمؤتمر الأفريقاني. ويقول إنّه فتح الطريق، في باريس سنة 1919، لفكرة العودة إلى المؤتمر الأفريقاني[3]. بل أكثر، يرد في مذكّراته أنّه وضع برنامجاً للأفريقانية يظهر «كحماية منظّمة للعالم الزنجي يديرها الزنوج الأمريكيون»[4].

إذاً لِمَ هذا السكوت؟

دوبوا «نسي وليامس» كلّياً، كما يقول ديفيد ليڤرينغ لويس، مؤلّف كتاب بعنوان و.إ.ب. دوبوا، سيرة حياة عرق (جائزة بوليتزر 1994)[5].

لكن أبحاثاً أكثر تعمّقاً تظهر أنّ دوبوا ذكر وليامس في جريدة *المدافع* عن شيكاغو في 22/ 9/ 1945. في مقاله «إعادة إحياء الأفريقانية»، يشير دوبوا مرّتين إلى وليامس من دون أن يذكر اسمه، إذ يقول عنه فقط «محامي جزر الهند الغربية».

مؤتمر لندن الذي نظّمه بشكل أساسي الكاريبيون، بمساهمة أشخاص من إفريقيا، لم يشبع طموحات دوبوا الذي كان يفضّل أن يشغل مكانة أكبر في تنظيم الجمعية التي أصبح مديرها انطلاقاً من سنة1919. لهذا ربّما فضّل ألاّ يذكر مشاركته المتواضعة في مؤتمر سنة 1900.

---

(1) الناشرون العالميون، 1968، الطبعة الثالثة، ص 438.
(2) والترز، حياتي وعملي، ص 255.
(3) *ظلمة الفجر*، ص 43.
(4) *المذكّرات*، المرجع المذكور سابقاً، ص 289.
(5) ص 250.

يتضمّن التقرير ثماني عشرة ورقة مطبوعة بالآلة الكاتبة. ولا يرد اسم دوبوا بين أعضاء مكتب المؤتمر حول هـ. سيلفستر وليامس، الأمين العام، وأعضاء اللجنة التنفيذية. دوبوا يظهر فقط كرئيس للجنة المكلّفة بالنداء الموجود في التقرير وكنائب رئيس للفرع الأفريقاني في الولايات المتحدة.

الغريب في الأمر أنّ هذه الوثيقة غير العادية بقيت لفترة طويلة مجهولة من قبل الجمهور، وها نحن نورد نصه في الصفحات التالية. وهذا التقرير يؤكّد أهمية الدور الذي لعبه المنظّمون الكاريبيون عند ولادة الحركة الأفريقانية: من ترينداد ومن جامايكا، وخصوصاً من هايتي (أنتينور فيرمان، وبينيتو سيلفان، مندوب إفريقيا العام، وهولي). كما يظهر المكانة التي خُصّصت للموفدين الأفارقة من إفريقيا والولايات المتحدة: ألكسندر والترز، رئيس المؤتمر، ودوبوا، المسؤول عن لجنة مكلّفة بوضع النداء النهائي.

هذا إذاً نص التقرير الذي يظهر مطبوعاً للمرّة الأولى بعد تحريره منذ أكثر من قرن، سنة 1900، في لندن:

تقرير

المؤتمر الأفريقاني

المنعقد في 23، و 24 و 1900/7/25 في قاعة وستمنستر تاون وستمنستر المركز الرئيسي 61 و 62، تشانسري لاين، وس. لندن، إنكلترا.

فيما يلي لائحة بأسماء المسؤولين والهيئة التنفيذية المنتخبة في إطار الجمعية الأفريقانية، ومركزها الرئيسي في لندن:

المسؤولون:

الأسقف ألكسندر والترز، رئيس.

الأب هنري ب. براون، نائب رئيس.

د.ر.ج. كولنسو، أمين الصندوق.

بينيتو سيلفان، المندوب العام في إفريقيا.

هـ. سيلفستر وليامس، الأمين العام.

الهيئة التنفيذية:

هنري ف. داوننغ.

س. كولريدج تايلور.

ف.ج. لودين.

ج.ر. آرشر.

السيدة جاين كوبدن ـ أنوين.

السيدة آنا ج. كوبر.

❀ ❀ ❀

تقرير

المؤتمر الأفريقاني

الهيئة التنفيذية، بإصدارها تقرير المؤتمر الذي عقد في قاعة وستمنستر تاون، في لندن، تتقدّم بالشكر إلى الأصدقاء الكثر والأجهزة المختلفة التي ساهمت في نجاح أوّل تجمّع لأفراد العرق الإفريقي من مختلف أنحاء الأرض. ظهرت الفكرة منذ سنة 1897، لإقامة مؤتمر يبحث في حل لمشاكل مثل معاملة السكّان الأصليين، التي كانت تقلق الحكومة البريطانية نتيجة لحروب الماتابيلي وبشوانا لاند، والنظام المختلط المعتمد في منطقة المناجم في جنوب إفريقيا، ووجود الرق في بمبا وزنجبار، وتمرّد السكّان الأصليين في الأراضي الداخلية في سيراليون، وحالة البؤس لدى أهالي

جزر الهند الغربية نتيجة لأزمة السكّر وللإعصار. وأوّل ما التفت الرأي العام في إنكلترا إلى وجود الظروف المشار إليها في جنوب إفريقيا كان خصوصاً مع السيدة أ.ف. كينلوك، وهي من السكّان الأصليين، والآنسة كولنسو، ثمّ أكمل العمل مع السيد الأمين العام هـ.س. وليامس. سنة 1898، قام وليامس بزيارة برمنغهام، ومانشستر، وليفربول، وإدنبره، وستيرلنغ، وغلاسغو، وداندي، وبلفاست، ودبلن، وأماكن كثيرة من ضواحي لندن، وهكذا عقد اجتماع في لندن بين عدّة ممثّلين عن العرق، وتألّفت جمعية تهدف إلى تعزيز الإحساس بالوحدة، وتسهيل علاقات الصداقة بين الأفارقة بشكل عام، وحماية مصالح كلّ المتحدّرين من أصل إفريقي، كلّياً أو جزئياً، في المستعمرات البريطانية وأماكن أخرى، خصوصاً في إفريقيا، وذلك بنشر المعلومات المناسبة عن كلّ المواضيع، المتعلّقة بحقوقهم وامتيازاتهم كمواطنين يتبعون الامبراطورية البريطانية وتوجيه النداءات إلى الحكومة الامبراطورية والحكومات المحلية.

وقد أُدرجت المواضيع المذكورة في مذكّرات ونداءات أُرسلت إلى وزارة جلالة الملكة للمستعمرات، وإلى الامبراطور الألماني.

في لقاء عقد في 139، بالاس تشامبرز، بتاريخ 19/ 11/ 1898، تقرّر إصدار البيان التالي:

«سيدي، ـ نظراً للظروف ولعدم معرفة المواطنين الإنكليز بالمعاملة التي يلقاها السكان الأصليون تحت الحكم الأوروبي والأمريكي، قرّرت الجمعية الإفريقية، خلال معرض باريس لسنة 1900 (الذي قد يزوره الكثيرون من أبناء العرق الأسود)، أن تعقد مؤتمراً في لندن في الشهر الخامس من السنة ذاتها، لاتّخاذ تدابير تؤثّر على الرأي العام بالنسبة إلى الظروف المتعلّقة بأوضاع السكّان الأصليين في أماكن مختلفة من الأرض، مثل جنوب إفريقيا، وغرب إفريقيا، وجزر الهند الغربية والولايات المتحدة الأمريكية».

ووزّع البيان في مختلف أنحاء العالم، فجاءت الأجوبة مشجّعة على نحو ممتاز. والعديد من قادتنا، مثل الأسقف ج.ف. هولي (من هايتي)، والأسقف جيمس جونسون، والأسقف هـ. م. تيرنر، والأب م. أغبيبي، والأب و. فاركوهار، والقاضي الدكتور أغوستوس ستريكر، والبروفسور سكاربورو، والسيد هـ.ر. كارغيل، والسيد تنغو جيبافو، والسيد ج. أتومبا بايني، والبروفسور ت. بوكر واشنطن، ولوجودهم في لندن، حضروا واحداً من لقاءاتنا التحضيرية في 12/ 6/ 1899، وأسدوا لنا خدمات ثمينة.

كثيرون من الراغبين في حضور المؤتمر ارتأوا أنّ الشهر الخامس ليس مناسباً، واقترحوا الشهر السابع بديلاً له، فقرّرت الهيئة عقد المؤتمر في 23، و 24، و 25 من الشهر السابع، بعد انتهاء «المؤتمر العالمي للاجتهاد المسيحي». وقبل افتتاح المؤتمر، تشرّفت الجمعية بحضور الأسقف الموقّر جيمس جونسون، من اللاغوس، الذي تقدّمت إليه بالمذكّرة بمناسبة ترقيته إلى منصب أسقف للمستعمرات:

«سيدي الكريم ـ الجمعية الإفريقية، المكوّنة من أعضاء من العرق الأسود من مختلف أنحاء الكرة، المجتمعة في لندن، تطلب قبول تهنئتها لكم تعبيراً عن إعجابها وتقديرها بميزاتكم الشخصية، التي حظيت باعتراف الكنيسة الإنكليزية، فكانت ترقيتكم إلى منصب أسقف النيجر الأسفل، في غرب إفريقيا. نحن نعتقد أن تكريماً كهذا لأحد أفراد عرقنا، ليس من شأنه إلاّ أن يبثّ الحماس في جيلنا الناشىء، ونهنّئكم عليه متمنّين لكم كلّ التوفيق. من الصحيح سيدي أنّ المرحلة الحالية من تاريخ العرق الإفريقي، حيثما يكن، سواء في موطنه، أو تحت رايات القوى المعروفة، لا تبعث على الاطمئنان، لكن هناك ما يواسي في واقع أن الإرادة لا تزال موجودة في الصفوف لتشجيعنا على التطلّع بتفاؤل نحو المستقبل. إنّ قدرات رجالنا الكبار وكفاءاتهم قلّما كان لها حتّى الآن حصّة في الإنماء، بسبب ظروف زمنية ظالمة أقصت عرقنا عن المشاركة في تطوّر العالم الحضاري؛ لكننا

نؤمن بأنّه علينا استعمال موهبتنا وطاقتنا أوّلاً لتثقيف شبابنا ضمن إمكانيات عرقنا الوفية، وثانياً لتطوير تأريخ أحداثنا، وثالثاً لدعم مكتباتنا ومنظّماتنا، ونسير هكذا إلى جانب اخوتنا القوقازيين الأوفر حظاً. ونحن على ثقة سيدي، بأنّ خطابكم كمشرّع، وعظاتكم كمبشّر، ومركزكم الآن كمطران ساهمت وستساهم في التأثير على أبناء عرقنا الناشئين من أجل الخير. لهذا نكرّر تهنئتنا لكم على الترقية، ونأمل بأن يديم الرب عليكم وعلى عائلتكم نعمة الصحة وأن تتابعوا أعمالكم للنهوض بأبناء إفريقيا إلى مستوى فكري وصناعي أعلى، ولتشجيع آخرين على اتباع خطواتكم في تمجيد قضية سيدنا يسوع المسيح.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام،

ف.إ.ر. جونسون، مدّع عام سابق، ليبيريا.

بينيتو سيلفان، مرافق مينيليك امبراطور الحبشة، هنري ف. داوننغ، قنصل الولايات المتحدة السابق في لواندا، السيدة م.ت. كول، أ.ر. هاملتون (جامايكا)، ن.و. هولم، ر.إ. فيبس، أ.ب. بيار، م.ف. ريبيرو، د. شوميروس، د.إ. توبياس، ج.و.د. ووريل، هـ. سيلفستر وليامس، وآخرون».

في جوابه، شكر سيادته أخوته على لطفهم وتمنّياتهم، وأمل خصوصاً أن تحلّ بركات الرب على المؤتمر الأفريقاني، الذي سيعقد الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء من الأسبوع المقبل في قاعة وستمنستر تاون. وأبدى عميق أسفه لعدم تمكّنه من البقاء لحضور الاجتماع الأوّل والوحيد لأبناء عرقه في لندن، من كلّ أنحاء الدنيا. «لهذه المناسبة معنى كبير. إثيوبيا تستيقظ. وكلّ ما نقوله يبقى قليلاً أمام جهد السيد وليامس ونشاطه، الذي يعود إليه الفضل في إنجاز المؤتمر. لقد بذل جهوداً مضنية ونجاح المؤتمر يجب أن يُردّ إلى مهارته في التنظيم. وكون أكثر المعنيين بهذا المؤتمر الرائع هم من الشباب لهو أمر مشجّع يبعث على التفاؤل. نحن كعرق يُحكم علينا يا أصدقائي الأعزّاء في ضوء حضارة مختلفة: وليس أنّ القضاة

هم غير عادلين بل هم يسرعون إلى استنتاجات تعوزها الحقيقة، لكن هذه البنى هي نتيجة مرحلة انتقالية قاسية يمرّ بها العرق الإفريقي. وإنّي لأفتخر، بعد قيامي بجولة في بلدي لاحظتُ خلالها لا مبالاة من قبل شعبي، نتيجة لنظام تربوي غير فعّال، أفتخر بأنّه في صفوف شباب عرقنا، في جزر الهند الغربية، والولايات المتحدة، وليبيريا، والحبشة، يوجد أشخاص مصمّمون على دفع قضيتنا إلى حلول ناجعة. وهذا أمر جيد. إذاً دعوني أن أهنّأ تعلق واحدكم بالآخر. المؤتمر الأفريقاني هو بداية اتحاد لطالما تأمّلتُ به، وأرجو من الله أن يصبح شاملاً. وكشعب لنحفظ هذا: نحن مقدّر لنا، بالرغم من مغالطات الكثيرين، أن يُعترف بنا. لدينا الأخلاقيات، والدين والمثابرة. وسنصل إلى الحكم إذا عملنا في اتجاهه. اعتمدوا الحقيقة في مشاوراتكم، والرب يتكفّل بالباقي. في إنكلترا يوجد أصدقاء كثر لنا، وبالرغم من المعاناة التي نعيشها في المستعمرات، سيتّحد صوتهم بصوتنا، ليسود الحق والعدالة حيث تحل الحضارة البريطانية».

كان افتتاح المؤتمر موفّقاً، في حضور كلّ الموفدين والأعضاء. الأسقف ألكسندر، والترز، من نيوجرسي، ترأس المؤتمر وافتتح بالصلاة على المنصّة كان هناك السيد ف.إ.ر. جونسون، مدّع عام سابق (ليبيريا)، إلى اليمين؛ والسيد بينيتو سيلفان، مرافق الامبراطور مينيليك، إلى اليسار.

السيد أسقف لندن الموقّر رحّب بالموفدين والأعضاء في كلمة قصيرة وعملية، ردّ عليها السيد ف.إ.ر. جونسون.

عدا عن رغبتنا في الرد على الطلبات الكثيرة التي وصلت إلى هيئتنا التنفيذية لنشر وقائع المؤتمر، في نية هذه الهيئة أصلاً أن تفعل ذلك تكريماً لذكرى المناسبة. وكما قالت أبرز الصحف في لندن والمناطق، إنّ معنى هذا الأمر يطمئن الجمهور البريطاني لأنّ الأعراق داكنة اللون تنهض وتلتفت إلى مصالحها.

العمل

المؤتمر دمج الجمعية القديمة بالجمعية الأفريقانية، التي تنظّمت تنظيماً فعّالاً، مع دستور، وقوانين وقوانين فرعية. واتّخذت لنفسها مقراً دائماً في لندن في القاعة 416، في 61 و 62، تشانسري لاين، حيث يوجد مكتب تأمل أن تنشر منه الوقائع والإحصاءات المتعلّقة بظروف أفراد العرق الإفريقي حيثما وجدوا.

كما قرر عقد مؤتمرات مشابهة كلّ سنتين، والتالي سيقام في الولايات المتحدة، سنة 1902، وبعده في هايتي، سنة 1904، والأماكن الأخرى ستحدّد في المستقبل.

كذلك ستقام فروع للجمعية في أنحاء إفريقيا، والولايات المتّحدة وجزر الهند الغربية. ويرغب المؤتمر في أن تكون الجمعية الأفريقانية مستقلة، ويأمل من أعضاء العرق الذين وجدت الجمعية من أجلهم أن يدعموها بإمكاناتهم ونفوذهم. وعبر هذا التقرير تلفت الجمعية انتباه كلّ شعبنا إلى وجودها وإلى أنها إذا تلقّت الدعم المناسب ستسدّ حاجة ماسة وتخفّف من المآسي التي يعاني منها عرقنا.

بالنظر إلى المعارك التي خاضها عرقنا لتحرير شعبنا في المستعمرات البريطانية وفي أمريكا، لا يسع المؤتمر أن ينتهي من دون إشارة إلى الأعمال الماضية والحاضرة وتلك التي ينادي بها في المستقبل؛ لهذا نورد المقرّرات التالية ونضعها في متناول الجمعيات المذكورة.

المقرّرات

اتُخذت في المؤتمر الأفريقاني، الذي عقد في قاعة وستمنستر تاون، في 23، و 24 و 25/ 7/ 1900المقررات التالية:

الجمعية البريطانية والأجنبية المناهضة للرق:

قُرّر ـ «أنّ هذا المؤتمر الأفريقاني، الأوّل من نوعه في لندن، والذي

يمثّل الأفارقة وذرّيتهم في كلّ مكان في العالم، لا يمكن أن يختتم أعماله من دون التعبير عن امتنان العرق الإفريقي للعمل العظيم والنبيل الذي حقّقته الجمعية المناهضة للرق، عبر أعضائها الكثر والكرام، لإلغاء الرق في جزر الهند الغربية، وإفريقيا، والولايات المتحدة، والبرازيل؛ وإن كنّا ننعم بالحرية، فنحن لا ننسى أخوتنا الذين لا يزالون يقاسون من الاضطهاد في زنجبار، وبمبا وبلدان أخرى. لهذا نصلّي كي تبقى هذه الروحية التي ألهمت الجمعية الكريمة، المتمثّلة بأسماء غرانفيل، وشارب، ووليام ويلبرفورس، وتوماس بكستون، ووليام كلاركسون، للعمل على تحرير آبائنا وأجدادنا، أن تبقى لتنير حياة الجيل الحالي وتدفعه لتحقيق أعمال مماثلة في البطولة والإنسانية».

لجنة الأعراق الأصلية وتهريب المشروبات الروحية المتحدة:

قُرّر ـ «أنّ هذا المؤتمر الأفريقاني، الأوّل من نوعه في لندن، والذي يمثّل الأفارقة وذرّيتهم في كلّ مكان في العالم، يعبّر عن امتنانه للجهود النبيلة التي تبذلها لجنة الأعراق الأصلية وتهريب المشروبات الروحية المتحدة لتحسين ظروف أعراقنا الأصلي، وإلغاء تهريب الكحول بين أبنائها. نحن نخشى هذا التهريب لأنّه يشكّل عائقاً أمام المبادىء التي تقوم عليها الحضارة البريطانية في الوطن، وأكثر أيضاً، في الخارج. لهذا يعبّر المؤتمر عن سروره بالنجاح الذي حقّقته اللجنة تجاه صعوبات كثيرة وجدّية، ويأمل في أن تتوّج أعمالها الإنسانية بالخير والبركة».

جمعية حماية السكّان الأصليين:

قُرّر ـ «أنّ هذا المؤتمر الأفريقاني، الذي يتضمّن رجالاً ونساء من العرق الإفريقي من كلّ مكان في العالم، الأول من نوعه في لندن، يعترف بالجميل للعمل الذي قدّمته جمعية حماية السكّان الأصليين في سبيل حماية السكّان الأصليين في الامبراطورية البريطانية وبلاد أخرى مختلفة، ويأمل أن تلقى الجمعية التشجيع الكافي لمتابعة عملها».

جمعية الأصدقاء:

قُرّر ـ «أنّ هذا المؤتمر الأفريقاني، الذي يتضمّن (رجالاً ونساء) أعضاء من العرق الإفريقي من كل مكان في الأرض، يعترف ممتناً بجهود جمعية الأصدقاء في قضية الإعتاق في جزر الهند الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية، والبرازيل، وأماكن أخرى، وينظر بكلّ تقدير إلى التضحية التي لا تزال تبذل في بمبا وزنجبار على ساحل إفريقيا الشرقي من أجل أفراد من العرق أقلّ حظاً يستعبدون هناك تحت الراية البريطانية.

وأنّ الطريقة العملية التي تعتمدها الجمعية لتعليم العبيد المحرّرين والهاربين، أي «مهمّة باناني»، يجب ألاّ تفيد هؤلاء فحسب، بل هي، في نظر المؤتمر، وسيلة مهمّة لنشر معنى حقيقي للحضارة، ولتعليمهم مبادىء الاستقلالية. لذلك، وبالنظر إلى التاريخ الماضي والحاضر لجمعية الأصدقاء، في بريطانيا وفي الولايات المتحدة، يأمل هذا المؤتمر، الأوّل من نوعه في لندن، أنّ الجمعية، في هذه الفترة الانتقالية الدقيقة التي يعيشها العرق، لن توقف دعمها الكبير لنا في جهودها المبذولة لمساعدة أبنائنا ليصبحوا مواطنين أوفياء وحقيقيين في مختلف البلاد الممثّلة، بل ستستمرّ في تشجيعها هذا الذي ميّز حياتها منذ مؤسّسيها الأوائل وحتى اليوم».

رأى المؤتمر أنّه من الضروري في ضوء سوء المعاملة التي يلقاها السكّان الأصليون في جنوب إفريقيا، تذكير الحكومة بالنسبة إلى هذه المسألة، لكن مركز سالزبوري، أعطى الإذن بنقل الوثيقة مباشرة إلى جلالة الملكة ڤيكتوريا، والتي وُضعت ووُقّعت من قبل مسؤولي وأعضاء اللجنة التنفيذية:

«مذكّرة من المؤتمر الأفريقاني، المنعقد في قاعة وستمنستر تاون في 23، و 24 و 25/ 7/ 1900.

إلى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا، امبراطورة الهند، حامية الإيمان.

بعد إذن جلالتك،

نحن الموقّعين أدناه، ممثّلي المؤتمر الأفريقاني، الذي انعقد مؤخراً في مدينة جلالتكِ لندن، والذي جمع رجالاً ونساء من دم وأصل إفريقيين بصفتهم موفدين إلى المؤتمر من مستعمرات عديدة تابعة لجلالتكم في غرب وجنوب إفريقيا، وجزر الهند الغربية، وبلاد أخرى كالولايات المتحدة، وليبيريا، إلخ.، نتوجّه إلى جلالتكِ بإكبار وندعو انتباهها إلى أنّ وضع الأعراق الأصلية في جنوب إفريقيا يثير لدينا ولدى أصدقائنا أعمق القلق. والأسباب هي الواردة في ما يلي:

1 ـ النظام المركّب غير الشرعي لعمل السكّان الأصليين الرائج في كمبرلي وروديسيا.

2 ـ ما يسمّى بنظام عقد الاستخدام، وهو ليس سوى عبودية الرجال أو النساء أو الأولاد الأصليين للمستعمرين البيض.

3 ـ نظام العمل الإجباري في الأمكنة العامة.

4 ـ «إذن المرور» أو نظام البطاقة المطبّق على الأشخاص الملوّنين.

5 ـ القوانين المحلّية التي تميل إلى فصل السكّان الأصليين، مثل حظر التجوّل؛ ومنع السكّان الأصليين من استعمال الأرصفة؛ واعتماد وسائل نقل عام منفصلة.

6 ـ الصعوبات في الحصول على ملكية عقارية.

7 ـ الصعوبات في الحصول على إعفاءات.

لهذا نلتمس من جلالتكِ استعمال نفوذها لكي يصار إلى معالجة المشاكل الناجمة عن هذه الممارسات، التي دعونا إليها لفتتك الكريمة، لإرساء قواعد حضارة سليمة بين مواطني جلالتكِ من السكان الأصليين. وسندين بالشكر لجلالتكِ، إلى الأبد».

كما ارتأى المؤتمر ضرورة توجيه نداء عام إلى أمم العالم في ظلّ

الوضع الذي يعانيه شعبنا في كلّ مكان حتى اليوم، والنص التالي هو الذي اقترحه المؤتمر وتمّت الموافقة عليه بالإجماع:

إلى أمم العالم

«في مدينة من العالم الحديث، في هذه السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، انعقد مؤتمر ضمّ رجالاً ونساء من الدم الإفريقي، للتداول بشأن وضع الأعراق البشرية الداكنة اليوم وتطلّعاتها. إنّ مشكلة القرن العشرين ستكون مسألة اللون، وإلى أي مدى ستكون فوارق العرق، التي تظهر في لون البشرة ونوع الشعر، سبباً لمنع أكثر من نصف سكان العالم من حقهم في المشاركة في فرص الحضارة الحديثة وامتيازاتها.

من المؤكّد أنّ الأعراق الداكنة هي اليوم الأقلّ تقدّماً بحسب المقاييس الأوروبية. غير أنّ هذا لم يكن الحال في الماضي، ولا شك في أن تاريخ العالم، القديم والحديث، قدّم أمثلة عديدة على وجود الكفاءات الكثيرة لدى الأعراق الأكثر سواداً بين البشر.

في جميع الأحوال، هناك حاجة لتذكير العالم الحديث بأنّه في هذا العصر، الذي قرّب ما بين أطراف العالم المختلفة، ملايين السود في إفريقيا، وأمريكا، وجزر البحر، عدا عن الفئات السمراء والصفراء في كلّ مكان آخر، سيكون لهم تأثير كبير على العالم في المستقبل، على الأقل بسبب العدد والتواصل الحسّي. إذا التزام اليوم العالم المتحضّر بتأمين فرص التعليم والإنماء لأبناء العرق الأسود، سيكون لهذا الاتّصال أثر إيجابي على العالم يساهم في تطوّر البشرية. ولكن إذاً ـ بسبب الإهمال، والأحكام المسبقة، والطمع، والظلم ـ بقي العالم الأسود معرّضاً للاستغلال والتخريب، ستكون النتائج مؤسفة، لا بل فتّاكة، وليس على السود فقط، بل أيضاً على مبادىء العدالة، والحريّة، والثقافة التي قامت عليها ألف سنة من الحضارة المسيحية في أوروبا.

والآن، من أجل مبادىء الحضارة هذه، ولأتباع أمير السلام، نحن،

رجال ونساء إفريقيا المجتمعين في هذا المؤتمر العالمي، نوجّه النداء التالي:

لنمنع العالم من العودة إلى الوراء في تطوّره البطيء ولكن الثابت الذي نجح في منع روح الطبقية، أو التفرقة، أو الامتياز، أو الولادة من أن تحرم أي روح بشرية من الحرية والسعي نحو السعادة.

لنمنع أن يكون اللون أو العرق سبباً للتفرقة بين البيض والسود، بغض النظر عن الجدارة والمهارة.

لنمنع التضحية بسكان إفريقيا الأصليين من أجل الطمع بالذهب، ولنمنع انتزاع الحرية منهم، وتدمير حياة عائلاتهم، وقمع طموحاتهم، والقضاء على فرص تقدّمهم.

لنمنع رداء التبشير المسيحي من أن يكون في المستقبل، كما كان في الماضي، ستاراً للاستغلال الاقتصادي الظالم وللانحطاط السياسي في الأمم غير المتقدّمة، التي كان ذنبها الوحيد الاعتماد على الإيمان بالكنيسة المسيحية.

لندع الأمّة البريطانية، أوّل بطل لتحرير الزنوج في العصر الحديث، تتوّج أعمال ويلبر فورس، وكلاركسون، وباكستون، وشارب، والأسقف كولنسو، وليفنغستون، وأن تمنح، في أقرب فرصة ممكنة، حقوق حكومة مسؤولة للمستعمرات السوداء في إفريقيا وجزر الهند الغربية.

لنمنع مبادىء عمل غاريسون، وفيليبس ودوغلاس من أن تنطفىء في أمريكا؛ ولنأمل من ضمير هذه الأمّة الكبيرة أن ينهض ويرفض الظلم الذي يلحق بالزنجي الأمريكي، ليمنعه حق سلامة الروح والممتلكات، ويعترف بالعمل الذي تحقّق خلال أجيال لتحرير الملايين من العبودية.

لتتذكّر الامبراطورية الألمانية، والجمهورية الفرنسية، وفاء لماضيهما، أنّ قيمة المستعمرات تكمن في ازدهارها وتقدّمها، وأنّ العدالة والمساواة بين الأسود والأبيض، هما أهم عناصر الازدهار.

لندع دولة الكونغو الحرّة تصبح دولة زنجية كبيرة مركزية في العالم، وليكن ازدهارها ليس بالمال والتجارة فحسب، بل بسعادة شعبها الأسود وتقدّمه الحقيقي.

لندع أمم العالم تحترم سيادة واستقلال الدول الزنجية الحرّة الحبشة، وليبيريا، وهايتي، إلخ.، ولندع سكّان هذه الدول، والقبائل الإفريقية المستقلّة، وزنوج جزر الهند الغربية وأمريكا، والمواطنين السود في كلّ مكان، يكافحون بلا هوادة، ويناضلون بشجاعة، كي يثبتوا للعالم أجمع حقّهم في أن يكونوا ضمن العائلة البشرية الكبيرة.

من هنا نداؤنا للقوى الكبيرة في العالم المتمّدن، واثقين من روحها الإنسانية، وعمق الإحساس بالعدالة في عصرنا، من أجل الاعتراف بأحقّية قضيتنا.

الكسندر والترز (أسقف)

رئيس الجمعية الأفريقانية

هنري ب. براون

نائب الرئيس

هـ. سيلفستر وليامس

الأمين العام

و.إ. بورغارت دوبوا

رئيس لجنة النداء

المركز الرئيسي للجمعية الأفريقانية ومكتبها،

61، تشانسري لاين، لندن.»

ويشعر المؤتمر بأنّه مدين بالشكر للأصدقاء والجمعيات الذين ساعدوا السيد وليامس، الأمين العام للجمعية الإفريقية، خلال أسفاره وتحضيره لهذا الحدث المهم. وكلّنا ثقة بأنّ الأصدقاء سيستمرّون بروح التعاون والإرادة الطيبة لمتابعة العمل الذي بدأ هنا في بريطانيا، أي لتنفيذ خطط مكتبنا للتأثير على الرأي العام ولتمثيل حقيقي لدى السلطات بشأن المسائل

المتعلّقة بأوضاع عرقنا في أنحاء العالم. ومن الأعضاء الذين يستحقّون الذكر لدعمهم المستمر، والذين ساهموا في نجاح المؤتمر: السادة أ.ر. هاملتون (جامايكا)، ج.و.د. ووريل (الباربادوس)، الدكتور سافاج من الجمعية الأدبية الإفريقية ـ الهندية الغربية، الأسقف توس ل. جونسون (إفريقيا)، وهنري ف. درومي، وس. كولريدج تايلور. هؤلاء أدركوا معنى القضية وعملوا لها مخلصين.

الآن وبعد تأسيس الجمعية الأفريقانية الدائم، أملاً بالتقريب بين أفراد شعبنا، نشجّع على إنشاء جمعيات فرعية في كلّ مكان، لتعمل على أساس مبادىء المركز الرئيسي. سيكون على عاتقها تقديم تقارير لمكتبنا في إنكلترا، وستقوم الهيئة التنفيذية بالمتابعة لخدمة شعبنا من دون تردّد.

والجمعيات الموجودة أصلاً والتي تعمل لأهداف مشابهة يمكن ضمّها تلقائياً عبر طلب يقدّم إلى الهيئة التنفيذية.

مسؤولو الفروع المنتخبون خلال المؤتمر

الولايات المتحدة الأمريكية: نائب رئيس: و.ب. دوبوا؛ أمين: ت.ج. كالواي.

هايتي: نائب رئيس: أ. فيرمان؛ أمين: الأب الدكتور هولي.

الحبشة: نائب رئيس: بينيتو سيلفان؛ أمين: الدكتور أ.ك. سافاج.

ليبيريا: نائب رئيس: ف.إ.ر. جونسون؛ أمين: س.ف. دنيس.

جنوب إفريقيا:

ناتال: نائب رئيس: إدوين كنوش؛ أمين:

كايب تاون: نائب رئيس:

أمين:

روديسيا: نائب رئيس:

أمين:

غرب إفريقيا:

سيراليون: نائب رئيس: ج.أ. وليامس؛ أمين: م. لويس.

لاغوس: نائب رئيس: ج. أتونبا بايني؛ أمين: ن.و. هولم.

ساحل الذهب: نائب رئيس:

أمين:

جزر الهند الغربية البريطانية:

جامايكا: نائب رئيس: هـ.ر. كارغيل؛ أمين:

ترينداد: نائب رئيس: أمين:

كندا: نائب رئيس: أمين:

مستعمرة النهر البرتقالي: نائب رئيس: أمين:

ترانسفال: نائب رئيس: أمين:

ملاحظة: في الأمكنة المتروكة من دون أسماء، يسرّ الأمين العام أن يعرف الأشخاص الراغبين في ملء المراكز الشاغرة.

أيّ عضو (فاعل أو شرف) يرغب في المشاركة في المؤتمر المقرّر انعقاده في الولايات المتحدة سنة 1902، يرجى منه تقديم طلب لدى الأمين العام.

❀ ❀ ❀

حسابات المؤتمر الأفريقاني (المنعقد في 23، و 24، و 25/ 7/ 1900).

إيرادات ومدفوعات المؤتمر حتى 31/ 8/ 1900

إيرادات		نفقات	
مساهمات...	77119		
		طباعة...	1921
		مقرّر خاص...	18168
		بريد 1898 ـ 1900...	1560 1 /2
		قاعة وستمنستر تاون (ثلاثة أيام)...	2210
		بيانو خلال المؤتمر...	1100
		النداء والمذكّرات...	376
		طباعة المقرّرات...	047
		متفرّقات...	500
		خدمة، غرف وقاعة...	1104
		قرطاسية...	13106
		جنيه استرليني	100 88 1 /2
		جنيه استرليني	22 16 11 1 /2
		ميزانية المديونية	22 16 11 1 /2
100 88 1/2		جنيه استرليني	100 88 1 /2 جنيه استرليني

لقد دقّقتُ في الحسابات المذكورة مع الدفاتر والإيصالات، وأفيد بأنّها صحيحة.

جيمس مارتن، محاسب.

113، أوستن رود، 6/ 10/ 1900».

لِمَ لم يعقد المؤتمر الثاني كما كان مقرّراً في الولايات المتحدة سنة 1902؟ في عددها الصادر بتاريخ 17/ 8/ 1901، تعترف جريدة *الأمريكي الملوّن* بجهود الجمعية الأفريقانية التي يجب أن «تفضي إلى نجاح في الولايات المتحدة». لكنّها تضيف أنّه على السود، الذين يخوضون معركة حياة أو موت، يجب أن يمسكوا زمام أمورهم بأنفسهم، وألاّ يدعوا هذا الأمر للآخرين. الإطار السياسي والاجتماعي للولايات المتحدة لم يشجّع على اجتماع مؤتمر من هذا النوع. ثمّ كانت هجرة وليامس إلى إفريقيا ضربة قاضية لتطوّر هذه الخطوة الأفريقانية الأولى، ولو أنّه وبالرغم من ملاحظات دوبوا اللاذعة، استمرّت الآمال والأفكار في شقّ طريقها.

الفصل الحادي عشر

المشروع الأفريقاني
تتمّة وعواقب

«أجدادنا ينتقلون في غابة المطر
يحملون آلهة مكسورة
من سيصلح الآلهة،
من سيصلحها؟
رقص الفتيان في الريح
وطلبوا آلهة جديدة،
بحثوا عنها، بحثوا عنها.
من سيجدها،
من سيبعثها؟
وأبناء اليوم
تائهين بين الآلهة الجديدة
والآلهة المكسورة
يتساءلون ما العمل!
ما العمل!
شموس وظلال
شموس وظلال»

ويلفريد كارتي، شموس وظلال، 1978.

الجمعية الأفريقانية:

اقترح تقرير مؤتمر 1900 إنشاء جمعية *أفريقانية* مقرّها في لندن، وفروع لها في أنحاء العالم. وكان قد اتّفق على اجتماع أعضاء الجمعية كلّ سنتين، في إحدى المدن الكبيرة في أوروبا، أو الولايات المتحدة، أو في أحد البلدان المستقلّة. وهكذا تقرّر الاجتماع التالي سنة 1902 في الولايات المتحدة، وبعده بسنتين، في 1904، في هايتي للاحتفال بمئوية استقلالها(1).

الجمعية الأفريقية دمجت *بالجمعية الأفريقانية* الجديدة. وكلّ منظمة موجودة أصلاً، تعمل لأهداف مماثلة لأهداف الجمعية الأفريقانية، ضُمّت إليها. بقي وليامس أميناً عاماً، والترز أصبح رئيساً، وعيّن أنتينور فيرمان مسؤولاً للجمعية في هايتي، ودوبوا، في الولايات المتحدة.

أهداف *الجمعية الأفريقانية* التالية، وردت في جريدة *الأمريكي الملوّن*، بتاريخ 1/ 2/ 1901(2):

«1 ـ حماية حقوق الإفريقيين المدنية والسياسية في أنحاء العالم.

2 ـ تحسين وضع «إخوتنا» في القارة الإفريقية، والولايات المتحدة والمناطق الأخرى في العالم.

3 ـ تشجيع الجهود المخصّصة لتأمين تشريع فعّال، وتشجيع شعبنا في قطاعات التعليم، والصناعة، والتجارة.

4 ـ توسيع إنتاج الكتابات والإحصاءات المتعلّقة بشعبنا، في أنحاء العالم.

5 ـ جمع الأموال لتحقيق هذه الطروحات».

وقد تمّ تعيين مسؤولي فروع الجمعية خارج المملكة المتحدة على النحو التالي:

---

(1) *التايمز*، لندن، في 24/ 6/ 1900.

(2) جريدة *الأمريكي الملوّن*، في 1/ 2/ 1901.

الولايات المتحدة: نائب رئيس: الدكتور و.إ.ب. دوبوا؛ سكرتير: ت.ج. كالواي.

هايتي: نائب رئيس: أنتينور فيرمان؛ سكرتير: الدكتور هولي.

الحبشة: نائب رئيس: بينيتو سيلفان؛ سكرتير: ر.أ.ك. سافاج.

ليبيريا: نائب رئيس: ف.إ.ر. جونسون؛ سكرتير: س.ف. دنيس.

جنوب إفريقيا ـ الناتال: نائب رئيس: إدوين كنلوش.

إفريقيا الغربية:

ـ سيرايون: نائب رئيس: ج.أ. وليامس؛ سكرتير: لويس.

ـ لاغوس: نائب رئيس: ج. أوتونبا بايني؛ سكرتير: ن.و. هولم.

جزر الكاريبي الإنكليزية:

ـ جامايكا: نائب رئيس: هـ.ر. كارغيل[1].

ـ ترينداد: لم يكن قد تمّ تعيين نائب رئيس وسكرتير.

وكان تأسيس فروع للجمعية الأفريقانية مقرّراً أيضاً في كايب تاون، وروديسيا، وساحل الذهب، وكندا، ومستعمرة النهر البرتقالي، والترانسفال. ويبدو أنّ الفرعين الوحيدين اللذين أُنشئا كانا في جامايكا وترينداد.

خلال مؤتمر سنة 1900، تقرّر منح زعماء الدول الثلاثة، امبراطور الحبشة، مينيليك، سيمون سام رئيس هايتي، وجوزف كولمان رئيس ليبيريا، لقب عضو شرف في الجمعية. لكن بينيتو سيلفان، مندوب هايتي وإثيوبيا في المؤتمر، رفع اللقب في تقريره[2] وأسماهم «الحماة الكبار» للجمعية.

في الولايات المتحدة، حيث كانت العنصرية تتزايد، أقرّت جريدة *الأمريكي الملوّن*، بتاريخ 17/ 8/ 1901، بضرورة إنشاء فرع للجمعية

(1) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 17.

(2) ب. سيلفان، مصير *السكان الأصليين*. . .، ص 512.

الأفريقانية. وحذّرت الجريدة السود من أن ينسوا مشاكلهم، ونصحتهم بأن يهتمّوا بها بأنفسهم. لكن الإعدامات العسفية تزايدت: أكثر من مئة في السنة بين 1900 و 1928. من جهة ثانية، لم يقبل الكونغرس بأيّ ممثّل عن الجماعة السوداء.

وكان والترز يؤمن بأنّ الجمعية الأفريقانية والمجلس الإفريقي - الأمريكي الوطني، في ظل إدارة فعّالة، يمكنها تحسين وضع السود في أنحاء العالم[1]. وكان وليامس يشاطره هذا الرأي. وكان خلال كلامه عن السود يستعمل العبارة «شعبنا»، أو «إخوتنا» أو «إخواننا المظلومين في إفريقيا». وعلى خطى فريدريك دوغلاس، لم يكن وليامس يرى أي حدود جغرافية أو وطنية تفصل بين السود[2].

بينما كان وليامس يستعدّ لإنهاء دراسته القانونية، كان يحضّر تقرير المؤتمر[3]. وحسب هذا التقرير، أنشأت الجمعية الأفريقانية مراكزها الدائمة، مع «مكتب تُنشر منه كلّ الوقائع والإحصاءات المتعلّقة بأوضاع أبناء العرق الإفريقي في العالم»[4]. ويشدّد التقرير على إصرار أعضاء الجمعية، على استقلالية مادية تجاه البيض. كانوا يتمنّونها «مستقلّة وحرّة» في كلّ خياراتها، ودعوا «أعضاء العرق» إلى دعمها بوسائلهم ونفوذهم[5].

يذكر سيلفان أنّ مساعدة من الجمعية الأفريقانية طُلبت سنة 1901 من قبل أشخاص من الكونغو، يرغبون في العودة إلى بلدهم، بعد ثلاثين سنة من الرق في كوبا. كان هناك رجل دين من أصل كاريبي يدعى الأب

(1) أ. والترز، حياتي وعملي، ص 263.

(2) فريدريك دوغلاس، حياة وزمان فريدريك دوغلاس، نيويورك، ماكميلان، 1962، ص 496.

(3) أنهى وليامس دراسته في الحقوق ليصبح محامياً.

(4) من وليامس إلى باكستون، في 10/10/1900، أوراق مناهضة الرق، رودس هاوس، المكتبة البودلية، أوكسفورد.

(5) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 8.

إيمانويل أجرى الاتّصال بالجمعية. وكان قد سافر من كوبا إلى بلجيكا في الشهر الثالث من 1901، للتفاوض مع الملك ليوبولد حول «إعادة» 1000 إلى 1500 كوبي أصلهم من الكونغو إلى وطنهم. سنة 1897، كان أربعة منهم قد زاروا الكونغو برفقة الأب إيمانويل، وقد أُعجبوا بالبلاد لدرجة أنّهم قرّروا العودة إليها مصطحبين زوجاتهم وأولادهم. لكن مهمّة الأب إيمانويل في بروكسيل كانت فاشلة. ويبدو أنّه بعد نقاش مع سيلفان، قرّر انتظار المؤتمر الأفريقاني الثاني، الذي كان من المفترض أن ينعقد في الولايات المتحدة، في الشهر الثامن أو التاسع من سنة 1902. وحين ذكر سيلفان هذه القضية في كتابه *مصير السكان الأصليين*. . .[1]، اغتنم سيلفان الفرصة للتساؤل حول حقوق هي أكثر من قابلة للجدل للملك ليوبولد الثاني على الكونغو.

مع نهاية المؤتمر، اختيرت إدارة الجمعية الجديدة من أعضاء الهيئة التنفيذية المقيمين في لندن. وقد أبدى أصدقاء وليامس استعدادهم لمساعدته في إرساء قواعد إدارة مركزية، تسمح بالتوجّه إلى الرأي العام وتقدّم للسلطات مندوبين ذوي مستوى عال، للكفاح من أجل تحسين أوضاع السود في العالم أجمع[2].

بعد المؤتمر، قرّر أعضاء الهيئة التنفيذية في الجمعية إطلاق مجلّة *رسالة القرن الجديد* مع بداية القرن العشرين. في هذه المجلّة، تناولوا مشاريع الجمعية وأهدافها، والجهود المثمرة التي صدرت عن أوروبا والولايات المتحدة «لوضعنا على طريق الحرية». وحيّى أعضاء الهيئة التنفيذية طموحات السود وإنجازاتهم في المستعمرات البريطانية، والولايات المتحدة، وهايتي، وليبيريا، والبرازيل، والحبشة، وكوبا، والفيليبين. كانوا «على ثقة بالمستقبل» ولو أنّهم أشاروا إلى عدّة أمثلة عن «التراجع» على

(1) ب. سيلفان، *مصير السكّان المحليين*. . .، ص ص 515 ـ 519.
(2) تقرير المؤتمر الأفريقاني، 1900، ص 15.

الأرض البريطانية، وفي الولايات المتحدة، وفي دولة الكونغو الحرة، وفي الأراضي الألمانية في إفريقيا، وفي البمبا، وزنجبار، وفي الأراضي البرتغالية. وقد دعت الهيئة إلى اختيار مشاريع، وتنظيمها، لإصلاح الوضع بالوسائل القانونية. وتابعت *رسالة القرن الجديد* بتناولها القرن العشرين، حيث على كلّ شخص أن يكون واعياً. ودعت كلّ أسود كفوّ للانضمام وتأسيس فروع جديدة في مدينته أو في قريته، ولكتابة تقارير «حقيقية وصادقة» حول أوضاع «شعبنا» في ظل مختلف الحكومات، ونشرها لإطلاع الرأي العام عليها.

بعد عدّة أشهر، أكّد وليامس أنّ المجلّة أُرسلت «إلى شعبنا»، حيثما وجد فرع للجمعية الأفريقانية. غير أنّه يجب التخفيف قليلاً من حماس وليامس حين يقول: «لدينا فروع في كل مناطق الامبراطورية البريطانية»(1).

المشاركة في المؤتمر المناهض للرق:

هـ. س. وليامس ذهب إلى باريس في 6 و 7، و 8/ 8/ 1900 لحضور المؤتمر المناهض للرق الذي نظّمته *الجمعية الفرنسية المناهضة للرق* التي أدارها الكاردينال شارل لافيجري (1825 ـ 1892). وقد انعقد هذا المؤتمر أيضاً في إطار المعرض العالمي في باريس(2). هذه التظاهرة جرت في قصر المؤتمرات، عند موقع المعرض وبرئاسة السيناتور هنري ڤالون، مؤلّف *تاريخ الرق في العصر القديم*(3).

في هذه المناسبة، التقى وليامس في باريس بينيتو سيلفان وأنتينور فيرمان، سفير هايتي في فرنسا. وكان فيرمان قد انتُخب نائب رئيس الجمعية الأفريقانية في بلاده. وقد شارك الكاريبيون الثلاثة في المؤتمر

---

(1) *الأمريكي الملوّن*، 1/ 2/ 1901.

(2) وزارة الشؤون الخارجية، باريس، مذكّرات ووثائق، مسائل عامّة، و *المرآة*، 27/ 5/ 1901.

(3) هنري ألكسندر ڤالون، *تاريخ الرق في العصر القديم*، باريس، المطبعة الملكية، 1847.

المذكور. بصورة خاصة، لفتت محاضرة سيلفان انتباه مراسل الصحيفة الإنكليزية *المراسل المناهض للعنصرية*. على عكس المشاركين الأوروبيين الذين أظهروا صراحة في كلماتهم لامبالاتهم وازدرائهم للشعوب السوداء، كان سيلفان مدهشاً بالحرارة الإنسانية التي تضمّنتها مداخلته. حتّى أنّ هذه المحاضرة سبّبت «استهجانات غاضبة»[1] لدى جمهور فرنسي غير معتاد على سماع زنوج أحرار يعبّرون بهذه الطريقة.

بينيتو سيلفان حصل على شهادة دكتوراه في القانون من كليّة الآداب في باريس بعد أربع سنوات من تاريخه. كان يراسل جمعية *الجغرافيا* في تولوز، وخلال المؤتمرين المناهضين للرق في بروكسيل وفي باريس سنة 1905، أشار رئيس هذه الجمعية إلى محاضرة سيلفان اللامعة في باريس سنة 1900[2].

التسلسل الزمني للمؤتمرات المناهضة للرق:

1888، 1/ 7: إطلاق الحملة المناهضة للرق في كنيسة السان سولبيس في باريس.

31/ 7: مؤتمر في قاعة الأمير في لندن.

15/ 8: مؤتمر في كنيسة سان غودول في بروكسيل.

1889، 24/ 7: إلغاء مؤتمر الجمعيات المناهضة للرق المقرّر عقده في لوسيرن.

18/ 11: افتتاح المؤتمر الدولي لردع تجارة العبيد في بروكسيل.

1890، 22 ـ 23/ 9: مؤتمر الجمعيات المناهضة للرق في باريس.

1900، 6 ـ 8/ 8: المؤتمر المناهض للرق في باريس.

1905: المؤتمر المناهض للرق في بروكسيل وباريس.

(1) المراسل المناهض للرق، الشهر الثامن ـ الشهر العاشر، 1900.

(2) نشرة جمعية الجغرافيا في تولوز، السنة 24، تولوز، إ. بريفا، 1905.

الفصل الثاني عشر

كومبيتي: «نهضة السود الاجتماعية»(١)

«لا شيء في كتاب القدر أكثر حتمية من أنّ هذا الشعب مقدّر له أن يكون حرّاً؛ ولا أقلّ يقيناً من أنّ عرقين، متساويين في الحرّية، لا يستطيعان أن يعيشا تحت حكم واحد. الطبيعة، والعادة، ولاختلاف الرأي رسمت حدوداً بينهما تصعب إزالتها. لكن لا يزال في مقدورنا توجيه عملية الإعتاق والترحيل، بهدوء، على إيقاع بطيء؛ بهذه الطريقة يتلاشى الشر رويداً رويدا».

توماس جفرسون، مذكّرات، 1821

سنة 1901 نشر بينيتو سيلفان أطروحته لنيل الدكتوراه في القانون، عن مصير *السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال*. عالم الاقتصاد فريديك باسي (جائزة نوبل لسنة 1901) قدّم هذه الدراسة الجامعية

(1) كومبيتي: «مجموعة فلاّحين يعملون معاً على صوت الموسيقى»، أ. ميترو، في *الفودو الهايتي*، يقول إنّ هذه الكلمة من أصل إسباني وتعني «دعوة»، ص 48، 2.

لأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية في باريس في 30/ 11/ 1901. في هايتي، كانت الفوضى تسود الأجواء السياسية. انتهاء عهد الرئيس تيريزياس سيمون سام وتشتّت المجالس التشريعية أدّيا إلى تشكّل لجان ثورية في كلّ مراكز الأقضية. وكان هناك ثلاثة رجال سياسة يكافحون بضراوة للإمساك بزمام السلطة واستلام رئاسة الجمهورية: أنتينور فيرمان، وكاليستان فوشار، وسينيك مونبليزير بيار. الأميرال هامرتون كيليك، قائد الأسطول الهايتي، كان من أنصار فيرمان المتفانين. لكن الحرب الأهلية فسحت المجال أمام مكائد الجنرال نور أليكسيس ونشاطه العسكري، فمضى إلى بورتو برانس ونصّب نفسه رئيساً للجمهورية. وكرّست الجمعية الوطنية هذا الانقلاب.

التماس:

سنة 1902، قرّر بينيتو سيلفان التدخّل في النزاعات الثورية في هايتي، باسم *الجمعية الأفريقانية* التي كان موفدها العام.

قرّرت لجنة الجمعية الأفريقانية ومركزها نيويورك أن ترسل موفدها العام، النقيب البحري بينيتو سيلفان، لتقديم مساعيه الحميدة لدى الحكومة المؤقتة برئاسة الجنرال بوارون كانال والهيئة التنفيذية في محافظتي أرتيبونيت والشمال الغربي، برئاسة أنتينور فيرمان.

كانت أوراق اعتماده محرّرة على النحو الآتي:

«نداء للسلام

موجّه من قبل لجنة الجمعية الأفريقانية

إلى السيد أنتينور فيرمان، رئيس

المجلس التنفيذي في محافظتي

أرتيبونيت والشمال الغربي

باسم الإله سيّد السماوات،

باسم التضامن الوثيق الذي يجمع في البؤس أفراد عرقنا الإفريقي المبعثرين والمستضعفين،

باسم مستقبل جمهورية هايتي، التي يشدّ قدرها المؤلم، مرّة جديدة، انتباه العالم المتمدّن،

إنّ الجمعية الأفريقانية، التي تضمّكم كنائب رئيس، تلتمس منكم أن توقفوا، ضمن دائرة صلاحياتكم، هدر الدم الهايتي، المراق أصلاً بما يكفي، واعتماد طريق المفاوضات للوصول في أسرع وقت ممكن، إلى وضع حدّ للحرب الأهلية الفظيعة التي تمزّق البلاد، وأيضاً قلوب السود المقبوضة في العالم كلّه.

لهذا توصي اللجنة الأفريقانية بالتجاوب مع المساعي الحميدة التي سيذلها موفدها العام، السيد النقيب البحري بينيتو سيلفان، من البحرية الهايتية، مرافق جلالة الامبراطور مينيليك ودكتور في القانون مجاز من كلّية باريس، وهو، بتفانيه المعروف من أجل إنعاش العرق الإفريقي، جدير أكثر من أيّ شخص آخر بإقناع حكومة بورتو برانس المؤقّتة بالضرورة الملحّة لإحلال السلام ضمن شروط مرضية لكلّ من طرفي النزاع.

ليس هناك من ينكر أنّ الوضع على درجة عالية من الخطورة في هايتي. وإطالة هذه الحرب المشؤومة ستؤدّي إلى انهيار تام للبلاد، إن لم يكن إلى فقدان استقلالها. لهذا من واجب مواطن تدفعه مشاعر الإخلاص لوطنه، مثل حضرتكم، أن يستبق الذلّ الذي سيُلحقه سلام تفرضه قوّة أجنبية. أليس من الأفضل أن يتحقّق الاتفاق بين الهايتيين، مهما تكن المساوىء التي سبّبها كل طرف للآخر، بدل الخضوع لإرادة الخارج؟

في هذه الظروف المؤسفة، تضطر الجمعية الأفريقانية إلى تأجيل مؤتمرها الثاني، وتنتظر بعميق القلق نتيجة هذا النداء، الذي أرسلته لجنتها أيضاً إلى الجنرال بوارون كانال.

الجمعية الأفريقانية تتمنّى بكلّ حرارة ألا يرتفع بعد اليوم على أرض هايتي، المباركة من الطبيعة، ضجيج غير ضجيج العمل المثمر من أجل الشعب، ولا دخان غير دخان المصانع وبخور الاعتراف بجميل ربّ المحبة والسلام الذي أوصى الناس بأن يحبّ أحدهم الآخر، وهذا واجب أخوي على الشعب الهايتي، أكثر من أي جهة أخرى، أن يحاول الالتزام به.

وتفضّلوا بقبول أصدق المشاعر وفائق الاحترام.

ألكسندر والترز،

أسقف كنيسة أمريكا الإفريقية، رئيس الجمعية الأفريقانية هـ. سيلفستر وليامس،

الأمين العام للجمعية الأفريقانية.

حُرّر في نيويورك، في 26/ 9/ 1902».

❀ ❀ ❀

رسالة من الموفد إلى أعضاء الحكومة المؤقّتة

بورتو برانس، في 8/ 10/ 1902

«إلى السادة أعضاء الحكومة المؤقّتة

في جمهورية هايتي

السادة الوزراء،

عند وصولي إلى السويس في 28/ 6، في طريق عودتي من رحلتي الثالثة إلى الحبشة، علمتُ بالأحداث المفاجئة التي فتحت منذ 12/ 5 من جديد في هايتي عهد الحروب الأهلية الدامية.

مع عودتي إلى باريس، في 4/ 7، انتظرتُ مجيء الأمير راس

ماكونن، مبعوث امبراطور إثيوبيا إلى حفلة تتويج ملك إنكلترا، كي أتشاور مع سموّه في موضوع مهمّة خاصة كلّفني بها جلالة النيغوس مينيليك. وغداة سفر الأمير، في 22/ 8، غادرت باريس إلى نيويورك، لتحضير المؤتمر الثاني للجمعية الأفريقانية.

بحكم المهمّة المنسوبة إليّ في تعريف حضراتكم بنشأة الجمعية الأفريقانية وهدفها، أسمح لنفسي بأن أورد هنا مقطعاً من كتاب نشرته السنة الماضية، حول «مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال»، وقدّمتُ جزءاً منه كأطروحة دكتوراه في القانون في كلّية باريس:

في 23/ 7/ 1900، كان حدث جديد من نوعه، فاجأ الكثيرين، وأقلق البعض، واكتسى أهمّية استثنائية بالنسبة إلينا، شهدته العاصمة البريطانية: أشخاص سود مثقّفون، جاؤوا من بلاد بعيدة وعديدة، ليجتمعوا في تاون هول، في دير وستمنستر القديم، ليس بعيداً عن القصر الذي يضمّ مجلس العموم، وذلك لدراسة الوضع الذي يعيشه العرق الإفريقي، في كلّ مناطق الأرض، وللاحتجاج ضد الظلم والازدراء وسوء المعاملة التي نلقاها في كلّ مكان، وأخيراً لإنشاء إدارة مركزية لتنسيق الجهود المشتركة والسهر، عبر عمل منهجي ومستمر، على المصالح الاقتصادية والحقوق السياسية والاجتماعية لأبناء سلالتنا المستغلّين والمضطهدين.

إضافة إلى الموفدين، وكلّهم من أصل إفريقي، كان هناك عدّة محبّين للخير وصحافيين إنكليز، نذكر منهم السيدة جاين كوبدن أنوين، ابنة الاقتصادي الشهير ريتشارد كوبدن؛ الدكتور كولنسو، ابن الأسقف العتقي الكبير؛ الدكتور كلارك، النائب الليبرالي الشجاع الذي ضحّى بمقعده الإنتخابي للاحتجاج ضد الظلم في حرب الترانسفال؛ هـ. فوكس بورن، سكرتير الجمعية الإنكليزية لحماية السكّان الأصليين الإفريقيين؛ السير فاول باكستون، ابن الزميل الكبير لويلبر فورس وكلاركسون، رئيس الجمعية المناهضة للرق.

السيد أسقف لندن الموقّر بدأ جلسة الافتتاح بالصلاة كي تحلّ بركة الرب على أعمال المؤتمر، الذي أوكلت رئاسته إلى المونسنيور ألكسندر والترز، أسقف كنيسة أمريكا الإفريقية، وقد أدّى هذه المهمّة على أتمّ وجه.

بعد جلسات منتظمة، عقدت مرّتين في اليوم بحضور جمهور كبير، انتهى هذا اللقاء في 25/ 7.

وقد تقرّر:

أولاً ـ أن تؤلّف جمعية عامة، تضمّ النخبة المثقّفة من السود المتمدّنين، تحت اسم الجمعية الأفريقانية، لتركيز أو مراقبة عمل كلّ الجمعيات التي تهدف، في البلاد الحرّة أو المستعمرات، إلى حماية الشعوب ذات الأصل الإفريقي وتعليمها.

ثانياً ـ أن يُنظّم مؤتمر أفريقاني كلّ سنتين، إمّا في إحدى المدن الكبرى في أوروبا أو أمريكا، أو في عاصمة بلد أسود مستقل.

ثالثاً ـ أن يعقد مؤتمر 1902 في الولايات المتّحدة، ومؤتمر 1904 في هايتي تكريماً للحدث الكبير وهو الاحتفال بالذكرى المئوية الأولى للاستقلال الهايتي.

رابعاً ـ أن توجّه مذكّرة إلى الامبراطور مينيليك وإلى رئيسي جمهوريتي هايتي وليبيريا، وقد أُعلنوا حماة كباراً للجمعية الأفريقانية، للفت انتباههم إلى ضرورة توحيد اهتماماتهم وضمّ جهودهم، على المستوى الدبلوماسي، إلى جهد التحرّك ضدّ سياسة التدمير والتأخير التي تتّبع في أوروبا ضدّ السود وذرّيتهم.

في عصر تستطيع فيه روح الاتّحاد أن تحقّق إنجازات كبيرة، وأقلّ علاقة عرقية، في غياب منظومة كاملة من المصالح، تؤدّي تحالفات سياسية ونقابات اقتصادية غير متوقّعة، أليس من الغريب رؤية الأفارقة وأبنائهم المباشرين يستمرّون في العيش في اللامبالاة، إن لم يكن في العداء، في ما بينهم؟

الجمعية الأفريقانية، التي لا يمكن أن تكون الحاجة الملحّة إليها موضوع نقاش، هي في جوهرها جمعية مسالمة ولكنها تنوي ملاحقة أهدافها بالحزم والتصميم كما بالهدوء والاعتدال. بعد أن تمسك بقضية كلّ السكّان الأصليين في المستعمرات، تنوي أن تنشىء في عواصم كلّ القوى الاستعمارية مركزاً ناشطاً للدعاية للزنوج، ومأوى مؤقّتاً للسكّان الأصليين الذين لسبب معين، يجدون أنفسهم من دون موارد في أوروبا.

ومن تطلّعاتها أيضاً أن تراقب مباشرةً التعاقد مع السكّان الأصليين بصفة «عمال أحرار»؛ وستكون بالتالي حكماً لمعالجة المشاكل، التي تحدث غالباً، بين من يُسمّون بالعمّال الأحرار ومستخدِميهم البعيدين عن النزاهة.

الجمعية الأفريقانية تودّ أخيراً أن تحيي وتشجّع جهود كلّ الجمعيات الإنسانية التي تتّبع هدفاً موازياً، وتعمل على نشر مبادىء استيطان مسالم، عادل وتهذيبي بالفعل.

هذا هو، أيها السادة الوزراء، التجمّع المحترم الذي آمن بحقيقة نزعتي الوطنية وأوفدني لأُسمع الصوت الكئيب للعرق الإفريقي، في هذه الأزمة الرهيبة التي تستنزف القوة الحيوية لدى جمهورية هايتي، حاملة لواء الحضارة السوداء. تجدون طيّه النداء الذي كُلّفت بنقله إلى حضراتكم، مع بقائي خادمكم

المتواضع والمتفاني في الوطنية

بينيتو سيلفان

ضابط في البحرية الهايتية،

متدرّب في البحرية الفرنسية،

مرافق جلالة امبراطور إثيوبيا،

دكتور في الحقوق مجاز من كلّية باريس،

الموفد العام للجمعية الأفريقانية»[1].

الحكومة المؤقّتة برئاسة الجنرال بوارون كانال، قبلت مبدأ مفاوضات سلام وصلح مع الثوار. المونسئيور كرسوزان، والمونسنيور بوجيه، والجنرال د.د. ليجيتيم، الرئيس السابق للجمهورية، وبرينور بروفيت، الوزير السابق، أثنوا على مبادرة مندوب الجمعية الأفريقانية. وكانوا يهمّون بالذهاب إلى غونايف لمساندة سيلفان، عندما علموا بسفر فيرمان إلى جزر العذارى الدانماركية.

مهمّات في الحبشة وفي أوروبا:

استعاد الموفد العام بينيتو سيلفان نشاطاته في خدمة السود وسافر إلى الحبشة، سنة 1903. قدّم *رسالة صداقة* من الجنرال نور، أليكسيس إلى الامبراطور مينيليك. في 24/ 4/ 1903 كان رئيس جمهورية هايتي قد رفعه إلى رتبة مقدّم. الحكومة الهايتية قامت بتحضيرات للاحتفال بمئوية الاستقلال الوطني، 1804 ـ 1904.

انضمّ بينيتو سيلفان إلى الفريق وإلى أعمال لجنة المئوية التي يرأسها أحد أصدقائه، جوستان دوفو، والتي تتضمّن أهم الشخصيات السياسية والفكرية في تلك الحقبة. فحصل من جيريمي، وزير العلاقات الخارجية، على مساعدة مالية من أجل رحلة ثالثة إلى الحبشة. إذ كان يفكّر بتعزيز أولى الخطوات المتّخذة لدى البلاط الإثيوبي، لإقامة علاقات صداقة ودبلوماسية بين الدولتين.

«مينيليك الثاني

ملك ملوك إثيوبيا

إلى عزيزنا نور أليكسيس

---

(1) أ. بيرفان، بينيتو *سيلفان*...، المرجع المذكور سابقاً، ص ص 86 ـ 90.

رئيس جمهورية هايتي

السلام على سيادتكم!

لقد استلمنا، ببالغ سرورنا، في الشهر الأول من سنة 1904، رسالتكم الغالية، المحرّرة بتاريخ 16/ 4/ 1903، والتي سلّمنا إياها المقدّم بينيتو سيلفان.

ونحن إذ نشكر لكم الأفكار الكريمة التي عبّرتم عنها تجاه حكومتنا وتجاه الشعب الإثيوبي، نهنّئكم على انتخابكم رئيساً لجمهورية هايتي، التي يعزّ علينا استقلالها، منذ تعرّفنا إلى تاريخها.

تتمنّى سيادتكم أن تحفظ حرية الشعوب الإفريقية، وأن تستطيع هذه الشعوب، في حماية امبراطوريتنا، أن تتقدّم، سواء من ناحية الرخاء المادّي، أو التطوّر الفكري والأخلاقي. هذه أيضاً أمنيتنا، وسنعمل كلّ ما في وسعنا للمشاركة بالعمل الكبير الذي تتابعه جمهورية هايتي بغية النهوض بالعرق الإفريقي.

لهذا نحن نفكّر مثلكم في أنّه من الطبيعي أن تقام علاقات جيّدة وأن تتطوّر بين بلدينا. إن كانت المسافات البحرية والبريّة تفصل بين الناس، فالطموحات المشتركة نحو الخير يجب أن تقرّب فيما بينهم.

وكشهادة علي صداقتنا، نرسل إليكم، مع المقدّم بينيتو سيلفان، وسام الاستحقاق الوطني في الامبراطورية الإثيوبية.

نطلب من الرب القادر حمايتكم والحفاظ على السلام والازدهار في جمهورية هايتي!

حرّرت في مدينتنا أديس أبابا، في 23/ 5/ 1904»[1].

هذه المهمّة أنجزت وسط «آلام جسدية ومعنوية» قاسية. هذه «الرحلة

(1) المرجع ذاته، ص ص 144 ـ 145.

الطويلة، والشاقة، والخطرة، والمكلفة» لاقت تقدير الامبراطور مينيليك الذي قدّم لسيلفان في أديس أبابا وسام ختم سليمان ومنحه لقب الشرف مرافق في البلاط الامبراطوري. بينيتو سيلفان ذهب إلى الإسكندرية والقاهرة، وألقى محاضرة أمام جمعية *الجغرافيا الخديوية*. عند عودته من رحلته الثالثة، قصد بروكسيل. فكتبت عنه صحيفة بلجيكا العسكرية تقول:

«المقدّم الأسود بينيتو سيلفان

لقد شرّفنا بزيارته رجل كان لقاء ربع ساعة معه كافياً لإقناعنا بأهميّته فكرياً وأخلاقياً. هذا الرجل زنجي. اسمه بينيتو سيلفان، وأصله من هايتي، حيث تابع دراسته في مدرسة سان مارسيال، التي يديرها في بورتو برانس آباء الروح القدس.

بدأ السيد بينيتو عمله في الحياة العامّة سكرتيراً للبعثة في لندن، بعدما كان لفترة من الوقت ضابطاً مرافقاً للرئيس ليجيتيم. إنه ضابط في البحرية الهايتية، تابع دراسة الحقوق في باريس، وهو الآن متدرّب في البحرية الفرنسية. قبل ذلك كان قد تابع دروس الهندسة البحرية في فرنسا.

كما أنّه امتلك من جهة أخرى، بحكم واجبه كضابط في الحرس الثوري، قوانين المشاة، فخدم أيضاً في السلاح البرّي، كمدرّب. وقد تمّت ترقيته، منذ خمسة أشهر، إلى رتبة مقدّم، من قبل الجنرال نور أليكسيس، رئيس هايتي، الذي سلّمه رسالة صداقة لمينيليك، وعهد إليه بمهمّة إقامة أولى العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين جمهورية هايتي والإمبراطورية الإثيوبية...

في هذا الضابط الشاب، في رجل القانون، روح رسولية مشتعلة. بينيتو سيلفان يحلم، ليس بإعتاق السود المادي ـ فهذا أمر تحقّق ـ بل بإعتاقهم أخلاقياً. ارتأى سيلفان بكلّ تواضع أنّه بإمكان الزنوج الوصول إلى المستوى الذي بلغه ليصبحوا إخوة مساوين لباقي الإنسانية، ولذلك بذل جهوداً حميدة تستحقّ التشجيع، لإعادة تأهيل عرقه المظلوم وإنقاذ إخوانه،

ولكن للأسف، سنة 1891، أنشأ في باريس لهذا الهدف صحيفة «الأخوّة» التي لم تستمرّ لافتقارها إلى الإمكانات المادية، ورغم رعاية الكاردينال لافيجري لها. عندها سافر السيد سيلفان إلى الحبشة، يجذبه اسم النيغوس مينيليك الذي كان حقّق لتوّه على الإيطاليين انتصاراً باهراً، وأثبت أنّه ليس كلّ الزنوج مجرّدين من الثقافة.

سرّ مينيليك بإعجاب زنجي آخر له، وخصوصاً زنجي مثل سيلفان يشرّف عرقه بثقافته وتربيته، فعيّنه مرافقاً ومنحه وسام ختم سليمان.

قام المقدّم سيلفان حتى الآن بثلاث رحلات إلى الحبشة، وهو على وشك العودة إليها.

سنة 1900، ساهم في تأسيس الجمعية الأفريقانية، التي تتضمّن نخبة السود المتمدّنين في العالم أجمع؛ وقد عقد أوّل مؤتمر لهذه الجمعية، التي يكون سيلفان موفدها العام، في لندن. سنة 1898، كان السيد سيلفان قد مثّل الشباب الأسود في الاحتفالات بمئوية ميشليه، والخطاب الذي ألقاه يومها هو، من حيث الشكل والمضمون، نموذج في البلاغة الأخلاقية. كانت الخاتمة على مستوى راقٍ جداً، وارتفعت كنشيد للأخوّة، والإيمان بمثال الشعوب.

وضع بينيتو سيلفان دراسة تاريخية حول مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال، التي قدّم عنها السيد فريدريك باسي تقريراً أظهر تقديره الكبير لها، وذلك في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية.

خلا المأدبة التي اختُتمت بها الاجتماعات المناهضة للرق سنة 1891، رفع السيد ديكان ـ دافيد، أستاذ في جامعة لوفان ونائب رئيس مجلس الشيوخ، رفع نخب السيد سيلفان تعبيراً عن إعجابه وتقديره له.

ونحن إذ نقدّم لقرّائنا، بهذه الصورة المفصّلة، رفيقاً من جيش أجنبي، فلأنّه جاء إلينا، تحرّكه أسمى المشاعر. ففي حين أنّ الكثيرين في إنكلترا، يحاولون تصوير البلجيكيين بأنّهم أقسى الجلاّدين الذين عذّبوا

الزنوج، جا السيد بينيتو سيلفان ليطمئننا ويقول إنّه يعتمد على البلجيكيين في مساعدته في مهمّة إعادة التأهيل التي بدأها. قال لنا إنّه من بلجيكا يجب أن تأتي صيغة تعايش ترضي في الوقت ذاته رجال الأعمال وأصحاب العمل الإنساني.

الضابط الأسود اللطيف موجود في بلجيكا لإلقاء سلسلة من المحاضرات. خلال سماعه، سنفكّر في الكلمات التي وجّهها إليه الفارس ديكان.

يسرّنا أن نستنتج أنّنا مرّة جديدة، نلتقي بضابط على رأس هذه الحملة، التي تتطلّب الكثير من الصبر والتفاني»[1].

بعد عودته من رحلته الثالثة، انتظر بينيتو سيلفان شهرين ونصف قبل أن يحصل على مقابلة مع رئيس الدولة الهايتية لتسليمه جواب النيغوس، فقد كان من الطبيعي أن تتّسع دائرة الحسد.

في روما: مذكّرة إلى البابا بيوس العاشر:

بعد بلجيكا، ذهب سيلفان إلى روما حيث كان يعقد مؤتمر قرباني. هذا المؤتمر أتاح له فرصة التكلّم عن موضوعه المفضّل: «إعتاق السود في العالم». في 1/ 6/ 1905، ابتكر بمساعدة جمعية في روما، العمل على النهوض الاجتماعي للسود.

على منصّة المؤتمر، ذكّر بوجود ملك زنجي في بيت لحم، وبدور سيمون السيريني على طريق الجلجلة، وأدان فضيحة الاستعمار، والعطش الجشع للثروات المادية الذي يشكّل «مفتاح العقد في هيكل الظلم في حين أن الحكم المسبق بسبب اللون هو ركيزته».

كذلك انتقد سيلفان فرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة،

(1) المرجع ذاته، ص ص 97 ـ 100.

وروسيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وهولندا، والبرتغال، وهي قوى تقول إنها مسيحية في حين أنّها تعتبر الاستعمار أحد أسس حياتها الاقتصادية.

يقول سيلفان: إنّ «الحكم المسبق بسبب اللون»، كجزء لا يتجزّأ من الاستعمار بالعنف، هو ما يزيد من فظاظة المعاملة التي يعتمدها الأوروبيون، الذين يدّعون التمدّن، تجاه الشعوب الإفريقية؛ «الحكم المسبق بسبب اللون» هو ما يمنع الحكومات من الاعتراف بخطئها الأساسي، وبمعاقبة المسؤولين عن الجرائم المرتكبة باسم الحضارة، و «أخيراً بمحو الأذى العميق الذي يلحق بأحفاد ضحاياهم المساكين»[1].

بينيتو سيلفان طلب مقابلة من البابا بيوس العاشر الذي استقبله في الشهر السادس سنة 1905. وقد أبدى الحبر الأعظم اهتماماً شديداً بطروحات الموفد العام للجمعية الأفريقانية من أجل السود في العالم وطلب منه تقديم مقترحاته في مذكّرة. بعد عدّة أيام، في 15/ 6/ 1905، قُدّمت مذكّرة سيلفان بالإيطالية.

وسنورد هذه الوثيقة كاملة، يتبعها الرد الذي كتبه باسم قداسة البابا الكاردينال ميري ديل فال، سكرتير دولة الفاتيكان، بتاريخ 28/ 6/ 1905.

«مذكّرة تتعلّق بعمل النهوض الاجتماعي للسود مقدّمة لقداسة البابا بيوس العاشر من قبل المقدّم بينيتو سيلفان.

إلى قداسة البابا،

بعد شكر قداستكم من أعماق القلب على الرعاية الأبوية التي أوليتموني إياها منذ المقابلة الأولى، أتشرّف بكلّ تواضع بأن أقدّم لكم هذه المذكّرة حول حركة النهوض الاجتماعي للسود التي تأسّست مؤخّراً في روما برعاية قداستكم مباشرة.

كما أعلنتُ دائماً في كتاباتي وخطاباتي، منذ خمس عشرة سنة

---

(1) المرجع ذاته، ص ص 101 ـ 102.

كرّستُ نفسي خلالها لهذه الحملة الخيرية والمسيحية، وكما سنحت لي الفرصة المفاجئة لأعيده أمام المؤتمر القرباني الذي انعقد، في الأيام الأخيرة، في المدينة الخالدة، للعرق الأسود علاقات وثيقة جدّاً بالمسيحية التي حرّرته من العبودية ورفعته من الانحطاط الأخلاقي.

لحظة ولادة المخلّص، يظهر أسود خلف ملوك المجوس الجاثين أمام مذود بيت لحم. ويوم الصلب، العبد الأسود سيمون السيريني هو الذي حمل الصليب الذي أثقله ظلم بني البشر.

بعد ذلك بأربعة عشر قرناً، وبالرغم من تحذيرات الحبر الأعظم، وبينما كان يسيطر شيطان الطمع على الشعوب المسيحية في الغرب، فتدنّس بفظائع تجارة العبيد وبالرق، راية رب المحبة والسلام المقدّسة، كان يحصل أمر يستحقّ الإشارة إليه: بعض العبيد السود، المنهكين من فائض الجهد الذي كان يفرض عليهم في النهار، ورغم أنّ منهم من كان يعاقب في اليوم التالي، كانوا يجتازون كلّ مرة عشرة أو اثني عشر كيلومتراً، في الليل، للذهاب إلى التعليم الديني، ردّاً على نداء الإرساليين.

ذلك أنّ الدين الكاثوليكي لم يكن يحمل الأمل إلى تلك النفوس المعذّبة وحسب، بل كان يعود عليهم بفائدة إيجابية مع العمادة بتأمين عرّابين وعرّابات للأشخاص المحرومين من العائلة. كان العبد الذي يرفضه المجتمع البشري، يجد في الكاهن صديقاً، ويتلقّى عند المذبح تكريماً لا يمكن وصفه تحقّقه المساواة أمام الله. وبما أنّه كان من السهل عليه تصوّر وجود أفضل من حياته البائسة، كان يطمح إلى السماء وما تعده به، وكانت كلمات الإنجيل مثل صدى آت من وطن بعيد تدغدغ بعذوبة أحلامه بحرية في المستقبل. الكنيسة، بكلمة واحدة، كانت للعبد ملاذاً ومنزلاً؛ كانت الركن الوحيد في العالم الاستعماري الذي ينعم فيه براحة وبسلام نسبي.

السود المتحضّرون في أمريكا يتذكّرون؛ يتذكّرون أنّه منذ بداية الرق الاستعماري في العالم الجديد، بذلت البابوية جهوداً حقيقية لمحاربة هذه

الآفة الاجتماعية البغيضة. ولهذه الذكرى دور في انتشار إيمانهم المسيحي الذي أفخر بأن أكون من معتنقيه ومن المخلصين له.

بصفتي موفداً عامّاً للجمعية الأفريقانية، المؤلّفة من نخبة المثقّفين السود في أنحاء الأرض، جئتُ أطرح عند قدمي قداستكم مجموعة الطموحات الاجتماعية لهذا العرق المظلوم الذي لا يزال يعاني من البؤس والاضطهاد، راجياً أن تقدّموا دعماً فعالاً من أجل حركة لتحقيق العدالة وللتقدم، دعماً يضيف رونقاً جديداً على العمل الحضاري النبيل الذي التزمه الدين المسيحي حتى اليوم.

بالرغم من شهادات المستكشفين الأوروبيين الذين أقاموا مدّة طويلة في إفريقيا، والذين أعطوا صورة جيدة عن سكّان القارة السوداء الأصليين، لا يزال هناك من يسيء إلى سمعة السود، وإلى الأشخاص الملوّنين؛ إذ تُنسب إليهم كلّ الرذائل، ويصوّرون كأنّهم غير قادرين على القيام بعمل جيّد من دون أن يجبروا عليه.

حملة التشهير هذه التي يصدر الأمر بها دورياً من الولايات المتحدة الأمريكية، هي من عمل السياسة، أي الكذب لخدمة طموح شرير وطمع لا يشبع. لقد أسيء إلى سمعة السود أوّلاً لانتزاع الحق في جعلهم عبيداً، ثمّ لتبرير هذا الفعل. من هنا كانت هذه العاقبة الاقتصادية: هبوط سعر اليد العاملة السوداء، التي أرادوا لها أن تبقى في أدنى المستويات.

الحركة التاريخية لجمهورية هايتي:

في هذا الإطار من النوايا السيئة ذاتها تُطلق الأخبار المختلفة حول جمهورية هايتي السوداء، التي يحلم البعض بمحوها من لائحة الدول المستقلّة. واليوم بعد مئة سنة من تحرّر الشعب الهايتي من السيطرة الفرنسية، ورغم كلّ ما يقال، حقّق تقدّماً ملحوظاً على المستوى الفكري والأخلاقي. وإذا كان ما زال يُشهّر به في البلدان المستعمِرة، فلأنّ تطوّره يشكّل حجّة دامغة في صالح الأفارقة الأصليين، ولأنّه، كما يقول أحد

أصدقاء الزنوج: «إنّ جمهورية سوداء في وسط الأطلسي هي منارة مضيئة يلتفت إليها الظالمون حانقين، والمظلومين متنهّدين».

في الواقع، وكما كتب أحد أكبر علماء الاجتماع الهايتيين، هانيبال برايس، وزير مطلق الصلاحية في واشنطن سابقاً: «في هايتي، يملك الإنسان الأسود مسؤولية وطنية كاملة، على عكس أيّ مكان آخر. في هايتي، المواطن مدعوّ لأن يؤهل نفسه ويتقدّم على مسؤوليته؛ وهو يتلقّى مباشرة النتيجة ويتحمّل عواقب أخطائه ونزواته. هناك بل يقاد إلى الحضارة بل يتّجه نحوها وحده، بجهوده الخاصة؛ يقصدها من دون سند، ومن دون قوّة غير قوّته. وعندما يتقدّم بما يكفي ليمحو كلّ شكّ بهذا الخصوص، عندما يتحرّر من أخطائه، عندما يتغلّب على الأهواء التي تعيق مسيرته، يكون من الواضح للجميع أنّه وصل لأنه يريد ولأنّه يملك في ذاته القوة اللازمة. الهايتي بهذه التجربة يؤهّل العرق الأسود، لأنّ هذا العرق بوصوله إلى الحضارة خارج هايتي، لن يستطيع أبداً أن يبرهن أنّه لم يُجرّ إليها رغم أنفه من قبل قوة أجنبية تفوق إرادته».

استقلال هايتي يهمّ إذاً كلّ العرق الأسود، لأنّ المساواة الاجتماعية بين الأسود والأبيض، أي إزالة الحكم المسبق الاجتماعي على الأقل إن لم يكن الفردي، لن تصبح أمراً واقعاً إلاّ نتيجة لانتصار هايتي المعنوي مقابل التشكيك، ومقابل العدائية الدولية التي لا تزال تلقاها تقريباً في كلّ مكان.

حركة نهضة السود الاجتماعية:

لمعرفتي بالدور التاريخي الكبير المخصّص لجمهورية هايتي، وطني، في توجيه تطوّر العرق الإفريقي، ولاقتناعي، من جهة ثانية، بمناسبة الظروف الحالية، أسّست هنا في الأوّل من الشهر السادس الماضي، يوم الصعود، «حركة نهضة السود الاجتماعية» بفضل النعمة التي زرعتها في نفسي مباركة قداستكم. وبرنامج هذه الحركة الجديدة هو التالي:

محاربة التمييز العنصري على أساس اللون بكلّ الوسائل السلمية الممكنة، هذا التمييز الذي يبقي السود، بالرغم من إلغاء الرق الجسدي، في حالة استعباد معنوي دائمة؛ العمل على إيجاد صيغة عيش مشترك بين المستعمرين الأوروبيين والسكّان الأفارقة الأصليين، عبر مصالحة حكيمة للمصالح على أساس المبادىء الاجتماعية التي يمليها الدين؛ إعطاء السود الأذكياء الفرصة لإثبات كفاءتهم في المساهمة فعلياً في تطوّر الحضارات.

هكذا بواسطة محاضرات ومنشورات من جميع الأنواع وتنظيم اجتماعات مختلطة (كرحلات وأسفار للدراسة، وأعياد أدبية وفنية، ومعارض مختلفة) حيث العنصر الأسود يتواجد ليس كمشاهد وحسب بل كمشارك فاعل، ويتآخى مع العنصر الأبيض من دون أي أفكار مبطنة، بواسطة كلّ هذا أنا واثق بأننا سنوجد في أوروبا تياراً كبيراً من العدالة والتعاطف تجاه العرق الإفريقي.

وموازاة مع هذا العمل في المراكز الأوروبية، سأذهب في حملة مهمّة إلى المواطن الإفريقية لوضعها في الأجواء وبداية العمل.

مشروع حملة إنسانية إلى إفريقيا:

المقصود هنا حملة كبيرة رسمت خطّتها تسمح للسود الأمريكيين المتمدّنين بالمساهمة في تعليم إخوتهم في إفريقيا. هكذا الأشخاص الذين لا يزالون يعمهون في البربرية سيدركون أكثر حقيقة وضعهم وإمكانية نهوضهم الاجتماعي حين يتشجعون برؤية عدد من إخوانهم في العرق نقلتهم التربية المسيحية من حال إلى حال، فيعرفون الاستفادة منها في الأوان المناسب.

هذا المشروع الواسع والمثمر بطبيعته لا يحتاج إلى تنفيذ ضخم لإعطاء ثماره. إنها طريق جديدة أرسمها في عمل الإنعاش الإفريقي، سيأتي بعدي آخرون يوسّعونها ويجمّلونها لصالح الحضارة.

في الواقع، قام التوسّع الأوروبي في إفريقيا على أساس فوضوي بعيد عن العقلانية. قبل أن تتراكم منتوجات الصناعة الغربية في هذه البلدان الجديدة وحيث لا يحتاج إليها السكان، الذين يستقبلون بحذر مبرّر فوائد حضارة تُفرض عليهم بالبندقية، يجب أوّلاً أن نوجد لدى السكّان الأصليين أذواقاً وحاجات جديدة، يتطلّب منهم إشباعها بذل المزيد من الطاقة في العمل. اليوم، ليس هناك وسيلة أفضل للوصول إلى هذا الهدف من تعميم المثال الذي أعطاه السود الآخرون الذين يحسنون تقدير الراحة، وإلى حدّ ما الرخاء الذي تؤمّنه الحياة المدنية.

فكرة الهجرة الجماعية هي غير ضرورية وغير عملية، لهذا هناك خطّة لهجرة جزئية، يقوم بها إلى إفريقيا عدد من السود الأمريكيين المتمدّنين، هي الآن موضوع دراسة من قبل الهيئة الإدارية في الجمعية الأفريقانية.

حركة نهضة السود الاجتماعية تقدّم اليوم للحكومات المعنية وسيلة لتنظيم هذه الهجرة التي تجري باندفاع يستحيل وضع حدّ له.

من باب تعلّقي العميق بالإيمان الكاثوليكي، الذي أرجو له الانتشار منتصراً في القارة الإفريقية، آمل أن تفعّل الوقائع المذكورة آنفاً تأكيداً جديداً على الاهتمام الإنجيلي الذي تبديه البابوية منذ قرون تجاه أبناء عرقنا.

أمام التوسّع المتزايد للإسلام الذي يضع فكرة المساواة الاجتماعية في مكانة مرموقة، ترتفع عيون أبناء العرق الإفريقي نحو قداستكم ليسمعوا ما يزرع الطمأنينة في قلوبهم.

مع هذا الأمل أضع عند قدمي قداستكم التعبير الأصدق عن تبجيلي وتعلّقي المطلق بها.

المقدّم بينيتو سيلفان

الموفد العام للجمعية الأفريقانية

مبعوث فوق العادة من قبل فخامة الرئيس الهايتي لدى جلالة امبراطور إثيوبيا

مؤسس حركة نهضة السود الاجتماعية

روما، 15/ 6/ 1905».

❀ ❀ ❀

«إلى السيد المقدّم بينيتو سيلفان

مؤسس حركة نهضة السود الاجتماعية،

روما

سيدي الكريم،

يرى قداسة البابا أنّ الحركة التي أسّستموها وأعطيتموها اسم «نهضة السود الاجتماعية» الجميل هي على مستوى روحكم النبيلة والمشاعر الكريمة التي تحرّككم.

تماماً كما تقولون. إنّ إعلان المساواة والأخوّة بين بني البشر يعود إلى سيدنا المسيح الذي ضحّى بحياته من أجل خلاصنا.

وفي الإطار ذاته من الحقيقة والدقّة، تذكّرون بالاحتجاجات المتكرّرة التي عبّر عنها البابوات ضد متابعة الآفة الاجتماعية البغيضة المتمثّلة في الرق.

لهذا ينظر قداسة البابا بعين ملؤها الرضا إلى كونكم، بصفتكم الموفد العام للجمعية الأفريقانية، تفتحون مجالاً جديداً لعمله وعمل الآخرين، بتأسيسكم هنا في روما، حركة نهضة السود الاجتماعية المذكورة التي رسمت لنفسها أهدافاً نبيلة كمحاربة التمييز الظالم واللاعقلاني على أساس اللون، وحماية الحقوق الشرعية للسكان الأصليين تجاه المستعمرين الأوروبيين، وإعطاء السود أنفسهم فرصة الارتقاء بجهودهم الخاصة إلى

مستوى الحضارة المسيحية، ليبرهنوا للعالم أجمع أنّ إبقاء عرقهم خاضعاً لا يمت بصلة إلى أبسط قواعد محبة الخير والعدالة.

بالتالي يضمّ قداسته صوته إلى صوت أسلافه، ويهنّئكم بحرارة على العمل الخيري الذي تكرّسون أنفسكم له. ويأمل من كلّ الأشخاص الذين يدفعهم مبدأ الأخوّة الذي أوصى به سيدنا المسيح أن يمدّوا لكم يد المساعدة والدعم اللازمين.

أخيراً وأملاً في أن تحلّ النعمة الإلهية على مبادرتكم المسيحية، يمنحكم قداسته بعطف خاص البركة الرسولية ويدعو النعم السماوية لتحلّ على كل الذين ينوون التعاون معكم لتنفيذ هذا المشروع النبيل.

بنقل هذه المعلومات إليكم، أغتنم الفرصة لأعبّر بكلّ سرور عن عمق تقديري لكم.

خادمكم المحب

الكاردينال ميري ديل فال

أمين دولة قداسته

روما، 28/ 6/ 1905»(1)

❁ ❁ ❁

في عددها الأول الصادر في 1/ 1/ 1906، وبقلم بينيتو سيلفان، بدأت مجلّة «النجمة الإفريقية» بتعداد الشخصيات، «الحماة الكبار للحركة» وأعضاء هيئة الشرف:

حماة الحركة الكبار:

- الامبراطور مينيليك الثاني، ملك ملوك إثيوبيا.

(1) المرجع ذاته، ص ص 105 ـ 111.

- الجنرال نور أليكسيس، رئيس جمهورية هايتي.
- إميل لوبيه، رئيس الجمهورية الفرنسية.
- إدوارد السابع، ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند.
- غليوم الثاني، ملك بروسيا وامبراطور ألمانيا.
- ليوبولد الثاني، ملك بلجيكا وحاكم دولة الكونغو المستقلّة.
- روزفلت، رئيس جمهورية الولايات المتّحدة.
- الملكة فيليلمينا، حاكمة هولندا.
- فرانسوا - جوزف، ملك النمسا - هنغاريا.
- كريستيان التاسع، ملك الدانمارك.
- أوسكار الثاني، ملك السويد.
- موتسور هيتو، ملك اليابان.
- ڤيكتور - إيمانويل الثاني، ملك إيطاليا.
- ألفونس الثالث عشر، ملك إسبانيا.
- الدون كارلوس الأول، ملك البرتغال.
- الجنرال بورفيريو دياز، رئيس جمهورية المكسيك.
- الجنرال ألڤيز، رئيس جمهورية البرازيل.
- موراليس، رئيس جمهورية الدومينيكان.
- الدكتو كاسترو، رئيس جمهورية فنزويلا.
- ت. باركلي، رئيس جمهورية ليبيريا.
- الجنرال بالما، رئيس جمهورية كوبا.

هيئة الشرف:

ـ الكاردينال ميري ديل فال.

ـ الكرادلة رامبولا ، غوتي،ماكي، سينيا ، فيفيس إي توتو.

ـ الجنرال كوستي، رئيس المجمع الديني المركزي في الكنيسة الإصلاحية.

ـ مارسيلان برتيلوه، السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم في فرنسا.

ـ راس ماكونن، حاكم إقليم هارار (إثيوبيا).

ـ عباس حلمي، خديوي مصر.

ـ المونسنيور كيريلوس مكاريوس، البطريرك الكاثوليكي للإسكندرية ولتبشيرية القديس مرقص.

ـ فريدريك باسي، عضو المعهد، رئيس شرف الجمعية للتحكيم بين الأمم.

ـ تولستوي، رائد التجديد الاجتماعي في روسيا.

ـ السيدة كونتيسة أو، رئيسة شرف هيئة السيدات الراعيات للجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ غابريال فونتان، المولودة توسان ـ لوفرتور، مدرّسة في أوك.

ـ بارونة سوتنر، رئيسة الجمعية النمساوية أصدقاء السلام.

ـ السيدة ماتزا، المولودة ألكسندر دوما.

ـ السيدة جانين دوتريف، المولودة ألكسندر دوما.

ـ جورج بيكو، السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم الأخلاقية، رئيس الجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ السيدة إيزابيل بوجلوه، مديرة حركة محرّرات سان لازار، رئيسة

شرف المجلس الوطني للسيدات الفرنسيات.

ـ الجنرال بوشكين ـ موسا، حاكم أوديسا السابق.

ـ الجنرال دودس، المفتش العام لمشاة البحرية في الجيش الفرنسي.

ـ الجنرال ليجيتيم، رئيس جمهورية هايتي السابق.

ـ الدكتور إدوارد ويلموت بليدن، رئيس جمهورية ليبيريا السابق، وزير مطلق الصلاحية في فرنسا.

ـ بوكر ت. واشنطن، مؤسس ومدير معهد المعلمين في تاسكيجي.

ـ السيدة بوكر واشنطن.

ـ باول، الوزير مطلق الصلاحية لجمهورية الولايات المتحدة في بورتو برانس.

ـ ليون دي روسني، رئيس التحالف العلمي العالمي.

ـ ميشال سيلفان، مزارع وصناعي في هايتي.

ـ ج. جيرفيل رياش، نائب رئيس مجلس النواب في فرنسا.

ـ المونسنيور ألكسندر لوروا، رئيس تجمّع آباء الروح القدس.

ـ المونسنيور جاروسو، رئيس البعثة الرسولية في بلاد غالاس.

ـ المونسنيور سبولفيريني، مؤرّخ الوثائق للسدّة الرسولية.

ـ السيدة الكونتيسة ليدو تشوفسكا، مؤسّسة حركة سان بيار كلافر.

ـ الفارس إ. ديكان ـ دافيد، أستاذ قانون في جامعة لوفان، السكرتير العام لمعهد القانون الدولي.

ـ أ. فيرمان، وزير مطلق الصلاحية لهايتي في باري سابقاً.

ـ د. لويس ـ جوزيف جانفييه، خرّيج كلية الطب في باريس، وزير سابق لهايتي في لندن.

ـ د. ليون أودان، خرّيج مستشفيات باريس، مدير مدرسة الطب في بورتو برانس.

ـ اللورد كرومر، ممثّل الحكومة البريطانية في مصر.

ـ شارل سيغي ـ فليغالي، وزير سابق لهايتي في لندن.

ـ دالبيمار جان ـ جوزيف، وزير مطلق الصلاحية لهايتي في واشنطن.

ـ د. سينيك ڤيار، وزير هايتي في لندن.

ـ جاك نيكولا ليجيه، وزير مطلق الصلاحية لهايتي في واشنطن.

ـ لويس بورنو، وزير مطلق الصلاحية لهايتي في سانتو دومينغو.

ـ ألفونس سيسرون، ممثّل الغوادلوب في مجلس الشيوخ في الجمهورية الفرنسية.

ـ الجنرال برينور بروفيت، وزير الحربية والبحرية السابق في هايتي.

ـ مورفيل ـ فيرير، وزير العلاقات الخارجية في هايتي.

ـ سولون مينوس، وزير سابق للعلاقات الخارجية في هايتي، رئيس جمعية التشريع في بورتو برانس.

ـ إدمون ليبيناس، وزير سابق للعدل، محامي بعثة فرنسا في بورتو برانس.

ـ بيار فونسان، مفتّش في المعارف العامّة، مؤسس التحالف الفرنسي.

ـ هنري دونان، مؤسس حركة الصليب الأحمر.

ـ ماكسيميليان ليونتيل، مدّع عام في محكمة الاستئناف في كايان.

ـ ستيفن ليبجارد، رئيس جمعية تشجيع عمل الخير.

ـ لويس رينو، عضو في المعهد، أستاذ قانون دولي في كلية باريس.

ـ إرنست لافيس، مدير دار المعلمين العليا في باريس.

ـ توماس فورتشن، مدير عهد نيويورك، موفد سابق لحكومة الولايات المتحدة في الفيليبين.

ـ ألفرد إيلغ، مستشار دولة في الامبراطورية الإثيوبية.

ـ ليون شيفنو، رئيس مجلس الإدارة في الشركة الامبراطورية لسكك الحديد الفرنسية ـ الإثيوبية.

ـ لاغارد، وزير مطلق الصلاحية لفرنسا في أديس أبابا.

ـ إ. ليشين، وزير مطلق الصلاحية لروسيا في أديس أبابا.

ـ الكولونيل تشيكوديكولا، وزير مطلق الصلاحية لإيطاليا في أديس أبابا.

ـ الكولونيل هارنغتون، وزير مطلق الصلاحية لإنكلترا في أديس أبابا.

ـ د. جان ـ لويس، رئيس الهيئة الدائمة لمجلس الشيوخ في جمهورية هايتي.

ـ بطرس غالي باشا، وزير الشؤون الخارجية في مصر.

ـ هوغون لوشو، وزير سابق للعدل، رئيس محكمة التمييز في هايتي.

ـ جيريمي، الوزير السابق للعلاقات الخارجية في هايتي.

ـ الجنرال تورين جان ـ جيل، وزير سابق للحربية، مبعوث فوق العادة للحكومة الهايتية.

ـ الجنرال سيرياك سيليستان، وزير الحربية والبحرية في هايتي.

ـ المونسنيور بوجيه، كاهن سانت آن في بورتو برانس.

ـ د. إنريكيس إي كارباخال، وزير سابق للشؤون الخارجية في جمهورية الدومينيكان.

ـ الوزير الفرنسي في بورتو برانس.

ـ كميل برونو، رئيس لجنة التفتيش المالي في بورتو برانس.

ـ المونسنيور لوغروه، مدير الجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ فردينان برونتيير، من الأكاديمية الفرنسية، مدير مجلّة *العالمين*.

ـ الدكتوران ماتزا وشومبريه.

ـ غلاسون، عضو المعهد، عميد كلّية الحقوق في باريس.

ـ كميل بيلتان، وزير سابق للبحرية.

ـ جول غيد، زعيم الحزب الاشتراكي في فرنسا.

ـ المونسنيور هولي، الأسقف المعمداني في بورتو برانس.

ـ سينيك بيار، سيناتور في جمهورية هايتي.

ـ السيدة الدكتورة ماغنوس، من كلية باريس.

ـ ميشال أورست، سيناتور في جمهورية هايتي.

ـ ستيفن أرشر، رئس مجلس النواب في هايتي.

ـ الجنرال سبتيموس ماريوس، وزير سابق للحربية.

ـ أوزفالد دوران، أديب هايتي.

ـ ماكسيميليان لافوريه، كاتب عدل في بورتو برانس.

ـ أناتول فرانس، من الأكاديمية الفرنسية.

ـ السير فاول باكستون، رئيس الجمعية البريطانية والأجنبية المناهضة للرق.

ـ السيناتور بيرانجيه، رئيس الرابطة المناهضة للرق الأبيض.

ـ جول كلاريسي، من الأكاديمية الفرنسية.

ـ السيدة مركيزة فيتيليشي، رئيسة هيئة السيدات راعيات الجمعية المناهضة للرق في إيطاليا.

- لويس سوريلا، مستكشف، رئيس الجمعية المناهضة للرق في إسبانيا.

- إيبوليت لاروش، حاكم مدغشقر السابق.

- الجنرال جيني، رئيس الدائرة العسكرية في باريس.

- اللواء البحري لوبون، قائد الأسطول الهايتي.

- جوليان دوسيك، عضو ديوان المحاسبة في جمهوري هايتي.

- تيموكليس لافونتان، مفوّض الحكومة لدى المصرف الوطني في هايتي.

- الجنرال داريوس إيبوليت، رئيس حرس القصر الوطني في بورتو برانس.

- السيناتور رينو إيبوليت، وزير سابق للداخلية في هايتي.

- الكونت بيار دي لاغيبورجير، قائد سابق للجيش الفرنسي، رئيس القوى الإثيوبية المدرّبة على الطريقة الأوروبية.

- الكابتن جوفير، رئيس مجموعة «القرى الحرّة» في إفريقيا.

- الكومندور فيليبو تولي، رئيس الجمعية المناهضة للرق في إيطاليا.

- المونسنيور ويلين، أسقف نامور.

- السيدة مركيزة لاكاز.

- السيدة جان جيرمان، أديبة.

- برونيه، ممثّل الريونيون في مجلس شيوخ الجمهورية الفرنسية.

- النائب فرنسيس دي بريسنسي، رئيس الرابطة الفرنسية لحقوق الإنسان.

- غابريال مونو، مدير المجلّة التاريخية.

ـ ألبير هانس، قنصل الباراغواي في باريس.

ـ ر.ب. لوفلوك، رئيس المدرسة الإكليريكية الفرنسية في روما.

ـ ب. روزروه، وكيل رهبانية آباء الروح القدس في روما.

ـ ب. بورتان، وكيل الآباء البيض في روما.

ـ د. أبات باشا، رئيس الجمعية الخديوية للجغرافيا.

ـ بول لوشار، مدير الجريدة الرسمية لجمهورية هايتي.

ـ إيوالد، مدير مفوّض في مصرف هايتي الوطني.

ـ تيرتوليان غيبوه، مؤسّس مدرسة الحقوق في الكاب الهايتي.

ـ الأستاذ ألفريد أنريكيز، محام.

ـ انائب دنيس كوشان.

ـ البارونة دنيس كوشان، رئيسة هيئة السيدات راعيات الجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ بول فيوليه، رئيس لجنة الدفاع والحماية عن السكان الأفارقة الأصليين.

ـ السيدة الأرملة غارديس، المولودة ڤاتييه دي بورفيل.

ـ غابريال لوير، حاكم المارتينيك السابق بالوكالة.

ـ د. جان هيس، مستكشف، مؤلّف «النفس السوداء».

ـ ستيفن بيشون، وزير سابق في بورتو برانس، فرنسي مقيم في تونس.

ـ جرمان لوفيفر بونتاليس، عضو الجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ السيدة سيفرين، صحافية.

ـ ماكس نوردو، مؤلّف «أكاذيب الحضارة».

ـ جان فينوه، مدير «المجلة»، مؤلّف الحكم المسبق على العرق.

ـ و.ت. ستيد، مدير «مجلّة المجلاّت».

ـ جوستان ديڤو، أستاذ في المدرسة الوطنية للحقوق في بورتو برانس.

ـ دوكاس بيار ـ لويس، نائب في بورتو برانس.

ـ أوجين سيمونو، سكرتير محافظة في فرنسا.

ـ البارون جوزيف دوتاي، السكرتير العام للجمعية المناهضة للرق في فرنسا.

ـ الكونت ستادنيكي، القائم بأعمال النمسا ـ هنغاريا في القاهرة.

ـ القاضي مانيو، رئيس محكمة شاتو ـ تيري.

ـ أوجين بونور، حاكم المارتينيك.

ـ السيدة كونتيسة برازا.

ـ السيدة جاين كوبدن ـ أنوين، عضو نادي الإصلاح الجديد في لندن.

ـ المقدّم مورتينول، قبطان فرقاطة في البحرية الفرنسية.

ـ الدكتور ليبيدنسكي، مدير المستشفى الروسي في أديس أبابا.

ـ جورج سيلفان، قاض في محكمة التمييز في بورتو برانس.

ـ هـ. ليجيتيموس، نائب سابق في الغوادلوب.

ـ النائب هنري أورسلور، ممثّل غويانا في المجلس الفرنسي.

ـ الكونت دي مونتالبو، مستشار مفوّضية جمهورية الدومينيكان في روما.

ـ غابريال غينيوني، وكيل فرنسا القنصلي في هارار.

ـ شارل سيرفيل، قنصل هايتي العام في مرسيليا.

ـ السيدة سارة مونوه، رئيسة المجلس الوطني للسيدات الفرنسيات.

ـ السيدة أفريل دي سانت ـ كروا، السكرتيرة العامة للمجلس الوطني للسيدات الفرنسيات.

ـ سودر دارتيغيناف، رئيس سابق لمجلس النواب.

ـ الأب فونساغريف، رئيس الدائرة الكاثوليكية في اللوكسمبورغ.

ـ شارل لومال، محاسب صندوق الرهن العقاري في مصر.

ـ السيدة فيريس ـ ديريم.

ـ جان شوفان، دكتورة في الحقوق في كلية باريس.

ـ الجنرال جوستان كاربيه، مقدّم دائرة بورتو برانس.

ـ الجنرال شارل رينييه، مقدّم ساحة بورتو برانس.

ـ الجنرال مارك ديريننكور، رئيس حركات المرفأ، في بورتو برانس.

ـ الجنرال جورج بريس، مقدّم دائرة جيريمي.

ـ جاك دوروشيه، تلميذ سابق في مدرسة باريس المركزية، مهندس لدى الحكومة الهايتية.

ـ فردريك دوريه، تلميذ سابق في مدرسة المناجم في باريس، مهندس لدى الحكومة الهايتية.

ـ لويس روا، تلميذ سابق في مدرسة المناجم في باريس، مهندس لدى الحكوم الهايتية.

ـ توماس برايس، تلميذ سابق في معهد برات في نيويورك، مهندس لدى الحكوم الهايتية.

ـ ماليرب كارّيه، تاجر سابق.

ـ س. لاراك، مزارع وصناعي في فرنسا.

ـ السيدة إدوارد كروس.

ـ أرنولد روجييه، مدرّس في باريس.

ـ البروفسور وليام ليون.

ـ د. فيتاليان، مدير مستشفى هارار.

ـ السيناتور جورج كليمونصو، مدير جريدة «الفجر».

ـ لامارتين مالبرانش، سيناتور جمهورية هايتي.

ـ أوغوست دورشان، أديب باريسي.

ـ كورناي تونيسن، نحات.

ـ أ. بوميراك، أديب هايتي.

ـ دووا فيار، رئيس قسم سابق في وزارة المعارف العامة في هايتي.

ـ إدمون رومان، صيدلي ـ كيميائي في بورتو برانس.

ـ إتيان ماتون، قاض سابق في بورتو برانس.

ـ ماسيون كواكو، سكرتير سابق لبعثة هايتي في باريس.

ـ بيريكليس تيسييه، مدير الثانوية الوطنية في بورتو برانس.

ـ شارل سمبور، مدير المالية العام في بورتو برانس.

ـ السيدة لاغوجانيس، تاجرة استيراد في بورتو برانس.

ـ السيدة الأرملة بوتان، تاجرة استيراد في بورتو برانس.

ـ شارل غيتو، مدير بيت هايتي المركزي.

ـ الآنسة روشفور، مدرّسة في باريس.

- ديموستين سيلفان، تاجر في بوردي بي (هايتي).

- سيسرون سان أود.

- إيمانويل إنريكيز، صيدلي في جاكميل.

- د.م. تاكر، طبيب في مستوصف روسليه.

- د. إدغار بيريون، رئيس جمعية علم التنويم المغناطيسي في باريس.

- إ. نيكول، رئيس جمعية الجغرافيا في ليل.

- أدولف بريسون، مدير «الحوليات السياسية والأدبية».

- لويس كولان، طبيب بيطري في بورج.

- د. بوريكو، طبيب داخلي سابق في مستشفيات باريس، مستشار عام في الغوادلوب.

- السيدة الأرملة لاموت، مديرة المدرسة الثانوية للبنات في بور دي بي.

- مارك لغران، المدير المؤسّس لمجلّة الخير في الحياة وفي الفن.

- أنجيل كوب، مديرة بيت الحضانة في بيلفيل (باريس).

- أوربان غوييه، صحافي.

- مارك سانييه، مدير «سييون».

- د. بروسار، مدير المستشفى الفرنسي في القاهرة.

- أتاناسيوس سورفيس، السكرتير الخاص للامبراطور مينيليك.

- السيد بيغار، رتبة فارس من جوقة الشرف.

- الأب لويس سوفانو.

ـ الكابتن، غاستون موك، عضو لجنة الدفاع وحماية السكّان الأصليين.

ـ د. ألكسندر ريبول، مدير دار التوليد في بورتو برانس.

ـ الدكتوران فيليكس أرمان ووسنر مينوس، أستاذان في مدرسة الطب في بورتو برانس.

ـ النائب جان جوريس، مدير جريدة «لومانيتيه».

ـ ليون شوميه، مدير صحيفة «بلجيكا العسكرية».

ـ هنري توروه، المستشار البلدي في باريس، محرّر في «الجمهورية الصغيرة».

ـ غاستون كالميت، مدير «الفيغارو».

ـ السيدة فيرجيني سامبير، مديرة المدرسة الداخلية للبنات في بورتو برانس.

ـ النائب جيروه ـ ريشار، مدير «الجمهورية الصغيرة».

ـ السيدة فريدريك وولي.

ـ إيلين روبنسون، من ليفربول.

ـ ج. نيكولاس، قنصل هايتي العام في نيويورك، سابقاً.

ـ د. ألونسو هولي، قنصل هايتي السابق في إيناغ.

ـ جوزيف جوستان، مدير مدرسة الحقوق الوطنية في بورتو برانس.

ـ جورج بوتان، رئيس جمعية الجغرافيا في دوي.

ـ النائب غوستاف روانيه، محرّر في صحيفة «لومانيتيه».

ـ غاستون ميري، المستشار البلدي في باريس، محرّر في «الكلمة الحرة».

ـ موريس لوديه، حرّر في الفيغارو.

ـ الأستاذ هنري لامبا، أستاذ في مدرسة الحقوق الخديوية.

ـ جاك غودين، مدير جريدة نامور.

ـ أغوست لوسويف، عنصر جمعية العراقة في باريس.

ـ برانس ڤانيلو بيهانزين، خرّيج ثانوية المارتينيك.

ـ النائب ڤينييه دوكتون.

ـ ليون ميرمان، مدير الصحة العامة في باريس.

ـ السيدة هاميل، المولودة غاهيري، مدرّسة.

ـ الآنسة إسكوديه، مجازة من دار التوليد في باريس.

ـ روبيكي بريكيتي، مستكشف، في ميلانو.

ـ جول كوتان، رئيس جمعية حماية الحيوانات.

ـ السيدة إليز كولار والسيدة الأرملة روبلان.

ـ هنري روشفور، مدير صحيفة.

ـ هنري ماريه، رئيس تحرير صحيفة «الراديكالي».

ـ هنري أفنيل، مدير دليل الصحافة.

ـ الآنسة رينيه بريجيل، أديبة.

ـ الآنسات لاكاسكاد.

ـ داتان دي سان سير، بول ڤيبير، صحافيان.

ـ موريس روسّو، مهندس صناعي في بوردو.

ـ جورج ديهيرن، صاحب فكرة الجامعات الشعبية في فرنسا.

ـ نوغير، رئيس جامعة الطلاب العامة في باريس.

- أدولف فونتان - بيسون، صناعي باريسي.

- السيدة لويس هارتمان.

- راوول كانيفيه، مؤسّس الجامعة الشعبية في الإسكندرية.

- فرنان براون، مدير «مصر الحديثة».

- كميل غبريال، السكرتير الخاص لرئيس هايتي.

- مونتروي غييوم، أمين صندوق في دوائر الحربية والبحرية في هايتي.

- شرفان بو، راوول ليون.

- سان - ميكسان وكوفييه روزييه.

- فرنان هيبير وشارل دوبيه، نائب سابق.

- جوزيف جفرار، ملتزم الإنارة الكهربائية في بورتو برانس.

- أتاناز لافوريه.

- لوسيان ديكاف، عضو أكاديمية غونكور.

- موريس لادميرال، المستشار العام في الغوادلوب.

- إيمانويل لاكورنيه، رئيس محكمة الاستئناف في فوردي فرانس.

- مكسيم كولتا، مهندس، مدير التضامن الاستعماري.

- لوكامو، رائد في المشاة الاستعمارية.

- ديدييه، رئيس سرية في المدفعية الاستعمارية.

- بودان، رئيس سرية في المدفعية الاستعمارية.

- د. بونولا بيه، السكرتير العام لجمعية الجغرافيا الخديوية.

- إرنست آنجفان، مدرّس سابق في باريس.

ـ جوستان ليريسون، أستاذ تاريخ في ثانوية بورتو برانس.
ـ غاستون ليڤي، دكتور في الحقوق.
ـ كونستانتان ڤيو، وكيل مالي.
ـ م. دي ديكين، قنصل هايتي العام في بلجيكا وهولندا.
ـ أوجين سان ماكاري، تاجر في بورتو برانس.
ـ جورج بير، من الكوميديا الفرنسية، أستاذ في الكونسرفاتوار.
ـ جوانيل، مهندس ميكانيك في البحرية الفرنسية.
ـ ماتيو، رئيس سريّة في المدفعية الاستعمارية.
ـ بوشوه، مفتّش في المستعمرات.
ـ فيكتور باسكيل، قاض في المارتينيك.
ـ جوستان وغييوم دوڤيس، في سان لويس (السنغال).
ـ د. شارل كاربوه، طبيب في سان لويس.
ـ النائب فرانسوا كاربو، ممثّل السنغال في مجلس النواب الفرنسي.
ـ أدولف كريسبان، رئيس مكتب الأمانات العامة في سان لويس.
ـ هـ. ماران، رئيس مكتب الأمانات العامة في كايان.

لِمَ تأسّست *الحركة* في روما؟ يجيب بينيتو سيلفان بوضوح عن هذا السؤال بذكر كلام للكاردينال لافيجري يقول: «ما نحتاج إليه لمحاربة الرق، ليس السلاح الكثير كما قد يعتقد البعض، ما نحتاج إليه هو أفراد، ولو معزولين، يكونون أقوياء بالفضيلة، وبالمبادرة وبالجرأة، وقادرين على تأهيل السود لمقاومة أعدائهم».

بينيتو سيلفان يريد أن يكافح، ليس ضد الرق، ولكن ضد «فضيحة انتهاك حقوق الإنسان في إفريقيا» من قبل كلّ القوى الاستعمارية المسؤولة عن «سوء معاملة السكّان الأصليين في إفريقيا» وضد «التمييز على أساس

اللون». بالطبع هو يأخذ حذره من الهجوم على جبهة الغزوات الاستعمارية التي تنشط في إفريقيا وفي آسيا، ويفضّل تركيز جهوده على الحكم المسبق على اللون الذي «يتغذّى ويتجدّد، ويميل إلى الازدياد، كما في أسوأ أيام الرق والاستعباد».

وتنبثق تفسيرات سيلفان عن هذا الكفاح الذي يقوم به ضد «هذه الآفة البغيضة في العالم الاستعماري»: «بعدما أعطت الجمعية الأفريقانية لمثقّفي السود المشتّتين في جميع البلدان إمكانية أن يتعارفوا ويتساعدوا، ننشىء اليوم، مع «حركة نهضة السود الاجتماعية»، إدارة مركزية لتنسيق الجهود المشتركة والحفاظ، عبر عمل جماعي منهجي ومتواصل، على مصالح العرق الإفريقي وحقوقه، هذا العرق الذي أهين وظُلم واستُضعف لفترة طويلة.

ومن أجل هذه المؤسّسة الجديدة التي تثبت أحداث الكونغو الأخيرة مدى أهمّيتها، أخذنا بعين الاعتبار واقعاً تاريخياً أساسياً تميل بعض الحكومات إلى تجاهله: وهو أنّ أصل السلطات السياسية التي تمارس بغطرسة في إفريقيا من قبل القوى الاستعمارية يعود إلى تفويض خاص منحته لها البابوية الرومانية باسم الدين الكاثوليكي. وعندما خضعت الشعوب المسيحية لشيطان الطمع، وانتهكت، على حساب السود، روحية العقيدة الإنجيلية وكلماتها بعدما قبلت مهمّة نشرها، لم تتوانَ البابوية، كما أظهرنا، عن إصدار احتجاجات شديدة اللهجة.

اعترافاً منّا بجميل هذا الاهتمام الذي طالما صدر عن الكرسي الرسولي تجاه الأفارقة، ذهبنا إلى روما وأسّسنا فيها، برعاية قداسة البابا بيوس العاشر، حركة نهضة السود الاجتماعية.

وقد لقينا في الفاتيكان، استقبالاً يجب أن نفخر به نحن وأبناء عرقنا، لأنّ تكريمنا كان بوجه خاص بصفتنا مدافعين عن العرق الأسود. والحبر الأعظم، الذي يكلّل طيبته النيّرة ذكاء حاد، منح لحركتنا دعمه

وتشجيعه الكريمين. كذلك فإنّ أعضاء جماعة الكرادلة الكبار، الكاردينال رامبولا، سكرتير الدولة في ظل البابوية السابقة، ميري ديل فال، المستلم الحالي لهذه المهمة، غوتي، مدبّر الدعاية، ڤيڤس إي توتو، فانوتيلي، الموفد الرسولي السابق في أمريكا الوسطى، فيراتا، القاصد الرسولي السابق في باريس، ماكي، مستشار الأوامر البابوية، سينيا، أمين محفوظات الكرسي الرسولي، غمرونا بلياقتهم وأغدقوا علينا التشجيعات».

بينيتو سيلفان ألقى محاضرة في روما، برعاية الجمعية المناهضة للرق في إيطاليا، وقد كرّمها بحضورهم الكرادلة ماكي، وسينيا، وڤيڤس.

برنامج حركة نهضة السود الاجتماعية كان كالتالي:

أوّلاً ـ محاربة ـ بكل الوسائل السلمية الممكنة ـ التمييز على أساس اللون الذي، بالرغم من إلغاء الرق الجسدي، يميل إلى إبقاء الزنوج وذرّيتهم في حالة خضوع معنوي دائمة.

ثانياً ـ العمل بإخلاص على إيجاد صيغة عيش مشترك يرضي المستعمرين الأوروبيين والسكّان الأفارقة الأصليين، بواسطة مصالحة حكيمة بين المصالح الصناعية والتجاية ومبادىء الأخوة المسيحية.

ثالثاً ـ إعطاء السود الأكثر تقدّماً فرصاً لإثبات جداراتهم وللمشاركة الفعلية في تطوّر الحضارة.

بينيتو سيلفان بذل جهوداً جبارة في أوروبا الغربية في تلك الفترة 1905 ـ 1906، وكانت تنخرها العنصرية. فألقى عدّة محاضرات حول الموضوع العام «ضرورة الاتفاق بين البيض والسود في إفريقيا»، وانتقد ستيفان لوزان، رئيس تحرير صحيفة لوماتان (الصباح)، «التي تمجّد التمييز على أساس اللون وتشهّر بالعرق الأسود بأسوأ صورة ممكنة». مقال لوزان «العرق الأدنى» الذي نشرته لوماتان في 18/ 8/ 1905، الذي خلص فيه إلى أنّ «العرق الأسود، حتّى مع مباركة الكردينال ميري ديل فال، لن يصل أبداً إلى مستوى العرق الأبيض»، جوبه بإجابات ساخطة من قبل العديد من

الشخصيات. وسيلفان نفسه نشر مقال «البيض والسود خارج موشور اللون» في صحيفة لوماتان ذاتها.

أدولف سيسرون، سيناتور الغوادلوب، هنري أورسلور، نائب غويانا، عبّرا عن رأيهما في «البرقية الاستعمارية» سنة 1905. هـ ـ أدولف لارا كتب مقالاً في الغوادلوب. ونشرت صحف كثيرة افتتاحيات نقدية، كمجلّة الحوليات الدبلوماسية والقنصلية التي نشرت رسالة مفتوحة إلى ستيفان لوزان بقلم أرمان سيڤي، سكرتير رابطة الدفاع عن الحقوق في المستعمرات.

بينيتو سيلفان ألقى خطابات لنشر أفكاره، فذهب إلى نامور، وباريس، وليل، ودوي، وتولوز، والقاهرة، والإسكندرية، وروما حيث وسّع دائرة أصدقائه. كما ألّف كتباً؛ وانتظرت إحدى مخطوطاته، «رؤى إثيوبية»، الجاهزة منذ 1903، سنتين قبل نشرها. كتب «تاريخ هايتي مرويّاً إلى الكنديين» الذي لم يظهر إلاّ بعد وفاته. كما أقام علاقة صداقة مع د. إدوارد بليدن الذي التقاه في باريس.

إحدى محاضراته في باريس، في مقرّ المجلس الوطني للسيدات الفرنسيات، تناولت «دور المرأة في حركة نهضة السود الاجتماعية». وكان مركز *الحركة* المؤقّت يقع في باريس في 14، سيتي دانتان.

المراحل الأخيرة:

قام بينيتو سيلفان برحلة رابعة وأخيرة إلى الحبشة سنة 1906، وألقى سلسلة جديدة من المحاضرات في باريس حول إثيوبيا، وحول «تفاهم السود والبيض». في 21/ 3/ 1907، ألقى خطاباً في القصر الوطني في بورتو برانس. وسلّم ردّ الامبراطور مينيليك لرئيس هايتي نور أليكسيس مرفقاً بالوسام الذي منحه إياه:

«سيدي الرئيس،

بعد معاناة جسدية ومعنوية لا يشكّ أحد هنا بحجمها، لديّ اليوم مهمّة وطنية وهي أن أضع بين أيديكم ردّ جلالة الامبراطور مينيليك الثاني

على الرسالة التي وجهتموها إليه بواسطتنا، بمناسبة مئوية الاستقلال الوطني في هايتي.

هذا التبادل، ولو كان يبدو طبيعياً، يتجاوز إطار المبادرات الدولية لحكومتينا. للمرّة الأولى تدخل جمهورية هايتي، حاملة لواء العرق الأسود في أمريكا، في علاقات مباشرة مع امبراطورية إفريقية قادرة على مساندتها، في تحقيق أهدافها التاريخية.

لذلك، حان الوقت لأن يعلن بلد توسان لوفرتور وديسالين رسمياً، وأمام العالم المتحضّر، عن الدور المناط به في تطور أبناء عرقنا في إفريقيا، هذا الدور الذي يشكّل السبب الوحيد لتواجد هايتي على الساحة الدولية. سيكون مجداً كبيراً لفخامتكم أن تفتتحوا هذه الطريق وأن تضمّوا، لهذه الغاية، اسمكم إلى اسم الامبراطور الإثيوبي.

وبعد اجتياز مرحلة لاحقة ستحدّد الأحداث استحقاقها، ستقدّم جمهورية هايتي تكريساً مناسباً ومنطقياً للعلاقات الجديدة التي تمليها هذه المشاعر النبيلة. والوسام الأكبر في الامبراطورية الإثيوبية، الذي أتشرّف بنقله إلى فخامتكم، ليس في نظر الامبراطور مينيليك سوى دليل على هذا الأمر الموجود مسبقاً لدى كلّ الوطنيين الهايتيين.

بعد أدائي لمهمّتي المزدوجة، يسعدني أن أجدّد سيدي الرئيس، مع تهانيّ وتمنّياتي الصادقة، أرفع تعابير التفاني»[1].

في السنة التالية، سافر المقدّم سيلفان إلى كندا. وصل إلى أوتاوا، العاصمة الاتّحادية، في أواخر الشهر التاسع من سنة 1907. استقبله ويلفريد لورييه، الوزير الأوّل الكندي والحاكم العام اللورد غراي. وفي الكيبيك التقى الملازم ـ الحاكم جيت وألقى محاضرة في هذه المدينة. في مونتريال، التي وصلها في السابع من شهر 10، انتظر شهراً قبل أن يلقي

(1) المرجع ذاته، ص ص 145 ـ 146.

محاضرته حول ضرورة الاتفاق بين البيض والسود، برعاية المونسنيور بروشيزي، رئيس أساقفة مونتريال.

في كندا، أنشأ سيلفان «النجمة الإفريقية»، لمحاربة التمييز على أساس اللون الذي كان منتشراً في أنحاء شمال أمريكا.

الرئيس أنطوان سيمون رقّى بينيتو سيلفان إلى رتبة كولونيل سنة 1909 وفي وقت لاحق، في 5/ 2/ 1910، إلى رتبة مساعد جنرال. سنة 1912، انتُخب نائباً في المجلس التشريعي، ورشّح ليكون رئيس هيئة الجيش. سنة 1914، الجنرال أورست زامور الذي كان انقلب على الرئيس ميشال أورست، عيّنه رئيس دائرة في قسم الزراعة. ولكن بالرغم من هذا التكريم، انسحب بينيتو سيلفان محطّم القلب إلى بيزوتون، في ضاحية بورتو برانس. لقد اصطدم بالمكائد، وبغيرة المسؤولين، والتراجع الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي في هايتي. وأخيراً توفّي شاباً، في السابعة والأربعين من عمره، في 3/ 1/ 1915، قبل ستة أشهر من وصول قوات الولايات المتحدة لتحتلّ هايتي.

في 4/ 1/ 1915 ظهرت في صحيفة «لوماتان» بطاقة تنعيه بهذه الكلمات: «نعلن بكل أسف عن وفاة السيد بينيتو سيلفان، رئيس دائرة الزراعة. السيد بينيتو سيلفان كان مواطناً هايتياً صالحاً شرّف بلده ودافع عنه باستمرار في الخارج وحاول دائماً أن يضع في خدمته معارفه الكثيرة والواسعة.

كان نقيباً بحرياً سابقاً، ودكتوراً في القانون تخرّج من كلية باريس، ومبعوثاً فوق العادة لجمهورية هايتي لدى جلالة الامبراطور مينيليك، وسكرتيراً سابقاً لبعثة هايتي في لندن. السيد بينيتو سيلفان حيثما حلّ كان يترك صورة الرجل المحترم والهايتي النيشط»[1].

---

(1) المرجع ذاته، ص 149

خلاصة، 1900 ـ 2000

التاريخ، إضاءة الحاضر

«أسخر منك»...
يا قرداً يقفز من شجيرة إلى شجيرة،
مهرّجاً يحرجه ألاّ يخطىء،
ودائماً تخطىء حتّى أئنيك.
أسخر منك، يا أبيض عروقك خضراء
واضحة حتى لو حاولت أن تخفيها!
أضحك عندما تتحدّث عن اللياقات
عن تجارتك المزدهرة وصناديقك الممتلئة
أسخر منك، يا زنجياً مقلّداً
تفتح عينيك أمام سيارة الأثرياء
وتخجل من النظر إلى شعرك الداكن،
وتنسى قبضتك القاسية!»
نيكولاس غيين

سونغورو كوسونغو، 1931

أردتُ، في هذه الدراسة، أن أتناول نقاشاً، أن أفتح وأفحص ملفّاً يتعلّق، في القرن التاسع عشر، بمشاكل، وبأشخاص فاعلين، وبمؤسّسات

تدور في فلك الأفريقانية في طورها الأوّل. خلف مفهوم الأفريقانية هذا، الذي ظهر في نهاية الفترة، في 1899 ـ 1900، مجموعة من الأشخاص الذين لعبوا أدواراً تاريخية مهمّة، في المنطقة الكاريبية، أو في البرازيل، أو في الولايات المتحدة، أو في إفريقيا. شخصيات أفلتت من الأرشيف أو من الكتب القديمة في المكتبة الوطنية أو مكتبة جنفياف في باريس، أو المكتبة البريطانية في لندن، أو مكتبة الكونغرس في واشنطن دي.سي. الباحثون الذين كتبوا عن الأفريقانية غالباً ما اكتفوا بأعمال و.إ.ب دوبوا أو جورج بادمور. لكن هذين الكاتبين تناولا نواحي معيّنة وعرّفا الجمهور العريض بأشخاص معيّنين، وركّزا على سياق للأحداث وأبرزا منظّمات محدّدة... إنّ تحليلاً للمصادر المخطوطة والمطبوعة، ونقداً تاريخياً، يظهران مسالك جديدة، وشخصيات منسية، عادت مع مشاكلها، ونشاطاتها، وأحلامها، وطروحاتها. ومن مهمّات التاريخ أن يسطّر هذه الأسماء، أن يسجّل سير هؤلاء الرجال والنساء التي لا تنفصل عن القضية الأفريقانية.

بين الأشخاص الناشطين الذين تميّزوا في القرن التاسع عشر، هناك أربع شخصيات تشكّل أعمدة هذا الملف: إدوارد ويلموت بليدن من جزر العذارى الدانماركية، وأنتينور فيرمان وبينيتو سيلفان من هايتي، وهنري سيلفستر وليامس من ترينداد. والأربعة أصلهم من جزر الكاريبي. والأربعة من رجال السياسة الذين كافحوا، لنصرة الحرّية، والكرامة والثقافة والمساواة لدى الزنوج. لِمَ ترك ثلاثة منهم منطقة الكاريبي؟ ولِمَ وظّفوا جهودهم في إفريقيا؟ لا شكّ أنه كان من المستحيل عليهم أن يكافحوا في بلادهم. وحده أنتينور فيرمان تابع حياة مهنية في دوائر السلطة في هايتي، موطنه الأصلي. لقد اصطدم الرجال الأربعة بعنصرية زمنهم، وواجهوا النظريات العلمية الزائفة التي راجت في فرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة. هذه الطروحات التي ادّعت صفة العلمية والتي قدّمها علماء بيض كان لها أسوأ التداعيات.

إدوارد و. بليدن، الأضعف بين الأربعة، والأكثر طموحاً أيضاً مع

أنتينور فيرمان، لم ينج من أثر هذه النظريات المسيئة. فغرق في تناقضات يصعب تجاوزها، وخلط بين عطشه للسلطة، وكبريائه كزنجي، وحقده على الخلاسيين، وشغفه بالتاريخ، وعبقريته في الكتابة وآماله لإفريقيا.

أنتينور فيرمان، الأكثر تماسكاً في المجموعة، والأكثر ثقافة أيضاً، ترك آثاراً مضيئة في إطار الأفريقانية. هو من فتح الطريق التي يتعيّن اتباعها لأجيال الزنوج التي جاءت بعده. لفت إلى أنه يجب أوّلاً بناء بلده، بناء الكاريبي قبل التفكير في السفر، في المنفى، في تسليم النفس لإفريقيا كمن يسلّمها لدين جديد. إنّه مثل يمكن احتذاؤه اليوم، في اللحظة التي يُسمع فيها دويّ السلاح، وصراخ الرجال والنساء الجرحى، يموتون في ليبيريا، أو في سيراليون، أو في إثيوبيا، أو في هايتي...

بينيتو *سيلفان*، الخارج من الظل، أرسى علاقة بين بلده هايتي وإثيوبيا. نحيي كرمه، ومثابرته ـ أربع رحلات إلى الحبشة ـ وشجاعته. هو أيضاً أنار الطريق مثل أنتينور فيرمان، لكن الدرب التي فتحها هي على صعيد العلاقات الكاريبية ـ الإفريقية، في جوّ من التبادل والاحترام[1]. هنري سيلفستر وليامس، معجب كبير بالامبراطورية البريطانية، بدأ بالترويج لسياسة استعمارية وعينه على النظام في ترينداد. لكن فشله أمام سلطة لندن، أطلق عنده نوعاً من التعويض وجّهه نحو إفريقيا. فكافح من أجل جنوب إفريقيا، بتأثير من امرأة هي السيدة إدوين إ. كنلوش. وعندما وجد نفسه محاطاً بسيلفان وفيرمان، نظّم في لندن أوّل مؤتمر أفريقاني (23 ـ 25/ 7/ 1900) ناقلاً إلى الواقع حركة كانت حتى ذلك الوقت محصورة في الخيال. ومنذ ذلك التاريخ، رُسمت طريق ملكية اتبعها النخبة، والقادة السياسيون، والأشخاص الذين كرّسوا أنفسهم لعظمة إفريقيا.

ماذا عن هذه النشأة الكاريبية ـ الأمريكية؟ الآباء المؤسسون

(1) وهذا ما أشار إليه لاحقاً فرانتز فانون في مقاله الشهير، «الأنتيليون والأفارقة»، الذي نشرته صحيفة «المجاهد» الجزائرية، واستعيد في *من أجل الثورة الإفريقية (كتابات سياسية)*، باريس، ماسبيرو، 1964.

للأفريقانية، وكانوا بمعظمهم كاريبيين، وبرازيليين وأمريكيين شماليين، كانوا أبناء عصرهم. المشاكل التي طرحوها قد تبدو أحياناً خيالية ومثالية، وحتّى غير منطقية، ومشاريعهم طوباوية، غير قابلة للتحقيق. ولكن من خلال رؤيتهم للعالم، بزغت الحركة الأفريقانية التي حملت، ولا تزال تحمل، آمالاً كثيرة. ربّما دراسة كهذه تفيد للإحاطة بالمفاهيم والمشاكل المعاصرة، ولطرح الأسئلة، كلّ الأسئلة، طرحاً أفضل.

هل كان إدوارد بليدن محقاً في السفر إلى ليبيريا والعمل من أجل تطوير سلطة يديرها زنوج غير إفريقين؟ ألم يستنزف جسده وروحه في هذه المغامرة الإفريقية، بخدمة مصالح الجمعية الأمريكية للاستيطان، ورفضه للملوّنين، وتحكّمه بالسكّان الأصليين، داعماً للاستعمار، حضارة إفريقيا؟

كل هذه التساؤلات تطرح نفسها بعد النتيجة الفاشلة التي نلاحظها مع سلسلة الانفجارات التي تدور في بعض بلدان القارة الإفريقية منذ سنة 1980 (ليبيريا، سيراليون، إثيوبيا . . .). هل جنّد هنري سيلفستر وليامس نفسه في جنوب إفريقيا، في طريق مسدود، بدل أن يكافح في ترينداد، وفي جامايكا إلى جانب إخوانه؟ أعتقد أنّه يحقّق في إفريقيا أحلامه، وطموحاته الاجتماعية، وآماله السياسية. لكنه أخطأ كثيراً. بعده اتبع آخرون الطريق المرسومة: ماركوس غارفي، الذي كان مثل بليدن مع التقسيم العرقي. وجورج بادمور المتناقض هو أيضاً.

خلال هذه الدراسة كشفنا عن أقطاب لم يشتهروا كثيراً: مارتن ر. ديليني، فريدريك دوغلاس، د. فيتاليان، هـ. ـ أدولف لارا وأورونو لارا (الغوادلوب)، ألكسندر والترز، جيمس ت. هولي، ج. ألبرت ثورن (البربادوس)، والإفريقي صموئيل أجايي كراوذر (1806 ـ 1892). البعض منهم تركوا آثاراً لا تمحى: الرئيس جوزف جنكنز روبرتس، آرثر باركلي، وأصله من الباربادوس، هانيبال برايس، مؤلّف كتاب «تأهيل العرق الأسود من قبل جمهورية هايتي»[1]، ج. دنيس هاريس، جيمس أفريكانوس

---

(1) بورتو برانس، 1900.

هورتون، جورج ألكسندر ماك غواير دانتيغوا، هنري هايلاند غارنت (الولايات المتحدة)، وف.إ.م. هركيولز، من ترينداد. ولا يجب الاستهانة بمشاركتهم في الهيكلية الأفريقانية. هم أيضاً يظهرون بتمزّقاتهم، وتعرّجاتهم، وتقلّباتهم ـ مثل ديليني، الذي استدار نحو إفريقيا، بعدما تخلّى عن مشروع امبراطورية زنجية في الكاريبي ـ ونقاط ضعفهم.

هذا الملف يسمح بالاستنتاج أنّه في بداية القرن العشرين تحدّد الإطار، وطُرحت المشكلات: الأفريقانية في واجهة المسرح. مؤتمرات، اجتماعات، محاضرات، وجمعيات توالت حتى الحرب العالمية الثانية. أخيراً تحقّق الحلم. وصار بإمكان و.إ.ب. دوبوا وماروس غارفي أن يتحاورا حول هذه المسألة، كلّ منهما طارحاً حججه وتوجّهاته. يجب أن نبقي في ذاكرتنا أسماء هؤلاء الأسلاف الأفريقانيين الذين عرفوا قبلهما أن يحقّقوا أحلامهم وطموحاتهم كرجال أحرار.

بإمكاننا أن نتعمّق في تحليلنا ونميّز بشكل أوضح الذين يطوّرون الحركة من الذين لا علاقة لهم بها. لكن بدا لنا أنّه من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار كلّ العناصر، وكلّ الاتجاهات التي يقدّمها التاريخ. ليس سهلاً أن نقول ما الذي كان الأكثر حسماً في تشكّل أول المراكز الأفريقانية. ليس سهلاً أن نحدّد من الذين أثّروا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على أبناء عرقهم. في أصل الحركة، نجد رجالاً ونساء عاشوا تجربة مشتركة وفريدة ومأسوية: السفر على متن السفن الزنّاجة، مكبّلين، أسرى أو أحراراً. خلال هذه الرحلات عبر الأطلسي نشأت بذور الأفريقانية قبل أن تصاغ خطابات المدافعين السود اللامعة على الأرض الصلبة.

الأفريقانية ظهرت ببطء من أعماق التاريخ. لقد تشكّلت في عنابر المراكب الزنّاجة، وفي مزارع النظام الرقّي، وفي مقاومة الزنوج في البر وفي البحر. وحملتها إلى القرن التاسع عشر مجموعات أشخاص من الكاريبي، ومن البرازيل، ومن الولايات المتحدة وأفارقة انتزعوا حق

الحلم. وليس المطلوب منّا أن نحاكمهم وأن نلومهم، بل ببساطة أن نفهمهم وألاّ ننساهم أبداً.

إضافة:

الذكرى المئوية لمؤتمر لندن (1900 ـ 2000) تعطينا الفرصة للتفكير في معنى الأفريقانية، في بداية الألفية الثالثة. بالنسبة إلى الكاريبيين وأخوتهم السود في الولايات المتحدة، كان إنشاء الحركة الأفريقانية، في القرن العشرين، مرحلة إدراك للمشاكل والصعاب التي أوجدتها تجارة العبيد، ونظام الرق، والاستعمار وعنصرية البيض (الأوروبيين والأمريكيين الشماليين). لقد بحث القادة الكاريبيون والأمريكيون (الولايات المتحدة، البرازيل) عن حلول لحماية جماعاتهم. فوضعوا مشاريع للسفر، وتصوّروا خططاً للنجاة، واللجوء، والهجرة إلى بلاد أخرى، إلى الكاريبي أو إلى إفريقيا، حيث لا يواجهون تعذيب جلاّديهم والإعدامات العسفية. هذه المرحلة الأولى انتهت سنة 1900، وتبعتها مراحل أخرى تتعلّق بالغزوات الاستعمارية ونتائج الحربين العالميتين.

بعد قرن من مؤتمر لندن، تبخّرت الأحلام وتغيّر العالم. كيف نرى الأفريقانية؟

بعض الطلاب الجامعيين الأفارقة الذين قرأوا كلّ أعمال س.أ. ديوب ابتكروا مفهوم المركزية الإفريقية. هذا المفهوم الذي ترافقه مجموعة مصطلحات: *الشتات الإفريقي*، *الإفريقي ـ الأمريكي*، *الإفريقي ـ البرازيلي* وحتى *إفريقي الكاريبي*. والطروحات المركزية الإفريقية تركّز على أهمّية إفريقيا في المسائل السوداء. المركزية الإفريقية والأفريقانية تتكاملان وتتحاوران. ولكن ماذا عنهما في التاريخ؟ لقد قلت أكثر من مرّة وبرهنت أنّ الكاريبيين وأخوتهم في الأمريكتين لا ينتمون إلى الشتات الإفريقي[1].

(1) انظر، *جزر الكاريبي في طور البناء: المكان، الاستعمار، والمقاومة*، مرجع مذكور سابقاً، منشورات سيركام، 1992.

هاتان الكلمتان تجرّان إمبريالية ثقافية وسياسية نرفض أن نكفلها. في هذا المعنى، تبدو الأفريقانية والمركزية الإفريقية غير مقبولتين. كيف نتصوّر مثلاً أنّنا نستطيع أن نطلب من المرابطين الأفارقة الكثر الذين يعيشون في الغوادلوب، وغويانا والمارتينيك أن يشاركوا في تطوّرنا، وأن يساهموا في المقاومة المناهضة للاستعمار ضد الحكومات الفرنسية المتتالية كي نتحرّر من وصاية فرنسا العسكرية؟ كيف لا نذكّرهم بالخدمات التي أدّاها لإفريقيا رجال مثل الغوادلوبين هنري جان ـ لويس باجيو وريمي نانسوتا، وجول وسيلفير ألكاندر، والغويانيين ڤنسان غانتي وفيليكس إبويه، والمارتينيكيين إيميه سيزير وفرانتز غانون[1]؟ كيف نثير اهتمامهم بمشاكل هويتنا والبناء السياسي؟ وأخيراً، كيف ندفعهم لئلاّ يستغلّوا سذاجة شعوبنا التي أنهكتها قرون من الاستعمار، والرق، وتجارة العبيد... كيف نمنع هؤلاء الندماء من الاستفادة من نظام استعماري ليستقروا ويستغلّوا وضعاً أقل ما يقال فيه إنّه كارثة! هذه الأسئلة نطرحها على إفريقيا والأفارقة.

كلّ مشاكل الكاريبيين تتّجه نحو بناء مناطق الكاريبي التي هي على علاقة بالجاليات السوداء في البرازيل، وفي الولايات المتحدة/ كندا. نحن نشعر بأنّه لا يمكن فصلنا عن إخوتنا الإفريقيين والآسيويين الذين ساهموا، هم أيضاً، في ظهور عالمنا الكاريبي.

نحن نبحث عن عالمنا الذي بدأ وجوده في الشهر السادس من سنة 1994 مع ولادة جمعية الدول الكاريبية. نحن لا نشكّل تابعاً لإفريقيا ولا شتاتاً، كما يوحي بعض «الأفريقيين ـ الأمريكيين»[2]. الكاريبيون هم ورثة تراث تاريخي يجمع بين أمريكا السكّان الأصليين، وإفريقيا، وآسيا، وأوروبا والمحيط الهادىء.

الغوادلوب، لومول، 14/ 2/ 2000

---

(1) انظر، *من النسيان إلى التاريخ، المكان والهوية الكاريبيان*، منشورات ميزونوف ولاروز، 1998.

(2) ننصح اخوتي السود في الولايات المتحدة بقراءة متمعنة لدراسات زميلي أورلاندو باترسون، أستاذ في جامعة هارفرد، خصوصاً *محنة الاندماج وشعائر الدم*.

خاتمة

الأفريقانية: موت وتجلّ

التحليل التاريخي للأفريقانية في المدى الطويل، منذ ولادتها في القرن التاسع عشر، يتمحور حول ستّ مراحل. وسيسمح لنا فحص سريع لكلّ من هذه المراحل بفهم أفضل للتوجّهات الجديدة التي تبرز في بداية القرن الحادي والعشرين، في إفريقيا كما في الكاريبي. أصبح من الملحّ أن نحدّد وجهات البحث، وأن نطرح تساؤلات جديدة، وأن ننتقد الطرق القديمة، وأن نذهب أعمق في كفاحاتنا.

خلال المرحلة الأولى، نشهد تفتح الحلم. الزنوج العبيد في الكاريبي يبلورون إفريقيا في وعيهم ويحملونها مثل منارة في ليل عذاباتهم. هذه المرحلة انتهت مع مؤتمر لندن سنة 1900.

هذه الأفريقانية تظهر كإيديولوجية كفاح وضعت لخدمة المناضلين في صراعهم ضد القوى الاستعمارية والإمبريالية. كما أنّ بعضهم حمّلها اعتبارات عرقية، مثل محرّري تقرير مؤتمر 1900:

«في مدينة من العالم الحديث، في هذه السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، انعقد مؤتمر ضمّ رجالاً ونساء من الدم الإفريقي، للتداول بشأن وضع الأعراق البشرية الداكنة اليوم وتطلّعاتها. إنّ مشكلة القرن العشرين ستكون مسألة اللون، وإلى أي مدى ستكون فوارق العرق، التي تظهر في لون البشرة ونوع الشعر، سبباً لمنع أكثر من نصف سكّان العالم

من حقّهم في المشاركة في فرص الحضارة الحديثة وامتيازاتها»[1].

ثمّ هناك مرحلة وسيطة تلي الأولى، من سنة 1900 حتى حرب 1914 ـ 1919.

من 1919 حتى 1945 توالت المؤتمرات الأفريقانية الخمسة. ووضع المناضلون ضد الاستعمار برامجهم، ومطالبهم لجمعية الأمم، ومقرّراتهم، وتصاريحهم وبياناتهم.

المرحلة الخامسة افتتحت من 1945 إلى 1962. إنها المرحلة الوسيطة الثانية، زمن «الأفريقانية تعمل»، حول كوامي نكروماه والمؤتمر الإفريقي ـ الآسيوي في باندونغ (18 ـ 24/ 4/ 1955).

انطلاقاً من سنة 1963، مع إنشاء منظّمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا (الشهرالخامس من 1963)، بدأت مرحلة إفريقية بنوع خاص.

حصلت عندئذٍ مواجهة بين ثلاثة مفاهيم للأفريقانية، إذ كان هناك من جهة المعادون للإمبريالية: أنصار «الطريق الدبلوماسية» وأنصار نشاط ثوري لدى الجماهير والبلدان التقدّمية؛ وفي المقابل، الوصوليون، الرجعيون، المتملّقون، المتواطئون مع الإمبرياليين.

في وقت مبكر جدّاً، في الواقع منذ 1962، المناضلون الثوريون في «اتحاد شعوب الكاميرون» انتقدوا منظّمة الوحدة الإفريقية. وفي الشهر 11 من سنة 1978، تشكّلت اللجنة الثورية لهذا الاتحاد على أساس دراسة من 562 صفحة، هي «الأفريقانية والاستعمارية الجديدة» بقلم إيلنغا مبويينغا[2]، لإثبات فشل منظمة الوحدة الإفريقية، وأهمّيتها ومدلولها بالنسبة إلى إفريقيا[3].

لقد رأوا في منظمة الوحدة الإفريقية «مؤسّسة دفعت المسؤولين

---

(1) تقرير *المؤتمر الأفريقاني*، لندن، 1900.

(2) منشورات اتحاد شعوب الكاميرون، الطبعة الثانية، 1979.

(3) انظر خصوصاً ص ص 459 ـ 553.

الأفارقة إلى أن يبعدوا ليس فقط إلى المحلّ الثاني، بل إلى البعيد، البعيد جداً، إلى أجل غير موجود، المشكلة الأساسية في إفريقيا، مشكلة الصراع ضد الاستعمارية الجديدة. . . ظهرت منظمة الوحدة الإفريقية كنقابة لزعماء الدول، كأداة للبورجوازيات الاستعمارية الإفريقية الجديدة، في حملتها ضد الثورة في القارة[1].

هؤلاء المناضلون الأفارقة يدعون إلى «أفريقانية ثورية» ويحاولون أن يظهروا أنّ لهذه السياسة أسساً موضوعية وأنّها ليست وهماً[2]. وهم يختلفون عن الذين دعوا، نحو 1970 ـ 1975، إلى «أفريقانية ثورية غير محدّدة، تجمع بلداناً مختلفة ثورية ومعادية للإمبريالية مثل غينيا ـ كوناكري، نيجيريا، الجزائر، مصر السادات، الكونغو ـ برازافيل، غينيا الاستوائية، إلخ»[3]. أفريقانيتهم الثورية تعني «إفريقانية البروليتاريا الإفريقية» وتفترض «مقاطعة للسوق الرأسمالية العالمية». وهم يقولون من جهة ثانية «إذا كانت قاعدة الهيمنة الإمبريالية على إفريقيا في الاقتصاد، فإنّ تدميرها سيتحقّق بشكل أساسي بمعركة سياسية». وننهي بهذه العبارة لعضو في اللجنة الثورية في اتحاد شعوب الكاميرون: «من الواضح اليوم أنّ الثورة الإفريقية كما كان يمكن تعريفها قبل سقوط الرئيس نكروما، باتجاهاتها الثلاث: دول مستقلة تقدّمية، وحركات تكافح ضد الاستعمارية القديمة، وحركات تكافح ضد الأنظمة الاستعمارية الجديدة، لم تعد موجودة كتيار وحيد متضامن. مهما بلغت الديماغوجية التي يعتمدها البعض في هذا الشأن، أصبح من الثابت والأكيد أنّه لم يعد بالإمكان خداع الشعوب الإفريقية إلى ما لا نهاية. . .»[4].

---

(1) المرجع ذاته، ص 418.
(2) المرجع ذاته، ص ص 386 ـ 414.
(3) المرجع ذاته، ص 386.
(4) وونغلي ماساغا، *حول بعض مشاكل الساعة، رسالة إلى مناضلي الحزب وإلى الوطنيين الكاميرونيين*، في نشرة المقاومة، عدد خاص، الشهر 10 من 1971، ص 15.

مشاكل بناء الوحدة الإفريقة تطرح أمام الأفارقة الذين يتعيّن عليهم الاضطلاع بمسؤولية تاريخهم. الأفريقانية، في النهاية، هي مصطلح يجب تجديده. إمّا أن نحتفظ به بعد تعريف جديد واعتماد صيغة «الأفريقانية الثورية» مثلاً، إمّا أن نتخلّى عنه. هناك أصوات كثيرة ترتفع لتشجب سياسة *الديماغوجية الأفريقانية*:

«السقوط الذي ينتج عن المواربات وسياسة الإهمال والخيانة، لدى بورجوازية إفريقية استعمارية جديدة تعجز أمام كلّ مشكلة جدّية، تعجز بسبب التواطؤ مع مراكز المال العالمية»[1].

بالنسبة إلى المناضلين الثوريين، «سياسياً، منظّمة الوحدة الإفريقية ماتت وانتهت»[2]. برأيهم، لا تستطيع هذه المنظّمة تحقيق وحدة سياسية، ليس لديها الكفاءة لتحقيقها وهي لم تقم بأي خطوة تجاه هذا التوحيد منذ وجودها أي منذ خمس عشرة سنة[3].

يمكننا أيضاً أن نتساءل عن مدلول مصطلح الأفريقانية أو الوحدة الإفرقية بمقارنته مع تيارات أخرى: الوحدة العربية ـ أو الوحدة الإسلامية ـ، والوحدة السلافية، والوحدة الأمريكية، والوحدة الجرمانية.

كلّ هذه الإيديولوجيات غرقت في محيطات القرن العشرين السياسية؛ الأخيرة بينها، أي الوحدة الجرمانية، لم تنجُ بعد الحرب العالمية الثانية وانهيار النازية. الوحدة الأمريكية كذلك لم تصمد، بعد استعمالها في بداية القرن العشرين كرافعة دبلوماسية قويّة تهدف إلى تجميع البلاد الأخرى في القارة حول الجار الأمريكي الشمالي القوي[4]. كل الحركات الأخرى ولدت في بلدان نامية، غير مستقلّة بقرارها، وغالباً محرومة من هيكليات

---

(1) المرجع ذاته، ص 515.
(2) المرجع ذاته، ص 541.
(3) المرجع ذاته، ص 533.
(4) أقيمت خمسة مؤتمرات حول الوحدة الأمريكية بين 1889 و 1938.

سيادة سياسية ومن أجهزة دولة حقيقية[1].

في نهاية هذا التحليل السريع وتحديده في الزمن، نصل إلى النتيجة المنطقية التالية: الأفارقة يبنون إفريقيا، والكاريبيون يبنون الكاريبي، مع الأخذ بعين الاعتبار للأبعاد التاريخية للعلاقات بين الكاريبي وإفريقيا، وبين الكاريبي وأوروبا، وبين الكاريبي وآسيا. علاقات تكون فيها الأولوية طبعاً للجذور الإفريقية، ولكن مع إدراك ومعرفة الحدود *التاريخية* للبعد الإفريقي، إذا وضعنا أنفسنا من جهة الكاريبيين.

في الواقع، على كل شعب أن يشغل حيّزه في التاريخ. بهذا المعنى تكون الرؤية أوروبية المركز مؤذية بقدر ما هي الرؤية إفريقية المركز بالنسبة إلينا نحن الكاريبيين. وعلينا أن نتخلّص من كلّ الغمامات التي تحجب عنا أجزاء كبيرة من الواقع. يجب أن نقول بكلّ وضوح، كما يؤكّد ديريك والكوت، إننا نحن الكاريبيين، لسنا أفارقة، ولا أفارقة ـ أمريكيين، ولسنا أيضاً أفراداً من مجموعة «شتات إفريقي». إن شاعر سانتا لوسيا يستنكر نشاط «رعاة إعادة إحياء الروح الإفريقية» الذين يتمسّكون بهوية إفريقية للشعوب الكاريبية. ويشجب والكوت العرض الذي يقدّمونه:

«إذاً نحن الآن ندخل مرحلة إفريقية بمنحوتاتنا وقصائدنا وأزيائنا الإفريقية ولم تعد أعمالنا الفنية آنية مقدّسة توضع على المذابح بل منتوجات تتراصف على الرفوف للسوّاح. الظلمة الرومانسية التي يحتفلون بها هي خدعة أخرى، يقوم بها هذه المرّة المثقّفون. والنتيجة لا تكون شيئاً خاصاً بنا بل عرضاً آخر لفرقة مستنزجة»[2].

لا يلمس شاعرنا سوى معارضة شديدة، ورفض مبطّن لكلّ مكوّناته الموروثة من التاريخ. وتجدر الإشارة أيضاً إلى مساوىء نظريات القرن التاسع عشر العنصرية:

---

(1) إيمانويل غايس، *الحركة الأفريقانية*، 1974، ص ص 430 ـ 431.

(2) في: *ما يقوله الشفق، محاولات*، منشورات فابر وفابر، 1998، ص 8.

«بالنسبة إلى النقاء إذاً، إلى الأفريقية ـ الآرية الأصيلة، وحده الأسود غير الملوّث مقبول، أمّا الهندي الغريب فليس سوى ملوّن، خائن لصفاء العرق. لقد بدأ المتطرّفون، أصحاب مبدأ النقاء، يبثون هذه الأفكار، وهكذا لا يعود مثلاً الكاتب «مختلط العرق» أكثر من مجرّد ليبرالي»[1].

أيّ عودة إلى إفريقيا ما قبل تجارة العبيد لم تعد ممكنة «لا جسدياً، ولا نفسياً». ماذا يبقى للعمل إذاً؟ الاكتفاء بلذّات تقليد مطمئن: كم من الغوادلوبين والمارتينيكيين، الذين كانوا البارحة يعتبرون أنفسهم سلتيين بالكامل، صاروا اليوم أفارقة يدورون في فلك فرنسا، وعند أطراف أوروبا...!

إنّ جهل التاريخ يفسّر كثرة المشعوذين، خصوصاً في الولايات المتحدة وفي إفريقيا، الذين يحاولون أن يحيطوا أنفسهم «بمتاحف افتراضية»، ويفتحون متاجر لجمهور لا يعلم. ولهذه الغاية يستعملون أسماء بليدن، وسيلفستر وليامس، وغارفي، و و.إ.ب. دوبوا ليغذّوا فكراً مشوّشاً ولاعقلانياً. كم من هؤلاء الدجّالين يتخذون أسماء عجيبة ويدورون في الغوادلوب والمارتينيك بحثاً عن أنصار لهم. خلف سور الأفريقانية تسرح أعداد من الشخصيات التائهة، التي تحاول بأيّ ثمن الطعن بشهادات التاريخ وترمي أنفسها في أحضان إفريقيا ـ الأمم بحثاً عن الاطمئنان. ويمكن تفسير هذا التصرّف بأنّه هروب من المسؤوليات، ومن لعب الدور التاريخي الصحيح.

انتهى زمن الأحلام، والأوهام، والأساطير، والهذيان، والصراخ، والتعنيف... يجب الآن مواجهة حقائق التاريخ، وتحمّل أعباء الهويات المتعدّدة: غوادلوبي وكاريبي، مارتينيكي وكاريبي، بوني، غوياني وكاريبي، ساراماكا، غوياني وكاريبي... لكلّ منهم كفاحاته السياسية والاقتصادية، ومعاركه الثقافية، وعلى كلّ منهم أن يكنس أمام باب منزله أوّلاً، وأن

(1) المرجع ذاته، «وحي التاريخ»، ص 56.

ينظّم، ويطوّر مجتمعاً ديمقراطياً. بتجنّب التقليد، والكسل المريح والمحاولات غير المجدية... يجب أن نبتكر النماذج، لا أن نقلّدها، والتجربة المعاشة لا تقوم على ذاكرة مبتورة، مسحوقة، مدمّرة، بل على التاريخ. التاريخ، سيرورة تتجدّد من دون توقّف في *محترفات العمل* في مجتمعاتنا الكاريبية التي هي في طور البناء.

تسلسل الأحداث:

- 1791 ـ 1807 ـ شركة سيراليون.
- 1807 ـ 1818 ـ ألكسندر بيتيون رئيساً لهايتي.
- 1808 ـ سيراليون تصبح مستعمرة للتاج البريطاني.
- 1817 ـ إنشاء الجمعية الأمريكية للاستيطان.
- 1818 ـ 1843 ـ جان ـ بيار بوايه رئيساً لهايتي.
- 1821 ـ 1841 ـ إدارة ليبريا من قبل حكام ينتمون إلى الجمعية الأمريكية للاستيطان.
- 1826 ـ إنشاء ليبيريا هيرالد.
- 1833 ـ إلغاء الرق في المستعمرات البريطانية.
- 1833 (الشهر السابع) ـ إليوت كريسون يطلق الجمعية البريطانية الإفريقية للاستيطان مع دوق الساسكس، رئيساً. مستوطن بوسطن، برعاية جمعية الشبان بلاستيطان.
- 1841 ـ 1847 ـ جوزف جنكنز روبرتس، حاكماً لليبيريا.
- 1847 ـ استقلال ليبيريا.
- 1848 ـ 1856 ـ ج.ج. روبرتس، رئيساً لليبيريا.
- 1848 ـ إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية.

ـ 1850 ـ وصول بليدن إلى إفريقيا، إلى ليبيريا.

ـ 1856 ـ «حرب القبائل» الثانية في ليبيريا.

ـ 1859 ـ 1902 ـ فابر نيكولاس جيفرار رئيساً لهايتي.

ـ 1859 ـ مارتن ر. ديليني في إفريقيا (ليبيريا، لاغوس، أبيوكوتا).

ـ 1861 ـ 1865 ـ الحرب الانفصالية في الولايات المتحدة وإلغاء الرق في 1863 ـ 1865.

ـ1861 ـ جيمس ت. هولي يهاجر إلى هايتي.

ـ 1868 ـ 1878 ـ حرب العشر سنوات في كوبا.

ـ 1871 ـ 1872 ـ إدوارد جيمس روي رئيساً لليبيريا.

ـ 1872 ـ 1878 ـ ج.ج. روبرتس رئيساً لليبيريا.

ـ1875 ـ «حرب القبائل» الثالثة في ليبيريا.

ـ 1878 ـ 1883 ـ أنطوني وليام غاردينر رئيساً لليبيريا.

ـ 1883 ـ 1884 ـ ألفرد ف. راسل رئيساً لليبيريا.

ـ 1884 ـ 1892 ـ هيلاري ريتشارد جونسون رئيساً لليبيريا.

ـ 1885 ـ إصدار كتاب أ. فيرمان، «عن مساواة الأعراق البشرية»، في باريس.

ـ 1889 ـ 1913 ـ مينيليك الثاني امبراطوراً لإثيوبيا.

ـ 1889 ـ 1896 ـ فلورفيل إيبوليت رئيساً لهايتي.

ـ 1892 ـ 1896 ـ جوزف جيمس تشيزمان رئيساً لليبيريا.

ـ 1896 ـ معركة أدووا (إثيوبيا).

ـ 1896 ـ 1900 ـ وليام ديفيد كولمان رئيساً لليبيريا.

ـ 1896 ـ 1902 ـ تيريزياس سيمون سام رئيساً لهايتي.

ـ 1897 ـ إنشاء الجمعية الأفريقانية في لندن.

ـ 1898 ـ حرب إسبانيا/ الولايات المتحدة.

ـ 1899 ـ الشهر 11، ظهور مصطلح الأفريقانية (بان ـ أفريكان) (رسالة من وليامس إلى أحد المراسلين).

ـ 1900 ـ المؤتمر الأفريقاني في لندن. إصدار كتاب هانيبال برايس، «إعادة تأهيل العرق الأسود».

ـ 1900 ـ 1904 ـ غارستون ويلموت جيبسون رئيساً لليبيريا.

ـ 1901 ـ إصدار كتاب ب. سيلفان، «عن مصير السكّان الأصليين في مستعمرات الاستغلال».

ـ 1904 ـ 1911 ـ آثر باركلي رئيساً لليبيريا.

ـ 1961 ـ استقلال سيراليون.

الفهرس

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر